

المركز القومي للترجمة

هلال وراء الغيوم

الولايات المتحدة والعالم المسلم ١٧٧٦ - ١٨١٥

تراث حروب البربر

المشروع القومي للترجمة



ترجمة وتقديم: أسامة الغزولي

تأليف: روبرت جي أليسون

1616

هلال وراء الغيوم

الولايات المتحدة والعالم المسلم (١٧٧٦ - ١٨١٤)

(تراث حروب البربر)

المركز القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

– العدد: 1616

– هلال وراء الغيوم : الولايات المتحدة والعالم المسلم (١٧٧٦ – ١٨١٥)

– روبرت جى أليسون

– أسامة الغزولى

– الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

The Crescent Obscured

By: Robert J. Allison

Copyright © 1995 by Robert J. Allison

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo.

E-mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

هلال وراء الغيوم

الولايات المتحدة والعالم المسلم

(١٧٧٦ - ١٨١٥)

« تراث حروب البربر »

تأليف: روبرت جى آيسون

ترجمة وتقديم: أسامة الغزولى



2010

<p>بطاقة الفهرسة إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية</p>	
<p>آيسون، روبرت جى هلال وراء الغيوم: الولايات المتحدة والعالم المسلم (١٧٧٦-١٨١٥) (تراث حروب البربر) / تأليف: روبرت جى آيسون؛ ترجمة وتقديم: أسامة الغزولى ط ١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠ ٣٣٦ ص؛ ٢٤ سم ١ - الاستعمار الأمريكى . (أ) الغزولى ، أسامة (مترجم ومقدم) (ب) العنوان ٣٢٥ ، ٣٧٣</p>	<p>رقم الإيداع ٢٠١٠ / ٩٥٥٦ الترقيم الدولى 9 - 067 - 704 - 977 - 978 I.S.B.N. طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية</p>

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

7 تقديم المترجم
33 تنويه
37 مقدمة المؤلف
45 الفصل الأول: السياسة الأمريكية تجاه العالم المسلم
81 الفصل الثاني: الولايات المتحدة وطيف الإسلام
109 الفصل الثالث: نظرة إلى السراى: الأمريكيون والجنس والعالم المسلم ...
137 الفصل الرابع: الرق الأمريكى والعالم المسلم
159 الفصل الخامس: الأسرى الأمريكيون فى العالم المسلم
191 الفصل السادس: العالم المسلم والإحسان الأمريكى
217 الفصل السابع: القناصل الأمريكيون فى العالم المسلم
253 الفصل الثامن: تذكر الحرب الطرابلسية
277 الفصل التاسع: جيمس رايلى، عودة الأسير
297 الهوامش

تقديم المترجم

مائتا عام من العتمة

عولجت الحروب البحرية التي دارت بين جاراتنا دول الشمال الإفريقي الأربع وبين الولايات المتحدة الأمريكية، في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر وحتى منتصف العقد الثاني من القرن التاسع عشر، في عشرات الكتب والرسائل الجامعية لكننا اخترنا أن نقارن بين الكتاب الذي نقدم له هنا، وهو "هلال وراء الغيوم" الذي ألفه روبرت أليسون، رئيس قسم التاريخ بجامعة سافوك الأمريكية، وبين كتاب آخر حول الموضوع ذاته، وهو كتاب "القوة والعقيدة والوهم" تأليف مايكل أورين الذي صدر بعد كتاب أليسون باثني عشر عاما وترجم إلى العربية في عام ٢٠٠٩، بخاصة وأنهما يعالجان قضية واحدة من وجهتي نظر مختلفة، وهي قضية الصراعات العسكرية والسياسية بين الولايات المتحدة وجاراتنا في الشمال الإفريقي، وإن خصص أليسون للقضية كتابه كله في حين اعتمد عليها أورين منطلقاً لبحثه الأوسع في العلاقات العربية الأمريكية.

في كتاب "القوة والعقيدة والوهم" يكرس المؤلف مايكل أورين جهوده أكاديمي وكاتب لخدمة المشروع الصهيوني. ولا غرو فهو يهودي أمريكي المولد، يقول عن نفسه إنه قرر في نحو العاشرة من عمره أن يصبح صهيونيا. وقد هاجر إلى إسرائيل وخدم في جيشها كضابط احتياط، ثم أصبح أستاذا للتاريخ في الولايات المتحدة التي لم يتخل عن جنسيتها بعد حصوله على الجنسية الإسرائيلية. ولا يستبعد كاتب هذه السطور أن يكون قرار تعيين مايكل أورين سفيراً لإسرائيل في واشنطن في عام ٢٠٠٩ قد تأسس على اعتبارات من بينها أنه ألف كتاب "القوة والعقيدة والوهم"،

بمنطق يناسب المصالح الصهيونية ويناسب رؤيتها لما يحدث بين الولايات المتحدة وبلدان الشرق المسلمة منذ سبتمبر ٢٠٠١ وحتى الآن.

وقد يحسب للدبلوماسية الإسرائيلية أنها تختار سفراءها من هذا النمط من الرجال الذين جسدوا إيمانهم بالعقيدة السياسية للدولة بالخدمة الميدانية ويعمل أكاديمي نختلف معه، اختلافا جوهريا، لكننا نشيد بالجهد المبذول فيه، ويحرص مؤلفه - الذى تغلبت عنده الدوافع السياسية على الميل الأكاديمي إلى الرطانة المتعالية - على تقديم كتاب تسهل قراءته، لسلاسة اللغة وأسلوب العرض كما أشار بحق زاكارى رايد فى ريتشموند - تايمز ديسباتش. وسهولة القراءة أمر مهم لكتاب دعائى كهذا تربو صفحاته على سبعمئة صفحة.

وإعجابنا بجهد المؤلف وبأسلوب عرضه لمادته وبسلاسة لغته لا ينفى، كما أوضحنا، اعتراضا جوهريا على وجهات نظره وعلى الرسالة التى يوجهها لقارئه. يطلق أورين على جاراتنا فى شمال إفريقيا اسم "دول البربر" ويفعل اليسون الشئ ذاته، لكن هذا الأخير يشير إلى أن استخدام كتاب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لهذه التسمية قصد به الربط بين هذه الدول وبين البربرية والوحشية؛ أما استخدام اليسون لها فهو جزء من تقنية اتبعها فى كتابه " هلال وراء الغيوم" بدقة والتزام، وهى تقنية تقتضى أن يستخدم معجم من ينقدهم عند عرضه لأفكارهم، ثم يحلل أسلوبهم وأفكارهم بعد ذلك بقدر أكبر من الحرية فى اختيار المفردات والتراكيب؛ وهو ما قد يوحى للقارئ المتعجل بأن الرجل يكن للمسلمين ولتراثهم ولنبههم العظيم الكراهية النابعة من الجهل وسوء الفهم، التى نجدها عند كثير من كتاب الغرب فى الفترة محل البحث.

وهم القوة

ولا تقف المسألة عند التسميات والألفاظ والتراكيب، فيما يتعلق بالفارق بين معالجة مايكل أورين فى "القوة والعقيدة والوهم" لحروب أمريكا مع دول الشمال الأفريقى وبين معالجة روبرت اليسون لها فى "هلال وراء الغيوم"، ففى حين يستخلص

أورين من الصراعات، التي دارت بين الولايات المتحدة الأمريكية هذه الدول والنتائج المباشرة التي تمخضت عنها الصراعات، درسا مفاده أن "القوة" هي السبيل الوحيد للتعامل مع العرب، وأن التعامل بهذا الشكل من "القوة" العسكرية لم يؤمن مصالح الولايات المتحدة، فقط، بل كان السبب الرئيسى فى ميلادها وتطورها كنظام ديمقراطى فيدرالى تقوده حكومة مركزية فعالة، نجد أن أليسون فى "هلال وراء الغيوم" يفضح وهم "القوة"؛ فالجهود البرية والبحرية التى بذلتها الولايات المتحدة لإسقاط حكومة ليبيا (الحكومة الطرابلسية، كما كانت تعرف آنذاك) لم تحقق أى نجاح عسكرى، بل كانت مجرد مقدمة لقبول إدارة توماس جيفرسون بما ألح الأمريكيون على رفضه لسنوات طويلة، وبما زعموا أنهم يتعالون عليه، من دفع مبالغ مالية ولو "بنس واحد" لحكومات شمال إفريقيا ثمنًا للسلام معها، وكان رائدهم فى ذلك الرفض وفى ادعاء القوة هو الرئيس توماس جيفرسون منذ كان وزيراً للحكومة الأمريكية فى باريس.

فقد سحب تحرك الأسطول الأمريكى باتجاه سواحل طرابلس تشكيل قوة من المرتزقة المصريين والمغاربة والبربر واليونانيين (الذين شكلوا معظم القوة) وانطلقت القوة، بعد أن ضرب الأسطول الأمريكى الحصار على سواحل ليبيا، من صحراء مصر الغربية إلى درنة، بأمل أن يشجع هذا التدخل الشعب الليبى ليثور ضد "الطاغية" فى طرابلس ويسقطوه، فينصب الأمريكيون بدلا منه شقيقه، الذى تحالف معهم والذى وصفه أحد القادة الأمريكيين بأنه "مخنث" لا يصلح لشىء. لكن واشنطن سرعان ما أصدرت أوامرها لفرقة المرتزقة بالانسحاب، لأنها توصلت إلى اتفاق سلام مع حاكم طرابلس "يوسف باشا قرامانلى" أنهى المواجهات البحرية والبرية، ولأن الشعب الذى توقعت أن يؤازر الغزاة، لم يفعل ذلك.

وقد وصف المؤلف روبرت أليسون قائد الحملة البرية الأمريكية وليم إيتون، بأنه تاجر خدم فى الجيش الأمريكى وعين قنصلا لبلاده فى الجزائر، حيث استبدت به الهلاوس وأصابته البارانونيا. ورغم أن أعلى رتبة عسكرية وصل إليها أيام كان فى الجيش كانت رتبة الكولونيل (عقيد)؛ فقد أصبح يُشار إليه باعتباره حاملا لرتبة

الجنرال، منذ قام في صيف ١٨٠٥ بمحاولته العسكرية الفاشلة لإسقاط الحكومة الليبية، بتشجيع من إدارة جيفرسون، وليس بتكليف رسمي. ولهذا السبب فإن الإشارة الواردة في أنشودة البحرية الأمريكية، التي ما زالت ترددها إلى اليوم، إلى أمجاد عسكرية على "شواطئ طرابلس" هي إشارة بلا أساس تاريخي، لأن من قام بها كانوا، كما وصفتهم الصحافة الجمهورية المقربة من الإدارة الأمريكية "عصابة قامت بحملة لصوصية" ولم يكونوا قوة نظامية ولم يخوضوا حربا بل قاموا بعملية محدودة ضد مدينة من مدن ليبيا. وقد وصفتهم الصحافة المقربة من الحكومة بهذه الصفة آنذاك لأن الإدارة التي راهنت عليهم، جزئيا، لم تعد تعتبرهم أكثر من عبء سياسى يضر ولا ينفع، ولأنهم ليسوا من القوات المسلحة الأمريكية ولم يحققوا الهدف السياسى المنشود. أما المعارضة الاتحادية لإدارة جيفرسون فقد تبنت قائد الحملة الفاشلة وحاولت أن تصنع منه بطلا تغطى بأسطورته على أسطورة أخرى اصطنعتها إدارة جيفرسون، عندما صورت الضابط ستيفن ديكاتور بصورة البطل التاريخي، بسبب عمليتين قام بهما.

فقد استولى الليبيون (الطرابلسيون بلغة ذلك العصر) على فخر البحرية الأمريكية الفتية وهي الفرقاطة فيلادلفيا وأوقفوها على شاطئهم ليصلوا بنيران مدفعيتها السفن الحربية الأمريكية التي حاصرت ميناء طرابلس.

ونجح ديكاتور وبعض رجاله فى التسلل إلى فيلادلفيا وإحراقها، ليحرموا الليبيين من الميزة العسكرية التى أمنتها لهم مدفعيتها الحديثة. واعتبرت الإدارة ذلك العمل نصرا مؤزرا. ورد خصوم الإدارة بالإشارة إلى أن ديكاتور أحرق السفينة التى تكلفت مبالغ طائلة من أموال دافعى الضرائب، ولم يحررها، ولم يستردها من الليبيين.

العمل الثانى الذى أنجزه ديكاتور كان أنه علم بأن أخاه جيمس ديكاتور قتل بيد قبطان ليبى، فبحث ديكاتور عن القاتل، وصعد إلى سفينته مع عدد من رجاله ودارت معركة بالأيدى، انتقم فيها ديكاتور لأخيه بقتل قاتله. وهذا هو موضوع أولى اللوحات فى كتاب " هلال وراء الغيوم".

وقد اعتبر أعظم قائد بحرى آنذاك - وربما أعظم قائد بحرى فى التاريخ - وهو أمير البحر البريطانى اللورد نيلسون أن ما فعله ديكاتور كان "أكثر الأعمال جسارة وإقداما فى ذلك العصر"، وأعلن البابا بيوس السابع، كما ذكر أليسون، أن "القائد الأمريكى فعل، بقوة صغيرة وفى زمن وجيز، ما لم تفعله الأمم القوية فى العالم المسيحى، من أجل المسيحية، منذ قرون".

لكن المعارضة الأمريكية فى ذلك العصر كان لها رأى آخر، فالبطل الذى يشيد به اللورد نيلسون والبابا بيوس - لم يطلق سراح أسير أمريكى واحد؛ وقد كان على رأس الأهداف المعلنة، لا الأهداف الحقيقية، للحرب الأمريكية على طرابلس الغرب إطلاق سراح الأسرى من البحارة والمسافرين على السفن الأمريكية التى اختطفها القراصنة الطرابلسيون.

ويقول روبرت أليسون إن "ديكاتور أخذ الهزيمة وحولها إلى نصر" شارحا الآليات التى استخدمها الجانب الأمريكى فى إكساب العاملين اللذين قام بهما ديكاتور دلالات رمزية غطت على إفلاس القوة الأمريكية فى مواجهة الليبيين وعلى انحناء الجمهورية الفتية أمام قوة "ملكية" ليست "مستبدة" فقط بل وشرقية مسلمة أيضا. وتكرر اللجوء إلى المعالجات الرمزية، مرة ثالثة، للتغطية على الاخفاقات المتتالية التى منى بها الأمريكيون فى تلك المواجهات عندما وضعوا شحنة ضخمة من الديناميت على ظهر زورق توجه به طاقمه ليفجروا قلعة حاكم طرابلس يوسف باشا قرامانلى الساحلية. لكن القارب انفجر بمن عليه من البحارة قبل أن يقترب من القلعة بدرجة تكفى لأن يؤثر فيها الانفجار. ويرى روبرت أليسون أن القارب انفجر إما بالخطأ من جانب الأمريكيين أو لأن قناصا ليبيا تمكن من تفجيرهم، مضيفا أن الإدارة الأمريكية تجاهلت الاحتمالين واختارت أن يكون البحارة الأمريكيون هم الذين قرروا أن يفجروا القارب وهم على متنه، مفضلين الموت على الأسر.

وربما اختار أليسون هذا التفسير لأن "تيممة" تفضيل الموت على الأسر تكررت فى كثير من مكونات السردية الأمريكية للأسر، ويتفرع منها تفضيل من يقع فى الأسر

الموت على أن يخضع لمشيئة المسلمين أو - وهو المصير الأسوأ بنظرهم - أن يتحول إلى دينهم.

ولأن بحارة الزورق ماتوا جميعا وتركوا للآخرين حرية تفسير ما جرى فإننا نكتفى بأن نشير إلى أن تفسير انفجار الزورق الأمريكى باعتباره عملا انتحاريا فضل مرتكبوه الموت على الأسر هو تفسير ربما استلهم ما كتبه جون رودجر فى يومياته عن انتصاره على فرقاطة ليبية فى ١٨٠٢ فجر بحارتهم الفرقاطة - كما زعم رودجر - مفضلين الموت على الأسر، وهذا قد يعنى أن صناعة الأساطير الأمريكية كانت تعمل فى اتجاهين لا فى اتجاه واحد.

وبالنهاية اتفق الليبيون والأمريكيون على وقف القتال ومبادلة ثلاثمائة أسير أمريكى بمائة أسير لىبى، وبجزية يدفعها الأمريكيون لليبيين.

وعندما يفكك روبرت أليسون أسطورة "القوة" التى صنعتها إدارة جيفرسون بعد تلك الحرب فهو يكشف عن الكيفية التى عملت بها عقلية رفضت أن ترى الواقع كما هو، وفضلت أن تعيد إنتاجه وفقا لأوهامها، متشبثة بأسطورة مفادها أن أمريكا هى وريثة مهمة "مقدسة" بدأتها مملكتا قشتالة وأراغون المسيحيتان فى غرناطة فى ١٤٩٢، عندما هزمتا آخر الممالك العربية فى إسبانيا، مملكة غرناطة، وطردتا المغاربة وطاردتاهم إلى الساحل الإفريقى. ويشير المؤلف إلى أن الرغبة فى مواصلة الحرب على الإسلام والمسلمين هى التى جعلت الملكين المسيحيين إيزابيلا وفرديناند يمولان رحلة كولومبوس إلى الأرض الجديدة، بحثا عن ذهب ينفقان به على حربهما ضد المسلمين التى انتقلت وراءهم إلى الساحل الإفريقى.

بهذه الإشارة نفهم أن الأمة التى ولدت نتيجة لرحلة كولومبوس إنما ولدت نتيجة رغبة فى مواصلة الحرب على الإسلام والمسلمين، وهذا يلقي ضوءا كاشفا على الطريقة التى فهم بها الأمريكيون هذه الحرب والتى لا يزال كاتب مثل أورين يروج لها.

والحقيقة التى لم يهتم كتاب "هلال وراء الغيوم" بالوقوف أمامها هى أن اكتشاف أمريكا كان له تأثير خطير بالفعل على توازنات القوة بين الدول الأوروبية المسيحية

والدول المسلمة فى الشرق، فالذهب الذى تدفق من العالم الجديد جعل العالم المسلم يترنح و ليس بفعل ضربات عسكرية، فقد كان حكامه العثمانيون جبابة فى الحرب، لكن تدفق الذهب أطلق موجة تضخم عالمى خنقت النظام العثمانى الذى لم يكن قادرا على تحديث عالمه المسلم "المستقر، التقليدى، المكتفى ذاتيا"، كما يقول روجر كراولى فى كتابه "الإمبراطوريات البحرية" الذى نتمنى أن ينقل إلى العربية قريبا.

وقد صارت الأزمة واضحة عندما اضطرت مصر، وهى الولاية العثمانية الوحيدة التى كانت تسك عملتها الذهبية من مواردها المحدودة فى إفريقيا، إلى خفض قيمة عملتها بمقدار ثلاثين بالمائة، فى عام ١٥٦٦، وأصبح الريال الإشبانى سيد العملات فى العالم المسلم، وصارت خيرات هذا العالم يمتصها من يمتلكون الذهب فى أوروبا المسيحية.

وبعد ستين عاما من الحرب الطاحنة بين القوتين الأعظم فى العالم، بين الإمبراطورية العثمانية سيدة العالم المسلم وإمبراطورية الهابسبورغ الإشبانية سيدة العالم المسيحى للسيطرة على البحر الأبيض بين ١٥٢١ و ١٥٨٠، وهى الحرب التى انتهت بأن وقع الجانبان إتفاق سلام اعتبره كثير من المؤرخين نهاية الحرب الصليبية المتأخرة. وبعد هذا الاتفاق انتقل مركز الصراعات الدولية بعيدا عن المتوسط، وأدار كل من الخصمين ظهره للآخر، كما يقول كراولى.

ركز العثمانيون جهودهم الحربية على جبهتى القتال مع الفرس فى الشرق الأوسط ومع الهنغارىين فى الشرق الأوروبى، واتجه الإشبانيون بطموحاتهم التوسعية إلى المحيط الأطلسى بعد أن قهر ملكهم فيليب البرتغال ونقل عرشه إلى لشبونة.

لكن انسحاب الأسود أخلى الساحة للثعالب. فمنذ عام ١٣٠٩ كان الفرسان الهسبتاليون المعروفون باسم فرسان القديس يوحنا قد أقاموا قاعدة لهم فى رودس ينطلقون منها لضرب السفن والمرافئ المسلمة. وفى ١٥٣٠ منح شارل الخامس جزيرة مالطا لهؤلاء الفرسان فأصبح اسمهم "فرسان مالطا" وتوسعوا فى الحرب ضد

دول الشمال الإفريقي التي كانت بحرياتها تعتبر المتوسط بحيرة مسلمة، واستمر الأمر كذلك حتى سطا نابليون على مالطا ونهب كنوز قراصنتها وأنهى وجودهم العسكري.

وظلت سفن المغاربة من مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب مسيطرة على المتوسط تفرض الجزية على كل سفينة أوروبية تجتازه أو تعمل بالتجارة في موانئه، وفرضت بذلك ما يمكن أن نسميه سلاما مغاربيا على المتوسط استسلمت له أوروبا.

ويرجع الغضب المغاربي الذي حرك كثيرا من الهجمات على السفن الأمريكية إلى تباطؤ الولايات المتحدة في توقيع اتفاقات سلام معها. فلما توصلت إلى اتفاق سلام مع مراكش لم تعد هذه الأخيرة مصدر خطر على بحريتها. لكن جيفرسون، وهو يتأهب لحربه ضد المسلمين في تلك البقعة، يتجاهل هذه الحقيقة ويؤسس توقعه - الذي أثبتت الأيام صحته - بأن مراكش لن تحارب إلى جوار شقيقاتها على "النهج المعتدل والصحيح" الذي اتبعه القنصل الأمريكي جيمس سيمبسون وعلى "علو الهمة والنشاط" لدى الكومودور بريبل، متجاهلا جوهر الموقف التعاقدى الذي التزمته مراكش.

ونضيف إلى الاعتبار الذي أشرنا إليه لتونا، كسبب لامتناع مراكش عن محاربة أمريكا، وهو الالتزام المراكشي بمعاهدة السلام سببا أخطر، وهو أن البنية السياسية لمراكش (المملكة المغربية الآن) لم يصبها الضرر الذي لحق بجارتها الكبرى الجزائر، التي حولها أمير البحر العثماني برباروسا، بانقلابه الشهير، إلى دولة لا تحتكم إلى النظام بل تحتكم إلى القوة، وأن الحكم في مراكش كان لسلالة مستقرة وليس لعناصر غريبة ترتزق بالسيف كما جرى في معظم الأقطار الإسلامية في تلك الفترة.

لكن هذا لا يلغى أن تأجيل الولايات المتحدة للحظة اتخاذ قرار بالتفاوض مع دول المغرب العربي كان السبب الأساسي في المواجهات العسكرية بينها وبينهم، وقد اكتسب هذا الأمر شكلا أكثر حدة مع طرابلس الغرب (الجماهيرية الليبية اليوم) لأن يوسف باشا قزامانلي لم يكن سعيدا بنظرة الولايات المتحدة إليه باعتباره أقل شأنًا من داي الجزائر.

وعندما كانت الولايات المتحدة مجرد مستعمرات تابعة للتاج البريطانى كانت تحظى، كما بين أليسون فى "هلال وراء الغيوم" وأورين فى "القوة والعقيدة والوهم" بحماية الأسطول البريطانى. وعندما استقلت كان عليها أن تفعل أمرا من اثنين، إما أن تدفع الجزية لدول الشمال الإفريقى، كما كانت معظم دول أوروبا تفعل، أو أن تنشئ سلاحا بحريا قويا تحمى به سفنها التجارية كما فعلت بريطانيا وفرنسا.

لكن اعتبارات مهمة يناقشها كتاب "هلال وراء الغيوم" أجلت لحظة القرار، فيما كان عدد البحارة والمسافرين الأمريكين الذين يقعون فى قبضة المغاربة يتزايد، والسفن التى يأسرونها تتوالى فى حين استمر الجدل فى أمريكا حول أفضل الطرق وأرخصها لمواجهة هذه المشكلة.

لكننا نحب أن نضيف إلى الأسباب التى ذكرها روبرت أليسون وناقشها بالتفصيل فى "هلال وراء الغيوم" سببا أهم جعل الولايات المتحدة تتمهل طويلا قبل الإقدام على عمل ما بشأن أسراها لدى دول الشمال الإفريقى.

لقد كانت الولايات المتحدة (وتوماس جيفرسون بالتحديد) تنظر إلى البحر المتوسط باعتباره منطقة تحتاج إلى سيد جديد، ولهذا السبب فقد كان جيفرسون يدرس تاريخ وسياسات الإمبراطورية العثمانية التى يريد أن يرثها، ليس كقوة استعمارية تنهب وتمضى لحال سبيلها، بل باعتبار بلاده صاحبة رسالة من شأنها أن "تضع نهاية لألف سنة من السياسة كنتيجة حتمية لطيبة القلب والتكامل العقلى واستقامة الطباع".

جاء هذا الكلام بعد ألف سنة من البعثة الحمدية وهو الأمر الذى يشير وضوح - إلى أسباب عميقة وخطيرة جعلت هذا الاستعمارى الجديد يتمهل غير عابئ بعذابات الأسرى من مواطنيه فى المنافى البعيدة.

رجل فى قلب المأساة

هذه مأساة حقيقية. مئات من الرجال والنساء يقعون فى الأسر وحكومتهم تؤجل إنقاذهم حتى يتفق أقطاب النخبة على أفضل السبل للمواجهة. وفى قلب هذه المأساة التى امتدت من ١٧٦٦ إلى ١٨٠١ يقف توماس جيفرسون، الرجل الذى رفض إنشاء أسطول عندما كان ذلك غير مناسب لأجندته الساسية ووافق على إنشاء أسطول عندما أصبح ذلك ملائماً له، من الناحية السياسية؛ الرجل الذى زعم أنه يرفض أن يدفع الجزية للملوك المسلمين "الطغاة" كما كانت تفعل أوروبا، ثم دفع كما دفعوا.

لا ينتقد مؤلف "هلال وراء الغيوم" جيفرسون وإن عرض آراء منتقديه. لكن مؤلف "القوة والعقيدة والوهم" ينتقده واصفا إياه بأنه كان:

على غرار بلاده - رافضا للسياسات الأوروبية، وإن كان متلهفا على التجارة وراء البحار، حريصا على السيادة القومية، وإن كان يميل إلى حماية امتيازات الولايات؛ ملتزما بحقوق الإنسان وإن ظل ينكر هذه الحقوق على السود وعلى سكان أمريكا الأصليين.

وهذه النقطة الأخيرة هى الأسوأ فى شخصية جيفرسون مالك العبيد الذى عاشر إحدى جواريه معاشرة الأزواج وأنجب منها ولدين، ولم يعتقها ولم يعتق ولديه منها.

لا يذكر مؤلف "هلال وراء الغيوم" هذه المسألة ولا يشير إليها من قريب أو من بعيد، رغم أنها متصلة بالرسالة المركزية لكتابه. فإذا كانت "القوة" الأمريكية هى الرسالة المركزية فى كتاب مايكل أورين، فتجاهل الأمريكيين لنظام العبودية فى بلادهم حتى ١٨٠٨ هو ما يركز عليه روبرت أليسون.

ويقارن أليسون بين أوضاع العبيد فى العالم الإسلامى وأوضاعهم فى الولايات المتحدة على نحو يظهر المسلمين أكثر رأفة وأكثر إنسانية وأكثر صدقاً مع أنفسهم ومع الرسالة الدينية للدين، أى دين.

ويخلص أليسون من هذا إلى أن الأمريكيين رأوا في العالم الإسلامي ما أحبوا أن يروه وتجاهلوا أمورا كثيرة كان يمكن أن يتعلموها من المسلمين ليصبحوا أفضل وأرقى، بل وليصبحوا أقرب إلى الرسالة الأخلاقية لدينهم.

وفي نهاية الكتاب يسرد أليسون قصة البحار الأمريكي جيمس رايلي الذي وقع في الأسر في موريتانيا واشتراه عربى مراكشى رحيم اسمه سيدى حامد، أخذه إلى القنصل البريطانى فى طنجة فافتداه وعددا من مرافقيه، ثم عاد سيدى حامد ليبحث عن بقية رفاق رايلي ويعمل على تحريرهم.

وقد سجل رايلي قصته فى كتاب بيعت منه مليون نسخة فى القرن التاسع عشر، وترجم إلى عدة لغات، واعتبره إبراهيم لينكولن واحدا من ستة كتب أثرت فيه وفى مسيرته السياسية، ومنها التوراة وحكايات أيسوب وسير العظماء.

لكن بعض التفاصيل التى أوردها كتاب رايلي، الذى تعرض لأهوال الغرق والتهيه والأسر والمهانة والتعذيب والجنون تشير إلى أن وصفه لرحلته لم يكن وصفا ملتزما بالحقيقة الواقعية، بل خالطه كثير من الخيال.

ويلفت النظر فيما نقله أليسون عن هذا الكتاب أن رايلي رأى القنصل البريطانى فى منامه وعرف أنه سيدفع فديته قبل أن يلتقيه فى الواقع أو حتى يسمع عنه، وعندما قابله، عرف أنه هو المخلص الذى رآه فى المنام وأدرك أنه هو وسيدى حامد مبعوثان إليه من قوى خفية رحيمة هى - وحدها - التى تصنع قدره.

ولولا أن رايلي أسمى ابنه باسم ذلك القنصل وعاد إلى مقابله ومقابلة إمبراطور مراكش، بعد أن تجاوز محنة الأسر واستأنف عمله كقبطان تجارى، لظن قارئ مثل كاتب هذه السطور أن القنصل شخص خيالى اخترعه رايلي، ولولا أن رايلي شجع بعض رفاقه على تسجيل وقائع تجربتهم المريرة فى الأسر وما انتهى إليه على أيدي سيدى حامد والقنصل لداخلنا الريب فى القصة كلها.

قدر الإنسان

لكن ما يسرده أليسون من تفاصيل عن رايلي وسرديته الملحمية يعكس إحساسا عميقا عند الرجلين، عند أليسون ورايلي، بالتواضع الواجب أمام القوى الإلهية المدبرة لشؤون الكون و إحساس رايلي وأليسون ينبع من موروث دينى عمقته الكتب العظمى فى تاريخ الحضارة الغربية والتي يعود بعض روائعها إلى ما قبل عصر الديانات السماوية.

فالأهوال التى يجتازها رايلي مع رفاقه تذكر القارئ بالأهوال التى اجتازها البطل الأسطورى إينياس فى ملحمة الإنيادة التى كتبها فيرجيل، بخاصة عندما يبحر إينياس باتجاه الشمال لمدة تسعة أيام، تماما كما تتقاذف الأمواج رايلي ورفاقه تسعة أيام، وبعد معاناة فى البحر يصل إينياس ورفاقه إلى البر فى كوماى، فى غرب إيطاليا ، كما وصل رايلي والرفاق إلى البر فى غرب القارة الأفريقية.

وليس غريبا أن يتأثر سرد رايلي لرحلة عذابه بالإنيادة التى يجد القارئ فيها صورة لرحلة بنى إسرائيل باتجاه أرض الميعاد، كما يجد فيها تفاصيل أخرى توحى بأجواء رحلة نوح ونويه بعد الطوفان، بخاصة وأن العقل الأمريكى، فى كل مراحل تطوره، شديد التأثر بالموروثات الإغريقية والرومانية والعبرانية.

ورقم تسعة الذى يحدد عدد أيام العذاب التى عاناها البطل أينياس ورفاقه فى إينيادة فيرجيل يذكرنا، فى الوقت ذاته، بأن الأنشودة التاسعة فى "الأنشودة المقدسة" أو "الكوميديا الإلهية" (ترجمة حسن عثمان، دار المعارف، الجزء الأول "الجحيم"، ص ١٧٣-١٨٢) هى "أنشودة رسول السماء الذى هبط لكى يفتح أبواب الأمل أمام القلوب اليائسة.

لكن الشخصية المضيئة فى "سرديّة" رايلي ليست رسول السماء بل إنسان آمن برسول السماء محمد بن عبد الله وانفتح قلبه لعذابات رايلي الذى لم يهتم بأن يسأله

إلا عن موطنه وعن أسرته وعن النبي محمد. وعندما علم أن رايلي ترك وراءه زوجة وأطفالا بكى. وعندما قال له رايلي إن كل ما يعرفه عن النبي هو أنه ولد في مكة وأنه الآن في الفردوس اعتبر ذلك كافيا لأن يأخذ بيده على طريق الخلاص من الأسر.

ومثل سيدى حامد فى "سرديّة" رايلي كانت شخصيات روائية كثيرة نطقت بما يراه المؤلف الحق المبين، مثل تلك الكلمات التى نطق بها شيخ حاور الطبيب أبراك أندرهيل فى رواية "أسير الجزائرية" التى ألفها رويول تيلر. يقول الشيخ إن المسلمين "لم يجبروا أحدا حتى اليوم على اعتناق ديانتهم" وإن من يتحول إلى الإسلام، مختارا، يعتبرونه أخا لهم، لأن أرواح المؤمنين ترتبط كلها فى رباط عطر من المحبة الأزلية. إننا نترك للمسيحيين فى جزر الهند الغربية، ومسيحيى مزارعكم الجنوبية أن يعدوا الأفارقة التعساء ليدخلوهم عقيدتكم ثم يستخدموا إخوانهم فى المسيحية هؤلاء كما تستخدم البهائم.

وقد تعلم بطل هذه الرواية الدكتور "أبراك أندرهيل درسا عظيما عندما وقع فى الأسر بأيدي الجزائريين، بعد أن كان طبيبا على سفينة محملة بالعبيد الأفارقة الذين اشتراهم الأمريكيون ليشغلوهم فى مزارع الجنوب. ولكن البحارة الجزائريين الذين استولوا على السفينة الأمريكية أخذوا واحدا من الأفارقة السود ليصبح بحارا مثلهم فى حين حبسوا الطبيب الأمريكى الأبيض فى جوف السفينة. وراح البحار الأسود يطعم الطبيب الأبيض السجين ويحسن إليه، رغم أن ذلك الأبيض كان سجانه وأسرّه، قبل أن يحرره الجزائريون. وهذه التجربة أعدت الطبيب نفسيا لتفهم ما قاله له الشيخ المسلم.

ويعلق أليسون على الحوار الذى دار بين الطبيب الأمريكى والشيخ المسلم بأن المؤلف رويول تيلر أقدم على أمر لم يعتده الأمريكيون عندما سمح لمن يناصر الدين الإسلامى ويدعو إليه بأن يلحق الأمريكيين درسا حول الواجب الأخلاقى. ورغم أن الأمريكيين كانوا يعتقدون أن الإسلام عقيدة زائفة وأن نبوة رسولنا الكريم مكذوبة، فقد صاغ رويول تيلر روايته بما فيها من وقائع ومحاورات على نحو تجاوز التعصب السائد فى عصره.

وقد عرض المؤلف وجهات نظر من يرون محمداً وعقيدته على نحو صحيح، أولئك الذين يدركون أن الرسالة المحمدية هي نور هاد للبشرية، ووجهات نظر من يكفرون بها ويرمونها بما ليس فيها، بحياد بالغ، رغم أنه يميل وهو المسيحي المخلص والوطني المحب لبلاده إلى الاعتراف بعظمة محمد وبعمق إنسانيته وبالمغزى الأخلاقي والحضاري لرسالته. ولهذا فقد حرص على أن يستخدم لفظ "ما هو ميت" عند نقل آراء من يسعون للنيل من النبي واستخدام اسم محمد (بورك الاسم ومن حملة) عند نقل آراء أقرب إلى الحكمة والعدل، حتى ينصرف كيد الكائدين إلى "ما هو ميت" باعتباره شخصية ابتدعها العقل الغربي في القرون الوسطى، ولا علاقة لها بالرسالة والرسول. ولأن المؤلف لم يشر إلى موقفه هذا إلا في هوامش الكتاب فقد أوردنا نحن الإشارة إلى ذلك، بين قوسين، في صلب المتن.

وكما نطق الشيخ في رواية تيلر بما يعتبر روبرت أليسون أنه الحق ينقل أليسون عن مؤلف رواية "الإنسانية في الجزائر" قوله "لأننا تعلمنا وتعودنا منذ الطفولة على أن نعتبر ديانتنا نحن العلامة الوحيدة على الحضارة، يصعب علينا أن نتصور أنه من الممكن أن يكون لدى واحد من أتباع ما هو ميت قلب يشعر، أو أن يكون قادراً على عمل الخير".

المحقق الماكر

ولم يكن مؤلف "هلال وراء الغيوم" روبرت أليسون موافقاً على كل ما أوحى به الروائيون وكتاب المسرحيات وكتاب السير والرحالة من أفكار ورؤى لصالح المسلمين وحضارتهم، ففي عرضه لما كتبه الليدي مونت غيو عن النساء المسلمات يرفض ما تقوله من أن الحجاب (والأرجح أنه يقصد النقاب) يعطى المرأة خصوصية لا تتمتع بها الأوروبية السافرة، كما يميل إلى تكذيبها عندما تقول إنها رأت المسلمات عرايا في حمام النساء، في سياق سردها لزيارة لحمام عام صورت فيها المسلمات تصويراً نبيلاً.

وفى الوقت ذاته فقد عرض، أيضا، كل ما كتب ضد الإسلام والمسلمين دون أن يخلص النصوص المعروضة من ضراوة الغضب وشراسة الكراهية. لكنه ظل يقلب فى النصوص الرسمية والأدبية بحياد المحقق الماكر الذى يراكم الدليل الدامغ الذى يستند إليه فى قرار يؤمن بأنه العدل كله، مؤهلا النطق به حتى اللحظة التى تكتمل فيها الصورة.

ورغم أن المؤلف يعطى الوثائق والمستندات الرسمية حقها من الاهتمام الوافى فتركيزه ينصب على الأعمال الأدبية والفنية عامة، والروائية بشكل خاص، فلماذا كل هذا الاهتمام بالخيال ؟

ربما لم تعرف الإنسانية مثالا كاشفا لقوة الخيال الإنسانى باعتباره صانعاً للمعنى وباعتباره قوة فى وجه الموت - ذروة اللامعنى - يضاهى مثال شهرزاد، التى ظلت تروى كل ليلة قصة لملك سفاح صنعت له حكاياتها عالما كان أجمل من أن يهدمه بقتلها، فأنقذت بذلك نفسها وأنقذت ألف امرأة أخرى، وحولت القاتل المسكون بالشك والخوف والغضب إلى إنسان ملئ بالرجاء فى الغد، وإلى زوج وأب وملك عادل.

نحن نصنع بالخيال الأدبى والفنى العالم على النحو الذى نريده، ولهذا فقد كان من الضرورى أن يتفحص أليسون الروايات والمسرحيات والقصائد التى صاغ بها الأمريكيون العالم الشرقى وأعادوا إنتاج تجربتهم مع الآخر المسلم، كما تفحص المستندات والوثائق التى سجلت مصادر الخطر الحقيقى الذى كان يهدد الجمهورية الأمريكية الشابة، و كان ذلك الخطر أوروبيا خالصا؛ بريطانيا فى المقام الأول وفرنسيا فى المقام الثانى.

فكثير من حكومات ذلك الزمان، وبخاصة بريطانيا وفرنسا، كانت تبسط حمايتها على القراصنة وتقاسمهم الغنائم التى ينهبونها فى البحر، تاركة لهم كل ما ينهبونه على البر. أما البحر المتوسط فكما أوضحنا من قبل، لم تكن القوى الأوروبية مسيطرة عليه، وكانت الغريزة الإمبراطورية لدى الولايات المتحدة توجهها إليه لتملأ ما اعتبرته فراغا يمكن أن تنطلق منه لغايات أكبر.

ويشير المؤلف أليسون، إشارة خاطفة، إلى أن جيفرسون الذي كان يشارك معاصريه من الأمريكيين، وربما يفوقهم، في التشدد بعبارات الترفع عن السياسات الأوروبية الاستبدادية والفسادة، كان حريصا على أن لا يكرر الخطأ المأساوي الجسيم الذي وقع فيه العثمانيون ففاتهم ركب الحضارة، فقد عزل العثمانيون أنفسهم عن أوروبا أكثر مما يجب، ولم يكن جيفرسون يريد أن تتحول رغبة أمريكا في تجنب ويلات الحروب الأوروبية عزلة تشبه العزلة التي ظلتها إسطنبول سدا بوجه التحولات العصرية، الروحية والمادية، التي حققتها لأوروبا ثورات الإصلاح الديني والعقل والتنوير والتطور الرأسمالي، فانتهت الإمبراطورية العثمانية زبوتا تعيسا عند كل المصارف الأوروبية.

رفض جيفرسون سياسات أوروبا وحرص على أن لا ينعزل عنها. ولم ير في البحر المتوسط إلا ساحة للنمو التجاري والسياسي. وعندما شن الحرب على طرابلس الغرب ثم عقد معاهدة السلم معها لم يكن الهدف الأول هو إطلاق الأسرى الأمريكيين كما توحى بذلك قائمة الأولويات المعلنة على الشعب الأمريكي، بل كان الهدف الأول هو بناء جمهورية إمبراطورية على الطراز الروماني، حدث لنفسها دورا في المنطقة العربية أعلنت أجنده صراحة في ١٩١٩، لأول مرة وليس لآخر مرة.

لكن ارتباكات جيفرسون العسكرية والسياسية أمام داهية طرابلس الغرب أجبرته على أن يدفع هو ورجاله الجزية. ولأن الأخبار كانت تأخذ، بحسابات أليسون، ستة أسابيع لتصل من ساحل المغرب العربي إلى أمريكا فقد كانت المدة كافية لتلفيق وإطلاق قصص "القوة" المكذوبة.

ومنذ بداية وقوع أسرى أمريكيين في أيدي المغاربة في ١٧٧٦ وحتى توقيع المعاهدة بين إدارة جيفرسون وحكومة يوسف باشا قرامنلي انشغلت أمريكا، بالجدل بين الذين يضعون مصالح التجارة فوق أوهام الإمبراطورية وبين الذين يسعون لتأسيس إطار إمبراطوري للمصالح التجارية، عن رؤية تجربتها مع العالم المسلم في ضوء هلاله المبارك.

وقد حاول مؤلف الكتاب تبديد غيوم التعصب والغضب والطمع والاستكبار التي حجبت الهلال الإسلامى عن البصيرة الأمريكية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. لكن المؤرخ الذى يرى حقائق القرون الخالية بكل هذا الوضوح يبدو متعصباً وعاجزاً عن رؤية الحقيقة المعاصرة، وهو يتحدث عن الثورة الإيرانية فى أواخر القرن العشرين.

لغز الثورة الإيرانية

لقد فوجئ بالانعطاف إلى الدين فى الثورة الإيرانية وظن أن لذلك تفسيراً وحيداً هو أن العقيدة الدينية كانت كل ما تبقى لدى الإيرانيين بعد أن حرّمهم نظام الشاه من كل طيبات العيش ومن كل أمل فى الحياة، فرفضوا عصرهم والحضارة الغربية المهيمنة عليه ورفضوا "الحرية والتقدم" وهما روح كل ثورة ومشعلها الأعظم.

صحيح أن نظام الشاه جرد غالبية الشعب الإيرانى من أشياء كثيرة، ولم يجردهم من إسلامهم لكنه عجز أيضاً عن أن يجردهم من حبهم للحياة والحرية والتقدم. ورغم قوة الإسلاميين الإيرانيين والتأثير الكاريزمى الطاغى لآية الله خومينى فقد كان حزب توده الشيوعى والليبراليون عناصر أساسية فى المشهد الافتتاحى للثورة، فكيف جرى ما جرى؟

هذا سؤال يتعين أن يبحث علماء السياسة والمؤرخون بحثاً متأنياً ورصينا عن جواب له، أما أن يدير الكاتب ظهره للثورة الإيرانية ثم يقول (بشوفينية أظهرها فى مقدمة كتابه، وظل يحاربها بكل بسالة طوال الفصول التسعة التالية): عدت إلى دراسة ثورتنا نحن الأكثر قابلية للتفسير، فهذا قول يحسب عليه، بخاصة وأنه يتحدث بعد ذلك عن شبّح التمرد الإيرانى ضد التقدم والحرية.

وموقف الكتاب العبر من الثورة الإيرانية مهم لأن أزمة الرهائن الأمريكين فى دول شمال إفريقيا المسلمة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر هى التى ساعدت

على تكريس المغزى الذى ركز عليه الخطاب السياسى والإعلامى الأمريكى فى أزمة رهائن السفارة الأمريكية فى طهران فى القرن العشرين.

لم تستفزنى فى هذا الكتاب عبارة أكثر من "ثورتنا نحن الأكثر قابلية للتفسير" ففى هذه العبارة يتورط أليسون فيما تورط فيه من انتقد أداءهم من الغربيين الذين عاصروا الصراع بين أمريكا ومسلمى الشمال الإفريقى وأسأؤوا فهمه، لأنها عبارة تشير إلى أنه مثلهم يعتبر أن الشرقى هو ذلك الكائن غير العقلانى الذى لا يمكن لأحد توقع تصرفاته، لأنه لا يتصرف وفق قواعد يمكن استنباطها أو لتحقيق مصالح وغايات يمكن رصدها، فهو كائن شاعرى همجى غامض هائج وغاضب لغير ما سبب، وراض مستسلم لغير ما سبب.

وهذا غير صحيح. وغير صحيح أن الشعب الإيرانى ثار ضد التقدم والحرية. وجزء من عجز أليسون عن الفهم يعود إلى أنه نظر إلى أحدث فصول الثورة الإيرانية، ذلك الذى بدأ فى ١٩٧٨ باعتباره بداية ونهاية.

يرى سايروس غانى Cyrus Ghani فى كتابه المهم "إيران وصعود رضا شاه" أن الثورة الإيرانية من أجل الدستور والاستقلال بدأت فى ١٩٠٦، وإن كان وعى إيران القومى الحديث ولد فى ١٩١٩، بعد الاتفاق بين لندن وطهران، فى ذلك التاريخ، وأن صعود رضا شاه كان من النتائج المباشرة لاتفاق ١٩١٩، بكل عيوبه وميزاته.

ويرى غانى أن رضا شاه نجح فى الفترة بين ١٩٢٦ و ١٩٤١ فى التقدم باتجاه التحديث و "الحد من سلطة المللى" إلى درجة كان يمكن أن تنهض بإيران لولا عيوب فى شخصية رضا شاه ولولا - وهذا هو الأهم - قرار بريطانيا وروسيا غزو إيران فى ١٩٤١.

ومن جهة أخرى فإن فخر الدين عازمى فى "السعى من أجل الديمقراطية فى إيران" يقول إن "ما يبدو أنه توجه مخلص رغم أنه، فى النهاية، نفاق يزعم الدعوة إلى

الديمقراطية - وأحدث صورته تجدها بشكل خاص عند المحافظين الجدد في أمريكا - هو أمر مؤذٍ ويحط من شأن بلدان مثل إيران التي سعت منذ عشرات السنين إلى القيم والممارسات الديمقراطية، وبذلت الجهود المخلصة لتحقيقها قبل أن يحدث ما نراه الآن من استيلاء على "الديمقراطية" لأغراض البروباغندا.

وإذا كان غاننى يرى أن البريطانيين والروس أحبطوا جهود رضا شاه التحديثية وحالوا دون الحد من خطر الملالي، وإذا كان عازمى يرى أن الثورة الديمقراطية فى إيران تم حرقها عن مئارها بفعل فاعل، فالمعاصر لأحداث الثورة فى بداياتها يرى الشيوعيين والليبراليين يقومون بأدوار مهمة فى إطلاق الثورة من عقالها، ثم يرى إقصاءهم عنها واستيلاء القوة الأكثر تنظيما على الثورة، كما حدث فى روسيا فى ١٩١٧ عندما سرق البلاشفة الثورة الديمقراطية.

ويشير خوان كول فى كتابه المهم عن "الكولونيالية والثورة فى الشرق الأوسط"، الذى زين غلافه بصورة عرابى باشا وجنوده، إلى الأسلوب الذى اختطف به الملالي ثورة إيران ضد الشاه وحولوها إلى ثورة إسلامية بالاعتماد على أسلوب تعبئة الموارد - الذى اتبعته الثورة العرابية فى مصر فى القرن التاسع عشر - باستخدام "شبكات الحشد والتجنيد والقواعد الاجتماعية والديمقراطية والبنى المجتمعية التحتية وجمع التبرعات وتنمية المهارات التنظيمية والتكامل والسيطرة والقدرة على التكيف" وأخيرا وأخرا، أى فى المقام الأخير فعلا وقولا، تأتى الأيديولوجية.

هذه أحدث تقنيات العمل من أجل التحول الاجتماعى تم تكريسها لاختطاف الثورة ثم الانحراف بها بعيدا عن الحرية والتقدم، وهذا جزء من انقلاب عالمى مطول ومتتابع الأجزاء على قيم التنوير ENLIGHTENMENT وثمار عصر العقل AGE of REASON، وقد بدأ هذا الجزء مع وصول جيمى كارتر إلى سدة الرئاسة فى الولايات المتحدة؛ جيمى كارتر الذى وصف الخمينى بأنه "رجل مقدس" والذى كان بين أهم مستشاريه من اعتبر الخمينى صورة جديدة من غاندى.

ورغم أن ما قاله الكاتب عن الثورة الإيرانية هو مجرد هامش في مفتتح الكتاب فإن مغزاه يظل يلاحق القارئ حتى آخر صفحة من صفحاته، وكان المتوقع أن يعود الكاتب في نهاية كتابه ليقارن بين أزمة الرهائن في السفارة الأمريكية في طهران عشية الثورة الإيرانية والأزمة المطولة للرهائن الأمريكيين في دول الشمال الإفريقي، قبل قرنين من الزمان.

لم يفعل المؤلف ذلك وترك لنا هذه المهمة، لينصرف هو إلى مهمة أخطر وهي تبيان المحاولة الأمريكية لحجب نور الهلال طوال قرنين من الزمان. وقد نجح المؤلف في الدفاع عن التسامح والإخاء والنور، نجاحاً يثير علامتين: علامة استفهام وعلامة تعجب إزاء موقفه الغريب من ثقافة تعلم احترامها، كما قال هو، منذ نعومة أظافره.

هذا الموقف الغريب يعنى أن المؤلف روبرت أليسون يقدم في كتابه "هلال وراء الغيوم" مبررات النظر إلى قسم كبير من الشرق المسلم، يضم دول المغرب العربي الأربع، بشكل أفضل مما نظربه أسلافه إليه، وبشكل أفضل مما يرسمه صهيوني معاصر مثل مايكل أورين له، وليس هدف أليسون من ذلك هو بناء الجسور بين الشرق والغرب بقدر ما هو وضع أساس أفضل للتعامل مع الآخر وللتعلم منه لكي نصبح (نحن الأمريكيين) أفضل وأكثر إنسانية.

لكنه يبقى على المسافة بينه وبين ذلك الآخر كأساس لـ "نظرة تقسم العالم إلى أقسام أو كيانات كبيرة" حسب تعبير إدوارد سعيد، متوهماً أن درجة من التقدير الأعلى للآخر كفييلة، مع الحفاظ على ذلك التقسيم، بأن تجنب البشرية العيش "في جو من التوتر الذي يُعتقد أنه وليد اختلاف جذري".

وهنا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نتساءل كما تساءل إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق" (ترجمة محمد عناني - الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ص ١٠٤):

"هل يستطيع المرء تقسيم واقع الإنسانية... إلى ثقافات وتواريخ وتقاليد ومجتمعات بل وأجناس تختلف اختلافاً بيناً ثم ينجو من العواقب بصورة إنسانية؟ وبالنسبة من العواقب بصورة إنسانية أقصد أن أسأل إن كان لدينا سبيل لتجنب العداء الذي يعبر عنه التقسيم، وليكن تقسيم الناس إلى فريقنا "نحن" (الغربيين) وفريقهم "هم" (الشرقيين). فالواقع أن أمثال هذه التقسيمات كان القصد من استعمالها تاريخياً وفعلياً تأكيد أهمية التمييز بين بعض الناس وبعضهم الآخر لغايات لم تكن تدعو في العادة إلى الإعجاب بصورة خاصة. وعندما يلجأ المرء إلى استخدام التقسيم إلى فئات مثل الشرقي والغربي باعتباره نقطة الانطلاق والغاية من التحليل والبحث ووضع السياسات العامة؛ فالنتيجة عادة ما تكون استقطاب التمييز - أي زيادة "شرقية" الشرقي و "غربية" الغربي - والحد من التلاقى الإنساني بين الثقافات والتقاليد والمجتمعات المختلفة.

لهذا السبب فإن كتاب "هلال وزاء الغيوم" يبقى مهماً، للقارئ الأمريكي، لأنه يمنحه فهماً أفضل لماضيه ولعلاقته ببلاده ببلدان الشرق المسلم، وللقارئ العربي، لأنه يمنحه فهماً أفضل لفصل من فصول علاقتنا مع الغرب وفصل من فصول تطور الفكر الغربي في نظرتنا إلينا؛ ويبقى مهماً، بشكل عام، باعتباره خطوة باتجاه الخروج من مائتي عام من العتمة، وفي الطريق إلى نور التفاهم والمحبة الإنسانية.

أسامة الغزولي

القاهرة - فبراير ٢٠١٠

إلى فيليس



هذه النسخة من كليشيه شهير، طبع لأول مرة قبل الحرب الأهلية، تظهر بطلين أمريكيين وعدوين مسلمين. علم ستيفن ديكاتر، عقب المعركة البحرية الشرسة في ٣ أغسطس ١٨٠٤، بأن أخاه جيمس قتله ضابط تركي (TURKISH) تعنى هذه الكلمة هنا مسلماً أياً كان جنسه أو موطنه - المترجم) بعد استسلامه. وتتبع ديكاتر قاتل أخيه، الذي يظهر هنا وقد صوب ديكاتر مسدسه إلى عنقه. وكاد ديكاتر نفسه أن يلقي مصرعه على يد بحار من طرابلس الغرب يظهر في الصورة رافعاً سيفه. لكن البحار الأمريكي دانييل فريزر، الذي يعرف أيضاً باسم روبن جيمس، ألقي بنفسه بين السيف التركي وقبطانه. وهذا الرسم المحفور يشير إلى العدو الطرابلسي بلقب "الجزائري"، خالطاً بذلك بين أعداء أمريكا من المسلمين في ١٨٠٤ وأعدائها منهم في ١٧٩٣.

تنويه

ساعد كثيرون على إتمام هذا المشروع. أولاً، كان شيلدون ماير، من مطبعة جامعة أكسفورد، مصدر تشجيع لى منذ المراحل المبكرة. وقامت هيلين غرينسبيرغ بعمل رائع كمحررة، وأشكرها على صبرها.

وقد ساهم الأساتذة والطلاب فى برنامج هارفارد لتاريخ الحضارة الأمريكية، كلهم تقريباً، فى هذا المشروع. ويستحق ستيفان ثيرنستون أن أخصه بالشكر على لطفه وكرمه، وكان ويرنر سولرز ناصحاً أميناً منذ التحقت بدروسه فى المدرسة الملحقه بهارفارد، وقدم درو ماكوى، وهو الآن فى جامعة كلارك، لطلابه مثالا ما زلنا نسعى إلى احتذائه، وقرأ آلان هايمرت مسودة أولى لهذه المخطوطة وقدم التشجيع والنقد، وكانت المشاعر الطيبة والحس السليم لدى وارنر بيرثوف مصدر إلهام.

وكان بيرنادر بايلن مستشاراً لى منذ بداية هذا المشروع. وقد تعلمت من نسخة مستعملة من "الأصول الأيديولوجية للثورة الأمريكية" أن الأفكار مهمة، وأن ما يعتقده الناس هو أمر ذو خطر، فقررت أن أتم دراستى بالكلية. ويوم اشتريت ذلك الكتاب، أصبحت دارساً للتاريخ، وبعده بعشر سنوات أتوجه بالشكر للبروفيسور بايلن لأنه ساعدنى على أن أصبح مؤرخاً. ولا يمكن أن أوفيه حقه من الشكر على صبره ولطفه. فأسئلته وتعليقاته لم تحسن هذا العمل فحسب، بل وجعلتنى أعمق فكراً، ككاتب وكمدرس.

وقد ساعد الزملاء الدارسون فى هارفارد، وهم الآن علماء ومعلمون لهم مكانتهم، هذا المشروع مساعدة غير محدودة. وأتوجه بشكر خاص إلى بلوين بوريسسيوس

وريتشارد بنيت وسينثيا بلير وستيف هولز ودان بى ميللر ودانييل تيريس وأندرو وولش وروبرت جونستون وجيفرى بازلى وغريشين كونيغ وبنجامين شميث ومارتا بيرنز ومارك بيترسون وبين شوان هوانغ وروزمارى كروكيت وهيثر ريتشاردسون وتيد ويدمر على كل مساهمة قدمها كل واحد منهم. ويستحق اثنان آخران شكرا خاصا فريد دانزيل الذى كان حماسه لهذا المشروع يفوق حماسى، فى أغلب الأحيان، وتوماس جى براون الذى أشركنى فى رؤاه حول مشاكل الكتابة.

وقد ساعدت روث دييترو وكريستين ماكفادين وسوزان هونر ومارشا دامبرى ولورا جونسون وشارون لنزى على جعل السنوات التى قضيتها فى هارفارد وسافوك ممتعة وساعدت مهاراتهم المهنية أيضاً على جعل هذه السنوات مثمرة لى ومجزية لطلابى. وساهم كريستوفر ماريون وإليزابيث موللن من مكتب المساعدة المالية فى هارفارد فى مساعدتى على إتمام دراستى الجامعية، وأنا مدين بشكر خاص إلى صندوق هيربرت ليمن فى هارفارد على سنة قضيتها باحثاً، وقد ساهم طلابى فى المدرسة الملحقه بهارفارد فى هذا العمل مساهمة يصعب أن يتصوروها.

وأشكر الشخص الذى عين لويس بى مازر فى المكتب المجاور لمكتبى، فوجود لومازر فى المكتب المجاور كان نعمة من نعم هذه الدنيا بالمعنيين المجازى والحرفى. وأشكر ويلفرد رولمان لأنه أشركنى فى معارفه حول شمال إفريقيا وعلى حماسه للتقاطع بين التاريخ الأمريكى والتاريخ والمسلم. وقدم دنيس سيكوتيس أفكاراً بطريقته الفريدة. وقام توماس جى سلوتر بقراءة متعاطفة وإن كانت نقدية لنسخة مبكرة، وهذه النسخة تحسنت كثيراً بفضل تعليقاته. وقد حسن نقد فريد أندرسون، أيضاً، المنتج النهائى.

وقدمت العديد من المكتبات موارده لجعل هذا المشروع ممكناً. فمكتبة هنرى إى هنتغتون يلذ للمرء أن يعمل فيها، ولحسن الحظ فقد كنت زميلاً فى برنامج روبرت ميدلوكوف. وأشكر مارى رايت وسوزان نولتى وكذلك الأساتذة الذين تجمعوا فى أثناء إقامتى القصيرة والمهمة: مارتن ريدج وبول إم زال، وكلوديا بوشمان ووليم بنكاك

وبروكس سيمبسون، وبالطبع، هوارد شور. وأشكر أيضاً الجمعية الأثرية الأمريكية ومكتبة بوسطن العامة ومجمع بوسطن وكاتارينا سلوترباك من غرفة الطباعة، بشكل خاص، ومعهد إيسيكس فى ساليم، ومكتبة نيويورك العامة وهيئات شبكة مكتبات هارفارد، بخاصة مكتبة هوتون، ومجموعة مسرح هارفارد وغرفة وثائق الحكومة.

وقد كان والدا زوجتى فيليب وإيفلين غوديانو كريمين بشكل خاص، ربما لأنهما كانا يأملان أن لا أطيل فى الحديث عن التاريخ الأمريكى معهما. ويملك مايكل غوديانو الكراج الوحيد، على حد علمى، الذى فيه صورة جيمس ماديسون. وقد أبقى هو وابنه مايكل على سيارتنا فى الشارع، وجعلانى أدرك، فى أكثر من مناسبة أن لا أحد يقول "حمداً لله على أن قريب زوجتى مؤرخ" كما أشكر جوزيف ومارغريت غوديانو وأطفالهما أليسون وفيليب وجوزيف الذين قد تكون لديهم هم أيضاً تصور عن الأعمام المؤرخين. وأشكرهم على محاولاتهم الدؤوبة للبقاء هادئين عندما كنت أعمل على هذه الدراسة، وأعترز باللحظات التى فشلوا فيها فى المحافظة على هدوئهم.

وأمنى مسؤولية عن اتصالى بالعالم المسلم وقد أظهرت بعد نظر بالغاً عندما دارت بى فى "مشهد" و"شيراز" وأنا فى سن حساسة. وقد قرأ أبى نسخة مبكرة من الكتاب وعلق عليها بشكل كامل، وكان يمكن لهذه النسخة أن تكون أفضل كثيراً لو أنى اتبعت مشورته. وقد كان ماثيو غولبريث وسوزان غولبريث مصدرراً لا ينضب للتشجيع وأويانى فى أثناء رحلاتى البحثية إلى نيويورك. وعمل فرانك وسوزان جونسون على أن يكون ستاد شيا على جدولى البحثى. ومكنتنى جين دايفيس من إتمام الدراسة بالكلية. وأكثر من ذلك فقد جعلتنى أتصور أنى قادر على ذلك من دون مساعدتها.

وقد ساعد الأصدقاء بدورهم. أوجه شكراً خاصاً إلى كارين ليتون ومورين كونوللى وابنها مايكل، وإلى مارى فرانسيس دايفيس وكيث ومارغريت بيرغمان. وربما كان دوغ شيدل يتمنى لو أنى قلت المزيد عن الدراجات رغم أنه، حتى الآن، لا يذكر جيفرسون فى كتبه.

وأخيراً، فعندما أتى إلى الشكر الموجه إلى فيليس، فإننى أدرك كم أنى غير مؤثر ككاتب. فمساهماتها تتجاوز قدرتى على الكتابة، إلى حد بعيد. فهى لا تكف عن خلق لحظات من السعادة الغامرة التى تومض فى الذاكرة، رغم انشغالاتى المهنية التى تجعل تلك اللحظات خاطفة. وقد ناضل البروفيسور بايلن والزملاء المشار إليهم آنفاً ليجعلوا منى مؤرخاً أفضل، أما هى فتعين عليها أداء المهمة الأصعب لتجعل منى شخصاً أفضل. وقد ناضلت هى الأخرى لتبقى على هذا الكتاب فى منظوره الصحيح. وقد ساعدها جون روبرت الذى جاء فى المراحل الأولى من البحث وفيليب الذى انضم إلينا فى أثناء الكتابة على النجاح فى مهمتها. وإليها أهدى الكتاب، وإليهم جميعاً أهدى حياتى.

مقدمة المؤلف

كنت أقضى عطلة فى إيران فى ١٩٧٨ عندما انفجرت الثورة. فاجأت الثورة الإيرانية أمريكيين كثيرين. وباعتبارى من المعجبين بتوماس باين، فقد كنت أتوقعها. كان زعماء إيران يتمتعون بمنافع التحديث السريع ومظاهر البذخ الغربى، فيما كانت غالبية الشعب الإيرانى تعيش فى الفقر. فصلت الهوة بين الأغنياء والفقراء كما هو الحال فى معظم بلدان العالم، لكنها كانت تفصل أيضاً بين الحضريين والكوزموبوليتانيين من الإيرانيين وبين أولئك الذين لم يكن لديهم إلا عقيدتهم الدينية يقيمون بها حياتهم اليائسة.

ورغم أن باين وغيره ممن كتبوا عن الثورة أعدونى للحدث الضخم، فإنى لم أتوقع المنحى الدينى الذى اتخذته ثورة إيران. لقد تطلع معظم الثوريين فى القرنين الأخيرين إلى التقدم والحرية، لكن الشعب الإيرانى رفض هذين المبدئين المركزين فى العقيدة الغربية. وبالحقيقة فقد كانت الثورة الإيرانية رفضاً للنظام الاجتماعى الغربى الذى آمن به محمد رضا بهلوى أكثر مما كانت إدانة له ولأسرته الفاسدة المستبدة. فالشعب الإيرانى لم يثر ضد حكامه الخائبين بل ضد حكامنا نحن. وقد تحول غضب الثورة الإيرانية بكامله، مع مرور الوقت، باتجاه الولايات المتحدة، وفى ١٩٧٩ استولى الإيرانيون على السفارة الأمريكية فى طهران وأخذوا اثنين وخمسين أمريكياً كرهائن. انفجرت إيران بعد سنوات القمع والتفاوت الفاضح، وبعد ذلك انفجرت الولايات المتحدة غضباً على هذا الهجوم على سفارتها. وفى المدن الأمريكية كان الطلاب الإيرانيون يُضربون بأيدي الدهماء الغاضبين، ويشت الإذاعات أغنيات مثل "اقصفوا إيران"، وراحت نشرات الأخبار المسائية تذكرنا بعدد الأيام التى عاشها اثنان وخمسون

أمريكا محرومين من الحرية، واعتبر الرئيس جيمى كارتر، الذى حاول إنهاء الأزمة بالتفاوض، ضعيفاً وأخرجه النخبون من منصبه.

وإذ أقلتنتى هذه الأحداث التى تسببت بها فى أمريكا ثورة لم يفهمها إلا قلة من الأمريكيين، عدت إلى دراسة ثورتنا نحن الأكثر قابلية للتفسير، والمرحلة المبكرة من التاريخ الوطنى الأمريكى. لكن بقى شبح الثورة الإيرانية على التقدم والحرية، رافضاً أن ينصرف. وكما يحدث عندما يحولُ جنى من ألف ليلة وليلة ما هو مألوف إلى شىء غريب، ظهرت صور العالم المسلم فى كل مكان بحثت فيه فى التاريخ المبكر للجمهورية الأمريكية. ويعرف كل أمريكى، تقريباً، أن الولايات المتحدة حاربت "قراصنة البربر" فى مطالع القرن التاسع عشر، وهى حرب يخلدها نشيد فيالق مشاة البحرية. كان هذا مدى معرفتى الخاصة بهذه المواجهة بين أمريكا والعالم المسلم.

لكن هذه الحرب لم تكن ظاهرة منعزلة، لم تكن مواجهة بالمصادفة. فقد بدأت المواجهة بين أمريكا والعالم المسلم، بالفعل، قبل أن توجد الولايات المتحدة، وربما قبل أن يدرك الأوروبيون أن أمريكا موجودة. فعندما هزمت المملكتان المسيحيتان فى قشتاله وأرغون مملكة غرناطة المسلمة فى ١٤٩٢ كان لدى صاحبى الجلالة المسيحيين للغاية إيزابيلا وفرديناند فائض من المال للإنفاق على رحلة كولومبوس إلى الشرق. ولكن مهما كانت الأهمية التى ترتبت على هذه الرحلة بالنسبة لتاريخنا فإن فرديناند وإيزابيلا كانا يأملان أن العثور على طريق جديدة إلى الهند يمكن أن يؤمن لهما مصدر دخل جديد لتمويل حربهما المقدسة ضد المسلمين الذين أجبروهم على التراجع إلى مراكش والجزائر. وقد كان اهتمام الأوروبيين فى القرن السادس عشر بطرد الأتراك من المتوسط ومن شرق أوروبا أكبر من اهتمامهم باستعمار الأمريكتين. وقبل أن يوجه جون سميث (JOHN SMITH) يمكن أن تعنى الأمة الإنكليزية، وأول من يشار إليه بهذا الاسم، باعتباره رمزاً للإنكليز، هو "كابتن جون سميث" الذى ألف تشارلز دادلى وارنر كتاباً عن مغامراته يحمل هذا العنوان. والإشارات التالية تحيل إلى وقائع موجودة فى الكتاب الذى يمجّد رواد الاستعمار الإنكليزى تمجيذاً مبتذلاً - المترجم

عنايته إلى أمريكا، فقد كان يحارب الترك فى أوروبا الشرقية وقد أسره باشا نابرييتس (الصحيح أنه اشتراه ممن أسروه فى سوق الرقيق - المترجم) ولم تتقدم بوكاهونتاس من بنات الترك لتفتديه بحياتها فقتل الباشا وهرب. قد تكون هذه أول مواجهة بين "أمريكى" وبين طاغية مسلم (ابتداء من هذه العبارة يستخدم المؤلف اللغة التى يستخدمها من ينتقدهم ويرفض وجهات نظرهم من المعادين للإسلام على أسس عنصرية - المترجم)، لكنها لن تكون الأخيرة. ففي ١٦٢٥ أسر المراكشيون سفينة أمريكية، وبعد ذلك بعشرين عاماً أوقعت سفينة صنعت فى كامبريدج بولاية ماساشوسيتس وعليها طاقم من تلك المستعمرة الهزيمة بسفينة جزائرية فى عرض البحر فى معركة اعتبرها جيمى فنيمور كوبر، بعد ذلك، أول معركة بحرية أمريكية.

وعندما تحاربت بريطانيا والجزائر فى ١٦٧٣ أسر الجزائريون سفينة من نيويورك. وجمعت الكنائس فى تلك المدينة أموالاً تفتدى بها البحارة. وفى نهاية القرن السابع عشر وقع جوشوا جى وهو بحار من ماساشوسيتس فى الأسر فى سالى المغربية. وعندما عاد إلى موطنه فى بوسطن أصبح مشهوراً: فقد كتب قصة أسره وخلصه واحتفى كوتن ماثر بخلصه فى موعظة له.

وهذه الأحداث مهمة ويجب اعتبارها جزءاً من نضال أكبر لم ينته بطرد الأتراك العثمانيين من أمام بوابات فيينا أو بهزيمة بحريتهم فى لويانتو. لقد كان هذا أكبر من صراع على طرق التجارة أو على الأراضى. فقد اعتبر الأمريكيون فى ذلك الزمن أن هذه الأحداث جزء من النزاع بين المسيحيين والمسلمين، بين الأوروبيين والأتراك أو المغاربة، وبالنهاية، بين ما استقروا على تسميته الحضارة وما يعرفه العالم المتحضر حديثاً باعتباره بربرية. وقد ورث الأمريكيون هذا الفهم للعالم المسلم وتتبعوا هذا العدو بإصرار يفوق إصرار الأوروبيين.

وبنهاية القرن الثامن عشر لم تكن دول البربر فى شمال إفريقيا (الجزائر ومراكش وتونس وطرابلس الغرب) تهدد إلا الدول الضعيفة مثل الدينمارك والسويد والدويلات الإيطالية والولايات المتحدة. فلم تكن القوة البحرية لهذه الدول تضاهى أساطيل

بريطانيا وفرنسا. وبعد أن لم تعد دول البربر مصدر تهديد لإنكلترا وفرنسا، فقد تحولت إلى أدوات لها. وكان القول الشائع في القرن الثامن عشر في إنكلترا وفرنسا وهولندا أنه لو كانت الجزائر غير موجودة لكان من مصلحة إنكلترا أو فرنسا أو هولندا أن تتفق المال لتوجدها. فقد كان بوسع الإنكليز والفرنسيين والهولنديين أن يدفعوا للجزائريين ليهاجموا منافسيهم وليجعلوا المتوسط منطقة خطر على الدينماركيين والسويديين والإسبان والبرتغاليين والإيطاليين.

وقد سارع البريطانيون إلى إبلاغ الجزائر عندما استقلت الولايات المتحدة، وفي ١٧٨٥ أسر الجزائريون سفينتين أمريكيتين وإحدى عشرة سفينة أخرى في ١٧٩٣. وخلقت هذه العمليات مشاكل للقادة السياسيين الأمريكيين - جون آدامز وجون جاي وبنجامين فرانكلين وتوماس جيفرسون - ومتاعب لا تقل إزعاجاً للمواطنين الأمريكيين. وعلى الفور اقترح جيفرسون، الذي كان وزيراً لدى فرنسا منذ ١٧٨٥، شن الحرب التي رأى أنها سوف تثبت لكل من دول إفريقيا وأوروبا أن الولايات المتحدة أمة من طراز جديد، لا يمارس ألعاب سياسة القوة المتبعة في أوروبا.

ورأى جون آدامز، الذي تبنت إدارته شعاراً يقول "الملايين من أجل الدفاع ولا سنتاً واحداً كجزية"، أن الولايات المتحدة، شأنها شأن الأوروبيين، يجب أن تدفع جزية للجزائر. اعتقد آدامز أن السلام يمكن أن يكون أقل كلفة من الحرب وأن الجزية للجزائريين والطرابلسيين هي ثمن التجارة في المتوسط.

وانتصر رأى آدامز. وبمجرد أن هدأت العلاقات مع الجزائر وتونس وطرابلس الغرب، بفضل المعاهدة، أرسل الرئيس آدامز القناصل إلى دول البربر. وكان لهؤلاء القناصل دور مزدوج كدبلوماسيين ورجال أعمال مستقلين يكملون رواتبهم الضئيلة بمشروعاتهم التجارية الخاصة بهم. كانوا يتكفون بعضهم بعضاً ولا يميزون بين مصالحهم الشخصية ومصالح بلادهم. وبدلاً من صيانة السلام الأمريكي في المتوسط فإن هذه السياسة أفضت إلى الحرب مع طرابلس الغرب.

وانطوت الحرب مع طرابلس الغرب على أهمية أيديولوجية كبرى، بالنسبة للأمريكيين، الذين تصوروا أنهم يفعلون ما عجزت الأمم الأوروبية عن فعله أو ما لم تتوفر لديها الإرادة لتفعله: إلحاق الهزيمة بالاستبداد والقرصنة الإسلاميتين. وبرهنت هذه الحرب للأمريكيين على وضعهم الحقيقي كأمة وأكدت أن أمتهم من شأنها أن تكون أمة مختلفة - مختلفة عن أمم أوروبا الراضية بدفع الجزية لدول البربر، وعن الدول المسلمة التي دمرها حكامها ومزقتها شعبها المعوز المتوحش. وبالنسبة للأمريكيين تجاوز مغزى الحرب الأهداف العسكرية، إلى حد بعيد. وقال البابا بيوس السابع إن الأمريكيين فعلوا في سنوات قليلة أكثر من كل ما فعله العالم المسيحي في قرون. لقد أذلوا الدول المسلمة في شمال إفريقيا. كان هذا هو المقصود بالحرب مع طرابلس الغرب، لكنه كان درساً موجهاً لأوروبا. أثبت الأمريكيون أنهم يتصرفون بأفضل من الأوروبيين وأنهم لا يخضعون لمطالب طرابلس الغرب ولا يستخدمون دول البربر لطرد منافسيهم من البحر. وألهمت الحرب الشعب الأمريكي بشعور متجدد برسالتهم وقدرهم.

هذه هي القصة. ولكن كما أن شهرزاد تروي حكايا صغيرة كثيرة في سياق سردها لحكاية كبيرة، فهذه القصة الكبيرة تنطوي على حكايا كثيرة أصغر. وقد استخدمت شهرزاد قصصها الصغيرة لتبرز النقاط في قصتها الكبرى، وبالمثل فإن الجوانب الثانوية لهذا التاريخ تساهم جميعاً في الكل. كل الأجزاء الثانوية لقصة العلاقات الأمريكية مع العالم المسلم تؤثر على الموضوعات الأكبر، موضوعات الحرية والقوة والتقدم الإنساني. وقد تدفق سيل من الكتب عن العالم المسلم في المطابع الأمريكية في تسعينيات القرن الثامن عشر: قصص الأسرى، تواريخ، من بينها سيرتان عن محمد، روايات وقصائد، والطبعة الأمريكية الأولى من ألف ليلة وليلة. ونقل هذا الأدب صورة متسقة عن العالم المسلم، صورة مقلوبة للعالم الذي كان يسعى الأمريكيون إلى خلقه من جديد. وقد أعطت القدرة على إعادة خلق العالم الأمريكيين فرصاً لا تنتهي لتحسين حياة الناس وفرصاً مماثلة لتدميرها. وفي الأدب الذي يتناول العالم المسلم كان بوسع الأمريكيين أن يروا ماذا يمكن أن يحل بالناس الذين يستقرون على

خيارات خاطئة. لقد منح محمد الناس فرصة للتحول، وقد تحولوا، فاعتنقوا ديناً جديداً، وبنوا دولاً وإمبراطوريات جديدة، وأعادوا تنظيم الحياة الأسرية. لكن كل تحول أصبح خطأً مأساوياً. فالشعوب التي كانت مزدهرة في مصر وتركيا وموريتانيا وسوريا أفقرتها حكومات سيئة، وتحولت أراضيهم الخصبة إلى صحارى. وفي الجزائر وتونس وطرابلس الغرب تم الانحراف بالتجارة النزيهة إلى القرصنة بسبب الدايات والباشوات الشرهين. وفي كل مكان نزلوا بالنساء إلى الحريم والسلامك، كضحايا لتسلط جنسى بغير قيود. كان العالم المسلم درساً للأمريكيين حول ما يجب أن يتجنبوه، حول العجز عن بناء دولة، وعن تشجيع التجارة، وعن إنشاء الأسر. فمن الضروري كبح جماح السلطة، وضمان الحرية للرجال والنساء حتى يزدهروا وللمجتمعات حتى تتقدم.

لكن الشعب الأمريكى وإن تجنب بعض الشرور فإنه لم يتجنب الشرور كلها. فكيف للولايات المتحدة أن تدين الجزائر لأنها تسترق الأمريكيين في حين أن الأمريكيين أنفسهم يسترقون الأفريقيين؟ إذا كان استرقاق الأمريكيين خطأً أفليس استرقاق الأفريقيين خطأً؟ جعلت العبودية في الولايات المتحدة من تهنة الأمريكيين لأنفسهم على تجنبهم الطغيان السياسى أو الدينى أو الجنسى أمراً أجوف ومناققاً ومخجلاً. ربما أثبتت الحرب ضد طرابلس الغرب أن الأمريكيين خلقوا، بالفعل، أمة من نوع جديد. لكن الأمريكيين عادوا من "الرق" في الجزائر والمغرب وطرابلس الغرب إلى بلد تجذر فيه الرق بأعمق مما كان في أى مجتمع مسلم. ويتجنب أخطاء المسلمين الذين كانوا يخضعون دون تساؤل للحكام والدين، ظن الأمريكيون للحظة أنهم تجنبوا مصير كل إمبراطورية لم تقم إلا لتسقط. لكن العبودية في أمريكا ظلت تذكرهم، على الدوام، بفشلهم. والدرجة التي سلم بها مواطنوهم بالعبودية باعتبارها شراً لا بد منه أو أقروها باعتبارها خيراً إيجابياً هي الدرجة التي تصل إليها إدانة الأمريكيين بين يدي إلههم العادل، إله المسيحيين والمسلمين، الذي يقضى بين كل البشر.

يبدأ هذا الكتاب فى زمن الخوف، فى السنوات التى تلت الثورة الأمريكية، قبل إرساء الدستور، قبل أن تكون للولايات المتحدة حكومة أو جيش أو بحرية. وينتهى فى زمن النصر بعد أن هزمت الولايات المتحدة، لا طرابلس الغرب وحدها ولكن إنكلترا، أعظم قوة عسكرية فى العالم. تغلب الأمريكيون على مخاوف الثمانينيات والتسعينيات من القرن الثامن عشر، المخاوف من الوقوع فى مهاوى الفوضى أو الاستبداد. وأفضى النجاح فى إقامة حكومة دستورية والحفاظ عليها، والانتصارات العسكرية على طرابلس الغرب وعلى إنكلترا، إلى عهد من الثقة والاطمئنان القومى. لكن بقى الأمريكيون مع مشكلة الرق التى لم تحل باعتبارها مصدر خزى دائم يعكر شعورهم بالتفوق الأخلاقى. ولا يزال ميراث العبودية يطاردنا، وهو ما يثبت أنه شبح أخطر وأقوى من أى جنى أو سلطان أو آية الله.

الفصل الأول

السياسة الأمريكية تجاه العالم المسلم

شعر باتريك هنرى بالقلق. وصل ثلاثة غرباء غامضين، رجلين وامرأة، إلى فيرجينيا فى ذلك الوقت من نوفمبر ١٧٨٥ وشك الحاكم هنرى فى أنهم يخططون لأمر شريرة وخادعة. كان أحد من سبقوه إلى منصب الحاكم، وهو توماس جيفرسون، قد خرج من منصبه خروجاً مشيناً، قبل أربع سنوات، بعد أن فشل فى الدفاع عن الولاية ضد غزو بريطانى. لم تعد بريطانيا تهدد سلام فرجينيا وأمنها، منذ اعترفت بالاستقلال الأمريكى، لكن هنرى كان يشك فى أن هؤلاء الغرباء الثلاثة هم طليعة الكشافين لعدو أشد خطراً. اعتقد أنهم جواسيس وجههم إلى فيرجينيا داي الجزائر.

ولم يكن خوف هنرى من الجواسيس الجزائريين أمراً غريباً. كانت الجزائر قد أعلنت الحرب على الولايات المتحدة فى يوليو ١٧٨٥، وشجعها البريطانيون على أن تفعل ذلك، لتفر التجارة الأمريكية من منطقة المتوسط بسبب الخوف. وروت الصحف البريطانية أن الجزائريين قد أسروا، بالفعل، "عدداً غير محدود" من السفن الأمريكية، من بينها سفينة كانت تحمل بنجامين فرانكلين فى طريق عودته من فرنسا. وقالت التقارير إن فرانكلين احتمل "عبوديته بشكل يثير الإعجاب"^(١). وقالت صحيفة فى نيويورك إن الجزائريين اعترضوا سفينة إنكليزية خمس مرات، وهى فى طريقها من لندن إلى لشبونة، ظناً منهم أنها أمريكية. وكتب المشترع الفيرجينى جون بانيستر إلى توماس جيفرسون، الوزير الأمريكى لدى فرنسا، فى ديسمبر ١٧٨٥ يقول إن "سكان

هذه الولايات شديداً الانزعاج من العداوة مع الجزائريين " وإن هذا الخوف أوقف تجارة الأمريكيين مع إسبانيا وغيرها من البلدان المتوسطية. وكان لهذا "أعظم الأثر على تجارتنا في الغلال". وفي ظل هذه الأخطار سقطت صناعة النقل الأمريكية في أيدي البريطانيين" الذين تقتضى مصالحهم قمعنا عندما يتولون شؤون نقلنا" (٢). وكتب صمويل هاوس من فيلادلفيا يقول إن التجارة تتدهور وإنه ما من سفينة أمريكية تستطيع أن تنقل بضاعة من أوروبا. وكان هذا الخوف من اختطاف القراصنة البربر للسفن الأمريكية يعنى أن تخطف السفن البريطانية كل أنشطة النقل أو أن يدفع الأمريكيون أقساط تأمين باهظة (٣).

وحذر الفرنسي جيمس لومير هنى من أنه إذا لم يؤذ الجزائريون الساحل الفرجيني بأنفسهم فإن "بعض الأشرار من البريطانيين أو الأيرلنديين أو من جيرسى أو من غويرنسى قد يفعلون ذلك، بتكليف من الجزائر وبعد أن يتنكروا كجزائريين". واقترح لومير أن يتم إرساله هو إلى فرنسا لشراء فرقاة وأن تكلفه فيرجينيا بحمايتها من الهجوم الجزائري المرتقب (٤).

بدا هذا الخوف لجيفرسون أمراً محبطاً. فالجزائريون لم يكونوا قد أسروا أى سفينة أمريكية، والبريطانيون كانوا يستخدمون الخوف من الجزائر لتدمير التجارة الأمريكية. صحيح أن المغرب أسرت السفينة التجارية الأمريكية بيتسى فى أكتوبر ١٧٨٤. لكن المغرب فعلت ذلك لغرض محدد. اعترف الإمبراطور مولاي محمد (الذى حكم من ١٧٥٧ إلى ١٧٩٠) باستقلال أمريكا فى ١٧٧٨ لكن الأمريكيين كانوا عاجزين حتى ذلك التاريخ عن إرسال من يفاوضه. ولكى يجذب انتباه الأمريكيين أمر بأسر سفينة أمريكية ووعد بأن يبقيا رهينة حتى تبعث الولايات المتحدة إليه بوكيلها الدبلوماسى (٥).

وعندما سمع صديق جيفرسون جون بيج، بأسر بيتسى سأل إن كان صحيحاً أن "إمبراطور مراکش فاتح الكونغرس عدة مرات" وتم تجاهله وأنه، نتيجة لذلك، أرسل بقراصنته ليطاردوا السفن الأمريكية. وكان بيج يأمل أن تكون هذه "حكاية بريطانية"

شأنها شأن الهجمات الجزائرية وإن ظل على اعتقاده بأن "قليلا من التملق وبعض الهدايا واحتمال أن نتاجر معهم" قد يؤمن التجارة الأمريكية في المتوسط. وكان ريتشارد هنري لى يأمل أن ينجح المفاوضون الأمريكيون في إرضاء دول البربر وفتح المتوسط أمام التجارة، وكان ينتقد "الروح الشرهة والاحتكارية للتجارة والتجار" مثل البريطانيين الذين أغلقوا المتوسط بوجه الأمريكيين مانعين بذلك الاتصال بين أنواع البشر في مختلف أرجاء العالم"^(٦).

وبعد أسر بيتسى ذهب جون أدامز إلى وزير خارجية فرنسا الكونت فيرجين، طلباً لنصيحته. وأوعز فيرجين إلى أدامز بأن الإمبراطور مولاي محمد، الذي وصفه بأنه الأكثر جشعا" وحرصاً بين الرجال في العالم" أغاظه تقاعس الأمريكيين عن إرسال هدايا إليه. أخبر فيرجين الأمريكيين بذلك وامتنع عن إسداء مزيد من النصيح. واقترح عليهم طلب المشورة من الماركيز دي كاستري وزير بحرية فرنسا، من أجل المزيد من المعلومات. وعندما تساءل جون أدامز عما إذا كانت فرنسا جددت معاهدة ١٦٨٤ مع الجزائر ابتسم فيرجين وقد راقه أن أدامز كان يعلم ذلك، لكنه لم يجب على تساؤل أدامز. لم يكن من مصلحة فرنسا أن تساعد التجارة الأمريكية في المتوسط، وكان فيرجين وأدامز وجيفرسون يعلمون ذلك كلهم. وطلب فيرجين من أدامز أن يوجه تساؤلاته إلى كاستري، الذي كان أدامز يعلم أنه سيكون أكثر تكتما حتى من فيرجين"^(٧).

كانت مصلحة إنكلترا تقتضي الإضرار بالتجارة الأمريكية، لكن لم تكن مصلحة فرنسا تقتضي مساعدة الولايات المتحدة. لكن من مصلحة إسبانيا أن تسدى معروفاً إلى الأمريكيين وإلى المغاربة. فقد كانت إسبانيا قد اقتنعت بأن من المرجح أن تصمد الولايات المتحدة وكان وزير خارجية إسبانيا فلوريدا بلانكا يعتقد أن الولايات المتحدة يمكن أن تكون حليفا مهما ضد البريطانيين في أمريكا الشمالية. كانت إسبانيا تعد لحملة ضد الجزائر، وكان فلوريدا بلانكا يريد مراکش حليفاً في شمال إفريقيا. وهكذا توسطت إسبانيا لدى مراکش وفي مارس ١٧٨٥ أعاد مولاي محمد السفينة بيتسى،

ووعدت الولايات المتحدة بأن ترسل مفاوضاً^(٨). وخصص الكونغرس ٨٠,٠٠٠ دولار للمفاوضات مع دول البربر الأربع (مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب). وأبلغ وزير الخارجية الأمريكي جون جاي المبعوثين بأنهم "سيجدون أنه من المفيد شراء نفوذ أولئك... القادرين على حجب أو تعزيز وجهات نظرهم" بخاصة في "دوائر البلاط التي يحكمها الانحياز والفساد"^(٩).

ورغم أن الدبلوماسيين الأمريكيين كافحوا للفوز بمساندة من الأوروبيين وبمعاهدات مع شمال إفريقيا، فإن الحاكم هنري ومجلسه كانوا غير مطمئنين إلى ما يجب عمله مع الغرباء الثلاثة من الشمال الإفريقي في فيرجينيا. وأمر هنري بحبسهم في نورفولك، ثم أرسلهم إلى ويليامز بيرغ، وأخيراً جاء بهم إلى ريتشموندر. وبعث هنري بطبيب ريتشموندر وهو وليم فوشى لاستجواب الغرباء، قدر المستطاع، وللتفتيش في متاعهم. ووجد فوشى قليلاً من المال، ولم يجد سلاحاً، ووجد بعض الوثائق بالعبرية، مع وثائق السفر الخاصة بهم. ورغم أن هذا لم يبد له عدة للغزو، فإن فوشى لم يقتنع برواية الغرباء. قالوا إن الوثائق العبرية كانت للسماح لهم بدخول معبد، وبما أنه فوشى لم يكن يقرأ العبرية فلم يكن بوسعه التصديق على ذلك. ولم تكن روايتهم التي زعموا فيها أنهم مسافرون من إنكلترا تتطابق مع الوثائق الإنكليزية التي يحملونها والتي تشير إلى أن الثلاثة من مراكش. وأوضح الثلاثة لفوشى أن جهلهم بالإنكليزية يحول دون إقرارهم بما تقوله الأوراق المكتوبة بتلك اللغة. ولم يكن استجواب فوشى للثلاثة مرضياً. لم يطمئن لا إلى هيئتهم ولا إلى روايتهم، لكنه لم يستطع أن يثبت شيئاً. وأرسلهم إلى نورفولك، وأمر هنري بإعادتهم إلى وطنهم، حيثما كان. واستاء الثلاثة لأنهم لن يذهبوا إلى فيلادلفيا حيث كانوا يظنون أن استقبالهم كان يمكن أن يكون ودياً بدرجة أكبر^(١٠).

وبعد أن حملت السفن هؤلاء الثلاثة بعيداً عن الولاية، أصدر مشترعو فيرجينيا قانوناً يمنع مثل هؤلاء الغرباء الخطرين من إيذاء الشعب مجدداً، أو من المساس بسلامة فيرجينيا. وخول المجلس التشريعي الحاكم سلطة ترحيل الغرباء المنتمين لبلدان في حالة حرب مع الولايات المتحدة. وكان هذا القانون في فيرجينيا مقدمة لقانون ١٩٧٨

عن الأعداء الغرباء، الذى أعطى رئيس الولايات المتحدة سلطة ترحيل الغرباء المنتمين إلى بلدان فى حالة حرب مع الولايات المتحدة. وسوف تعلن فيرجينيا فى ١٩٧٨ أن قانون ترحيل الأعداء الغرباء انتهاك غير دستورى للسلطة. وفى ١٧٨٦ كان المجلس التشريعى فى فيرجينيا يحاول السيطرة على غرباء ذوى مظهر مريب، لكنه حد فى الوقت ذاته من سلطة الولاية. فقد أعطى التشريع الحاكم سلطة ترحيل غير المرغوب فيهم، لكنه أقر أيضاً قانون الحرية الدينية الذى يحظر أى تشريع فى المستقبل يمكن أن ينطوى، كما قال راعى مشروع القانون جيمس ماديسون "الأمل الطامح إلى إصدار قوانين تحكم العقل الإنسانى". وبدون أن يقف عند حد التسامح مع المعتقدات الدينية المختلفة فإن القانون الفيرجينى، حسب واضع صيغته توماس جيفرسون، ضمن الحرية الدينية "لليهودى والأمرى، للمسيحى والمحمدى والهندوسى والوثنى من كل مذهب". لقد أبعد الفرجينيون الغرباء عن البلاد فيما حفظوا حقهم فى أن يتعبدوا فى معبد أو فى مسجد^(١١).

وسوف يعتبر جيفرسون، فى فترة لاحقة، أن هذا القانون الذى يضمن حرية الاعتقاد الدينى واحد من أعظم إنجازاته. لكن ثبت أن تحرير العقل الأمريكى أسهل من تحرير البحار لصالح السفن الأمريكية. وظل جيفرسون وأدامز ينتظران طوال صيف ١٧٨٥ أن يرسل الكونغرس مفاوضات. وأكد أصدقاء جيفرسون فى أمريكا له أنه ليس الوحيد الذى يتساعل عما ينتوى الكونغرس عمله. وكتب فرانسيس هولكنسون من فيلادلفيا يقول "ما نعرفه نحن هنا عن الكونغرس لا يزيد كثيراً عما نعرفه وأنت فى فرنسا - وربما كنت أنت تعرف أكثر". فقد كان الكونغرس "نادراً ما يذكر فى الصحف أو لا يذكر أبداً، وكان الكلام عنه أقل مما لو كان موجوداً فى جزر الهند الغربية". وكتبت إليزا هاوس تريست تقول "بين الحين والحين نسمع عن عضو محترم يتخذ زوجة وإلا لما كنا شعرنا بوجود هيئة تدعى الكونغرس"^(١٢).

وبعث الكونغرس جون لامب، تاجر البغال من كونيككتكت الذى لديه قدر من الخبرة بالمتوسط، إلى باريس فى ربيع ١٧٨٥. ولم يصل لامب إلى باريس إلا فى الخريف،

ولم يبلغ الجزائر إلا فى ربيع ١٧٨٦. وعندئذ أدرك جيفرسون وأدامز أن لامب قليل الكفاءة، وكان أوان العثور على غيره قد فات. ولم يعتبر جيفرسون أن تدنى الصلاحية عند لامب يمثل مشكلة، وقال إنه حتى الملاك يعجز عن مفاوضة الجزائر. وفيما كان جيفرسون وأدامز ينتظران لامب البطيء، أعلنت الجزائر الحرب على الولايات المتحدة، وفى سبتمبر ١٧٨٥ علم جيفرسون أن الجزائر أسرت سفينتين أمريكيتين.

وأراد الكونغرس أن يتفاوض، وبدا أن معظم الأمريكيين يفضلون دفع الجزية عن شن الحرب. وكان معظم الأمريكيين يدركون أن البلاد من دون حكومة مركزية قادرة على جمع المال أو القوة العسكرية، لم تكن فى مركز يساعد على خوض حرب فى المتوسط. وحث جون بيج وريتشارد هنرى لى جيفرسون على استخدام التملق والهدايا لضمان حرية التجارة فى المتوسط، وأزعج بيج ما علمه من أن مولاي محمد فى المغرب كان يريد السلام مع الأمريكيين منذ ١٧٧٨ لكن الولايات المتحدة استغفرتة بعجزها عن إرسال مفاوض. ولم يوافق جيفرسون. فرغم أنه كان هو الآخر مدركاً بالحقيقة المؤلمة للضعف المالى والعسكرى للبلاد، فلم يكن بوسعها قبول فكرة دفع الجزية للجزائر أو لمراكش. وقد أخبر بيج بأنه لا يعرف كم تتكلف معاهدة مع مراكش، لكنه واثق من أن الثمن يفوق ما يمكن أن يتخيله بيج وأنه بالتأكيد "أكثر مما يجب أن يدفعه شعب حر". كان "النص الإنكليزى" للمفاتيح الودية من مولاي محمد للولايات المتحدة "يقول هذا بوضوح. إنه مستعد أن يقبلنا ضمن من يدفعون له الجزية". وسوف تكون الجزائر، أقوى دول البربر، التالية له، تتبعها تونس ثم طرابلس الغرب. قبلت الدول الأوروبية بفكرة دفع الجزية لدول البربر، لكن جيفرسون لم يجد مبرراً "لوضع نصف الكرة الأرضية الآخر تحت أقدامهم" وسوف يشعر كل أمريكى بهذا الغرم وهو يدفع الضرائب.

ولم يكن جيفرسون يعتقد أن شراء السلام مع الجزائر والملكيات الأخرى أرخص من خوض الحرب. يتعلق الأمر "بشرفنا وبشراھتنا" والعجز عن تأسيس هوية وطنية أفضل "سوف يدخلنا قريباً فى حرب بحرية" إن لم يكن مع الجزائر فمع إنكلترا. كان على أمريكا أن تظهر القوة والحيوية لكل من دول البربر ولأوروبا. فشراء السلام،

وهو الحل قصير الأمد، لن يمنع الحرب التي اعتبرها جيفرسون الحل طويل الأمد الوحيد. فضمامان "السلام من خلال الوسيط الحربى" يمكن أن يجعل الدولة حديثة الاستقلال تكسب احترام أوروبا^(١٣).

لم تكن الولايات المتحدة مستعدة للحرب، لكن جيفرسون كان واثقاً من أنه لن يتعين عليها خوض هذه الحرب وحدها. فقد أكدت مفاوضات إسبانيا لتحرير السفينة بيتسى لجيفرسون المصالح المشتركة بين إسبانيا والولايات المتحدة. فكل من الدولتين كان يتهدده الوجود البريطانى شمالى نهر أوهايو وتورط بريطانيا فى أمريكا الوسطى. وكان جيفرسون يأمل أن يدرك الأمريكيون هذه المصالح المشتركة وينضموا إلى حملة إسبانيا ضد الجزائر^(١٤). وكان القائم بالأعمال الأمريكى فى إسبانيا وليم كار مايكل يعتقد أن إسبانيا ميالة إلى التعاون مع نابولى والبندقية ضد الجزائريين. وبما أن إسبانيا ساعدت الأمريكيين فى مراكش، فمن المناسب لأمريكا أن تنضم إلى إسبانيا فى هذا المشروع العسكرى المتعدد الجنسيات. وخول الكونغرس جيفرسون بالتفاوض، لكن جيفرسون لم يكن يرى جدوى من التفاوض مع الجزائر. وقد لخص رسالة وجهها إلى صديقه فى إيطاليا فيليب مازايى بقوله: "أتساءل كيف نطلب السلم، بالسيف أم بالمال؟". وسأل جيفرسون دبلوماسياً من نابولى فى فرنسا عما إذا كانت بلاده ستتعاون مع الولايات المتحدة فى معارك مشتركة ضد دول البربر^(١٥). تخيل جيفرسون أن بوسع الولايات المتحدة المساعدة على إنشاء قوة متعددة الجنسيات من بلدان أوروبا الأصغر شأنًا مثل إيطاليا والبلدان الإسكندنافية والبرتغال وإسبانيا أيضاً. ولم يكن لها أن تتوقع مساندة من بريطانيا أو فرنسا.

وقبل إطلاق رصاصة واحدة كان جيفرسون يعتقد أن الحرب هى السياسة العملية والنزيهة الوحيدة فى التعامل مع الجزائر ودول البربر الأخرى. ولكن باعتباره دبلوماسياً كان ملزماً باتباع تعليمات الكونغرس. وبحلول خريف ١٧٨٥، وعندما كانت الجزائر قد أعلنت الحرب، بالفعل، وكان باتريك هنرى يخشى وقوع غزو جزائرى، كان جيفرسون لم يتلق، بعد، كلاماً رسمياً من الكونغرس. وعاد لامب "هذا الخادم الكسول" ببطء إلى أوروبا،

وإن كانت المراسلات الخاصة أبلغت جيفرسون وأدامز بما تضمنته التعليمات، لكن جيفرسون وأدامز لم يكن بوسعهما أن يفعل شيئاً من دون الكلمة الرسمية.

وأصبح الانتظار محبطاً، بدرجة أشد. وعلم جيفرسون في منتصف سبتمبر أن السفينتين "بولى" و "توفن" استولى عليهما الجزائريون، وأن إسبانيا والجزائر تتفاوضان. وسمع جيفرسون أن إسبانيا ستعطي الجزائر ما يعادل مليون دولار، وإن لم تكن التفاصيل قد تم الانتهاء منها. وبدا أن البرتغال ونابولى قد توقعان، هما أيضاً، معاهدتين مع الجزائر، مدمرتين بذلك أمل جيفرسون في إنشاء قوة متعددة الجنسيات. وكان واضحاً أن الوقت ينفد بالنسبة للأمريكيين. وإن لم يصل لامب في السفينة النظامية التالية أصبح لازماً على جيفرسون أن يبعث توماس باركللى إلى الجزائر فوراً^(١٦).

ولم يندهش البطل البحرى الأمريكى جون بول جونز عندما سمع بأن الجزائر أعلنت الحرب؛ لكنه اندهش عندما لم يحدث ذلك من قبل. كان جونز يأمل أن تدفع هذه الحرب الأمريكيين إلى الاتحاد "في تدابير تتناسب مع شرفهم ومصالحهم الوطنية" وتنهضهم من "الطمأنينة غير المبررة التى خلقتها نشوة النجاح منذ الثورة". وكان هذا، بالضبط، ما يريد جيفرسون سماعه، وكان يشارك جونز الأمل فى أن يبادر الأمريكيون إلى الفعل "الذى يجعلنا محترمين كشعب عظيم يستحق أن يكون حراً"^(١٧).

وكان جيفرسون يقاسم جونز المشاعر ذاتها، لكن الكونغرس قرر التفاوض ولم يكن بوسع جيفرسون أو جونز أن يعلنوا الحرب ضد رغبة الكونغرس. وشعر جيفرسون بأنه "معلق بين الغضب والعجز". وانضم جون جاي إلى جيفرسون فى تفضيل الحرب على الجزية، لكن معظم الأمريكيين لم يروا هذا الرأى. ورغم أن بعض الأمريكيين أرادوا الحرب، حسب القنصل الأمريكى فى نيويورك، فإن أعداداً أكثر بكثير كانوا مستعدين لقبول الجزية لضمان أمن التجارة فى المتوسط. بل إن أولئك الذين أرادوا الحرب كانوا يقرون بضعف بلادهم. وتساءل إيزرا ستايلز، رئيس جامعة بيل "هل يتعين علينا، نحن أيضاً، أن ندعم الجزائر بالمال؟" وقال لجيفرسون DELENDA EST CARTHAGA

(لا بد من تدمير قرطاجة، هذه صيحة حرب رومانية لتعبئة الجهود الحربية التي انتهت بدمار كامل لقرطاجة - المترجم). لا بد من هزيمة الجزائر، وإلى أن تصبح الولايات المتحدة جاهزة لإخضاع الجزائر بالقوة "يجب أن ننفق عشرين ألف جنيه إسترليني وندعم دولة القراصنة هذه" ما دامت التجارة في المتوسط يمكن أن تدر دخلاً سنوياً، بهذا المقدار، على الولايات المتحدة^(١٨).

ووافق وزير الولايات المتحدة في لندن جون أدامز على أولئك الذين فضلوا دفع الجزية على الحرب. ولم يكن يرى آدم أن التفكير الاقتصادي السليم يقتضى التضحية "بمليون جنيه إسترليني سنوياً" من التجارة "لتوفير هدية واحدة قيمتها مائتا ألف جنيه". ولو دفع الأمريكيون كما وقع غيرهم لكان عندهم الآن، هكذا فكر أدامز، مائتا سفينة في المتوسط، تدر من رسوم النقل وحدها ما يساوي مائتي ألف جنيه إسترليني. فمن شأن هدية بسيطة إلى داي الجزائر أن تفتح أبواب المتوسط وترفع سعر القمح الأمريكي. وبدلاً من ذلك، فإن تردد الأمريكيين في دفع رشاً وقليلة كان يعنى إغلاق المتوسط ومعاناة الزراع والفلاحين الأمريكيين. وانضم أدامز إلى جيفرسون وغيره من رجال الدولة الميالين للحرب في إظهار الأسى لأن "سياسة العالم المسيحي جعلت من كل بحارته جبناً أمام راية محمد" ووافق على أن "البطولة والعظمة يقتضيان منا أن نعيد الشجاعة إلى بحارتنا". لكن ما كان يعلمه عن الشخصية الأمريكية وعن الطبيعة الإنسانية كان كافياً لأن يحول دون أن يظن أن أهل وطنه يمكن أن يكونوا مختلفين، على الإطلاق. بالطبع، لو أن الشعب الأمريكي انعقدت إرادته على أن يحارب الجزائريين والأهم من ذلك، لو أنهم خصصوا أموالاً للقضية، لفعلوها". لكن صعوبة إقناع شعبنا بذلك، لم تفت في عضدي، قط^(١٩). هل كان بوسع جيفرسون أن يقنع مزارعي فيرجينيا وكارولينا الجنوبية بمساندة إنشاء قوة بحرية؟ كان أدامز يعلم أن الناس في بنسلفانيا وسائر ولايات الشمال كان يسعدهم أن يفعلوا ذلك، وكان هو نفسه يعتقد أن الوقت مناسب لإنشاء قوة بحرية. لكن أدامز أنفق معظم وقته في أوروبا يحاول اقتراض المال لسداد الديون الأمريكية. وكانت لديه صورة شديدة الوضوح عن قلة المال الذي تملكه الولايات المتحدة أو الذي تستطيع جمعه.

لم يستعد الأمريكيون للحرب ولم يتفاوضوا حول السلام. وأعلنت الجزائر الحرب على الولايات المتحدة، وعقدت إسبانيا سلاماً مع الجزائر، وكان محتملاً أن تفعل نابولي والبرتغال الأمر ذاته، مطلقين يد الجزائر، بالكامل، لتهاجم السفن الأمريكية في الأطلسي. وتشكى وليم كار مايكل من أن الولايات المتحدة لم تفتنم الفرصة، إما بالانضمام إلى الهجوم الإسباني على الجزائر، وإما بالدفع لإسبانيا حتى تهاجم الجزائر. وكتب إلى جيفرسون يقول له: "ها هي النتائج المدمرة، يا سيدي، للاهتمام بالاقتصاد في توقيت سيئ".

وجد جيفرسون اتصالاته مع وزراء خارجية نابولي وغيرها من الدول المتوسطية، يحثهم على عمليات مشتركة ضد الجزائر. ودرس تاريخ الهجمات الفرنسية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ضد الجزائر، بخاصة الحصار البحري الفرنسي الذي نفذته فرقاطتان وبارجة. وبقي على اتصال وثيق مع جون بول جونز الذي كان يرى ضرورة إرساله إلى الجزائر عندما تفشل مفاوضات لامب، التي كان جيفرسون يعلم أن هذا هو مصيرها. وبالتشاور مع لافاييت الذي كان يقوم بدور الواجهة لجيفرسون، خطط لحلفه متعدد الجنسيات ضد قوى البربر. وكتب إلى عضو برلمان فيرجينا جيمس مونرو أن السلام مع دول البربر قد يتكلف ٢٥ ألف جنيه إسترليني لكنه لن يبقى إلا ببقاء اعتقاد دول البربر أن أمريكا قادرة على أن تفرضه. وقال جيفرسون إن الكونغرس يتعين عليه أن يوازن بين ذلك وبين "الكلفة والنجاح المحتمل لفرض السلام بالسلاح". فالحصار لن يكلف أكثر من ٢٠٠٠ جنيه إسترليني شهرياً وسوف يأتي بنتيجة في وقت قصير^(٢١). وجعل جيفرسون لافاييت يكتب إلى هنري نوكس وغيره من المسؤولين الأمريكيين، مقترحاً تنفيذ الحصار. وقد تصرف لافاييت نيابة عن جيفرسون الذي لم يرغب في لفت الانتباه إلى اختلافه مع أدامز أو مع الكونغرس. وأبلغ لافاييت أصدقاءه الأمريكيين بأن حصاراً ناجحاً يمكن أن يحول دول البربر من "دول قراصنة" إلى "شعب من التجار" وروج لفكرة إرسال جون بول جونز للتفاوض بحيث تدعم الدبلوماسية بالتهديد بالقوة العسكرية. وكتب لافاييت يقول "كلما أسرعتم بإرساله كلما كان ذلك أفضل"^(٢٢).

وبينما كان جيفرسون ولافاييت وجونز يناقشون هذا الخيار العسكرى فى باريس، كان جون آدمز يسعى، فى لندن، وراء حل دبلوماسى. وفى فبراير ١٧٨٦ وصل إلى لندن عبد الرحمن سفير طرابلس الغرب. وعقد ثلاثة اجتماعات مع آدمز، الذى اعتبره "إما سياسيا حاذقا" أو فى حقيقة الأمر "رجل خير وحكمة". وإذا كان عبد الرحمن منزلها عن الغرض كما ادعى فإن "العناية تفتح لنا، على ما يبدو، فرصة لإدارة هذا الأمر الشائك باتجاه نهاية سعيدة"^(٢٣). وأخبر آدمز جيفرسون بضرورة أن يأتى إلى لندن، فوراً. فلا شىء يمكن عمله يساوى نصف قيمة التوصل إلى سلام مع دول البربر.

ورغم أن آدمز كان يخشى من أن تطلب طرابلس الغرب أكثر مما تقدر أمريكا على دفعه، فقد كان على استعداد للذهاب إلى هولندا لاقتراض المزيد. فلم يكن يرغب فى إضاعة هذه الفرصة للحؤول دون "حرب شاملة ورهيبة مع دول البربر هذه، من شأنها أن تستمر لسنوات طويلة". وأخبر جيفرسون بضرورة أن يقنعوا الكونغرس بالمبادرة إلى الفعل. وكان آدمز نفسه شديد "التأثر والقلق" لأنه سيتعين عليه أن يذهب بنفسه إلى نيويورك وإلى الجزائر لحل المشكلة^(٢٤).

ورغم أن جيفرسون لم يتوقع أن تسفر المفاوضات مع عبد الرحمن عن شىء. فقد وصل إلى لندن فى أوائل مارس. لكنهم لم يتوصلوا إلى شىء مع عبد الرحمن. كان ثمن السلام مع طرابلس الغرب ٣٠,٠٠٠ جنيه إسترليني، وهو ما كان يعنى أن تونس ستطلب مبلغاً مماثلاً، ومراكش ٦٠,٠٠٠، والجزائر أقوى دول البربر ١٢٠,٠٠٠ وعاد جيفرسون إلى باريس ملتزماً، أكثر من أى وقت مضى، بالحصار وبالعمل العسكرى.

ورغم ذلك فلم يكن لدى الولايات المتحدة من الموارد ما يكفى لشن هجوم كما كانت عاجزة عن دفع الجزية الباهظة. وفى أمريكا اعترف جورج واشنطن بأن الحكومة الفيدرالية لم تكن لديها القدرة فى ١٧٨٦ لا على دفع الجزية ولا على توجيه تهديدات ذات مصداقية، ولم يكن يرى أن هذا الوضع سيتغير ما لم ينشئ الأمريكيون حكومة مركزية لديها القدرة على فرض ضرائب^(٢٥).

وفى صيف ١٧٨٦ تحسن الموقف. وصل إلى مراكش توماس باركلای رجل الأعمال والقنصل لدى فرنسا، مبعوثاً من جيفرسون وأدامز للتفاوض حول معاهدة مع مولای محمد. وقد اتفق باركلای والإمبراطور على معاهدة خلال أسبوع، والمدهش أن المعاهدة لم تكن تقتضى من الولايات المتحدة أن تدفع جزية لمراكش، فى حين التزمت مراكش بأن تبقى سفن الجزائر خارج الأطلسى. وأبلغ لافاييت جيفرسون بأن أوروبا كلها مندهشة لهذه المعاهدة، التى لم تتطلب جزية، ومنبهة بالمهارات الدبلوماسية للأمريكيين. وزاد مولای محمد فى إظهار نواياه الطيبة بتخليص جيمس ميرسيير الفيرجينى الذى غرقت سفينته والذى أسرته قبيلة صحراوية. ودفع جيفرسون تكاليف عودة ميرسيير إلى فيرجينيا^(٢٦).

وجاء المزيد من الأخبار السارة عندما لم تتبع نابولى والبرتغال إسبانيا فى الصلح مع الجزائر. والحقيقة أن البرتغال قررت حماية السفن الأمريكية من الجزائريين. واعتبر مندوب رود آيلند فى الكونغرس أن اللفتة من ملكة البرتغال "جديرة بأن تحتذى وتتطلب أن تظهر عرفاننا البالغ، لأننا لا نملك أن ندفع لها بما هو أفضل". ورغم أن نابولى لم تقبل بقيادة التحالف ضد الجزائر، فإنها قررت مساندته^(٢٧).

وفى يوليو ١٧٨٦ أسرت الجزائر سفينة روسية. وظن جيفرسون أن ذلك قد يدفع بالإمبراطورة كاثرين إلى الانضمام لحلفه متعدد الجنسيات ضد الجزائر، وعندما طلب وزير خارجيتها من تركيا التدخل لإطلاق سراح السفينة، اعتبر السفير الأمريكى فى إسبانيا أن الإمبراطورة من شأنها "أن تشعر بالسرور وهى ترى واحداً من وزرائها يكتب بهذا التعالى إلى قوة تخطب أوروبا كلها ودها، فى الحاضر" ثم أضاف "متى نصبح فى مركز يجعلنا نتصرف هكذا؟"

وكان جورج واشنطن واثقاً من أن كاثرين لن تنسى أن الجزائريين ساندوا العثمانيين ضدها وأنها "سوف تركز إلى التهدة للحظة، لمجرد أن تبقى أساطيلها فى التدريب على استئصال هذه الشبكات الجانحة"^(٢٨). لكن جيفرسون كان يستعجل اللحظة التى تقدر فيها الولايات المتحدة على أن تنتفض بون أن تعتمد على كاترين

العظمى لحل مشاكلها الدولية. وفيما كان يرقب، بفارغ الصبر، انتفاضة بلاده ضد الترك والجزائريين، راح يسعى لتكوين ائتلاف من الأمم للمساندة المتبادلة ضد دول البربر. وكان جيفرسون يعتقد أن روسيا والبرتغال سوف تنضم إلى التحالف، بل واعتقد أن هاتين الدولتين سوف تبعثان بمعظم قوات التحالف^(٢٩).

وغادر جون بول جونز إلى روسيا في أغسطس. وأدى استيلاء الجزائر على سفينة روسية وأمور أخرى إلى أن أصبحت روسيا على حافة الحرب مع تركيا، وعرض جونز خدماته على كاثرين العظمى. وفي أكتوبر كان جيفرسون ولافاييت قد أكملتا ميثاقهما ضد القرصنة الذي كانا يأملان أن يحظى بتأييد نابولي وروما والبندقية والبرتغال والمدن الألمانية والولايات المتحدة. وكان وارداً أن تستخدم قوات الدول التي توقع على الميثاق ميناء صقلية، وأن تحظى بمساندة من مالطا، وكان لافاييت يعتقد أن ملك نابولي قد يعينهم بكتيبة إذا احتاجوا لذلك. وبسفينتين أو ثلاث من ذوات الخمسين مدفعاً، وست فرقاطات كبيرة، كان يمكن للقوات المتحدة فرض الحصار على الجزائريين. ونقل لافاييت الفكرة إلى الأمريكيين ذوي النفوذ - جورج واشنطن، وهنري نوكس، وجيمس ماكهنري - واثقاً من تأييدهم. وكان لافاييت يعلم أن المشكلة الوحيدة ستكون حكومته هو. "الجزء الشيطاني هنا أن أجعل من المقبول لهذه الحكومة أن أتورط في أمور الحرب"^(٣١).

وكان لافاييت على حق، فقد استدعاه فيرجين إلى مكتبه الخاص في فيرساي، وقال له إن المشروع لن يكون موفقاً. وأكثر من ذلك أن فيرجين تلقى أمراً بأن يطلب من لافاييت أن يتخلى عن المشروع. لم يكن جيفرسون ولافاييت يتوقعان أن تساند إنكلترا أو فرنسا المعاهدة، ولم يتوقعا أن البلدين سيمنعان عن الإذن للآخرين بأن يفعلوا ذلك. وأخبر فيرجين لافاييت بأن الحكومتين الإنكليزية والفرنسية مستفيدتان من القرصنة البربرية ولن تسمحا لأحد بوقفها. ورغم أن معاهدته كانت معاكسة لسياسات أقوى دولتين في العالم، ورغم أن لافاييت تعين عليه أن يخرج من الموضوع فإن جيفرسون لم يتخل عن قناعاته. وكتب إلى السفيرين الروسي والبرتغالي وعلم بأن جون بول جونز

يطرح فكرته على كاثرين العظمى. وفي الوقت ذاته كانت المعاهدة مع المغرب تعنى أن الأطلسي كان آمنا ما دامت البرتغال تخفر أرخبيل جبل طارق^(٣١).

وقد أصبح المتوسط أكثر أمنا هو الآخر، ليس بفضل الأوروبيين ولكن بفضل تفشى الطاعون. كان المئات يموتون كل يوم في الجزائر، بين يناير وأغسطس وبلغت الإصابات أعلى معدلاتها بين عمال الموانئ والبحارة. مات ثمانية عشر ألفا بينهم بعض الأسرى الأمريكيين وأصبحت البحرية الجزائرية أسيرة الميناء الموبوء^(٣٢).

وفي سبتمبر ١٧٨٧ أعدت روسيا العدة لغزو تركيا وظن جيفرسون أن كاثرين العظمى قد تطرد الترك من أوروبا. وقبل سنتين عندما كانت النمسا تحارب الترك كان جيفرسون يعتبر هزيمة العثمانيين أمراً غير مرغوب فيه. وقد وافق أصدقاءه المتفلسفين على أرض الوطن على أنه من المؤسف أن اليونان خاضعة لسلطان المسلمين الذين أخلى دينهم أرضها من الفنون والعلوم التي خلفتها تلك الأرض. لكن انتصاراً نمسويا كان من شأنه أن يحل مجموعة من البرابرة محل الأخرى، ولن يحيى الأرض واللغة اللتين ينتمى إليهما ديموسيثنز وأرسطو^(٣٣). أما عندما كانت روسيا تستعد للحرب ضد تركيا في ١٧٨٧ فقد كان جيفرسون أكثر تفاؤلاً.

ولم يكن جيفرسون الوحيد بين المثقفين التحررين الذي شجع الروس للمضي قدماً. فقد رأى الأب قنستطنطين دو شاسبوف فولني، الخصم الصريح لكل نوع من الاستبداد الثقافي، في تركيا تجسيدا للطغيان وكتب رسالة أيد فيها حرب روسيا ضد العثمانيين، وكافأته القيصرية كاثرينا عليها بميدالية ذهبية. ورأى جيفرسون في توسع الحرب الأوروبية فرصة لأمريكا، بعد أن أشعلت حرب روسيا ضد تركيا "لهب الحرب بالكامل" في "جزئين منفصلين من تلك البقعة من الكوكب" ورغم أن إنكلترا وفرنسا لم تتورطا بعد، فقد ظن أن ذلك سيحدث قريباً. وقد كانت إنكلترا مشغولة لدرجة تمنعها من استخدام الجزائر ضد الأمريكيين، وكانت كاثرين تتذكر كيف أن الجزائر ساندت تركيا ضدها، أما جون بول جونز فكان يخدم في البحرية الروسية.

ورأى جيفرسون وجونز فى تلك الأحداث لحظة عظيمة ليعقد الأمريكيون تحالفاً مع روسيا، وكان جونز يعتقد أن الأمريكيين والروس يمكن لهم الفوز باحترام أوروبا إذا تمكن الاثنان، معاً، من طرد الترك من البحر الأسود. وبعد ذلك كان جونز يعتقد أن الأمريكيين والروس بوسعهما طرد الجزائريين من المتوسط^(٣٤).

ورأى جيفرسون فى مصير تركيا درساً للأمريكيين فقد حاول الأمريكيون، كما حاول الأتراك العثمانيون، أن ينادوا بأنفسهم عن التورط فى شؤون أوروبا. وكانت هذه سياسة حكيمة إلى حد ما أن "لا نورط أنفسنا فى شؤون أوروبا"، لكن الأتراك بالغوا فى هذا الأمر، وكان جيفرسون يخشى من أن يرتكب الأمريكيون الخطأ ذاته. فعندما نادى الأتراك بأنفسهم عن شؤون أوروبا فإنهم "اختاروا اختياراً غير حكيم أن يبقوا جاهلين بها" وبسبب هذا الجهل فإن اهتمامات أوروبا وتحالفاتها تهدد بتدمير الإمبراطورية العثمانية. أراد جيفرسون أن يتبع الأمريكيون طريق الحياد العارف، بتشكيل شبكة من الدول المحايدة فى مواجهة الشبكة الدبلوماسية المرتبكة فى أوروبا^(٣٥).

وفيما كان جيفرسون، على هذا المستوى، يعالج النظرية والتحالفات الدولية، فقد بقى عليه أن يعالج الأمور العملية المتعلقة بالأسرى الأمريكيين. لقد فشلت مهمة جون لامب فى ١٧٨٦. وأظهر لامب قلة كفاءة. وأبلغ دافيد همفري جيفرسون أن الناس فى كونيكتيكت أدهشهم أن تعطى هذه المهمة لجون لامب، حيث إن "شخصيته أدنى قيمة فى هذا المجال مما كنا نتصور". وأبلغ مراسل آخر جيفرسون بأن الدبلوماسى الفاشل واصل العمل فى مهنته كتاجر بغال. "مستر لامب يتأهب للسفر من مينوركا إلى أمريكا الشمالية بشحنة من الجحوش" SIC TRANSIT GLORIA MUNDI^(٣٦). (هكذا يمضى مجد العالم، عبارة لاتينية تشير إلى أن لا شئ يبقى على حاله - المترجم)

ولم ينجح جيفرسون فى العثور على وكيل آخر وكان يعلم أن المفاوضات ستكون عقيمة ما دامت الولايات المتحدة لا تملك أسطولاً ولا مالاً وفيراً لدفع الجزية. كان ريتشارد أوبرايان وعشرون غيره لا يزالون أسرى فى الجزائر، وكان جيفرسون أهم من يتصلون به. وقد نصح أوبرايان بالحذر وبأن لا يخبر الجزائريين بالإستراتيجية

التي كان جيفرسون يتبعها لإطلاق سراحهم. والحقيقة أن ما كان يمكن أن يبوح به أوبرايان كان قليلاً للغاية. ولكي يضعف حماس الجزائريين لأسر المزيد من الأمريكيين تظاهر جيفرسون باللامبالاة بمصير الأسرى. وكانت حجة أنه لو أن الولايات المتحدة عرضت فدية سخية أو أظهرت حماساً كبيراً لإطلاق رهائنهم، لخرج الجزائريون وأسروا المزيد من الأمريكيين. وما بدا قاسياً للرجال في الأسر كان، كما شرح جيفرسون، حناناً إزاء أولئك الذين لا يزالون أحراراً. وقد كانت المصلحة العليا للأسرى وللولايات المتحدة تقتضي تخفيض السعر^(٢٧).

وقد كان دفع الجزائريين إلى الاعتقاد بأن الولايات المتحدة لم تكن تسعى لتحرير أسراها أكثر، أو أقل، من أداة من أدوات إستراتيجية الحؤول دون وقوع أسرى في المستقبل. كان جيفرسون وأدامز يعلمان أن الولايات المتحدة لا تملك المال، فقد كان مواطنوها مترددين في دفع المال إليها. وقد حاول الكونغرس جعل الولايات تسمح له بأن يحقق موارد مالية بفرض الضرائب لسداد ديونها الحربية، فانفجر تمرد مسلح في شتاء ١٧٨٦-١٧٨٧.

وكان جيفرسون يعلم أن الشعب الأمريكي يريد من الحكومة أن تقتصد بشكل مبالغ فيه. وكان يرى أن الحرب مع الجزائريين ستكون اقتصادية أكثر من الجزية، وأن الحصار هو الأكثر تأثيراً والأقل كلفة كتكتيك عسكري. ومع علمه بكراهية الشعب للضرائب فقد اقترح فرض ضريبة على الواردات من المتوسط. فالتجار الذين يكسبون من تلك المنطقة يجب أن يدفعوا ثمن الإبقاء عليها مفتوحة. ولو أن المستفيدين فقط هم الذين يدفعون ضرائب فإن الشعب لن يشعر بالعبء أبداً.

وكان جيفرسون يعلم أيضاً أن الحكومة المركزية تحتاج إلى قدر من السلطة القمعية. كان يعلم أن وجود جيش نظامي سوف يكون تهديداً دائماً لحرية الشعب، لكن البحرية لا يمكن أن تستخدم ضدهم. فالبحرية من شأنها أن تثبت لأوروبا وللجزائريين أن الأمريكيين شعب مستقل وقوي، شعب يحسب حسابه، شعب يستحق أن يكون حراً، كما قال جونز. لكن شيئاً من هذا لم يتحقق عندما كان جيفرسون في فرنسا.

صحيح أن الولايات المتحدة أعادت تنظيم حكومتها وأعطتها مزيداً من سلطة القمع، لكنها لم تقرر بعد أن تكون لها بحرية، ولم تفرض الضرائب على أصحاب التجارة مع المتوسط. وعاد جيفرسون إلى الوطن من فرنسا في ١٧٨٩، تاركاً وراءه مشاكل الأمريكيين في الجزائر والتجارة مع المتوسط. لكن هذه المشاكل سافرت وراءه: فلدّى وصوله إلى فيرجينيا علم جيفرسون أن الرئيس واشنطن عينه وزيراً للخارجية.

وعندما تولى جيفرسون منصبه كأول وزير للخارجية في ظل دستور ١٧٩٠، عاد لمواجهة مشاكل أمريكا مع دول البربر، من جديد. وقد تقدم الأسرى الأمريكيون الباقون على قيد الحياة في الجزائر، وهم في عامهم الخامس في الأسر، الحكومة الجديدة هذه، متسائلة عما تفعله بشأنهم. وقدم الرئيس واشنطن التماسهم إلى الكونغرس، وطلب من تلك الهيئة أن تحدد السياسة الأمريكية في المتوسط. ولكي يساعدهم على ذلك طلب من جيفرسون أن يقدم تقريراً للكونغرس حول المفاوضات مع الجزائر وحول تجارة أمريكا في المتوسط. كان جيفرسون ينتظر أن يجد من يسمع أفكاره وها هو يجد نفسه في مركز من يوصى باتباع سياسة ما. وطرح تقريره ثلاثة خيارات متاحة، الخيارات ذاتها التي أشار إليها في ١٧٨٦. أولاً، بوسع الولايات المتحدة أن تدفع فدية الأسرى وتقدم الجزية لدول البربر، كما كانت تفعل كل دول أوروبا. وثانياً، يمكن للتجار الأمريكيين أن يتخلوا عن التجارة في المتوسط. أو، وهذا هو الخيار الأخير، أن تستعمل الولايات المتحدة القوة العسكرية. ورغم أنه ترك القرار للكونغرس، فقد كان واضحاً ما يفضل جيفرسون بين الخيارات الثلاثة: لقد وضع خياره المفضل في ذيل القائمة، واثقاً من أن الكونغرس سوف يرفض الخيارين الأولين^(٣٨).

لكن الكونغرس كانت لديه أفكار أخرى. وافق مجلس الشيوخ على ما ذهب إليه واشنطن وجيفرسون من أن حماية التجارة في المتوسط لن تتحقق إلا بالبحرية، لكنهم أرادوا تقوية الماليات العامة قبل البدء بإنشاء بحرية. ووعدوا بتوجيه عنايتهم إلى البحرية بمجرد أن تسمح المالية العامة بذلك، وفي الوقت ذاته خولوا الرئيس

واشنطن سلطة تخصيص ١٤٠,٠٠٠ دولار لتخليص الأسرى الأمريكيين في الجزائر، و١٠٠,٠٠٠ دولار أخرى، سنوياً، جزية لكل من الجزائر وتونس وطرابلس الغرب.

صوت الكونغرس لصالح السلام، لكن جيفرسون لم يكن يريد أن يعلم الجزائريون أن الأمريكيين غير جاهزين للحرب. وقد خوله الكونغرس بإرسال وكيل للتفاوض حول معاهدة: قرر جيفرسون إرسال جون بول جونز، الذي كان قد انتهى لتوه من خدمته في الحرب الروسية ضد تركيا، وكان جيفرسون يعرف أن إرساله إلى الجزائر سوف يقنعها بأن الولايات المتحدة سوف تمضى إلى الحرب إذا استدعى الأمر. وفي يونيو أبلغ جيفرسون جونز بالتكليف، معيداً عليه تاريخ العلاقات الأمريكية مع الجزائر. وكان الترتيب أن يبقى جونز قنصلاً لأمريكا في الجزائر، بمجرد أن يرسى السلام مع الجزائريين. لكن جيفرسون لم يتوقع أن يبقى السلام طويلاً. وأبلغ جونز بأننا "نتطلع إلى اللحظة التي تحتم استخدام القوة مع الجزائريين" وأن جونز يتعين عليه "أن يأخذ راحته في جمع المعلومات" التفصيلية عن كل شيء قد يكون مساعداً في عمليات عسكرية مستقبلية على الساحل البربري^(٤٠).

ولا بد أن جيفرسون سره أن يجد أن مخططاته في ١٧٨٦ تصبح سياسة عامة. ولكن قبل أن يتلقى جونز التكليف أو التعليمات، عاجله الموت. وكان خيار جيفرسون التالي هو توماس باركلای الذي وصل بالتفاوض إلى معاهدة دون جزية مع المراكشيين، وعاد قبل برهة إلى طنجة ليعيد تأكيد المعاهدة مع الإمبراطور الجديد. وطلب جيفرسون من باركلای أن يحذف اسم جونز من نص التكليف ويضع اسمه هو. ولكن قبل أن يتمكن باركلای من أن يفعل ذلك، عاجله الموت.

وبعد قرابة عامين من تخويله بإرسال وكيل، لم يكن جيفرسون قد عثر على واحد من الأحياء. وأخيراً كلف، في ربيع ١٧٩٣، دافيد همفريز الوزير الأمريكي في البرتغال بالتفاوض. وقد كان همفريز، المساعد الشاعر والثوري للرئيس واشنطن، سكرتيراً لجيفرسون وأدامز وهما يصارعان العضلة البربرية في باريس. ورغم أن همفريز كان الثالث على قائمة الاختيار، فقد كان خياراً لا يقل جودة عن جونز وباركلای^(٤١).

وعندما تم تعيين همفريز مبعوثاً للجزائر كان واشنطن وجيفرسون يواجهان مشاكل أكثر إلحاحاً من بلوى الأمريكيين الثلاثة عشر في الجزائر. كانت بريطانيا تزود الهنود في وادي نهر أوهايو بالإمدادات وتشجعهم على مهاجمة المستوطنين الأمريكيين الذين اندفعوا عبر سلسلة جبال الأليغينز ليستوطنوا منطقة الحدود (مع كندا-المترجم). كانت فرنسا قد ألغت نظامها الملكي وكانت تشجع الدول الأخرى للانضمام إليها في حرب ضد النظام المستقر. وفي هذه اللحظة أصبحت إسبانيا تخشى الاستيطان الأمريكي في حوضي النهرين أوهايو والميسيسيبي، وكانت تشجع المستوطنين الأمريكيين في كنتاكي وتينيسي والإقليم الجنوبي الغربي (الذي هو الآن ألاباما وميسيسيبي) على الاقتناع بأن التاج الإسباني يمنح حماية من الهنود أكثر مما تمنحهم إياه حكومة الولايات المتحدة الضعيفة والبعيدة. وفي جزيرة سان دومينغي طرد العبيد سادتهم وجاء اللاجئون البيض إلى المدن الأمريكية يحملون معهم الخوف من ثورات العبيد، وأصبحت حكومة واشنطن منقسمة على نفسها حول أمور التمويل والسياسات الدولية: كان وزير الخزانة أليكساندر هاميلتون يضغط من أجل بنك قومي، وضرائب داخلية على الويسكي، وتعرفة جمركية عالية وعلاقات وثيقة مع إنكلترا. وكان وزير الخارجية جيفرسون يعارض البنوك والضرائب والتعرفة، ورغم أنه كان يساند فرنسا الثورية فقد حث الأمريكيين على الحياد في الحرب الأوروبية. وعندما وصل همفريز إلى الجزائر في أواخر ١٧٩٣ كان جيفرسون قد استقال من منصبه كوزير للخارجية. وحل محله، في البداية، إدموند راندولف، ثم بسلسلة من الرجال المواليين لوزير الخزانة أليكساندر هاميلتون الذين كان اهتمامهم بمصالحة بريطانيا يفوق اهتمامهم بسياسة أمريكية مستقلة.

وفي أكتوبر ١٧٩٣، وفيما كان همفريز في طريقه إلى الجزائر، رتب البريطانيون هدنة بين الجزائر والبرتغال. وتملصت لشبونة من الهدنة بمجرد أن سمعت بها، بعد ذلك بأسبوعين. لكن القراصنة الجزائريين نجحوا، في الوقت ذاته، في أن يخرقوا خطوط الأسطول البرتغالي الذي يحرس أرخبيل جبل طارق. وعندما تنكرت لشبونة للمعاهدة كان الجزائريون قد أسروا ١٢ سفينة أمريكية أخرى وأكثر من مائة بحار في

هذه اللحظة أصبحت الولايات المتحدة مستعدة لبناء البحرية التي اقترحها جيفرسون وغيره، قبل ثماني سنوات. لكن المناخ السياسي عندئذ كان مختلفاً بشكل درامي: كان جيفرسون خارج الحكومة، منحازاً إلى المعارضة الجمهورية، التي كانت ترى واشنطن الاتحادية النزعة ودية أكثر مما يجب مع إنكلترا وراغبة في تأسيس حكومة على النسق البريطاني في أمريكا. ورأى الجمهوريون في إنشاء البحرية أداة أخرى لمضاعفة سلطة الحكومة وتساءلوا لماذا لا يوجه الاتحاديون جهودهم ضد العدو الحقيقي لأمريكا، بريطانيا؟ وبدلاً من بحرية تحارب الجزائر، اقترح الجمهوريون نظام تعرفه معقد من شأنه الإضرار بالتجارة البريطانية في أمريكا. ورفض الاتحاديون الاقتناع بأن البريطانيين كانوا وراء الهجمات الجزائرية واعتقدوا أن الجمهوريين هم أنفسهم أدوات للفرنسيين. وأصبحت كل قضية محملة برمزية تفوق أهميتها السياسية المباشرة وبالأبعاد المتصلة بالصراع الذي يزداد عمقاً، بين الاتحاديين والجمهوريين، وهو صراع لم يكن يدور حول السلطة السياسية فقط، بل حول مدى السلطة السياسية التي يمكن أن يسمح لأي أفراد بامتلاكها.

وفي ديسمبر ١٧٩٣، أودع الرئيس واشنطن لدى الكونغرس رسالة حول المفاوضات مع مراکش، ورغم أن واشنطن ربما توقع أن تكون هذه مجرد رسالة روتينية، بخاصة وأن وزير الخارجية جيفرسون هو الذي أعدها قبل خروجه من المنصب، فقد أصبحت هذه الرسالة نقطة مركزية في هذا الجدل الحزبي المتزايد المرارة. وأحدثت الرسالة، وهي تقرير عن العلاقات مع دول البربر، رد فعل عاصفاً منقطع الصلة تماماً بالموضوع الذي تعالجه. وعند تقديم الرسالة ذكر واشنطن أنه حجب تقريراً واحداً قال إنه يحتوي محادثة دبلوماسية سرية، وأبلغ الكونغرس، أيضاً، بضرورة التكتّم حول المبالغ التي يعتزم دفعها للسلام والنفدية. كان يعتبر أن من المهم أن يعرف الشعب الأمريكي أن الحكومة تفعل شيئاً ما، لكنه لم يكن يشعر بضرورة أن يعرف الشعب كل التفاصيل، واعتبر أن بعض التفاصيل، مثل المحادثات الدبلوماسية والمبالغ التي تستعد الحكومة لدفعها، يجب أن تبقى سرا^(٤٢).

وذكر جيمس ماديسون عضو الكونغرس عن فيرجينيا وزعيم المعارضة الجمهورية المجلس بأن "السرية في حكومة جمهورية تجرح جلال السيادة الشعبية، وبأن هذه الحكومة هي في أيدي الناس، وأن من حقهم أن يعرفوا كل ما يتعلق بالصفقات المرتبطة بشؤونهم". وتحرك ماديسون باتجاه الجدل المكشوف وحذر من أن السرية لن تحمي المركز الدولي للحكومة لكنها ستضعف هذه الحكومة بتدمير ثقة الشعب الأمريكي فيها. وقال إن حكومة جمهورية لا يتعين أن تدار أمورها في سرية. فكيف للشعب أن يحكم نفسه إن لم يعرف كل ما تفعله الحكومة؟

وخالفه الاتحاديون الرأي: فحتى الحكومة الجمهورية يمكن أن تكون لها أسرار. ورغم أن للشعب حقاً في أن يحكم نفسه "فمن حقه أيضاً أن يحكم جيداً". وإضافة إلى أن للشعب حقوقاً، فإنه له مصالح، كما قال الاتحاديون. والحكومة مسؤولة عن حماية مصالح الشعب، كما هي مسؤولة عن حماية حقوقه، وأحياناً تصبح سرية الدبلوماسية ضرورية لتحقيق الحماية. وكسب الاتحاديون هذه الجولة، رغم أن تأكيدهم على الحاجة إلى السرية أعطت معارضتهم مبرراً للزعم بأن الاتحاديين ليسوا حماة حرية الشعب^(٤٣).

وتكرر نشوب هذا الجدل حول حكم الشعب لنفسه كنقيض للحكم الرشيد كلما اقترحت حكومة الاتحاديين سياسة ما. وعندما اقترح واشنطن أن تبني الولايات المتحدة ست فرقاطات لتتزل إلى البحر في مواجهة الجزائريين، اعتبرها الجمهوريون محاولة لتوسعة سلطة الحكومة على حساب الحرية. وقال عضو الكونغرس عن فيرجينيا وليم برانش جايلز إن الأساطيل "أشياء غبية للغاية" وإن الملكية الفرنسية انهارت تحت ثقل الإنفاق على البحرية وإن إنكلترا "تئن تحت قدر هائل من عبء نفقاتها الضريبية الضخمة، للسبب ذاته"^(٤٤) ورأى ماديسون أنه بدلاً من أن تبني الولايات المتحدة البحرية الخاصة بها فبوسعها أن تدفع للبرتغال للتصدي بحرياً للجزائريين. وخشى عضو الكونغرس من نيوجيرسي إبراهيم كلارك من أن تكون الفرقاطات الست مجرد بداية لتوسع عسكري، لا سبيل للسيطرة عليه. وحذر من أن "بناء ست فرقاطات هذا العام"

سوف يتبعه بالضرورة أن نحتاج إلى بناء ست أخرى، وهكذا" وهذه البحرية التي تتعاضد سوف تحتاج البشر الذين يديرونها - وزيراً للبحرية، وموظفين، ومساعدين وقطاعنا من الأشخاص الآخرين في الوظائف، وبكلفة هائلة^(٤٥). وقد كان جيفرسون يؤمن، في زمن مضى، بأن البحرية يمكن أن تكون أداة عسكرية آمنة في نظام جمهوري، أما وقد أنشأت الإدارة الاتحادية بنكاً وطنياً، وكونت جيشاً لقمع "تمرد الويسكي" فلم يعد لدى الجمهوريين هذا الإيمان.

اسمحوا للاتحاديين بأن ينشئوا بحرية لمحاربة الجزائر، ولن يبقى هناك ضمان بأن لا يحولوها ضد الشعب الأمريكي.

ورغم أن الجمهوريين عارضوا بناء الفرقاطات فإن الاتحاديين كانوا يسيطرون على الكونغرس. وبدأت الولايات المتحدة تبنى بحريتها وأرسلت إدارة واشنطن وكلاء جديداً للتفاوض مع الجزائر. فأرسل جوزيف دونالد سون رجل الأعمال الذي كان قنصلاً في فرنسا وجويل بارلو الشاعر والمثقف الذي يعيش في فرنسا إلى الجزائر في ١٧٩٥ وفأوضوا الداي على معاهدة. ووعدت الولايات المتحدة بأن تدفع ٨٠٠,٠٠٠ دولار للجزائر وبأن ترسل إلى الداي ما قيمته ٢٠,٠٠٠ دولار من الإمدادات البحرية، كل عام. ومكث بارلو في الجزائر لصياغة تفصيلات المعاهدة وليسترضى (APPEASE) هذا هو الفعل الذي استخدم عندما حاولت أوروبا القرن العشرين استرضاء هتلر، وقد استخدم هذا الفعل للإشارة إلى كل محاولة للتفاهم مع صدام حسين في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي - المترجم) الداي عندما لم تصل الجزية. وقد أرسل ريتشارد أوبرايان، وهو أحد الرهائن، إلى أوروبا ليقترض المال الذي وعدت الولايات المتحدة بدفعه. وفي أثناء السفر أسرت طرابلس الغرب سفينة أوبرايان لكنه استغل الوقت الذي قضاه هناك في التفاوض حول معاهدة مع الباشا يوسف قرامانلي ثم نزل إلى تونس لبدء المفاوضات مع تلك المملكة.

وبحلول العام ١٧٩٦ كانت الولايات المتحدة في حالة سلم مع دول البربر. ورغم ذلك لم يطلق سراح أي من الأسرى، ورغم أن الفرقاطات لم يكن قد تم إنشاؤها

فقد ضغط واشنطن لاستكمال بنائها. ووافق الكونغرس على إنفاق ٦٨٨,٨٨٨,٨٢ دولار على الفرقاطات، في ١٧٩٤. وبحلول ١٧٩٦ كانت الكلفة قد بلغت ١,١٥٢,١٦٠ دولار ولم ينته العمل في الفرقاطات. ورفض بنك الولايات المتحدة، الذي أسسه هاميلتون ليكون أداة تمكن الحكومة من اقتراض الأموال، في الأساس، أن يقرض الحكومة مبلغ ٨٠٠,٠٠٠ دولار المطلوبة وفقاً للمعاهدة مع الجزائر. وبدلاً من ذلك، أصدر البنك سندات، يمكن للحكومة بيعها في أوروبا.

وبدلاً من أن تحقق السندات قيمتها الاسمية فقد كانت مبيعاتها بائسة، وبقيت الحكومة بعد بيعها تعاني من عجز قيمته ١٠٠,٠٠٠ دولار، وهو مبلغ كان يتعين جمعه من خلال الاقتراض أو فرض الضرائب. وقد انتهى هذا العجز بتحميل الولايات المتحدة ٢٠٠,٠٠٠ دولار إضافية وتأجيل إطلاق سراح الأسرى حتى ١٧٩٧. واتهم الجمهوريون الحكومة بانعدام الكفاءات وبإساءة التصرف مالياً، وبالإففاق الزائد على القدرات العسكرية^(٤٦).

وأصدر وزير الخارجية تيموثي بيكرنغ تحذيراً جديداً إلى التجار الأمريكيين من أن تعويق المعاهدة مع الجزائر يجعل تجارة أمريكا في المتوسط غير آمنة. وهاج الجمهوريون. هل وصل شيء من الأموال إلى الجزائريين؟ من الذي أخذ الأموال؟ لم يكن لدى الصحافة الجمهورية "أى شك في أن الأموال كانت أو ستكون في أيد أمينة" ولكن فيما يفقد دافعوا الضرائب أموالهم "فإن البعض سوف تتحسن أحوالهم". وأظهرت الحكاية كلها "الغباء والحماسة" في "الإدارة المجيدة في ست سنوات" من عهد واشنطن^(٤٧).

وأصبح جون أدامز رئيساً في ١٧٩٧ ليجد أن فرنسا، وليست الجزائر، هي الخطر الأكبر على الأمن الأمريكي. وواصل أدامز بناء الفرقاطات التي بوشر ببنائها في عهد واشنطن، وخاضت البحرية التي أنشئت زمن إدارته حرباً غير معلنة ضد فرنسا. وإضافة إلى ذلك، بنت الولايات المتحدة فرقاطة لصالح داي الجزائر، اسمها كريزنت (CRESCENT) الهلال، الرمز العثماني الذي صار رمزاً لكل مسلم، منذ فتح

القسطنطينية - المترجم) كاعتذار عن تأخر أمريكا في دفع الجزية. كانت الجزائر متحالفة مع إنكلترا ضد فرنسا، وأراد أدامز أن يبقى على الجزائر إلى جانب الأمريكيين. وخطط أدامز، بإيجاز، لإرسال سفير إلى تركيا، التي كانت في حرب ضد فرنسا، هي الأخرى.

وأرسل أدامز القناصل، بالفعل، إلى الجزائر وتونس وطرابلس الغرب (فذهب ريتشارد أوبرايان إلى الجزائر، ووليم إيتون إلى تونس، وجيمس ليندر كاثكارت إلى طرابلس الغرب). لكن إدارته كانت مشغولة بالحرب مع فرنسا وبمشكلاتها السياسية، ولهذا فقد تأخرت في تنفيذ الجدول الزمني لإرسال الجزيات الموعودة لهذه الملكيات (regencies) يكرر المؤلف استخدام هذا اللفظ غير الدقيق عند الإشارة إلى كيانات سياسية تابعة، هي في الحقيقة ولايات يقيم ملكها في إسطنبول، لكنه يوحى من طرف خفي، باستخدام هذا اللفظ، إلى أن بلاده كانت تخشى الخضوع لقوى الرجعية في زمن احتشدت فيه الجمهوريات ضد الملكيات التي كانت تعتبر أن زمنها انتهى - المترجم). وقد صادف القناصل، كما سوف نرى في فصل لاحق، درجات متفاوتة من النجاح في استرضاء حكام البربر. وأثبت قنصل أمريكا في طرابلس جيمس ليندر كاثكارت أنه الأقل قدرة على تهدئته. ومع نهاية ١٨٠٠ كان يوسف قرامانلي يهدد بالحرب ضد الولايات المتحدة. ولم يكن بوسعها أن يتنبأ بأن توماس جيفرسون، أكبر داعية للقوة العسكرية في المتوسط، كان بسبيله إلى أن يصبح رئيساً للولايات المتحدة.

وقليلون هم الرجال الذين تبؤوا منصب الرئاسة بأجندة واضحة كما فعل توماس جيفرسون. كانت أجندته تتجاوز مجرد كونها برنامجاً سياسياً: لقد اعتبر جيفرسون أن انتخابه في ١٨٠٠ هو ثورة، عودة إلى مثل ١٧٧٦، على النحو الذي فهم به جيفرسون هذه المثل. فالجمهورية الأمريكية في اعتقاد جيفرسون "وقد فصلتها الطبيعة والمحيط الواسع، بكل حنان، عن الدمار القاتل في واحد من أقسام المعمورة" تهيأت لها فسحة تتيح لأجيال من المواطنين أن يعيشوا في سلام وازدهار. ورغم أن الأمريكيين مسالمون فإنهم "أعلى همة من احتمال التحقير من جانب الآخرين". وعندما وصلت إلى

وزير الخارجية جيمس ماديسون مكاتبات تقول بأن باشا طرابلس الغرب يوسف قرامانلى يهدد بالحرب مع الولايات المتحدة، تصرف جيفرسون على وجه السرعة. ففى رسالته السنوية الأولى فى ١٨٠١ أبلغ الكونغرس بأن طرابلس الغرب "تقدمت بطلبات لا أساس لها من حق أو من اتفاق، وهى لهذا السبب لا تحتل إلا رداً واحداً".

والرد كان ذلك الذى ظل جيفرسون يقترحه منذ ١٧٨٥، أرسل البحرية إلى المتوسط. اعترف جيفرسون بأن الإدارة السابقة تركت البلاد تتأخر عن دفع مبالغ الجزية. لكنه سارع إلى دفع ما هو مستحق على الأمريكين، وبهذا "نثبت لأنفسنا الحق فى تدبر النتيجة التى تترتب على خروجهم على ما هو منصوص عليه، من جهة أخرى". فالولايات المتحدة لا تريد أن تتهم بأنها لم تلتزم بتعهداتها. كان اقتراح جيفرسون هو الدفع والحرب^(٤٨).

فالتجربة الدبلوماسية التى عاشها فى ثمانينيات القرن الثامن عشر اقنعتته بأن القوة العسكرية هى الطريقة الوحيدة للتعامل مع دول البربر. لكن تجربته فى تسعينيات ذلك القرن عززت خوفه من السلطة الحكومية وجعلته حذرا عند استخدام تلك القوة. وهكذا فإن جيفرسون وهو يقفز مجدداً إلى قلب الشؤون المتصلة بالبربر كان بسبيله إلى أن يفعل عدداً من الأشياء. كان على تصميمه الدائم على أن لا يخضع لمطالب سلطات البربر، وحريصاً على أن يثبت لأهل شمال إفريقيا وللاوروبيين أن الأمريكين ليسوا بسبيلهم إلى أن يلعبوا لعبة القوة التى انخرطت فيها الأمم الأخرى.

لكن جيفرسون كان مصمماً، أيضاً، على أن لا يخلق آلة عسكرية فى الولايات المتحدة، وكانت إدارته ملتزمة بخفض الدين الفيدرالى. وأراد بعض غلاة الجمهوريين، مثل وليم برانش جايلز، إلغاء البحرية تماماً. ولم يكن جيفرسون دوغماتياً على هذا النحو، رغم إصراره على تخفيضات كبيرة فى ميزانية البحرية. وقد أصر، أيضاً، على أن تكون - كأي فرع عسكرى - خاضعة بشكل صارم للسلطة المدنية، وأن لا تصبح العسكرية مصلحة مستقلة، بل أن تظل تحت سيطرة المسؤولين المنتخبين، على الدوام.

وجدد جيفرسون أيضاً فكرة التحالف الدولي. فقد هددت طرابلس الغرب السويد كما هددت الولايات المتحدة. ولم يكن جيفرسون يعلم أن أدامز رفض مفاتحات سويدية في ١٨٠٠. وقد أمر جيفرسن البحرية الأمريكية بالتعاون مع السويد أو مع أى دولة أخرى فى حالة حرب مع طرابلس الغرب، وأمر الأسطول الأمريكى بأن يفرض الحصار على طرابلس الغرب إن أعلن يوسف قرامانلى الحرب على الولايات المتحدة^(٤٩).

وقد كانت سياسة جيفرسون التى تبدو، فى ظاهرها، متناقضة - بتخفيض النفقات الحكومية مع إرسال البحرية إلى النصف الآخر من الكوكب - موجهة، فى الحقيقة، إلى الهدف ذاته. لقد شارك فى ثورة ضد حكومة ضخمة وعدوانية. وهذه الثورة، كما رآها جيفرسون، انطلقت بهدف تحرير طاقات الناس. وعندما أغلقت دول البربر المتوسط أمام روح المشروع التجارى الشعبى فإنها فرضت حاجزاً لا يقل تأثيره عن تأثير قوانين الملاحة البريطانية. وقد وضعت دول البربر نفسها، بممارستها للقرصنة، خارج الحدود المقبولة للقانون الدولي.

وليس عذراً للجزائريين أن يقال إن بريطانيا استخدمتهم للهجوم على الأمريكيين، كما أنه لم يكن عذراً للهنود أن البريطانيين حرضوهم على ارتكاب الفظائع فى المناطق الحدودية. وبرفضه أن يلعب لعبة الرشوة الأوروبية، ويتصديه لسلطات البربر وإخراجهم من ترسانة الأسلحة الأوروبية المستخدمة ضد العالم الجديد، تمكن جيفرسون من إقناع أوروبا بأن دولته تنتمى لصنف جديد من الأمم، دولة لن تتبع الممارسات الفاسدة للعالم القديم.

ولم يحل ديسمبر ١٨٠١ إلا وكان بوسع جيفرسون أن يعلن النجاح، فى تقرير رسمى. وقد اشتبك الملازم أندرو ستيريت وسفينته ذات الصاريين بسفينة ليبية فى معركة بحرية استمرت يوماً كاملاً، قُتل فيها عشرون وجرح ثلاثون آخرون من رجال طرابلس الغرب، دون خسارة أمريكى واحد. وقد أراد جيفرسون، فى مسودة مبكرة من رسالته، أن يشير إلى هذا أول مثال على الشجاعة الأمريكية، لكن أشير عليه بأن آخرين قدموا أمثلة على الشجاعة خلال حرب إدارة أدامز مع فرنسا. وقد أخبر

جيفرسون الكونغرس، بالفعل، بأن انتصار ستيريت من شأنه أن يقنع أوروبا بأن الأمريكيين مستعدون للقتال. وقد أراد جيفرسون أن يكون انتصار ستيريت درساً لأوروبا، كما هو درس لطرابلس الغرب. ورغم أنه قال إن الأمريكيين جاهزون للقتال، فهم سيفعلون ذلك من أجل السلام مفضلين "توجيه طاقات أمتنا لتكاثر النوع البشرى، وليس لتدميره" (٥٠).

وكان جيفرسون يرمى إلى إثبات أن الأمريكيين سوف يتصرفون على نحو مخالف للأوروبيين، وأنهم لن يجعلوا الحرب والسلام خاضعين لاعتبارات التجارة، وأن بوسعهم أن يخوضوا الحرب دون خلق آلة عسكرية، ودون التضحية بالمبادئ الجمهورية. وأبلغ جيفرسون الكونغرس بأنه أرسل السفينة إنتربرايز إلى المتوسط لأسباب دفاعية خالصة. وقرار إعلان الحرب أو عدم إعلانها سيبقى متروكاً للكونغرس.

وفي الأسبوع التالي ناقش الكونغرس القضية، لينظر فيما إذا كان سوف يسمح لجيفرسون بأن "يحمى بقدر أكبر وبدرجة أشمل وفعالية أشد" التجارة الأمريكية. واعترض العضو الجمهوري عن ماريلند جوزيف نيكولسون الذي طلب حذف كلمات مثل أكبر وأشد لأن جيفرسون، ببساطة، لم يطلب سلطة أوسع. وأشار نيكولسون إلى أن إدارة جيفرسون، في الحقيقة، تقوم بتخفيضات هائلة في الجيش والبحرية. فلماذا يريد تقليص الجهاز العسكري، من جهة، ويسعى إلى مزيد من القوة العسكرية، من جهة أخرى؟

هذا "يعنى أن تقول الشيء وعكسه في نفس واحد". وقد كان الاتحاديون يعلمون ذلك ويريدون أن يسجلوا على الجمهوريين أنهم يقولون شيئاً - يعدون بخفض الإنفاق الحكومي - ويفعلون شيئاً آخر - بالزيادة الفعلية للإنفاق. أراد الاتحاديون إثبات لا منطقية السياسات الجمهورية والتناقضات في إدارة جيفرسون للدولة. وقد اعتبر الاتحاديون أن جيفرسون من أساتذة السياسة، رجل واثق يمارس الخداع على الشعب الأمريكي، الذي يجهل تناقضاته بما يمنحه للشعب من "ابتسامة أو إيماءة أو ضغطة على اليد" (٥١).

ورغم أن الكونغرس زود جيفرسون بمزيد من السلطات ليحمي التجارة، فقد كان يبدو في ١٨٠٢ أنه قد لا يحتاج ذلك. فقد كان الحصار السويدي- الأمريكي والشتاء القاسي في شمال إفريقيا يهددان طرابلس الغرب بالمجاعة. ولم تهب لا الجزائر ولا تونس لمساعدة طرابلس الغرب. وفي ديسمبر ١٨٠٢، أعاد جيفرسون، المتلزم بحماية التجارة الأمريكية من غير تعزيز للقدرات العسكرية، تأكيد حصاره لطرابلس الغرب، كطريقة لتأمين التجارة الأمريكية "بأقل قوة ذات كفاءة" كافية لأداء المهمة^(٥٢).

وكان بوسع جيفرسون، أيضاً، أن يضمن تقريره أن ماركش لن تحارب أمريكا، بفضل "النهج المعتدل والصحيح" الذي اتبعه القنصل جيمس سيمبسون وبفضل "علو الهمة والنشاط لدى الكومودور إدوارد برييل. وامتدحت "ناشيونال إنتلجنسر" فرض السلام مع ماركش من جانب جيفرسون "بشروطه هو" وبغير دماء أو جزية. ما رأى الاتحاديين، الذين صاحوا قائلين منذ زمن غير بعيد "الملايين من أجل الدفاع، ولا سنتاً واحداً للجزية" في هذا؟ وذكّرت إنتلجنسر قراءها بأن الرئيس واشنطن "وهو يحذو حذو أوروبا" اشترى السلام من الجزائريين بمخازن بحرية وفرقاطة. لقد فعل جيفرسون أكثر وبثمن أقل و"دون دولار واحد كجزية" ! وفي اليوم ذاته، نشرت إنتلجنسر مقتطفاً من يوميات جون رودجر يحتوى على تفاصيل عن انتصاره في يونيه على فرقاطة من طرابلس الغرب، الذي انتهى إلى أن فجر القبطان الطرابلسي فرقاطته مفضلاً ذلك على الاستسلام. رأت طرابلس الغرب أن ميزان القوة هو لغير صالحها، وبشكل يائس، وكان مبعث سرور لجيفرسون أن يروى للكونغرس "الحقائق المشرفة" في "المشروع الشجاع" الذي نفذه رودجر.

بلغت ثقة الإدارة بسياساتها حدا جعلتها تتجاهل اقتراحات وليم إيتون، القنصل في تونس، الذي أشار بزيادة القوة العسكرية في المتوسط "متوقعة بداية قريبة لألف سنة من السياسة باعتبارها نتيجة لا راد لها، لطيبة القلب والتكامل العقلي ولاستقامة الطبيعة التي يتميز بها السيد جيفرسون" وتلقى إيتون تأكيدات بأن "كل الأمم، حتى القراصنة والمتوحشين، يحركهم تأثيره (تأثير جيفرسون) بما لديه من فضيلة مقنعة ومهارة فائقة في الدبلوماسية"^(٥٤).

وانتهت كل رسالة بوعد أن تأتي الرسالة التالية بخبر النصر والسلام. وفي أكتوبر ١٨٠٣ شحطت السفينة الأمريكية فيلادلفيا، ثانى أكبر سفينة فى البحرية، أمام سواحل طرابلس الغرب وأسرت بمن عليها من بحارة عددهم ٢٠٠. أودع الرجال السجن، وأعيد تجهيز السفينة للاستخدام ضد الولايات المتحدة. وعندما نزلت على الناس هذه الأخبار فى مارس ١٨٠٤، أصبح لدى الاتحاديين فى النهاية مثال مجسد على عجز جيفرسون، يمكنهم أن يستخدموه ضده، لقد حاولوا طويلا لفت الأنظار إلى التناقض بين سعى جيفرسون إلى خفض الإنفاق العسكرى ووعوده بالحفاظ على قوة كافية، ولكن طالما كان جيفرسون والبحرية ناجحين، فقد بقيت هذه تهمة فارغة، لكن أصبح بوسع الاتحاديين أن يقولوا الآن إنه لو أن جيفرسون أرسل بالمزيد من السفن إلى المتوسط لما وقعت فيلادلفيا فى الأسر. ولو كانت هناك فرقاطة أخرى أو حتى سفينة أصغر، فى صحبتها، لما تعين على الكابتن وليم برينيبيريدج أن ينزل الراية ويسلم للطرابلسيين. وبعد أن كلفت اقتصاديات جيفرسون هذه الأمة فرقاطة فقد أصبحت هجمات الاتحاديات تبدو ثابتة الصحة.

ودعا جيفرسون، على الفور، إلى زيادة القوة فى المتوسط. ودفع هذا الأمر صحيفة إيفنتنغ بوست فى نيويورك إلى الاستشهاد بسويقت:

هاكم الدليل على البداة الأيرلندية،

حيث يظهر الذكاء الأيرلندى.

بعد أن لم يبق شىء يستحق أن نحمله،

بادرنا إلى بناء مخزن^(٥٥).

ورغم أن جيفرسون دعا، فى تلك اللحظة، إلى زيادة القوة، فقد بقى على إصراره الدائم على الحؤول دون أن تنمو القوة العسكرية حتى ينفلت عقالها. لم يقبل بالاستدانة لزيادة حجم البحرية، ولا بأن تأخذ إدارته ما لا تدفع به الدين الوطنى. وبدلا من ذلك أحيا جيفرسون ووزير خزانته ألبرت غالاتين الفكرة التى روج لها جيفرسون فى

ثمانينيات القرن الثامن عشر، والتي تدعو إلى ضريبة خاصة على أصحاب التجارة فى المتوسط. وكان مقررا أن تبقى ضريبة الواردة هذه، وباللغة هـ ٢ بالمئة طالما بقيت الحرب مع طرابلس الغرب، فقط. كانت الإدارة تخشى احتمال "الضرائب المتزايدة، والحكومة المتفولة، وغوايات الحرب الهجومية وما إلى ذلك" أكثر مما كانت تخشى طرابلس الغرب. وكان جيفرسون وغاليتين متفقين على أن الاستعداد لحرب طارئة يشجع على الحرب. وأصرت الإدارة على خوض الحرب بأموال جمعت لغرض الحرب دون سواء، وعلى أن لا تكون البلاد فى تأهب دائم للحرب^(٥٦).

ولم يفكر الاتحاديون كثيرا، لا باقتصادات جيفرسون ولا بخطته الرامية إلى الحؤول دون ظهور مؤسسة عسكرية دائمة تسندها ضرائب دائمة. واعتبروا صندوق المتوسط حيلة أخرى يقصد بها جيفرسون أن يزيد شعبيته. وأصرت تشارلستون (ساوث كارولينا) كوريير على أنه قلص حجم البحرية ليضمن إعادة انتخابه، وبعد أن أفضت وعوده بضبط النفقات إلى حصاد من "حصافة القش والسخام"؛ فإن "ملهاة الحرص الشديد على المال التى خدع بها الجمهور، تختفى من على المسرح". واعتبرت نيويورك بوست، وهى صحيفة أليكساندر هاميلتون أن "خسارة فيلادلفيا" درس عملى فى اقتصاد جيفرسون" كما اعتبرت الأموال من أجل المتوسط "المحاولة الأكثر جرأة" بين كل ما رأيناه "لفرض عبء ثقل على الولايات التجارية" وفضحت الصحيفة ما وراء هذه المحاولات "الاستنزافية والقمعية وغير النزيهة" التى يقوم بها "حواة سياسيون" مشيرة إلى أن الولايات المتحدة مدينة بمبلغ ٨٠٠,٠٠٠ دولار، فوائد سنوية على الأموال التى اقترضتها لشراء لويزيانا: فهل كانت مجرد مصادفة أن أموال صندوق المتوسط تحصل بواقع ٧٩٢,٠٠٠ دولار، كل سنة؟

لقد كان جيفرسون يفرض الضرائب على تجار نيوانغلند ليشتري المزيد من الأراض للمزارعين الجنوبيين، محاولاً "زيادة العائدات دون أن يفقد الشعبية". كان التجار بحاجة إلى البحرية لحماية تجارتهم، وقد خرب جيفرسون البحرية ثم فرض الضرائب على التجار بدعوى حمايتهم، واستخدم العوائد لشراء لويزيانا. لم تكن الإدارة

راغبة فى فرض الضرائب على المزارعين أو العمال، لأنها تحتاج أصواتهم. ولم يكن غالاتين يرى أنه من المناسب جمع الأموال بفرض الضرائب على (ويسكى الجنوب) بعد أن ارتاح منها (فم العامل) بكل سرور^(٥٧).

وتعرضت خطة جيفرسون لخفض نفقات البحرية ببناء زوارق مدفعية صغيرة للدفاع عن المرافئ والأنهار، دون أن تكون لديها القدرة على عبور المحيط والتصدى لطرابلس الغرب أو لشن حرب هجومية، هى الأخرى لسخرية الاتحاديين. وعندما أطاحت عاصفة بأحد الزوارق، وأخرجته من نهر سافانا وألقت به فى حقل حنطة، أشارت نيويورك بوست إلى أن الزوارق "قلدت الرئيس الأعلى الشجاع للبحرية" فى الدفاع عن المصالح الزراعية. وقال شخص مجهول فى بوسطن "إذا كانت زوارقنا المسلحة غير ذات جدوى فى الماء، فقد تكون أفضل حالاً على البر"^(٥٨).

وقد ساند الاتحاديون، دائماً، البحرية واعتبروا الجمهوريين أعداءها. واقترح أحد الاتحاديين نخباً يقول "عسى أن تحمى قوتها تجارتنا" مضيفاً "ويشتت مجدها أعداءها فى واشنطن وفى طرابلس الغرب" وقد اتهم الاتحاديون جيفرسون وإدارته الجمهورية بأنهم أكثر اهتماماً بشراء المستنقعات والملاحات فى لويزيانا منهم بحماية التجارة والبحارة الأمريكين فى المتوسط^(٥٩). ولو أن الإدارة أرسلت ما يفوق "أصغر قوة ذات كفاءة" إلى المتوسط، لما كانت فيلادلفيا وقعت فى الأسر.

لكن جيفرسون رأى أنه بما أن فرقطة واحدة تتكلف أقل من اثنتين فالإقتصاد يقتضى أن تكون قبالة سواحل طرابلس الغرب فرقطة واحدة. وكلف هذا الإقتصاد الساذج البلاد فرقطة، والآن يرى جيفرسون ضرورة بناء المزيد من الفرقاطات. وأقر السناتور من نيوهامبشاير وليم بلامر بأن إدارتى أدامز وواشنطن أنفقا على البحرية أكثر مما يجب، أكثر من مليونى دولار مقارنة بـ ٦٠٠,٠٠٠ أنفقها جيفرسون ميزانية سنوية للبحرية. لكن بلامر اعتبر أن ميزانية جيفرسون صغيرة إلى حد أنها "سياسة رديئة وشر سافل" أن نرسل الرجال إلى المعركة دون قوة كافية. وكتب بلامر يقول إن البحرية بالحجم المطلوب مكلفة وربما كانت ستتسبب بإيذاء "شعبية جيفرسون كإقتصادى وتقلل من حب الدهماء له" لكنها كانت كفيلة بإنقاذ الأرواح^(٦٠).

وكان يمكن للاتحاديين أن يكسبوا في هذا الجدل، لكن ضابطا من الجيل الثانى فى البحرية هو ستيفن ديكاتور وضع حدا للمجادلات حول الحرب بالتسلل إلى مرفأ طرابلس الغرب ومعه طاقم مختار بعناية وأشعلوا النار فى فيلادلفيا. ولا يمكن تصور التأثير الذى أحدثته هذه الأخبار عندما وصلت إلى أمريكا. ففى ساليم أوى وليم بنتلى إلى فراشه مكتئباً، فى ١٥ مايو ١٨٠٤. كان اجتماع متصل لمجلس المدينة ذلك اليوم قد اختار رجالاً قليلي القيمة للمناصب المحلية: رفض أفضل رجال ساليم الخدمة. وكان بنتلى قلقاً على مستقبل ساليم. لكن روحه المعنوية ارتفعت فى اليوم التالى وكتب "نتلقى أخبار إحراق فيلادلفيا فى مرفأ طرابلس الغرب فى الوقت المناسب لنرتاح من أحداث الأمس". وفى كل أنحاء البلاد كانت إغارة ديكاتور تحرك العواطف الوطنية، وتحول هزيمة مدمرة إلى نصر مجيد^(٦١).

وعلى شجاعة العمل الذى قام به ديكاتور، فهو لم يغير الموقف فى طرابلس الغرب. وفى أغسطس وسبتمبر ١٨٠٤ شددت البحرية حصارها لتلك المدينة ثم قصفتها. لم تنجح العمليات وتم وقفها حتى ربيع ١٨٠٥. وعندما استؤنفت بدأ وليم إيتون زحفه الشخصى من مصر، عبر الصحراء الليبية، إلى مدينة درنة. كانت البحرية تحاصر طرابلس الغرب، وإيتون يحاصر درنة، وتوبياس لير يتفاوض على معاهدة سلام. وفى يونيه ١٨٠٥ وافقت الولايات المتحدة على أن تدفع فدية مقدارها ٦٠,٠٠٠ دولار لإطلاق مائة أسير. وانتهت الحرب.

وطلبت نيويورك بوست من "وزرائنا المختالين الصاخبين المعتوهين الذين يحدثوننا عن خوارق السير جيفرسون الذى وصل بالحرب مع طرابلس الغرب إلى نهاية مجيدة" أن يقرأوا عن العملية الفرنسية ضد الجزائر التى أسفرت عن إطلاق الأسرى الفرنسيين خلال أربع وعشرين ساعة. وهكذا "فمجرد إظهار قوة محترمة ولهجة مناسبة" أنجز فى يوم ما احتاج من جيفرسون أربع سنوات. ورأت نيويورك بوست أن الجمهوريين يتعين عليهم التزام الهدوء فيما يخص "الأسلوب الغبى الذى خضنا به الحرب أربع سنوات"^(٦٢).

وردت "أوردرا" فى ولاية فيلادلفيا بقولها إن الاتحاديين كان يجدر بهم ترك الضباط وأفراد طاقم الفرقاطة فيلادلفيا "رهين الأغلال إلى الأبد بدلاً من رؤية جيفرسون وهو يحوز "شرف تحريرهم وإذلال برابرة طرابلس". وعندما انتهت الحرب وعاد السجناء والأسطول الأمريكى المنتصر إلى الوطن، كتبت "أوردرا" أن "الأحداث تتكلم عن نفسها" وأن "حكمة وحصافة" الإدارة كسبت الحرب رغم الهذر الاتحادى.

وفى عشاء فى ريتشموند كان النخب تحية للإدارة "نجاح تدابيرها أفضل برهان على نشاطها"^(٦٣). وزعم الجمهوريين أن كل التدابير كانت ناجحة. حتى صندوق المتوسط، والتي رأى الاتحاديون أنها كانت احتيلاً لجعل تجار نيوانغلند يدفعون ثمن لويزيانا، راح الجمهوريون يزعمون أنها كانت سلاحاً مهماً. ويقال إن يوسف قراناملى قرأ الصحف الأمريكية و"أدهشه، على نحو خاص... تقرير وزير الخزانة "حول جمع ما يزيد على نصف مليون دولار لصالح صندوق المتوسط، سنوياً. وغمر وزير الخزانة غالاتين الباشا بـ "الدهشة والقلق" وجاء فى تقرير وزير الخزانة أن يوسف رأى أن روح الأمة الأمريكية لم تنكسر بعد "وعلم أنه عاجز أمام أمة" يمكن إذن أن تقدم (الملايين من أجل الدفاع ولا سنناً واحداً من أجل الجزية)^(٦٤).

وفى الحقيقة، وعلى رغم أن معظم الأمريكيين المعاصرين اعتبروا الاتحاديين ساخطين لأسباب حزبية، فإن المؤرخين الذين جاؤوا بعد ذلك، ساروا على نهجهم من حيث إدانة معالجة جيفرسون للحرب مع طرابلس الغرب، باعتبارها معالجة تكشف عن قلة كفاءة أو عن تناقض، وأن الحظ وشجاعة ديكا تور فقط، أنقذ الموقف. لكن الاتحاديين والمؤرخين التاليين جانبوا الصواب. لقد دعا جيفرسون إلى استخدام القوة ضد سلطات البربر منذ ١٧٨٥، لكنه لم يعتبر الحرب إلا أداة محدودة يتعين أن تبقى تحت السيطرة الكاملة للسلطات المدنية. وكان جيفرسون، ربما أكثر من أى من معاصريه، يخشى عواقب القوة المفرطة. تعين عليه أن يحارب طرابلس الغرب دون أن يطلق قوى الحرب من عقالها، وهو أمر اعتبر أن من شأنه أن يفضى إلى حكومة موسعة وأن ينطوى على استبداد الجهاز التنفيذى. وزار وليم بلامر وهو اتحادى من نيوهامبشاير جيفرسون عندما كان مجلس الشيوخ ينظر فى معاهدة طرابلس الغرب. وأخبر بلامر جيفرسون

بأن حكومة الولايات المتحدة تبدو أنسب للشؤون الداخلية منها للشؤون الدولية. وقال له جيفرسون: "ملاحظتك كاملة الصحة، فدستورنا مؤسسة سلمية - وهو لم يصمم بهدف الحرب. والحرب يمكن أن تعرض وجوده للخطر"^(٦٥). وفى الحرب ضد طرابلس الغرب أبقى جيفرسون على خضوع العسكريين للسلطة المدنية بشكل صارم واستخدم صندوق المتوسط ليضمن أن أولئك الذين يستفيدون من الحرب يدفعون كلفتها. لكن جيفرسون كان يعلم أيضاً أن فوائد هذه الحرب تمتد إلى ما وراء تأمين تجارة المتوسط.

وعندما أثبت الأمريكيون قدرتهم على استخدام القوة دون انتهاك، ودون أن تهيمن عليهم القوة، فقد أثبتوا، كما كتب جون بول جونز قبل عشرين عاماً، أنهم شعب يستحق الحرية.

قبل ذلك بعشرين عاماً أثار زوار من شمال إفريقيا الخوف والشك. والآن، فى ١٨٠٥، لم يكن مثل هؤلاء الزوار إلا موضع فضول غير مؤذ. وعادت السفينة جون أدامز إلى نيويورك بسبعة من أسرى الحرب الطرابلسيين، فى مارس ١٨٠٥. وكان وصولهم مصدر جذل للمسارح المحلية التى تسابقت على الفوز بحضور الطرابلسيين. ورغم أن جمهور نيويورك كثيراً ما شاهد "تشخيص الأتراك والباشا ذى الثلاثة أذيال (هنا تورية أصلها أن رتبة الباشا يرمز إليها عند العثمانيين بذيول أحصنة ثلاثة، لكن المقصود هنا أن الباشا نفسه هو كائن له أذيال ثلاثة - المترجم)": فقد كانت هذه أول مرة يظهر فيها "التركى المستورد الأصيل الحقيقى" على أى مسرح أمريكى. واجتذب الطرابلسيون السبعة جمهوراً حاشداً حتى أن أحد المسارح قدم ليلة خاصة بهم فى نهاية مارس وأعلن عن أنه فى ٥ أبريل "سوف يزور الأتراك المسرح للمرة الأخيرة حقاً" وبالمقابل، فقبل ثلاثة أعوام طُرد ثلاثة يهود من فيرجينيا خوفاً من أن يكونوا جواسيس للجزائر والآن فإن سبعة بحارة طرابلسيين أُسروا عقب معركة مع سفينة أمريكية يسرون عن الجمهور ويرفع عدد جمهور المسرح^(٦٦).

وكان التناقض أشد في ريتشموند بفيرجينيا. فقد ترأس الدكتور وليم فوشى الذى سبق له استجواب المراكشيين الغرباء فى ١٧٨٥ عشاء أقيم على شرف وليم برينبريدج وغيره من الأسرى العائدين فى ١٨٠٥. وربما تذكر فوشى الأيام الشتوية المظلمة فى ١٧٨٥ عندما استدعاه باتريك هنرى لاستجواب الأشخاص الغامضين القادمين من شمال إفريقيا والذين اهتزت الولاية لقدمهم، بدرجة كبيرة. كم تبدو أيام الخوف والشك تلك مختلفة عن هذه الأيام من القرن التاسع عشر!

فى ١٧٨٥ لم تكن هناك حكومة قومية يمكن الحديث عنها، كان للولايات المتحدة حق اسمى على الأرض الممتدة حتى حوض المسيسيبي، ولكن ذلك كان يقتضى خوض منازعات على كل بوصة منها مع بريطانيا وفرنسا وإسبانيا والأهالى المخيفين المحليين، وكان الأمريكيون أسرى فى الجزائر. أما الآن، فى ١٨٠٥ فالولايات المتحدة مسيطرة على المسيسيبي وعلى معظم منابعه. وقد تخلت فرنسا عن العالم الجديد، وكانت حكومة اتحادية محبة للخير تهدى الهنود، وعاد الأمريكيون منتصرين من المتوسط، بعد أن أذلوا الأعداء القدماء للحضارة المسيحية، مؤكدين دورهم كأمركيين فى الدفاع عن الحرية. وقد كان الانتصار على طرابلس الغرب الذى احتفل به فوشى فى ١٨٠٥ هو الذى جعل الأمريكيين أنداداً لأى شعب آخر، ليس بسبب القوة العسكرية، ولكن لأن تلك القوة كانت تهتدى بروح العدالة ولأن هدفها كان الحرية وليس الغزو.

وقد كان الأمريكيون، رجال دولة وبحارة، قادة وجماهير، مختلفين عن "النهابين من السادة التابعين (vassals) ويطلق هذا اللقب على كل سيد يتبع سلطة أعلى، بخاصة إذا كانت إقطاعية، ويشير به النص إلى باشوات الشرق التابعين للسلطان العثمانى آنذاك - المترجم) من الباشوات الطغاة" كما وصف أحد الشعراء كلا من الطرابلسيين والأمم الأوروبية التى سكنت على لصوصية الباشوات وطغيانهم. وربما تأمل فوشى التحولات التى جاءت بها السنوات العشرون وهو يترأس حفل العشاء هذا. لم يكن الأمريكيون شعباً جديراً بالاحترام فحسب، شعباً يستحق أن يحتذى. وكما أعلن أحد المحتفلين فى العشاء فى ريتشموند، فإن دول البربر لم تكن لتكلل هامات العالم المتحضر بالعار لو أن حكومات أوروبا استلهمت "الروح الأمريكية"^(٦٧).

الفصل الثانى

الولايات المتحدة وطيف الإسلام

لدى الأمريكیین والأوروبیین أفكار مشوهة عن الإسلام، لكنهم يجدون أن هذه الأفكار نافعة. لقد خلق كتاب التنوير صورة للعالم المسلم قامت بدور التحذير اليقظ من أخطار الخضوع للاستبداد، ومن أخطار حظر الجدل العام، وأخطار الشرين التوأمين وهما الطغيان والفوضى. وبقيت صورة الإسلام لدى الأوروبیین والأمريكیین رغم الخلافات الدراماتيكية فى أفكارهم السياسية. وخلال الثورة الأمريكية، كان بوسع الوطنیین أن يستخدموا صورة الانكشارية لتخويف مواطنيهم من خطر الخضوع للطغيان البريطانى. وكان بوسع المحافظين استخدام الصور التى رسمها الغربیون للنبوة لتحذير مواطنيهم من أخطار قلقلة النظم المستقرة واتباع الدعاة المتحمسين للأفكار الجديدة. وخلال الجدل حول الدستور، كان بوسع الاتحادیین أن يحذروا من أخطار الفوضى وغياب الاستقرار بالإشارة إلى الإمبراطورية العثمانية التى لم تكن تملك السيطرة على الأقاليم البعيدة الخاصة بها، فى حين كرر المعادون للفيدرالية التحذيرات الثورية من السلطة المركزية بالإشارة إلى طغيان الحكم المطلق لدى السلاطين المسلمين. وقد اختلف الأمريکیون، على تنوع فلسفاتهم السياسية، حول الدروس التى يمكن أن تستفاد من تاريخ المسلمين. لكنهم اتفقوا جميعاً، محافظین ووطنیین، اتحادیین وجمهوریین، على الزعم بأن الإسلام يعزز القمع الدينى والسياسى^(١).

ويمكن إدراك الصورة الأمريكية والأوروبية عن العالم المسلم، بكل وضوح، من سيرة لمحمد كتبها إنكليزي مجهول في نهاية القرن الثامن عشر وأعيدت طباعتها في أمريكا في ١٨٠٢. ويحدد العنوان المطول لهذا الكتاب طبيعة خطابه: "حياة محمد، أو تاريخ الزيف الذي بدأه وواصله ثم انتهى إلى تكريسه في بلاد العرب: وهو الذي أخضع قسماً كبيراً من المعمورة، أكبر مما حرره دين المسيح، حتى الآن". وقد كان "القلب العطوف" للمؤلف (علامتا التنصيص تشيران إلى تحفظ المؤلف - المترجم) يتألم لمراى عقلاء الرجال "وقد انحطوا إلى مرتبة المتوحشين" بسبب "الاحتياال والشر" النابعين من محمد. وقد نزل الخداع والعنف بالمسلمين إلى درجة من التدنى جعلت هذا المؤلف لا يرى طريقة لإنقاذهم إلا بغزوهم. فالغزو الغربى وحده هو القادر على أن يحرر المسلمين من "ذلك النسق من التجديف والظلم الذى يستبعدهم فى الحاضر". فلا يمكن لأى غزو سلمى بالمبشرين أو المعلمين أن ينور المسلمين الذين يدعم حكامهم معتقداتهم الخاصة بـ "أسلحة حقيقية" ولم يعودوا يحترمون إلا منطق القوة. فهداية الوثنيين والمتوحشين أسهل من هداية المسلمين إلى الدين الصحيح^(٧).

ولم تكن الاختلافات الدينية بين الإسلام والمسيحية إلا جزءاً من المشكلة. وكما تزعم هذه الترجمة لمحمد، فإن الإسلام أسس لطغيان يستبد بعقول الناس، وهو ما خلق استبداداً سياسياً شريراً. وفى نهاية المجلد، أعلن الناشر عن كتابين كان يعلم أنهما يروقان لقراء هذه الترجمة لمحمد. أحدهما كان سلسلة مقالات عن خلاص المسيح وغير ذلك من الأفكار الدينية. وكان الآخر "روح القوانين" لمونتسكيو، وهو أوسع الأعمال التى تناولت النظرية السياسية فى القرن الثامن عشر تأثيراً، حيث يشرح أفكاراً ليبرالية عن الحكم والتنظيم السياسى. وقد ضم هذا الكتاب عن "حياة ماهوميت" (MAHOMET) من الصيغ التى كُتب بها اسم الرسول الكريم فى العصور السالفة، وقد أبقينا عليها حتى عندما استخدم النص الاسم الصحيح إشارة إلى أن النقد الغربى هنا يعالج شخصاً مخترعاً لا علاقة له بالنبي الكريم - المترجم) مجلداً ضم أيضاً - تقريراً عن مصر انتهى بتحذير من شرور الملكية المطلقة التى ليست سوى "مسلخ للشعب" بقدر ما هى للحكام. فالسلطة المطلقة للأمير "تضع حياة الملايين فى مرتبة

أوراق اليانصيب" وتغرى الملك بشرور لا يملك أن يقاومها. وإذا تصرف الحاكم المطلق، الذى يسمح للإسلام بوجوده، بأقصى ما تسمح به سلطاته "فاحتمال موته فى فراشه ضئيل". وقد أقر المؤلف بأن المصريين القدماء عرفوا قدرا من التحضر بل ومن السعادة تحت سلطة حكامهم المطلقين لكن "لا يجب أن يعجب أحد بهذا الحكم لهذا السبب أو أن يأمل أن يحصل قدرا مأساويا من السعادة بمحاولة استعادة هذه الخبرة (٣).

وقد اعترف المؤلف المجهول لكتاب "حياة ماهوميت" بأنه مدين للترجمة الإنكليزية الوحيدة الأخرى لمحمد التى كتبت فى ١٦٩٧ بقلم همفرى بريدو، الكاهن الإنكليزى. ورغم التنويه بريدو فإن المؤلف يعتبر أنه يفتقد الأسلوب والترتيب كما يفتقد SINE QUA NON (أمراً أساسياً، وهو تعبير لاتينى - المترجم) فى التأريخ الجيد وهو أمر تشعر به بأكثر مما تقدر على وصفه". فقد عجز بريدو عن إثارة مسائل خلقية وفلسفية، ولم يكن نقدياً بما يكفى عند تقديم البراهين. ورغم أن الإنكليزى المجهول لم يكن كاتباً موضوعياً، فقد كان بريدو أقل موضوعية. فقد كتب بريدو كتابه المعنون "الطبيعة الحقيقية للزيف، كما تجسد فى حياة ماهوميت، تجسيدا كاملاً" باعتباره تحذيراً للشباب الذين فتر اهتمامهم بالدين وأصبحوا يتعابثون بأفكار خطيرة مثل الدين الطبيعى، وهى عقيدة تقول بأن الله ربما خلق العالم لكنه لم يتطلب من الإنسان اهتماماً كاملاً. وكان بريدو باحثاً فى الدين وكان يخطط لكتابة عمل تاريخ كبير عن سقوط القسطنطينية بأيدي المسلمين. لكن المد المتصاعد للامبالاة بالدين أفزعه فقرّر أن يكتب ترجمة ماهوميت ليحذر الشباب الذين أظهروا اهتماماً بالموضة وبتفاهات الحياة يفوق الاهتمام بأرواحهم. وقد كان دعاة الدين الطبيعى والفكر الحر يزعمون أنهم يحررون عقول البشر من أغلال الجهل والخرافة، وقد رأى بريدو فى قصة الإسلام أن هذه اللامبالاة تنتهى إلى العبودية. ويقصد بذلك أنه بمجرد أن يكف الناس عن الاهتمام بالدين، اهتماماً جدياً، معتقدين أن كل إنسان يحق له أن يستفتى قلبه ويتبع الرب الذى يختاره، فلن يكون بوسعهم أن يكتشفوا مزيفاً دينياً مثل ماهوميت، إلا بعد فوات الأوان. فبوسع النبى المزيّف أن يكتسب من المتحولين إلى عقيدته عدداً كافياً

لاستبعاد الأمة. وقد كان بريدو، شأنه شأن قريبه الراديكالي والترمويل، الذى هاجمت رسالة كتبها فى تسعينيات القرن السابع عشر فكرة السلطة المطلقة لدى الملك، يحاول أن يوقف تجذر الطغيان فى إنكلترا. واعتقد بريدو أن الوقاية من الطغيان تكون بالوقاية من المرض الاجتماعى الذى يسمح به. وبرأيه أن التعصب الدينى لم يكن ليجد متنفساً لو أن الناس فى بلاد العرب استمسكوا بدينهم السابق. فقد اندفع ماهوميت بقوة الشهوة والطموح ليصبح طاغية، لكن ضعف التدين عند الناس هو الذى يسر له النجاح. وكان بريدو يأمل أن تحذر قصته هذه الشعب الإنكليزى فى تسعينيات القرن السابع عشر، كما تمنى الكاتب الذى جاء بعده تحذير الإنكليز فى تسعينيات القرن الثامن عشر، من أخطار الإلحاد والدين الطبيعى واللامبالاة بالدين^(٤).

ووفقاً لما قاله بريدو فإن ماهوميت جاء من أسرة نابهة، وإن كان موت والديه حرمة من الميراث القيم. ورفض بريدو الروايات الأخرى التى ترجع ماهوميت إلى اصول "متواضعة وحقيرة". وقد كان الطموح والشره عنصرين خطيرين فى الشخصية التى رسمها بريدو لماهوميت، الذى قال إنه ولد فى بيت رفيع لكنه فقد مكانته. وبحث ماهوميت عن الطرق التى يعزز بها مكانته بعقله "المراوغ والماكر". وقد كان أهل مكة يعبدون آلهة كثيرة ومختلفة ويحترمون المذاهب الدينية لجيرانهم. وكانت هذه الديانات المتنوعة تعتبر حقائق نسبية، ولم يكن أى منها يعتبر حقيقة مطلقة. واستغل هو هذا التسامح والنسبية، واعتقد أنه بقدرته على خلق دين جديد خاص به، يمكنه أن يحظر كل الديانات الأخرى ويضمن سلطانه هو^(٥).

ولم يكن بريدو مجرد كاتب مسيحى أزعجه أن ماهوميت ادعى النبوة، أو أن ماهوميت أنكر ألوهية المسيح. فماهوميت عند بريدو كان مهرطقاً دينياً، ولكن خطيئته الحقيقية كانت فى طموحه. وأشار بريدو إلى أن "خديعة" ماهوميت بدأت فى نفس الوقت، تقريباً، مع صعود غريغورى الأول إلى البابوية وإعلانه أن السيادة على مجمل الكنيسة المسيحية صارت له. ولأن ماهوميت وغريغورى الأول "تآمرا ليؤسسا لنفسيهما إمبراطورية بالخداع" فقد حثا أتباعهما على استخدام النار والفولاذ لتحقيقها.

وقد كان بريدو، وهو كاهن أنغليكانى، يرى فى الإسلام والكاثوليكية قدمى المسيح الدجال وقد وطئتا العالم المسيحى فى الشرق والغرب. فكل من الكاثوليكية والإسلام يسمح بالطغيان السياسى، ولكن ما يفوق الشر المتأصل فيهما، من حيث الأهمية، هو أنهما مسموح لهما بالنمو بفضل لامبالاة الطيبين من البشر بالنتائج المترتبة عليهما^(٦).

وكان بريدو يأمل أن توقظ الصورة التى رسمها لمحمد أولئك الذين أغوتهم الديانة الطبيعية أو الذين لا يبالون بها. لقد نجح ماهوميت لأن الناس أقلعوا عن أخذ دينهم الحقيقى مأخذ الجد وبدأوا يتساءلون حول ركائز معتقدتهم. وقد استغل ماهوميت اللامبالاة الدينية لخلق طغيانا دينيا انتهى إلى طغيان سياسى. واستخدم الوحى غطاء كاذبا يغطى الطموح السياسى، وهو طموح كان يمكن أن يحققه بالإقناع، عندما يكون ذلك ممكناً، وبالسيف، عندما تدعو إلى ذلك الضرورة. وعندما طلب الناس من ماهوميت برهاناً على قدسية رسالته وأرادوا أن يروا معجزات، رد عليهم ماهوميت بأن الله مل من إظهار الدلائل وأرسل خاتم النبیین ليؤسس الدين بالسيف. ولهذا السبب، كما قال بريدو، فإن شيوخ المسلمين يخطبون والسيف إلى جانبهم.

وبعد قرن من الانشقاقات الدينية والسياسية الإنكليزية التى دفعت بريدو إلى وضع كتابه "الطبيعة الحقيقية للزيف" فإن الانشقاقات السياسية والدينية كانت وراء الطبعتين الأمريكيتين لكتابه. وتُظهر هاتان الطبعتان المنفصلتان الاستخدام السياسى المباشر الذى يمكنه الاستفادة من حياة محمد، حتى بعد الكتابة عنها بقرن كامل، فى أمريكا. وقد أصدر ستيوارت وكوتشران، وهما ناشران للكتب الدينية فى فيلادلفيا، الطبعة الأمريكية الأولى لكتاب بريدو "الطبيعة الحقيقية للزيف" فى ١٧٩٦. وضمن الناشران الأمريكيان هذه الطبعة مقدمة بريدو الأصلية بما فيها من هجوم على "الغلبة الهائلة للكفر فى العصر الحاضر" ومن الدعاء الموجه إلى كل كاهن مسيحى لمحاربة الدين الطبيعى والردة ونتائجها المخيفة.

وقد أفرز بريدو في ١٧٩٦ "الشعور بالنشوة" الذي وقع فيه كثير من الناس، وبخاصة الشباب، بغير تبصر متقبلين كل ما هو "رائج وعلى الموضة". وكان يمكن لهذا أن يكتب في ١٧٩٦ بقلم أي أمريكي أزعجه العصر الذي أفرز توماس بين والثورة الفرنسية وغير ذلك من هجمات على المسيحية وعلى النظام. وقد حذر بريدو من أن كثيرا من صناع الرأي يعبثون بفكرة الدين الطبيعي، وهو ما يؤدي "بغير المتفكرين من الناس" إلى اعتبار أن "المسيحية خدعة وزيف" دون أن يفكروا في ماهية الزيف الحقيقية. وقد حدد كتابه "الطبيعة الحقيقية للزيف" ما يعتبره زيفاً، بوضوح. وقد يأمل أن يقنع المتشككين بالاختلاف بين المسيحية والإسلام أو غيره من المعتقدات الزائفة. فتراجع التدين لا يفضى إلى حرية دينية بل إلى طغيان.

هذه الرؤية السوداوية أيقظت أولئك الذين شهدوا فوضى الثورة في فرنسا وقد هزت أركان النظام القائم في أوروبا بل وهددت أمن أمريكا. وبلغ القلق بنائب الرئيس جون أدامز، بسبب أحداث فرنسا، أنه كتب في ١٧٩٠ سلسلة عن المقالات بعنوان "رسائل عن دافيل" يحذر فيها من أنه "لو تم تدمير كل تقليد أو نظام وطاعة" وحل محل ذلك الشك والفوضى وانعدام الأمن بالنسبة للممتلكات فإن الناس "سرعان ما يبحثون عن البركة، بعد أن تحولت كتبهم إلى رماد، في الظلمة والجهل والخرافة والتعصب، ليتبعوا راية أول مستبد مجنون يسعى، بحماس ماهوميت آخر، إلى كسبهم" وبالنسبة لآدامز، كما بالنسبة لبريدو، فإن الطغيان قد يكون نتيجة حرية زائدة.

وبالنهاية، فقد أثبت نابليون أن آدامز محق. لكن في ١٧٩٠ و ١٧٩١ كانت قضية الجمهورية الفرنسية تنعم بشعبية واسعة في الولايات المتحدة حتى أنه حتى محرري الصحف الاتحادية رفضوا نشر مقالات آدامز. وقد عارض آدامز الثورة في فرنسا لأنه اعتقد أنها ستنتهي إلى ديكتاتورية عسكرية. ولكن معارضته لثورة وعدت بالديمقراطية والمساواة، فإن منتقديه ظنوا أنه معاد لتلك المبادئ. وفي ١٧٩١ دافع توماس بين في فرنسا، باعتبارها عضو الجمعية الوطنية، عن الثورة الفرنسية وعن حق الشعب الفرنسي في إسقاط التراتيبات الاجتماعية والسياسية والدينية، في كتابه المعنون "حقوق الإنسان".

وقد امتدح وزير الخارجية توماس جيفرسون كتاب "حقوق الإنسان" وقال إنه يؤمل في أن يواجه كتاب بين "الهرطقات السياسية" الصاعدة في أمريكا. ورغم أن جيفرسون لم يذكر أية أسماء ، فقلة من الأمريكيين هي التي كانت تشك في أن "آدامز" هو المقصود. ورد نجل آدامز، كوينسى آدامز، بأن قارئ بين جيفرسون وبين "النبي العربي" الذي دعا "جميع المؤمنين بإسلام الديمقراطية إلى أن يشهروا سيوفهم". وفي معرض قراءته للعقيدة الإسلامية "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" فإن آدامز الابن اعتبر أن جيفرسون وكل مؤيديه المتحمسين يصيرون "لا إله إلا الحرية، والحس السليم رسولها" فقد كان جيفرسون رجلاً طيب المنبت ومحترماً، مثل محمد الذي صورته بريده، ولكن بقبوله الفكر الحر عند توماس بين وغيره، فسوف ينتهي به الأمر إلى تدمير الحرية التي تظاهر بالدفاع عنها. وعلى غرار بريده فإن جون وجون كوينسى آدامز وجدا في محمد درساً، ليس فقط للمستمسك بدينه، ولكن أيضاً للامبالى دينياً أو سياسياً^(٧).

وبالنسبة للمدافعين عن النظام القائم فإن كتاب بريده "الطبيعة الحقيقية للزيف" انطوى على رسالة قوية. لكن قراءتهم لم تكن القراءة الوحيدة الممكنة. ففي ١٧٩٨ ظهرت طبعة أمريكية ثانية من كتاب بريده "الطبيعة الحقيقية للزيف" في فيرهافن بفيرمونت^(٨)، وأسقطت هذه الطبعة مقدمة بريده الأصلية، التي حذر فيها من الكفر والخروج عن الملة. وفي طبعة ١٧٩٨ هذه قدر من الاهتمام بالأسباب الاجتماعية المحتملة للطغيان يقل عما فيها من اهتمام بالطغيان ذاته. وربما كان خطر الطغيان الذي تنطوى عليه مسيرة محمد (برأى بريده - المترجم) أكثر وضوحاً لناشر هذه الطبعة مما كان لدى أى ناشر آخر.

وقد نشر جيمس ليون، من فيرهافن، وهو ناشر تدرب على حرفته على يدي بنجامين فرانكلين، كتاب بريده "الطبيعة الحقيقية للزيف" عندما كان أبوه عضو الكونغرس ماثيو ليون في السجن لمخالفته قانون التمرد لعام ١٧٩٨. وقد دخل ماثيو ليون الجمهورى والناقد العنيف للاتحاديين السجن لاتهامه آدامز باستخدام

"اسم الدين المقدس" باعتباره "أداة بيد الدولة لجعل النوع البشرى يكره ويضطهد بعضه بعضاً". وقد أدين ليون، بسبب هذا وبسبب أقوال أخرى قالها فى الكونغرس وفى رسائل إلى أهل دائرته باعتباره "شخصاً متمرداً وسيئ السمعة، ذا عقل فاسق، وطبيعة شريرة وشيطانية". وفى "الطبيعة الحقيقية للزيف" فإن الدين الزائف وقوة الدولة يجتمعان لاستبعاد الشعب.

ورأى ليون أن القوى ذاتها تفعل فعلها فى ١٧٩٨. وقد أرسله إلى السجن نقده المباشر للمؤسسة السياسية، وهكذا فإن ماثيو ليون عمد إلى الهجوم غير المباشر بنشر كتاب بريدو "الطبيعة الحقيقية للزيف"^(٩).

كان كتاب بريدو منحة من السماء لليون. فقد كانت رسالته حول مخاطر اللامبالاة واضحة. وقد أثبت الكتاب أيضاً التأثيرات الخطيرة لفرض التدين الصارم. ووفقاً لما قاله بريدو، فإن ماهوميت "كان يغضب ويرتبك" عندما يسأله مستمعوه أسئلة صعبة أو عندما يضحكون منه. وأخيراً، فإن ماهوميت، كما يقول بريدو، بلغ به الانزعاج حدا جعله يحظر "كل أشكال المجادلة حول دينه" وهدد كل من يشك فيه أو يعارضه بالموت. وكتب بريدو يقول "ويقيناً فلم تكن هناك طريقة أكثر حكمة من هذه يمكن ابتكارها لتبقى سيطرة زيف بهذا السخف إلا بإسكات كل أشكال المعارضة والجدل حولهما، بالتهديد بعقوبة بهذه الشدة"^(١٠).

ولم يكن ماثيو ليون يستطيع أن يجد قولاً يناسبه أكثر. صحيح أن الاتحاديين لم يحكموا بالإعدام على ليون أو غيره من المعارضين السياسيين، ولكنهم وجدوا فى قانون التمرد طريقة فعالة لإسكاتهم. وبالنسبة لليون، فهذه الخطوة الأولى كانت الأكثر أهمية، وبمجرد أن يصبح مقبولاً من الحاكم، سواء كان محمداً أو أدامز، لا يمكن مساءلته، فالنتيجة ستكون واحدة، بل ولم يكن مهماً إن كان العقاب بالسجن أو بالسيف، فالتأثير واحد. فماهوميت لم يحتل السخرية المبررة (برأى بريدو - المترجم) من سامعيه، ولهذا فقد لجأ إلى القوة. وقد فعل جون أدامز وإدارته الاقتصادية الأمر ذاته.

وقد بين كتاب "الطبيعة الحقيقية للزيف" النتائج التي تترتب على القمع. وأثبت قانون التمرد أنه حتى الثورى السابق مثل أدامز يمكن أن يسكره سلطانه^(١١).

وإضافة إلى كتاب بريدو فإن جيمس ليون بن ماثيو نشر "المجلة الجمهورية" فى ١٧٩٨. وفصلت أعدادها الأربعة وقائع محاكمة وسجن ليون الأب. وحملت الصفحة الأولى للمجلة الجمهورية سطوراً موحية من دانييل ديفو:

تركت الطبيعة هذه المسحة فى الدم،
ليصبح كل الرجال طغاة إن تمكنوا -

وإن امتنعوا عن افتراس جيرانهم
فليس لنقص فى الرغبة بل لنقص فى القدرة
(جيورى ديفينو)^(١٢)

وقد كان قادة الجمهورية الأمريكية، شأن أصحاب السلطة فى أى مكان، يملكون الرغبة والقدرة، معاً، على أن يصبحوا طغاة، وهى حقيقة واضحة لكل من ماثيو وجيمس ليون.

وقد سمح كتاب بريدو "الطبيعة الحقيقية للزيف" بتفسيرين يبدوان متناقضين. فى الأول، وهو على الأرجح التفسير المفضل لدى المؤلف نفسه، أن الإفراط فى الحرية يفضى فى النهاية إلى الطغيان، وعندما يفقد الناس إيمانهم، وعندما يضعون كل قيمة موضع التساؤل، وعندما يكفون عن احترام أحدهم للآخر، أو عن احترام ركائز المجتمع أو الدين فإنهم يفتحون الباب لداعية ديما غوغى (برأى بريدو - المترجم) ليؤسس استبداداً دينياً أو سياسياً. ورأى ماثيو ليون التفسير الثانى، أن كل الرجال يمكن أن يكونوا طغاة. وقد حذر ليون من أن رفض التسامح مع تساؤلات الجمهور حول القادة، والإصرار على أن تكون النظم الاجتماعية والسياسية القائمة جامدة لا تستسلم لقوى العقل أو الحس السليم، فإنه حتى الرجال الشرفاء، مثل جون أدامز، يمكن أن يصبحوا طغاة. ولسنا بحاجة للإشارة إلى أن أياً من التفسيرين ليست له علاقة قوية بشخصية

محمد التاريخية: فقد استخدم كل واحد من التفسير صورة ملفقة عن محمد لإثبات وجهة نظر تتعلق بأمريكا القرن الثامن عشر.

وقد استخدم فولتير أيضاً محمداً ليوضح نقطة تتعلق بالدين. فقد أسس فولتير على حياة محمد تحذيراً بخصوص اللاتسامح في أمور الدين، لا بمخاطر الحرية الدينية. ففي ١٧٤٢ كان فولتير قد كتب مسرحية بعنوان LE FANATISME OU MAHOMET PROHPHET (التعصب أو ماهوميت النبي - المترجم) ليتأمل تحت غطاءها الشفاف شرور اللاتسامح في الشؤون الدينية. وبالطبع فقد اختار فولتير أن يكون الشرير عنده هو ماهوميت، ولكن الوثنيين في مكة يظهرون باعتبارهم الأبطال العلمانيين الإنسانيين في المسرحية. ويعد أن كتب فولتير هذه المسرحية بوقت قصير ترجمها جيمس ميللر، وهو كاهن إنكليزي وكاتب مسرحي أيضاً، محافظاً على مديحها للإنسانيين العلمانيين في مكة، وإن كان قد حولها إلى مسرحية حول شرور التعصب والإخلاص الأعمى لأصحاب السلطان. وقد وصف كاتب تراجم في القرن التاسع عشر يصف ميللر باعتباره "كاتباً سياسياً، رفض رشوة ضخمة للتخلي عن آرائه ومجاملة وزراء الدولة".

وقد انطوت ترجمة ميللر لمسرحية "ماهوميت" على رسالة قوية، فالجمهور في دبلن استثاره سطر ورد على لسان إحدى الشخصيات، ظنوه ناقداً للحكومة، فطلبوا إعادته وصفقوا تصفيقاً مهتاجاً عند الإعادة، وخشى مدير المسرح أن تغلق الحكومة مسرحه إن هو سمح بمثل هذا النوع من التعبير، في الليلة التالية، فمنع الممثل من تكرار السطر المثير للجدل. وأصغى الجمهور، في الليلة التالية، مترقباً السطر والفرصة لإظهار المعارضة للحكومة. ومرة أخرى صفقوا، وضربوا الأرض بأقدامهم، وهتفوا، مطالبين بإعادة ما قيل على مسامعهم. لكن الممثل الذي تلقى أوامر من الإدارة، بقي صامتاً. وأصر الجمهور، مطالباً بالكلمات التي يريدونها، مغرقاً بالصخب أي محاولة لمواصلة تقديم المسرحية. ولم يكن ممكن الاستمرار في العرض. وعندما أدرك الجمهور أن المدير هو الذي يحظر التكرار، أحرقوا المسرح^(١٢).

ومن العسير استعادة المغزى السياسى المباشر الذى أحدث هذه الاستجابة. ويمكننا التخمين فيما يتعلق بالشعبية اللاحقة للمسرحية ولاستمرار الاهتمام بها طوال النصف الثانى من القرن الثامن عشر، فى إنكلترا وأمريكا. وفى مسرحية فولتير وموليير نجد ماهوميت مغامرا كاريزميا، زعيم طائفة. وقد قام بغسيل مخ لشابيين حساسين ومثاليين وهما زافنا وبالميرا، فانضمما إليه لاسقاط الكانور، زعيم مكة الوثنى. ويوافق بالميرا وزافنا، بكل حماس على أن يقتلا الكانور، ومقابل ذلك يعد ماهوميت بمباركة زواجهما. لكن زافنا وبالميرا لا يعلمان أنهما أخ وأخت، وأن الكانور هو أبوهما، أو أن ماهوميت يخطط لقتل زافنا لأن لديه خطة دافعها اشتهاؤه لبالميرا. ولأنهما غارقان فى حماسهما الدينى فإن الشابين يتبعان ماهوميت ويقتلان أباهما بأمر منه ولا يكتشفان حقيقة الكانور إلا بعد فوات الأوان.

ويقتل زافنا وبالميرا نفسيهما مدركين أن البركات التى وعدهما بها ماهوميت هى "السيف والطاعون والمجاعة". وفيما هما يحتضران فإنهما يسألانه "كيف نجحت فى أن تنزل علينا اللعنة، على هذا النحو؟" وتستيقظ ومضة من الضمير لدى ماهوميت، الذى يدرك أنه على الرغم من فتوحاته، فإنه يبقى عبداً لانفعالاته وطموحاته. "هباء هو المجد، والتأليه، والسيطرة! بعد كل الفتوحات التى أنجزتها أبقى عبداً.. قد أستطيع أن أخدع العالم، أما نفسى فلا أملك أن أخدعها". وإذ يصلى بإخلاص، لأول مرة، فإنه يدعو أن يقوم بينه حجاب وبين الفظاعات التى ارتكبها. وتنتهى المسرحية بالتحذير:

دع المتحمس المجنون يشخص ببصره إلى هنا،

ليرى ما ينشأ عن التعصب الأعمى.

ودعه يقرأ ما هو مكتوب بأكثر الألوان سواداً

أن الاندفاع الذى يضله الخداع قد يأتى يفعل

يدمى البراءة والفضيلة^(١٤).

فماهوميت عبد لطموحاته وعواطفه، وهو يجعل الآخرين أسرى لها أيضاً. وهو لا يستطيع أن يضبط أهواء أتباعه لأن أهواءه هو خارجة عن السيطرة. فالحماس والتعصب والشهوة والطموح هي الدروس التي تستفاد من مسيرته المجنونة، وهو يقنع زافنا وبالميرا بأن يتخليا عن أبيهما ويتبعها مذهب الزائف.

ولا نعرف ما هي الأحداث أو الشخصيات السياسية التي استفزت الجمهور في ١٧٤٤ ليدمر المسرح. لكن بوسعنا أن نتخيل رد فعل الجمهور في هذه المسرحية عندما مثلت "ماهوميت الزائف"، لأول مرة، في أمريكا. جاء العرض الأول للمسرحية في نيويورك في ١٧٨٠. وعلى غرار مكة في المسرحية، كانت نيويورك عندئذ مدينة محاصرة. كانت القوات البريطانية تسيطر على المدينة، وعلى الأمريكيين، وعلى الأقاليم المحيطة. وكان الممثلون في هذا الإنتاج الأمريكي الأول لمسرحية "ماهوميت الزائف" كلهم من الجنود البريطانيين. وجلس جنود بريطانيون ونيويوركيون موالون للملك بين الجمهور. كانت نيويورك منطقة يحيط بها المد المتصاعد للثورة، والجمهور والممثلون، مثل الكانور والوثنيين المتسامحون من أهل مكة، ربما شعروا بأنهم تحت الحصار من متحمسين منفعلين يستفزون أهل المستعمرة الأبرياء لقتل أبيهم الرمزي جورج الثالث. والممثلون الجنود الذين أرسلوا إلى أمريكا للحفاظ على الإمبراطورية ربما وجدوا في مسرحية "ماهوميت الزائف" تأكيداً لدورهم باعتبارهم حماة للنظام القائم، وهم يحاولون أن يمنعوا المتحمسين الطموحين والذين استبد بهم الانفعال الجنوني من تدمير الروابط التقليدية للأسرة والمجتمع والإمبراطورية^(١١).

لكن نيويورك، مثل مكة، سوف تسقط. وبعد ١٧٧٧ فإن "ماهوميت الزائف" التي ظلت تطبع كل سنة في إنكلترا منذ ١٧٤٥ سوف تنفذ نسخها. ولن تعود للظهور إلا في ١٧٩٥ وهي السنة التي كانت أوروبا كلها تتحارب حول مبادئ الثورة الفرنسية. وفي ١٧٩٥ كانت الأخطار التي يمثلها الديماغوغيون وقتلة الملوك أكثر وضوحاً. وقد نشر أربعة من الناشرين اللندنيين "ماهوميت الزائف" أربع مرات في ١٧٩٥، وفي ١٧٩٦ مثلت في فيلادلفيا. وكان يمكن أن يتعجب فولتير، لولا أنه مات، من أن

مسرحيته تحولت من رفض التسامح الدينى إلى مساندة النظام القائم، تماماً كما كان يمكن لمحمد أن يتعجب من تحوله هو إلى مجاز قابل للتطبيق على أية أيديولوجيا أو أى موقف. ومحمد المجازى هذا كان يحمل رسالة قوية تتعلق بنتائج القوة غير المحدودة والإخلاص الأعمى. وقد اختلفت الصور من حيث التفاصيل، لكنها كلها كانت تقدم الدرس ذاته، درساً عن الطغيان والسلطة لم يمل الأمريكيون، قط، من سماعه.

وفى ثمانينيات وتسعينيات القرن الثامن عشر، عندما بدأ الجيل الذى انتصر فى الثورة يخلق حكومة جديدة، ويحدد سلطات هذه الحكومة، فى حين كانت أخطار الاستبداد والفوضى تتكشف بوضوح فى أحداث فرنسا، أصبحت الأهمية الكاملة للصورة الإسلامية فى مركز الرؤية. اعتبر الأمريكيون أن محمداً نبى خطير وزائف وخالق دين ونظام سياسى شريرين. ولم يعتبروا هذه الأنساق خاطئة لمجرد أنها غير مسيحية أو لأنها استبدادية. لم يكن الخطر الكامل للاستبداد الدينى أو الطغيان السياسى الشر المباشر الذى ينشأ عنها، لكنه كان ضمن نتائجها النهائية.

ولم يكن هذا الجيل من الأمريكيين يتحرك من أجل نفسه فقط، بل ومن أجل الأجيال فى كل زمان. كانوا بصدد إنشاء نظام سياسى لا يخدم مصالحهم فقط بل ويخدم مصالح الأجيال المقبلة. ولم يكن الاستبداد الإسلامى بالنسبة لهم خطأ لمجرد أنه يمنع الرجال والنساء من التمتع بالحرية، ولكن أيضاً لأنه يمنع الرجال والنساء ونسلهم من التمتع بمنافع الحرية، فالإسلام برأيهم يمنع الرجال والنساء من أن يتطوروا إلى كامل إمكاناتهم. الإسلام، كما كان يراه الأمريكيون، كان ضد الحرية، ولأنه ضد الحرية فهو يعوق التقدم. والجمهوريون من أمثال ماثيو ليون وتوماس جيفرسون، ممن يرحبون بالتحرية التقدمية للثورة الفرنسية والفيديراليون من أمثال جون آدامز، الذين كانوا يخشون نتائج ديمقراطية غير منضبطة، اتفقوا على أن الحرية والتقدم الإنسانى أمران طيبان وأن الاستبداد غير المقيد فى العالم المسلم كان أمراً سيئاً لأنه يحول دونهما. ورغم أن الأمريكيين لم يتفقوا على قدر الحرية التى يحتاجها المجتمع، اتفقوا على أن الدول المسلمة لم تحتل أى قدر من الحرية. ولهذا السبب فإن المجتمعات التى عرفت الازدهار فيما مضى فى مصر وسوريا وتركيا وشمال إفريقيا

كفت عن النمو وسمح أهلها وحكامها الكسالى والمنحرفون لأراضيهم، التى كانت خصبة فى يوم ما، بأن تصبح صحارى مجدبة. وكان هذا درساً قوياً لشعب يعمل على بناء مجتمعه السياسى الخاص. كان من الممكن للأمريكيين أن يقاسوا المصير ذاته، بسهولة.

ورأى ماثيو ليون وغيره من الجمهوريين أن الخضوع للاستبداد كان الخطوة الأولى، والأكثر خطورة. واعتقد جون أدامز وغيره من الفيدراليين أن السكوت على المذاهب المهرطقة من شأنه أن يدمر المذاهب الصحيحة، حتماً. ولم يكون الشر الذى ينشأ، بالنسبة للاثنتين، مجرد دين زائف أو حتى استبداد سياسى. وبدلاً من ذلك، اعتبر كل أمريكى، أياً كان مذهبه السياسى، أن الطغيان السياسى والدينى عرضان لأمراض اجتماعية أعمق. فالتزييف الذى نسبوه إلى محمد لم يخلق الحرية الدينية والثقافية (برأيهم - المترجم) فقط، بل قتل روح المبادرة التى بها يمكن أن تزدهر المجتمعات.

وتدفع رسائل كاطو (١٧٢٣) التى كتبها جون ترنشارد وتوماس غوردون، والتى يمكن اعتبارها الرسائل السياسية الإنكليزية الأكثر تأثيراً فى القرن الثامن عشر، والأكثر أهمية، على وجه اليقين، بالنسبة للجيل الثورى من الأمريكيين، بأن الطغاة، مثل ماهوميت يخشون من أن "يتغلب الحس السليم على العنف" وهكذا فقد حظر حرية التعبير عن الأفكار. وجعل ماهوميت من إعمال الفكر بحرية فى القرآن جريمة كبرى، ولم يتحمس الحكام المتتابعون للإمبراطورية التركية وغيرها من الدول الإسلامية للطباعة وغيرها من أشكال الاتصال الجماهيرى. وهذا جعل المسلمين متعصبين كما جعلهم عبيداً. وقد قال ترنشارد وغوردون: "لا أحد يستطيع أن يدلنى على متعصب ليس عبداً جاهلاً" وقد عرفا التعصب باعتباره "عبودية الروح" للمذاهب الدينية أو لحكايا تقوى على مواجهة التحقيق. وقد وافق كوتن ماثر، الكاهن من ماساشوسيتس والكالفينى المتشدد التحررين الإنكليزيين، موافقة تامة. وفى بحثه المعنون "الفيلسوف المسيحى" الذى كتبه بعد عام أو اثنين من صدور "رسائل كاطو" لترنشارد وغوردون، يمزج ماثر

العلم الحديث بمذهبه الدينى المتشدد ويقارن حريته العقلية بالمجال المحدود للفلاسفة المسلمين، فقد شرحت كل عجائب الطبيعة، شرحاً كاملاً، لمحمد، ولم يجرؤ "أحد من أتباعه" على وضع شروح النبى موضع التساؤل. فإذا أبلغ الوحي "النبى ذا الرأس الصلب" بأن ملاكاً يحرك جناحيه هو الذى يطلق الريح، وأن ملاكاً يخطو إلى داخل البحر يسبب المد، وملاكاً يفرقع بسوطه يسبب الرعد، فسوف لن يجرؤ عالم مسلم على أن يطلب مزيداً من الإيضاح. وبالمقابل فحتى الكالفينيون المتشددون مسموح لهم بأن يتساءلوا عن تفاصيل ما يجرى فى الحياة الطبيعية. واستبعد ماثر أن يكون الإسلام ديناً أو أداة علمية: فلتسبق عقيدتنا العقيدة المحمدية بقدر ما تسبقها فلسفتنا ! " وقد لاحظ جون فوس، وهو بحار أمريكى أسر فى الجزائر فى تسعينيات القرن الثامن عشر أن "الأتراك لديهم أشد الاحتقار للعلم". وتحت السيطرة العثمانية لم تعد اليونان التى كانت "محل ميلاد العبقرية والفنون والعلوم" تنتج إلا أتراكاً وجهلة من "المطارنة والقسس والرهبان المسيحيين". وفى الغرب سمحت الكتب والرسائل بمناقشة كل القضايا بحرية، وكل اتجاهات الرأى يمكن التعبير عنها فى المطبوعات. أما فى تركيا فلم يُطبع إلا كتاب واحد فى القرن الثامن عشر، فى ١٧٣٠. ولم يشتر أحد نسخة، فلم يُطبع شىء بعد ذلك^(١٦).

الإسلام (حسب الرأى السائد فى الغرب آنذاك - المترجم) لا يشجع على التساؤل والتدبر، لكنه يعتمد على ما يلقي به إلى المرء من مذاهب فيها إجابات على تساؤلاته. وهذا ضد روح التقدم التى ينشرها الأوروبيون والأمريكيون. وقد ارتحل الأب كوتستانتين فرانسوا دى شاسبوف فولنى، الفيلسوف الفرنسى، فى مختلف أنحاء العالم المسلم فى ثمانينيات القرن الثامن عشر. وفى كتابه "أسفار فى مصر وسوريا" أوضح كيف أن ميناء الإسكندرية المصرى وقع فى حماة اليأس لأن "الناس فى تركيا يدمرون كل شىء ولا يصلحون شيئاً.. وروح الحكم التركى هى، تخريب ما أبدعته الأجيال السابقة، وتدمير أمل الأجيال التالية، لأن وحشية الاستبداد الجاهل لا تهتم بالغد، أبداً. ورأى فولنى فى إيمان المسلمين بالقضاء والقدر، فى استعدادهم لقبول كل شىء وأى شىء يحدث، باعتباره مشيئة الله، ميلاً إلى الخنوع. فليس لدى الترك (يقصد المسلمين - المترجم) دافع إلى التغيير لأن الاستبداد عندهم، منذ وجد، كان بتفويض من الخالق.

وهذه القدرية تفضى إلى الفتور. فالرجال والنساء يتسلون بالاستحمام، وبشرب القهوة، وتدخين أراجيلهم. "لن يدهشنا، بعد الآن، أن تكتسب شخصياتهم الملل الذى نجده فى حياتهم الخاصة، وفى حال المجتمع الذى يعيشون فيه". وفى حين دمرت روح الاستبداد الشريرة كل آثار الماضى المجيد، فإن روح المسلمين الكسالى تدفع إلى مقاومة سلبية لأى محاولة لتحسين المستقبل^(١٧).

فالناس الذين يستسلمون بسلبية للطغيان ليسوا جديرين بالحرية. ورأى فولنى الدليل على ذلك فى المسيحيين اليونانيين، الذين اعتادوا على أن يكون عبيداً لدى المسلمين حتى أنهم اكتسبوا "الشخصية المنسوبة إليهم منذ الأزل" فأصبحوا عبيداً فى مسلكتهم. ولأنهم أضعف من أن يتحدوا سادتهم صراحة، فقد أصبحوا مكرين، متفرقين، متملقين، وخونة.

وكتب فولنى أن العبيد فى العالم المسلم، بعكس العبيد فى أمريكا، يمكن أن يرتقوا مدارج القوة بالاحتياال أو بالخدمة المخلصة. لكنهم، ومهما علا شأنهم، تبقى لديهم طبيعة العبيد. واعتقد فولنى أن أولئك المسيحيين الذين صعدوا إلى مراكز السلطة كانوا أسوأ أنواع الحكام. فبمجرد أن يصلوا إلى السلطة، يتملكهم الخوف من فقدانها والسقوط مجدداً فى هوة العبودية. وهذا الهم الدائم يجعلهم ملهوفين "على تحقيق كل ما يستطيعون من مكاسب" بينما هم فى السلطة. وأيديهم التى لطالما "تدربت على تجهيز القطن" ماهرة فى تلقى الرشاوى، ولكن ليس فى الحكم.

وعلى النقيض من هؤلاء المسيحيين الذين انحطت طباعهم وتدهورت، رأى فولنى أن حكام المسلمين وإن كانوا "متعالين بل ووقحين" كانوا طبيعى القلوب، إنسانيين، وعادلين". لقد اعتادوا السلطة وصاروا يعرفون كيف يستخدمونها بحكمة. أما المسيحيون الذين لم يكونوا أحراراً قط، فقد كانوا يخشون فقدان الميزات القليلة التى كانت لديهم. فقد كانوا دائمي السعى إلى ثروات جديدة يحققونها ويتعذبون عندما يعجزون عن بلوغها. وهكذا فإن الإلهام الذى حرك التقدم الأوروبى، روح المبادرة فيه، شوهاها الخضوع للطغيان.

والغريب حقا أن إيمان المسلم بالقضاء، الذي يحول دون الرقى الاجتماعى، هو أيضاً ما جعل الحكام المسلمين أقل نهماً إلى المال وأقل ألماً إزاء احتمال ضياع سلطانهم. فالرب قضى، من أمد بعيدة، بكل ما جرى، فلا مبرر للأسف على الماضى وللاستعداد للمستقبل. وتعجب فولنى وهو يسمع المسلمين يقولون "إنه المكتوب" ويستسلمون دون شكوى "لانتقال غير المتوقع إطلاقاً من الثروة إلى الفقر". وليس لدى الأتراك أى سبب يدعوهم لتغيير حكومتهم أو مجتمعهم، لأن الإسلام حثهم على الاعتقاد بأن كل شىء بإرادة الله. فالمسلمون يقبلون الاستبداد بهدوء: ما دام موجوداً، فلا بد أن الله شاء له أن يوجد. روح التسليم هذه جعلتهم غير قادرين على تغيير الحكومة التى لديهم أو على خلق حكومة جديدة يمكن أن تحول دون وقوع كارثة محدقة بهذا الشعب الفاتر الهمة^(١٨).

والأخبار المتناقضة فى "أورورا" بفيلا دلفيا فى ديسمبر ١٨٠٦ تبين بجلاء التناقض بين التواكل المسلم والمبادرة الأمريكية. الفقرة الأولى، ويصعب تصنيفها مع الأخبار، تشير إلى أنه فى مراكش أدت "روح الاستبداد" إلى أنه، طوالى ٣٠٠ عام "لم تبث قرية واحدة، ولا تم توسيع مدينة، ولا إنشاء جسر، ولا إقامة ميناء فى المملكة كلها". ولم يكن الكاتب بحاجة إلى أن يشرح لماذا كان الأمر كذلك. فتحت هذه الفقرة عن مراكش، مباشرة، عنوان رئيسى يقول "العبقريّة الأمريكيّة" وقصة عودة المخترع روبرت فولتن إلى أمريكا. وقد كان فولتن، على وجه التحديد، ذلك النوع من العباقرة الذى ينتجه المجتمع الأمريكى الدينامى. كان أبواه من الحرفيين، وتلقى فولتن تدريباً كصانع أقفال وكصانع بنادق وكرسام ومصمم. كان شغليلاً ماهراً لديه موهبة تحسين أفكار الآخرين، سمكرياً أمريكياً يستطيع أن يحول المبادئ العلمية المجردة إلى آلات نافعة. لم يكن فولتون قد شيد قاربه البخارى، بعد، لكنه اشتهر بغواصته، بقارب يتحرك تحت الماء كان فولتن وفولنى وآخرون يظنون أنه سيجعل من الأساطيل موضحة قديمة ويجعل الحروب مستحيلة. وقد منع الاستبداد المراكشى الحرفيين العاديين من أمثال فولتن من الازدهار، وبهذه الكيفية فقد ثبت هم المبدعين النافعين الذين كان المجتمع الأمريكى يشجعهم^(١٩).

هذا التفاوت بين مجتمع مزدهر وآخر راكد ألهم فولنى بكتابه "الخرائب، عرض للثورات الإمبراطورية". فلم ير فولنى فى مصر وسوريا، وهما مهذا الحضارات التى عرفها العالم، إلا الخراب والفقر. ماذا جرى؟ هذا كان سؤاله. أما إجابته فكانت : غياب التسامح الدينى خنق البحث الحر وحال دون خروج الناس من البؤس. لقد تعلم الناس أن يؤمنوا بأن الأحداث، أيا كانت، لا بد من التسليم بصحتها، ولا أمل فى التطلع إلى ما يتجاوز الفقر الذى عاش فيه الآباء. وقد ترجم كتاب "الخرائب" إلى الإنكليزية، لأول مرة، فى ١٧٩٢، ومع نهاية العقد ظهرت ترجمتان إنكليزيتان أخريان وطبعتان أمريكيتان. وعندما كان توماس جيفرسون رئيساً قرر أن "الخرائب" تحتاج ترجمة أكثر دقة. وقام الرئيس نفسه، بالتعاون مع جويل بارلو، بترجمتها، وظهرت طبعتهما فى باريس فى ١٨٠٢. وقد كان كتاب الخرائب أكثر من تأملات حول الإسلام: فقد رأى فولنى، شأنه شأن بريدو وفولتير، فى العالم المسلم درساً لأوروبا. وقد كان انحطاط الحضارات المصرية والسورية تحذيراً للأوروبيين والأمريكيين من قابليتهما للانحطاط. فلو قبل الناس بالاستبداد الدينى أو السياسى لأصبح من المحتم أن ينحطوا إلى الوحشية. وفى أمريكا، يمكن للناس أن يتكلموا بحرية، ويمكن للعابرة المحليين، أمثال فولتون، أن يعلو شأنهم بفضل مواهبهم، وبفضل هذه المواهب يدفعون المجتمع إلى الأمام. ومن ناحية أخرى، فلو أن أمريكا سمحت بالتعصب الدينى، وهذا ما حذر منه فولنى فى "الخرائب" فسوف تنزلق إلى الكسل، وتصبح أمريكا صحراء مثل مراكش^(٢٠).

وكان أبلغ من عبر عن هذه النقطة المؤرخ والاقتصادى الفرنسى جان شارل ليونارد سيمون دى سيموندى فى مقالة عن الأدب العربى ظهرت فى أميركان ريجستر فى ١٨١٧. وقد استعرض سيموندى الأعمال الأدبية والشعرية فى العصر الذهبى للمسلمين، فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، عندما كانت أوروبا "غارقة فى البربرية، وقد قل سكانها وثروتها" لكن حكماً مسلمين من أمثال المنصور (ال خليفة فى بغداد، ٧٥٤-٧٥٥) وهارون الرشيد (ال خليفة فى بغداد، ٧٨٦-٨٠٩) رعوا فترة من التنوير والإنسانية والتقدم. وانتهى عرض سيموندى بتحذير مخيف. كل هذه البلدان

التي كانت الموطن المزدهر للفنون والتقدم هي الآن صحارى ثقافية، أجذبت من كل علم أو فن أو تعليم. وكتب سيموندى "السهول الغنية في فاس ومراكش" التي كانت ذات يوم وطناً للأكاديميات والمكتبات والجامعات "ليست الآن سوى صحراء حارقة الرمال، يتصارع فوقها الطفغة والسباع". وما كان يوماً الساحل "السعيد والخصب" في موريتانيا لم يعد اليوم إلا موطناً للقراصنة الذين ينشرون الرعب في البحار، ويستريحون من عنائهم بممارسات أنواع حقيرة من الفسق، حتى يأتى الطاعون.. ويتصيد ضحاياه". أما مصر فضاعت في الرمال التي كانت تزرعها، يوماً ما، ويملاً البدو الرحل الأرض الخالية في سوريا وفلسطين بالوحشة. ما من عدو أخضع هذه الأراضي: ما من غريب نهبها أو دمر موروث شعبها. "السجن موجود بداخلهم، طور نفسه، ودمر كل شىء" (٢١).

وخلص سيموندى إلى القول "من يدري إذا كانت أوروبا هذه، بعد قرون من الآن، وبعد أن انتقلت إليها مملكة الآداب والعلوم، التي تومض بكل هذا البريق الهائل، والتي تحكم بكل جدارة على الأزمنة الغابرة، وتقارن ببراعة بين التأثيرات التي أحدثتها الآداب والأخلاق القديمة، قد تصبح أو لا تصبح مهجورة، وموحشة مثل تلال موريتانيا، ورمال مصر، ووديان الأناضول؟" وعندما تصبح أوروبا صحراء، فلربما ظهرت حضارة جديدة "في بلد جديد تماماً، ربما في المرتفعات التي يتدفق منها نهر أورنكور وأمازون" وبأخلاق ولغات وأفكار جديدة يعيد هؤلاء الناس الجدد خلق الجنس البشرى، وقد يستعيد علماءهم ذكرى "كل نيوتن وكل راسين وكل تاسو، كأمثلة على النضال الإنسانى العقيم لتحقيق الخلود بمجد ينكره عليهم القدر". لم تكن الحضارة تتحرك غرباً، لكن سيموندى حذر من أن أى مجتمع من شأنه أن يتدهور إن لم يحم أهله، بكل قوة، حريتهم وعلومهم.

فالسهم الذى دمر العالم الإسلامى كان بداخله. سمح أهله بحلول الخراب. ويقرر الكاتب الإنكليزى إدوارد ستانلى فى كتابه ملاحظات عن مدينة تونس والريف المجاور لها (١٧٨٦) أن الساحل الإفريقى بكامله، من أرخبيل جبل طارق حتى طرابلس

الغرب هو "من أجمل وأخصب البلدان في العالم" ويمكنه أن يكون "سلة غذاء أوروبا" لو أنه كان "في أيدي زراع حقيقيين". وقد وصف ماثيو كاري في "تقرير موجز عن الجزائر" (١٧٩٣) أنهار الجزائر السبعة، التي لم تكن عليها لا جسور ولا عبارات، كشاهد على "الجهل المطبق لدى الأهليين بكل ما يتعلق بتحسين الأحوال المحلية". وقد ينضم مسافر يجتاز مسافة طويلة وهو يبحث عن مخاضة، في أرض لا تعرف العبارات، إلى المؤلف متمنياً لو أن الجزائريين كانت لديهم "شخصية أكثر ذكاء أو ابتكاراً". ويساءل المرء عما إذا كان الرئيس جيفرسون قد قرأ هذا التقرير في أثناء سفره من مونتيتشيلو إلى واشنطن، مضطراً إلى عبور الأنهار الثمانية، التي كان خمسة منها بلا قوارب ولا جسور. ورغم أنه كان بوسع الأمريكيين أن يشيروا، بكل فخر، إلى روبرت فولتون وغيره من المخترعين، فقد ظلت بلادهم برية وكان درس الجزائر وغيرها من الدول المسلمة تحذيراً لهم من عواقب الكسل. ما الذي يمنع أمريكا، ولديها كل هذه الفرص للتفوق، من أن تبقى برية أو أن تتحول إلى صحراء؟^(٢٢)

وقد كتبت بنيلوبي أوبن، وهي معاصرة لترنشارد وغوردون رواية بعنوان "العبد النبيل" حول أسر بعض النبلاء الإسبان في الجزائر. وقد امتدحت أوبن "دستورنا الممتاز" القادر على الحفاظ على "ثراء وحرية" الشعب يعكس "السياسات التركية" التي جعلت الأمير عظيمًا والشعب تعيساً. لكن اللوم لا ينصب على السياسات وحدها باعتبارها سبباً لتعاسة الشعب: "لا بد أنها غلطتنا"، قالت أوبن: "إذا استعبدنا أو افترقنا". فروح الشعب هي الفيصل^(٢٣). لقد أصر ماهوميت على التسليم الأعمى لعقيدته الدينية، ومن اعتنقوا الإسلام خضعوا للدين، وخضعوا أيضاً، على ما يبدو، لكل بشاعة اختار حكامهم أن يرتكبوها. واستشهد ترنشارد وغوردون بالرحالة الفرنسي جان ثيفنو الذي تحدث عن "الاستسلام الأعمى" لدى الشعب التركي لإرادة السلطان، وهو استسلام يحض عليه الإسلام. "إرادته، أي شهوته، نزواته، أو غضبه، هي قانونه الوحيد، وهي لا سواها حدود سلطة خليفة الله هذا" ومثل ماثيو ليون، فإن ترنشارد وغوردون اعتبر أن القول بأن الرعايا ليس لهم أن يحكموا على تصرفات حكامهم وعيب. عيب حقاً، لكنه "بشع وشرير، اخترعه" بعض التعساء الحالمين من الشيوخ المسلمين والمسيحيين

الذين سحروا العالم بأكاذيبهم المقدسة. فما من قوة حكومية تقدر على قمع شعب لولا أن القسس والملالى جعلوا من "الطاعة السلبيه" مبدأ دينيا. "نعم، العبودية التركيه مؤكدة، والطغيان التركى يدافع عنه الدين" (٢٤).

وقد سمح الطغيان الدينى بالاستبداد الشديد بل وشجع عليه. وركز ترنشارد وغوردون، تركيزاً كبيراً، على إمبراطور مراکش فى القرن السابع عشر مولاي إسماعيل (١٦٧٢-١٧٢٧) قائلين إنه، شخصياً، قتل ٤٠.٠٠٠ من رعاياه. والأكثر إثارة للآلم أن شعبه تهافتوا لينالوا شرف الموت على يديه، معتقدين أن هذا يبعث بهم إلى الجنة. واستعار جون فوسى، البحار الأمريكى الذى أسر فى الجزائر، فى تسعينيات القرن الثامن عشر، صورة مولاي إسماعيل وهو يقتل رعاياه ونسبها إلى داي الجزائر. "يندهش الجميع لما فى هؤلاء الناس من استسلام وصبر فى ظل طغيان قاسى ومتماد، لهذه الدرجة"، ولكن ليس فى الأمر سر. لأن الناس "لقنوا الاعتقاد بأنهم إن قتلوا بيد ملكهم" الذى ظنوا أنه "خليفة محمد" فسوف يصعدون إلى الجنة، فوراً (٢٥).

وقد توصل كتاب أوروبيون وأمريكيون إلى الخلاصة ذاتها حول السبب فى بقاء العالم المسلم متخلفاً. فالتدين الشرير يشجع على الحكم السيئ، والحكم السيئ يعوق التقدم الاجتماعى. وبدلاً من تشجيع الصناعة والمبادرة، فهذه الحكومات تنشر الجهل الذى يشيع التراخى. وقد لاحظ وليم إيتون، القنصل الأمريكى فى تونس (١٧٩٩-١٨٠٣) ما فى الجزائر من خراب. فالسفن الجزائرية التى كانت، فى يوم ما، تصل إلى القنال الإنكليزى تقتصر الآن على المتوسط. وكتب إيتون عن الجزائر يقول "إن روح المبادرة لديها قد فترت" والأسطول الجزائرى يفتخر بفعل سوء الإدارة. "وأهلوها ليس لديهم حب للطموح ولا دافع إليه - ونظامها الدينى يحبذ الكسل بالتشجيع على التواكل" على المدد المقدس، تماماً كما أغلق عقولهم "دون نعمة التفكير".

واستعد إيتون لبعثته إلى تونس بقراءة فولنى الذى اعتبر أن وصفه للأتراك "ينطبق عليهم هنا، بالضبط". إلا أن "تكاسل" حكام البربر يزيد بزيادة اعتمادهم على

الإمبراطورية العثمانية. "هؤلاء الجهلاء الذين ارتقوا إلى مكانة تتيح لهم الحصول على الجزية من كل عبد أدنى منهم، من البدوى المرتحل إلى عاهل إسبانيا المخدر، لا يشعرون بضوابط العدالة الرجولية" التي كان يمكن أن يشعروا بها لو أن القوى الأوروبية لم تدفع الجزية، وفضلت على ذلك استخدام القوة لمعاقبة أولئك الحكام.

ولو أن البلاد "التي هي بطبيعتها مترفة وجميلة بما يفوق الوصف" كانت في أيدي "شعب مستنير ومبادر" لنافست الساحل المقابل للمتوسط "في كل شيء نافع وثمين وأنيق". لكن التونسيين، العبيد التعساء "لحكومتهم المستبدة" ليس مسموحاً لهم بحق الملكية وهكذا فليس لديهم "أى طموح لزراعة "الأرض الغنية. وإضافة إلى تسلط الطغيان السياسى عليهم، فهم أيضاً ضحايا "أسوأ أنواع الطغيان، استبداد الكهانة" فعاشوا في "خوف من غضب المتعصب" نبيهم" الذى مات قبل أكثر من ألف سنة".

والحقيقة أن التونسيين يخشون نبيهم الميت أكثر مما يخشون الباشا الحى. وكتب إيتون إلى زوجته "البلد جميل حقاً، لكن الناس تعساء للغاية، وقد أذلهم القمع المزدوج من الطغيان المدنى والدينى، وليس لديهم إلا القليل من روح المبادرة، وهم شديداً الجهل" (٢٦).

وبعد ذلك بعشر سنوات رأى قنصل آخر وهو موردخاى مانويل نوا تونس بطريقة مماثلة لهذه الرؤية إلى درجة مدهشة. وإن كان نوا قد أذهله ما رأى فى إسبانيا: التناقض بين المعمارى المغربى والباقي والأمثلة الأحدث من المسيحيين الذين حلوا محل المسلمين. وكتب أن "حكم المغاربة فى إسبانيا كان أعظم مجداً وأشد ازدهاراً واستتارة من الحكم الراهن، الممسك الآن بالصولجان". وكتب نوا إن المغاربة جاؤوا إلى إسبانيا بعصر ذهبى لكنهم عجزوا عن الحفاظ عليه، عجزوا عن التغلب على مشاكل العاطفة الدينية المتطرفة أو الإنفاق الحكومى أو الجنود غير المنضبطين. "لو أن مسلمى إسبانيا أقاموا حكومة قانون، وجردوا أنفسهم من شطر من حميتهم الدينية، وضبطوا جنودهم، ورشدوا إنفاقهم، لكانت الديانة المحمدية الآن قد انتشرت فى كل أوروبا، كما انتشرت فى آسيا". هذا ما كتبه نوا. فحكام إسبانيا المسلمون، مثل خلفاء

بغداد عند سمبوندى، نعموا بعصر ذهبى، لكن حميتهم الدينية وعواطفهم غير المحكومة دمرتهم" (٢٧).

فالعجز عن ضبط العواطف، سواء عند الشعب أو عند حكامه، من شأنه أن يؤدي إلى كارثة. ورغم أن الجزائر، كما جاء فى "تقرير موجز عن الجزائر" الذى كتبه كارى كانت تدعى مملكة (وهى كلمة يجب أن يسقطها كل إنسان من معجمه، دون أسف)، فقد كانت فى الحقيقة "جمهورية عسكرية"، رغم أنها، بالتأكيد، لا تشرف هذا النوع من الحكم، إطلاقاً. فقد كان الانكشاريون المقيمون هم الذين يختارون الداي، وكان هو "نادراً ما يحوز المنصب إلا بالصدام وسفك الدماء". وعادة ما كان يفقده بالطريقة ذاتها. وجاء فى "تاريخ موجز للجزايرية" الذى نشرته ماساشويتس مارغازين فى ١٧٨٩ أنه على الرغم من أن الجزائر إقليم تابع للسيد الأعلى، فإن الداي، الخاضع اسمياً، كان فى أغلب الأحيان "يتمتع بسلطة استبدادية ويقمع الشعب". ولم يكن الدايات يعولون كثيراً على سيدهم فى القسطنطينية.

وبمجرد أن يستولوا على السلطة لا يعودون يخشون سوى الجند التركى، الذى يسانداهم ويبقى خوفهم منه مسيطراً على عقولهم "بالانقلابات العسكرية المتكررة. وهذه الانكشارية كانت تمثل القوة العسكرية التى لا تضبطها حكومة مدنية، والتى تأتى بالمرتزقة العاملين فيها من أحط فئات المجتمع. ويمكن لأى جندى نقر أن يقتل الداي ويستأثر بمنصبه لنفسه. "عندما تشعر حثالة الأهلين بأهميتها، فلا حاجة لنا إلى أن نوضح مدى قسوتهم وعدوانيتهم وطغيانهم!" هذا الدرس كان يتعلمه الفرنسيون فى تسعينيات القرن الثامن عشر، كما لاحظ جون أدامز وغيره من المحافظين الأمريكيين. "كم هم تعساء أولئك الرجال الذين لا يملكون إلا أن يكونوا لعبة لأهوائهم!" فلم يكن حكام الجزائر ومراكش وتركيا، بما لديهم من سلطان مطلق، سوى عبيد لجنودهم، ولم يكن الجنود سوى عبيد لعواطفهم المنحطة. "ألم يكن حرياً بهم أن يزحفوا مع الديدان بدلا من أن يجلسوا على المقاعد العالية ويخيفهم أن ينظروا من حيث يجلسون خشية أن يروا سيفاً معلقاً فوق رؤوسهم" (٢٨)!

وكان هذا صحيحاً في مركز الإمبراطورية بقدر ما كان صحيحاً في الأقاليم. فالسيد الأعلى، أو سلطان تركيا، كان لسوء حظه يجلس على قمة نظام لا يملك السيطرة عليه. وقد كتب ترنشارد وغوردون في ١٧٢٣ أن "السلطة هناك لا تناسب.. نازلة على قناة مستوية وسلسلة، نزولا لطيفا ومنتظما، بل تسقط من جرف، بالدوى والسرعة والعنف المخيف، على الوديان الفقيرة السلبية تحتها"، لتدمر وتخرّب كل ما يصادفها. وهذا الافتقار إلى قوة نظامية منسقة يعنى غياب الضوابط من أسفل أو من أعلى. وقد كتب إيوارد غيبون عن الجزائر باعتبارها حكومة عسكرية "تطفو بين الطرفين الأقصيين للملكية المطلقة وللديمقراطية الهمجية". وقد انطبعت هذه الصورة بعمق في الوعي الأمريكي حتى أنه عندما لم تكن الأحداث في الجزائر أو تركيا تتوافق مع الصورة، كانوا يصورونها كما لو أنها متوافقة معها. وفي ١٧٩٨، على سبيل المثال، مات حاكم الجزائر الداي حسن، بعد مرض طويل، وخلفه مصطفى بوبا. ورغم الانتقال السلمي والمنظم للسلطة، نقلت الصحافة الغربية أن "حسن" وكل أعضاء بلاطه، بل وحتى القنصل الفرنسي، أطيح برؤوسهم. لم يكن بوسع السلطان التركي أن يسيطر على المسؤولين الخاضعين له، أو أن يفرض الأمن في ممتلكاته أو في الأقاليم البعيدة. وهكذا تربع السلطان التركي على قمة عالم يخشاه، وبنفس الدرجة، أي زعيم غربي، توماس جيفرسون أو جورج الثالث، أليكساندر هامليتون أو توماس بين^(٢٩).

وقد عكست المسرحيات الشعبية موضوع الفوضى السياسية هذا، وعكسته الروايات وتقارير الرحالة. فمسرحية "السلطان أو استرقاق النظر إلى السراي" التي كتبها إيزاك بيترستاف صورت السلطان سليمان الثاني المهيم بكل قوة على تركيا بصورة المتردد في إصلاح النظام خوفاً من تمرد الانكشارية. ووصف تقرير رحالة نشر في نيويورك ماغازين في ١٧٩٥ السلطان التركي بأنه "دون شك، الحاكم المطلق أكثر من أي حاكم في أوروبا" لكنه قال إن السلطان يتعرض لبشاعات حكومة عسكرية بل وللتحقير والموت على أيدي الانكشارية الذين كانوا "مرتزقة ومشاغبين وأقوياء" من العصابات البريتورية (وحدات الحرس القيصري في العام السابع والعشرين قبل الميلاد التي كانت تتحكم بالقيصرية - المترجم) في روما، وإن كانوا أقل استنارة، ولم يكن

السلطان يجرؤ على فرض الانضباط على سلطة الانكشارية. وكتبت الليدى مارى وورتل مونتاغيو التى عاشت فى القسطنطينية فى ١٧١٧ و ١٧١٨ أن السلطان "بكل ما لديه من سلطة مطلقة، عبد كأى واحد من رعاياه، ويرتجف إذا قطب فى وجهه انكشارى". وقد كتبت الليدى مارى ساخرة من افتقار تركيا إلى بعض منغصات المجتمع الحر: فلم يكن هناك جماهير صاخبة، ورسائل تفتقد الحس السليم، ومشاجرات فى الحانة حول الأمور السياسية" ولا سباب ولا تشهير علنيين. والوزير الذى يغضب الانكشارية، كما قالت الليدى مارى، يطاح برأسه، والسلطان "الذى يدين له الجميع بعبادة لا حدود لها" يرتجف أمام غضب السفلة، ولا يجرؤ على الدفاع أو الانتقام لمساعدته". هذه هى الأوضاع المباركة للعاهل ذى السلطة المطلقة أكثر من أى عاهل آخر، على وجه الأرض، والذى "لا قانون عنده سوى إرادته". وقد تمننت الليدى مارى لو أن ملء سفينة من "رجالكم السلبيين المطيعين" الذين يؤيدون الحكومة البريطانية فى كل أخطائها، يمكن شحنهم إلى تركيا حيث "يمكن لهم أن يروا الحكومة المتعسفة فى أصفى وأقوى ضوء" ويحكموا من هو الأتعس فى ظلها: الشعب أم الوزراء أم السلطان(٢٠).

وعندما انخرط الشعب الأمريكى فى مناقشة الدستور فى ١٧٨٧ و ١٧٨٨ استخدم خصوم الاتحاديين، كما هو متوقع، صورة الاستبداد التركى لمهاجمة الحكومة المقترحة. فالحكومة التى خلقها الدستور، وقد أعطت سلطة فرض الضرائب وتجهيز الجيوش للحكومة المركزية، لم تؤمن الحماية الكافية للحرية الفردية، والرجال المختارون بحكم الدستور سرعان ما سوف يصبحون طغاة. لم يكن هناك نص يحظر الجيش النظامى ولا ضمانات للحرية الدينية. وقد تساءل خصوم الفيدرالية: ما الذى يمنع الحكومة الجديدة من المجيء بقطعان من الانكشارية لشد أزرها. أو ما الذى يمنعها من إعلان الإسلام ديناً للدولة، وإحلال القرآن محل التوراة؟ ربما كانت هذه المخاوف مبالغاً فيها بشكل هائل، لكنها كانت، رغم ذلك، جزءاً من الجدل الدائر، وحذر باتريك دولارد، وهو مهاجر أيرلندى وصاحب حانة وزعيم سياسى فى ساوث كارولينا، المؤتمر المخول بالتصديق على الدستور من أنهم إن لم يقبلوا بالدستور فإن "جيشكم النظامى سوف

يجبركم، كما يفعل الانكشارية الأتراك وهم يفرضون قوانين الاستبداد، على ابتلاعه بقوة سيوفه".

وقد رفض نوا ويبستر الذى كتب باسم "مواطن أمريكى" هذه الفكرة كلها، باعتبارها حيلة بلاغية مضحكة، وقال إن روح الشعب الأمريكى هى ذات طبيعة تجعل من غير الضرورى حظر إنشاء جيش نظامى أو إدخال "الديانة المحمدية". وقال ويبستر إنه فى أمريكا "لن يتعرض أحد لتقليص حريته أو تهديدها". لكن هذه الضمانة لم تكن كافية بالنسبة لخصوم الاتحاديين. وسأل باتريك هنرى مؤتمر التصديق فى فيرجينيا: "من الذى استعبد فرنسا وإسبانيا وألمانيا وتركيا؟ لقد استعبدتهم أناس منهم". وكان هنرى يخشى أن لا يكون الأمريكيون مختلفين، فى شىء^(٢١).

وقد توافق ويبستر وهنرى وبولارد على شرور الاستبداد التركى. ولم يكن لدى ويبستر دفاع قوى ضد الاتهام بأن الدستور قد يؤسس استبداداً كهذا بالضبط فى أمريكا. وقد اعتمد، فقط، على شخصية الشعب الأمريكى للحؤول دون ذلك. لكن أليكساندر هاميلتون وجد طريقة لاستخدام الاستبداد التركى لمساندة قضية حكومة مركزية أقوى فى أمريكا. فمن ناحية كان السلطان، الذى يسانده الانكشارية التابعون له والحكم الإسلامى المطلق، كلى القوة. ومن ناحية أخرى لم يتمكن من السيطرة على نهم شعبه للعنف أو منع أى من انكشاريته من قتله. والأهم، فى حدود أغراض هاميلتون، فإن السلطان الذى كان بوسعه التخلص من حياة وممتلكات رعاياه بإيماءة من رأسه "ليس بمقدوره فرض ضريبة جديدة".

وفى العدد الثلاثين من صحيفته "فيديراليست" قارن هاميلتون بين السلطان وحكومة الولايات المتحدة فى ظل الكونفدرالية. لم يكن بوسع السلطان جباية ضرائب من رعاياه، لكنه سمح للحكام أو الباشوات المحليين "بنهب الشعب من نون رحمة" ليعتصروا منهم العوائد الضرورية للإنفاق على الدولة.

وفى الولايات المتحدة لم تتمكن الحكومة المركزية من فرض الضرائب على الناس بقوة قوانين الكونفدرالية. ولكن بدلا من تحريرهم من عبء الضرائب، سمحت قوانين

الكونفدرالية للولايات، كل على حدة، بأن ترهق الناس بالضرائب المرتفعة، دون أن توفر للناس الحماية من الفوضى الاقتصادية. وقد ضعفت الحكومة المركزية وأصبحت الولايات كلية القوة. وكتب هاميلتون "من يمكنه أن يشك في أن سعادة الشعب في كلا البلدين كان يمكن أن تتعزز بوجود سلطة كافية في أيدي أشخاص مناسبين ليؤمنوا العائدات التي قد تتطلبها احتياجات الجمهور؟"^(٣٢). وهكذا فلو أن لدى الحكومة المركزية مزيداً من السلطة لأمكنها حماية الشعب من الحكام المحليين الظالمين. هذا الرأي تحدى أولئك الذين اعتقدوا أن تزويد الحكومة المركزية بمزيد من السلطة يجعلها استبدادية. وبدلاً من ذلك، فقد اعتبر ميلتون الاستبداد نتيجة طبيعية لضعف السلطان، بمثل ما رأى بريدو أن الاستبداد نبت تفرع من حرية مكة الدينية غير المحدودة، بشكل طبيعي.

وليست صحة هذه الصورة تاريخياً هي القضية. فالأمريكيون الذين استخدموا العالم المسلم نقطة مرجعية لمجتمعهم هم لم يكونوا معنيين بالصحة التاريخية أو بالوصف الصحيح للإسلام ولكن بإمكانية استخدام هذا الوصف لأغراض سياسية. وقد كان العالم المسلم أداة بلاغية مناسبة بشكل عظيم، أمكن أن يلجأ إليها تحريريون أمثال ماثيو ليون وتوماس بين ومحافظون أمثال جون أدامز وأليكساندر هاميلتون. وبعد أن تكرست صورة شعبية عن محمد والعالم المسلم في العقل العام، كان يكفي لذكر أحدهما حتى تبدأ مناظرة سياسية. ووفقاً لهذا التعريف فقد خضع المسلمون للاستبداد الديني وتم تعليمهم القبول بالاستبداد السياسي. وربما استسلموا في البداية لأنهم كانوا مستعدين تماماً لرفض قادتهم الدينيين الحقيقيين أو لأن أولئك القادة كانوا مستعدين لاستغلال الأبرياء من الناس. وفي أي من الحالتين فقد استسلموا، وعانت الأجيال التالية، جراء ذلك. فهم لم يفقدوا الحرية فقط، بل فقدوا كل ما يتيح الحرية.

الفصل الثالث

نظرة إلى السراى: الأمريكيون والجنس والعالم المسلم

رأى الغربيون العالم المسلم فى القرن الثامن عشر كخليط شرير من الطغيان السياسى والجنسى الجامح. فلم تكن القوانين الاجتماعية أو الأخلاقية تكبح الرغبات الشهوانية لدى الحكام المسلمين إلى التسلط السياسى أو الجنسى. وبالحقيقة، فقد أصبح الطغيان الجنسى أقصى أشكال الطغيان السياسى المسلم، وفقاً للتقارير التى نقلتها فى الغرب المجلات والصحف والمسرحيات والروايات عن الغزوات الجنسية الجامحة للحكام المسلمين، الذين كان يفترض أن لديهم بيوت الحريم أو السرايات الكبيرة المملوءة بالنساء الجميلات، وكلهن جاريات استعبدتهن شهوة الطاغية الذى لم تكن له وظيفة إلا إشباع شهوته الجنسية. وكتب أحد الروائيين: فى العالم المسلم "يطلق العاهل العنان لعواطفه الجامحة، ولا يرى جريمة فى الاحتفاظ بالعدد الذى تقرره له رغباته الشهوانية من النساء تحت الطلب".

ومن المؤكد أن صور النشاط الجنسى المنفلت أشبعت الشهوات المتحرقة لدى القراء الغربيين وربما كان القصد منها استشارة الجمهور الغربى بوصف السلوك الجنسى للمسلمين. لكن صورة الجنس الجامح فى العالم المسلم تنطوى على رسالة تتصل بالعلاقات الجنسية اللائقة. وأكثر من ذلك فإن العالم المسلم الخيالى، عالم القوة الجنسية المنفلتة، كان موضوع تقارير رصينة، أيضاً فى صحف ومجلات وتقارير من الرحالة فى الغرب. وعلى سبيل المثال، فى ١٧٩٨ أعادت صحيفة فى فيلادلفيا نشر خبر من صحيفة "كوريير" من بومباى زعمت أنها نقلت الخبر من صحيفة "غازيت"

البغدادية التي قالت إن الروس أخضعوا، فى النهاية، شعب داغستان "المتوحش، الفوضوى، والبدائى" وقد كان مصدر الدخل الأساسى لديهم يتحصل من خطف العذارى الجركسيات لبيعهن لسلطان تركيا. وقد أنهى الروس كلا من "الاستقلال المتعالى" الداغستانى و"اغتصاب العذارى الجورجيات والجركسيات اللاتى كن إمدادات لبيوت الحريم التركية وسرايا السيد الكبير".

لقد أدى الروس خدمة كبيرة للإنسانية بإنهاء هذه "التجارة المشينة فى العذارى الجركسيات" رغم أن المحرر الفيرجينى أغفل "التعزية الساخرة" التى وجهها المقال الأصلى للسلطان بعد خسارته "التى يجب أن يتحملها لتجارة مترفة كهذه"^(١). وبجعل النساء موضوعاً للشهوة، فقد نزل سلطان تركيا بالتجارة الدولية إلى مستوى حلقات الدعارة، ومد نطاق الشرور المترتبة على جموحه العاطفى إلى ما يتجاوز أسوار حريمه بل وأسوار إمبراطوريته.

وقد كان السلطان ينظر إليه باعتباره عبداً لجموحه العاطفى بقدر ما كان عبداً للانكشارية. وفى مسرحية سوزانا روسون "عبيد فى الجزائر، أو نضال من أجل الحرية" التى صدرت فى ١٧٩٤ تنهى أسيرة أمريكية داي الجزائر عن أن يدعو أسراه عبيداً، لأنه أكبر العبيد، على الإطلاق؛ هو عبد "جموحه العاطفى الوقح" وخیلائه وطمعه و"حبه غير المشروع". ولأنه غير قادر على كبح جماح شهوته الجنسية، فالسلطان عاجز عن الاستمتاع بمسرات العلاقات الجنسية التوافقية^(٢).

وتقوم العلاقات الجنسية فى العالم المسلم، طبقاً للمعلقين الغربيين، على العنف ولا تمليها إلا القوة، وهذه العلاقات تصوغ المجتمع كله. واستقر رأى الإنكليزى جورج هنرى روك الذى زار اليمن فى ثمانينيات القرن الثامن عشر على أن الإنكليزى لا يمكنه أن يهنأ بالعيش فى بلاد العرب لأن حقوق الملكية كثيراً ما تنتهك ولأن "الاتصال" بالنوع الجميل "يقوم على الطغيان والجبر، بدلا من تلك الرقة والتوافق الشعورى الذى هو أساس هذه الصلات، بالنسبة لنا" فالمجتمع المسلم يفتقد الأساسين اللذين تقوم عليهما الحرية الإنكليزية: حقوق الملكية والاستقلال الجنسى للأنثى. وقد أشارت

ENCYCLOPÉDIE DES VOYAGES (موسوعة الرحلات - المترجم) التي نشرها جاك غراس دوسان سوفير في ١٧٩٦ إلى أن "الأتراك والجزائريين، وإن لم يتطلعوا إلى تأسيس أسر كبيرة، فإنهم يتصرفون كقراصنة حقيقيين في الفراش. فهم يدمرون حقول المباحج الحسية من دون جهد حقيقي لجعلها تثمر". فالرجال لا يسعون إلا إلى إشباع شهواتهم، وليس إلى عمار الأرض، وهم بذلك يقلبون دعوة فرانكلين إلى "استخدام الجنس" لمجرد "الصحة والنسل" رأساً على عقب. وفي العالم المسلم فعل المسلمون، بالضبط، ما أشار فرانكين والناصحون الأمريكيون الآخرون بتجنبه. وفي غياب كل احترام للمرأة، كان الرجال يسرعون إلى مغادرة شريكهم بمجرد أن يملوها، باحثين عن غزوات جديدة. وأصبح الجمال مقياساً لقيمة المرأة في هذا المجتمع الذي قلب كل مفاهيم الجدارة الغربية^(٤).

واعتقد الغربيون أن الإسلام سمح بهذا الطغيان الجنسي بزعم أنه علم أتباعه أن المرأة كائن بلا روح. "إنهم يعتقدون أن النساء ليست لهن أرواح" هكذا كتب الأمريكي الأسير جون فوس "وأنهن لسن مهيئات إلا للإنجاب، ولهذا فلا يؤذن لهن بدخول مساجدهم، لأنهم يحسبونهن غير مؤهلات لدخول المكوت: لكن النساء يؤدين صلواتهن سرا في بيوتهن". فالنساء لسن أندادا، من الناحية الروحية، للرجال، بل هن مجرد أدوات لشهوة الذكور. وهذا يجعل من المستحيل على الرجال والنساء أن يجمع بينهم أمر سوى الجماع. وكتب الأب فولني أن الرجال المسلمين "ليست عندهم فكرة كيف يمكن لهم أن يروهن، ويتحدثن إليهن، ويلمسونهن من دون عاطفة، أو أن يختلوا بهن دون الوصول إلى أقصى مدى"^(٥) وبعد أن جردوا النساء من كل صفة إلا الصفة الجنسية، لم يعد الرجال المسلمون يرون في النساء شيئا سوى أنهن موضوعات للرغبة.

ولمنع الفوضى الجنسية تعين على المجتمع المسلم أن يحبس نساءه حماية لهن. وكان مونتسكيو يعتبر أن الدافع الجنسي يبلغ أقصى شدته في المناخات الدافئة، حيث تكون الأهواء الجامحة لدى الناس أقوى. ولأن الإسلام لم يرسخ في قلوب أتباعه من الرجال ضوابط أخلاقية (كما زعم هؤلاء - المترجم) تعين أن تكون هناك حواجز أخرى. ففي هذه المناخات الدافئة "حيث تكون للدوافع الطبيعية قوة ليست للأخلاق، بالمرّة"

هكذا كتب مونتسكيو "إذا ترك رجل مع امرأة فإن الغواية والسقوط سوف يكونان أمراً واحداً، والهجوم مؤكداً، والمقاومة منعدمة". وبما أن الفضيلة الاجتماعية والاستقرار يقومان على فضيلة الأنثى، في كل المجتمعات أياً كان مناخها، ففي هذه الأماكن التي يعظم فيها الخطر إلى أقصى درجة، لا بد من حبس النساء لحمايتهن ولصلحة المجتمع. وفي البلدان الاستبدادية، بشكل خاص، كتب مونتسكيو، حيث لا يسع الحكام أن يخاطروا بثورة تنشأ عن سخط عام، وحيث يسفر أقل تحد للسلطة عن سفك دماء وفوضى "حيث لا بد من السلام لضمان الخضوع، يكون إسكات النساء ضرورة مطلقة، فمؤامراتهن يمكن أن تكون قاتلة بالنسبة لأزواجهن". ولو قدر للنساء أن يخربن السلطة الجنسية لأزواجهن، فسوف يخربن السلطة السياسية. وكتب مونتسكيو "إن عبودية النساء أمر "مريح بشكل تام لروح الحكم الاستبدادي، الذي يستمتع بمعاملة الجميع بالشدة" (٦).

وتحت هذه الشدة أساس من عدم الثقة. فلو أن الوازع الأخلاقي أضعف من أن يسيطر على أهواء الرجال والنساء، فالقوة يجب أن تسيطر. لكن معظم المراقبين زعموا أنه بدلاً من حل المشكلة، فإن الفصل بين الجنسين جعل المشكلة أسوأ. وكتب فولني أنه حيثما يكون الرجال والنساء جاهلين بالحب، كما فهمه الغربيون، فإن "متعتهم تصبح خالية من الرقة" وتصبح الزوجات "مجرد محظيات، لا يفكرن في شيء إلا في تجريد العاشق من كل ما يملك قبل أن يرحل" ويتعين على الأزواج "أن يكتسبوا هيئة المستبد، ومن تلك اللحظة لا يجد الزوج إلا مشاعر الجاريات، مظهر المرأة المحبة، وحقيقة الكراهية". فالرجال والنساء الأتراك يحتقر بعضهم بعضاً، ولا يملكون السيطرة على أهوائهم في هذا الجو من الفجور" (٧).

وحبس النساء، برأى الغربيين، لم يؤد إلا إلى مزيد من الفجور. فبعد استبعاد كل فرصة للقاء، راح الرجال والنساء يسعون إلى اللقاء لأغراض بدنية خالصة. "يرقبون أول فرصة، في يقظة دائمة، لأنها نادراً ما تحدث وسرعان ما تضيع" والنساء المتزوجات بشكل خاص "يستسلمن للذة بحرية أكبر" ليعوضن عن التضيق الصارم الذي يعانينه. ولنع غير المتزوجات من السلوك غير الخلقى، أباح المجتمع المسلم تعدد

الزوجات وشجع على الزواج بمجرد البلوغ أو قبله. لكن هذه الحلول التي كرس عجز النساء عن السيطرة على أنفسهن جعلت المشاكل المتعلقة بالفجور أسوأ، بل وخلقت مشاكل خلقية جديدة للمجتمعات التي حاولت فرض الفضيلة بالقوة. ولام فولنى تعدد الزوجات والزواج المبكر زاعماً أنهما من أسباب وصول الرجال الأتراك إلى العجز الجنسي في سن الثلاثين، رغم أنه، مثل المراقبين الأكثر معرفة، كان يعلم أن تعدد الزوجات نادر - فما من رجل يتزوج أكثر من أربع نساء، وقليل من له أكثر من زوجة واحدة. لكن حقيقة أن تعدد الزوجات وارد أعطى المراقبين الغربيين ما يكثرون الحديث حوله، وانعقد الإجماع عندهم على أن تعدد الزوجات جعل الرجال يصابون بالعجز.

ورأوا أن حبس النساء في بيوتهن أدى إلى تفشى الشذوذ الجنسي بين الرجال، أو، كما قال مونتسكيو "إلى تلك النزعة التي ترفضها الطبيعة" وأشار القنصل الأمريكي في الجزائر ريتشارد أوبرايان إلى داي الجزائر - ساخرًا منه - بأنه "كامل القدرة" وكتب في رسالة خاصة يقول "القادر يطأه صبي في ساعات الراحة.. ذلك الذي اعتاد أن يأتى الآخرين يجد الآن من يأتيه". وفي تونس صدم وليم إيتون عندما علم أن الباي حمودة باشا، رغم أنه متزوج من امرأة رائعة بدرجة تفوق كل امرأة أخرى في المملكة، كان عشيقه "تركيا قويا في الثالثة والثلاثين". وقد كان هذا "التركي القوي" سيدى يوسف كوجى أقرب مستشاريه السياسيين. ورغم الخصال الطيبة التي تمتع بها حمودة باشا، فإن هذه الوصمة تجعل "أكثر أبناء الطبيعة فسوقاً يحمر خجلاً". فالفجور والعجز والشذوذ، جاءت كلها، كما اعتقد الغربيون، نتيجة للفصل الصارم في العالم المسلم بين الرجال والنساء. وسلطة الحاكم الجنسية على النساء، كسلطته السياسية على رعاياه، كانت تظاهراً فارغاً^(٨).

وقد عاشت الليدى مارى وورتللى مونتاغيو زوجة السفير الإنكليزى فى القسطنطينية فى ١٧١٧ و ١٧١٨ وتحدثت هذه التصورات الغربية عن القيود والانحلال الجنسي لدى المسلمين. وهاجمت، بشكل خاص، الرحالة الغربيين الذين يأتون إلى الشرق بتصورات مسبقة. لقد كانت "لذة خاصة لدى هنا أن أقرأ عن الرحلات إلى المشرق، التي هي بعيدة كل البعد عن الحقيقة، ومليئة بالسخافات، لدرجة تجعلها تسلية بالغة لى".

وكتبت تقول إن الرحالة "لا يكفون عن الحديث عن النساء، اللاتي لم يروهن، على وجه التأكيد، قط، ولا عن الحديث عن عبقرية الرجال، بكل حكمة، رغم أنهم لم يسمح لهم قط بصحبتهم، وغالباً ما يصفون المساجد التي لا يجرون حتى على أن يسترقوا النظر إلى داخلها". والليدي ماري التي اتخذت اللبس التركي وزارت النساء في بيوتهن، في الحريم، وحتى في الحمامات، وصلت إلى تحيز أيديولوجي معين يخصها. فهي ابنة سياسي محافظ بارز وزوجة سياسي محافظ بارز وصديقة حميمة لأدباء كبار من أمثال اليكساندر بوب وجوزيف أديسون، وكانت تحاول أن تبني لنفسها حياة مستقلة كأديبة. وقد استخدمت المسلمات اللاتي قابلتهن في بلغراد والقسطنطينية باعتبارهن نقائص لوضع المرأة في المجتمع الإنكليزي^(٩).

وكانت تعتقد أنه "من دواعي السرور أن تلاحظ رقة الرحالة الذكور وهم يأسون للتضييق الذي تعانيه النساء التركيات، اللاتي قد يكن أكثر النساء حرية في العالم" وإضافة إلى كونهن أكثر نساء الدنيا حرية، فقد كن وحدهن المتمتعات بالحرية في تركيا. فالحجاب، الذي هو رمز القمع لدى غيرها من المراقبين الغربيين، سمح لهن بأن يذهبن إلى حيث شئن دون أن يلاحظن. وعندما كانت امرأة تركية تخون زوجها فإن أحدا لم يكن يعرف. وقد كانت لدى التركيات متعة فريدة تتمثل في قضاء كل وقتهن "في الزيارات، والتحمم، أو في التسلية الممتعة المتمثلة في إنفاق النقود"^(١٠).

وفي زيارة لها إلى حمام عام للنساء في أدريانوبل (هي الآن مدينة أدرنة التركية) أذهلها نبلهن ولطفهن وما بينهن من مساواة. جلست السيدات والجاريات عاريات، جنباً إلى جنب، "دون أن تفصل بينهن المراتب التي يعبر عنها اللبس" وما فيهن من جمال وعيوب مكشوف لناظر الجميع، ولكن من دون أدنى "ابتسامة ساخرة أو إشارة غير مهذبة" أو "بسمة متعالية" أو "همسات مستهزئة" مما هو شائع في تجمعات الإنكليزيات وهن بكامل ملابسهن. وهذا الحمام العمومي، كما كتبت الليدي ماري، كان "مقهى النساء، حيث تروى كل أخبار المدينة، وتخترع الفضائح، وهكذا". وكم تمنى لو أن الرسام الإنكليزي تشارلز جيرفاس، الذي اشتهر ببورتريهاته النسائية، كان بوسعه أن

يزور هذا الحمام، حيث إن هذا كان حرياً بأن يحسن فنه" حين يرى هذه الكثرة من النساء الرائعات عرايا، فى أوضاع مختلفة. بعضهن يتحادثن، وبعضهن يعملن، وغيرهن يشربن القهوة أو الشربات" وأخريات تركن شعرهن تضفره لهن الجاريات. وحثت النساء الليدى مارى على أن تنضم إليهن، لكنها أظهرت لهن مشابك المشد على بطنها. ورغم أنها لم ترد إلا أن تبين لهن صعوبة خلع ملابسها، فقد ظنت التركيات أن زوجها أحاطها بحزام العفة "بتلك الآلة، التى ليس بمقدورى أن أفتحها". لقد أسأن فهم الغرض من المشد، لكن هذا الحادث أبرز لليدى مارى التضييق الواقع عليها، والتقييد الذى تفرضه عليها الموضة. وفى هذه الزيارة لحمام عام، لاحظت أن النساء العاريات، لم يكن مدركات للفروق فى الرتبة والمكانة، كما هو الحال فى تجمعات النساء الإنكليزيات. فملابسهن الفضفاضة، التى تزينت بها وهى فى القسطنطينية، كانت أقل تقييداً للمرأة من الموضات الإنكليزية، أما الحجاب فكان يحفظ لهن خصوصيتهن ويضمن، فى الوقت ذاته، أن تبدو كل النساء متساويات فى المظهر العام. وهذا جعل التركيات أكثر حرية من نظيراتهم الإنكليزيات اللاتى كن مقيدات بـ"آلات" تدعى مشدات ودائيات الوعى، أيضاً، بمركزهن الاجتماعى النسبى. فواء حجابهن، كانت لدى التركيات وفرة من الخصوصية والحرية^(١١).

وكتبت الليدى مارى التى كانت أكثر معرفة، بشكل عام، من الرجال الذين زاروا تركيا، عن امرأة مسيحية واحدة باعتبارها "سيدة اللطف والتعقل" إذ قبلت بالحياة قرينة لمسلم. وهى إسبانية أسرها أمير بحر تركى وهى فى رحلة بحرية. "حدثت لها نفس الواقعة التى حدثت للوكريتيا الجميلة" هكذا كتبت الليدى مارى. ولكن بعكس تلك الضحية الأدبية للغواية، كانت هذه المرأة مسيحية لدرجة تجعلها تحجم عن قتل نفسها. أرسلت أسرتها ٤٠٠٠ إسترليني فدية لها، لكنها قالت لأسرها التركى إن حريتها لم تكن تهمها بقدر ما يهمها شرفها الذى لا يصونه سوى الزواج. وإذا اغتصبت أو أغويت فلن يكون بوسعها أن تتزوج إن عادت إلى إسبانيا. كانت أسرتها سترسل بها إلى دير للراهبات. ولكى ينقذها من ذلك المصير، تزوجها أسرها، ووعد بأن لا يتخذ معها زوجة ثانية، أبداً، وأعاد مبلغ الفدية إلى أسرتها. وقد نجحت فى استعادة شرفها

بالزواج فى تركيا . وقد أقنعت أسرها بأن يحبها ، واستخدمت هذا الحب للوصول إلى علاقة بشروطها هى ، أو قريبة إلى شروطها ، بالدرجة الممكنة لامرأة فى القرن الثامن عشر . والبديل المتاح لها كان يمكن أن يكون الحجز فى دير إسباني . فهل قاومت حريتها الروحية بالحياة الغنية لزوجـة أمير بحر تركى؟ لم تر الليدى مارى أن هذه المرأة خسرت كثيراً . فباعـتـها سيدة لها مكانتها فى إسطنبول (ها هو يستخدم الاسم الإسلامى للمدينة ، لأول مرة – المترجم) فقد عاشت فى راحة ودعة ، والمقدار الذى يمكن أن تنفقه ليس له "حد سوى رغبتها هى" . فزوجها لا يناقش نفقاتها . "مهمته أن يكسب النقود ، ومهمتها أن تنفقها" (١٢) .

ورأى الليدى مارى هو رأى الأقلية . فلم يكن بوسع الأمريكين أن يقبلوا هذه الفكرة عن الحرية . فالمساواة بين الجميع فى حمام عام ، والخصوصية البالغة ، والحرية المحببة ليست كافية .

وفى مسرحية سوزانا روسون "عبيد فى الجزائر" لعام ١٧٩٤ يسأل بن حسن الأسيرة الأمريكية ربيكا أن تكون زوجته . وتهتف "تجعلنى زوجتك؟!" ثم تسأله "ألست متزوجاً بالفعل؟!" ويرد عليها قائلاً: بالطبع لكنى باعتبارى مسلماً أستطيع أن أمتلك "عدداً وفيراً من النساء – شريعتنا تعطينا حرية فى الحب ، أنت أمريكية ولا بد أنك تحبين الحرية" . وإذا أزعجها هذا التلاعب بالألفاظ فإنها تقول له "لا تلوث الكلمة المقدسة باستخدامها فى معنى الانحلال ، إن أبناء الحرية وبناتها يستلهمون مبادئ العدل والحق والرحمة عندما ينضوون تحت ألوية مجيدة" (١٣) . فالأمريكيون لم يرفضوا القيود المفروضة على المسلمات باعتبارها قيوداً ، ولكن لأنها مصطنعة . وقد اعتقد الأمريكيون أن الرادع الأخلاقى أساسى ، واعتبروا أن فرض هذه الضوابط منع الرجال والنساء من تنمية شخصيات فاضلة خاصة بهم . وقد صدم سوزانا روسون احتمال الخلط بين الحرية و"التحلل" أو الفجور ، وأدانت تدعير الكلمة المقدسة على هذا النحو .

وفى حين أدان المراقبون الغربيون الطغيان الجنى الذى تقنع به الفجور الجنى فى العالم المسلم فلم يكونوا جميعاً مرتاحين إلى ما اعتبروه ، على النقيض من ذلك ،

الحرية الجنسية المفرطة في أمريكا . وقد كتب واشنطن إيرفينغ سلسلة من الرسائل من شخص خيالي من طرابلس الغرب في نيويورك في ١٨٠٥ يعلق على المجتمع الأمريكي . وفي الرسالة الأولى التي بعث بها مصطفى روبادوب خلى خان من العالم الجديد، علق الطرابلسي على "مفاتيح هؤلاء الكافرات" اللاتي يراهن "يجبن الشوارع عاريات الأذرع والنحور" وكأنهن "مهرجات". وجمالهن الذي يعرض هكذا، على المكشوف، يجعله يتساءل عن جمال "أولئك المحجوبات في السرايات، واللاتي لا يسمح لهن، أبداً، بالخروج. لا يحتفى إيرفينغ بحرية النساء الأمريكيات، بل يزعجه مسلكهن المتفنج. ورغم أن الطرابلسي اجتذبه جمال الأمريكيات فإنه يلاحظ أن فيهن عيباً رئيسياً. "هل تصدق يا عاصم.. أن خمسهن على الأقل عصبيات! وإحدى النساء اللاتي رآهن كانت عصبية بدرجة كافية لأن "تلطم زوجها على صدغيه" علناً. ولم يكن إيرفينغ سعيداً، بشكل كامل، بالحرية التامة التي تمتعت بها هؤلاء السيدات الأمريكيات المتسلطات المتبرجات^(١٤).

التضييق على النساء، أيضاً، يمكن أن يؤدي إلى انحطاط السلوك، لكنه يمكن أن يساهم في السلام والهدوء العائليين، أيضاً. وقد أعجب وليم إيتون بالتونسيين لبساطتهم واعتدالهم وأمانتهم. "ليست عندهم حفلات صاخبة في نصف الليل، ولا هجمات ولا مدفعية، وقليل للغاية من الاغتيالات "بعكس مجتمع نيوانغلند الذي خلفه إيتون وراءه. "التعاسة المؤسفة التي ترتبط دائماً بالغواية، والتي كثيراً ما تجرح نظر العقلاء في كل قرية في العالم المسيحي، غير معروفة هنا: لأنهم يسجنون بناتهم". أى أنه دون فرص للغواية فإن نساء العالم المسلم محميات من أن يحملن من غير زوج. ووفقاً لإيتون فإن مونتسكيو، إذن، كان على حق في أن حبس النساء يحمي السلام والهدوء العائليين. وقد تجنب التونسيون المأسى الحقيقية التي تتأتى من الغواية والسفاح بحبس نسائهم^(١٥).

وقد حاول مونتسكيو أن يخمن ما يمكن أن يحدث لو أن النساء الفرنسيات بما فيهن من "خفة عقل" وأهواء ونزق و"نار مشتعلة" و "حرية كاملة" أخذن إلى تركيا.

وتساءل: "هل كنا سنجد رب أسرة ينعم بلحظة راحة؟" كان الرجال سينقلبون أعداء يشك أحدهم في الآخر بسبب الانحرافات الجنسية، حتى إن "الدولة تنقلب، والمملكة تغرق في أنهار من الدم". وفي مسرحية إيزاك بيكرستاف "السلطان" تظهر امرأة إنكليزية ملتهبة النشاط في تركيا وتقلب الدولة، وإن دون أنهار الدم التي توقعها مونتسكيو. وبدلاً من ذلك فإن روكسالانا تعلم النساء احترام الذات، وبمجرد أن تفوز بقلب السلطان فإنها تصر على أن تكون ندا له. ويندهش أوسمين الخانع، القيم على سراي السلطان كيف "أن أنفاً صغيراً مترفعاً" استطاع أن يقلب "تقاليد إمبراطورية جبارة!"^(١٦).

كانت روكسالانا بطلة بريطانية، لكن المسرحية سرعان ما تم تعديلها لتناسب المسرح الأمريكي. وتغير عنوانها من "السلطان" إلى "الأسيرة الأمريكية" وأصبحت روكسالانا، وليس سليمان، الشخصية الرئيسية. ولم تبق نسخ من هذه الطبعة الأمريكية التي استمر عرضها منتظماً من العرض الأول في ١٧٩٤ وحتى ١٨٤٠، ولهذا فلا يمكن أن نعرف ما هي الأشياء الأخرى التي جاءت مختلفة في نصها المعدل. لكن العنوان الجديد يبرز الهوية الوطنية لروكسالانا والتعارض بين أن تكون أمريكية وأن تكون أسيرة، ومركزية أدوار الجنوسة بالنسبة للسلطة السياسية.

وتبدأ روكسالانا تخريب النظام العثماني في السراي بأن تعلم النساء احترام الذات والوقار وأدوارهن الجنسية والسياسية الملائمة. ويسلى العبد الفارسي أوسمين، الذي يتمتع السلطان بغناؤه، سيده سليمان في الفصل الأول بأن يغني له باعتباره "البطل المبارك الذي ينتصر في الحرب والسلام على السوء ويثير فينا الدهشة". ولكن بعد أن تبدأ روكسالانا تهز كل شيء، فإن أوسمين يغني أغنية جديدة: "دعهم يقولون ما يريدون قوله/المرأة، المرأة لا تزال تحكمهم" وتتمكن روكسالانا من تحويل هؤلاء النسوة لأنهن لم يعدن قانعات بأدوارهن كمحظيات، ولأنها قادرة على كسب السلطان لصفها لأنه يجد استقلاليته مبهرة ولأنه، أيضاً، يشعر بأنه فارغ من الداخل. لقد أصابه الملل من "آلات التدليل" في السراي، النساء اللاتي ينبع جبهن من الخوف أو المصلحة.

وهو يطلب من أوسمين، الرجل المسؤول عن النساء، أن "ينهى هذا النمط من العبودية، لقد مللته" ويدعو هذا الخادم صديقه. لكن أوسمين يعجز عن التسامى على عاداته الخائفة، لا يستطيع أن يصبح صديق السلطان وإن كانت روكسالانا تستطيع ذلك؛ وتصبح صديقة السلطان سليمان وتخبره بأنها "ليست سوى جارية بائسة وصديقة لك". والصديقة تستطيع أن تنبئ سليمان بأمور لا يقدر على البوح بها الخدم أو الجوارى. وعندما يطلب سليمان من روكسالانا أن تصبح السيدة الأولى فى السراى، قائلاً لها: "هأنذا أكرس نفسى لك، وسوف تقدم الإمبراطورية كلها لك الاحترام" فإنها ترفض. وتذكره بأنها "امرأة ولدت حرة، ويفوق اعتزازها بذلك كل قيمة للأبهة والفخامة التى يمكن أن يسبغها عليها ملوك الشرق" فهى من بلد "كل مواطن فيه هو ملك بذاته" و "الملك نفسه مواطن" وباعتبارها امرأة حرة فإن روكسالانا لا يمكن أبداً أن "تصعد إلى فراشه ليلاً، لتركع عند قدميه صباحاً. سوف تصبح زوجة سليمان إذا شاركته السلطة السياسية، فقط. فلو أن الرجل الذى أحبته عنده كوخ فسوف تقاسمه إياه. وبما أن الرجل الذى تحبه لديه عرش، فلا بد أن تصر على مشاركته فيه" (١٧).

وعندما يعترض سليمان قائلاً إن "المفتى والوزراء والأغوات" لن يسمحوا بذلك، تخبره روكسالانا بأنهم عبيده، وبأنه يجب أن يكون مستبداً، فى بعض الأحيان، لصالح "الفضيلة والعقل" وتطلب منه أن "يجعل الشعب سعيداً، ولن يمنعوك من السعادة" وبالسعى وراء السعادة كمبدأ حاكم جديد للإمبراطورية تنتهى المسرحية إذ تصبح روكسالانا "الشريك الذى لا ينافس" لسليمان، قوة مسلماً بها ومعتزفاً بها على العرش. وسوف يكون دورها أن تساعد التعساء، وأن تسعف المكروبين وأن "تنشر السعادة فى القصر" وتؤدى دورها كشريك أسرى وسياسى للسلطان. وتصبح الصداقة والندية فى الزواج أساس النظام السياسى الجديد، ولكى يبدأ سليمان الاستمتاع بالحياة، فلا بد أن يعترف بأن لروكسالانا سلطة مساوية فى العلاقة. ترفض روكسالانا أن يكون دورها "مجرد آلة تدليل"، لا بد أن يحترم استقلالها الشخصى. ليست صانعة مسرات السلطان بل هى شريكته (١٨).

وإذ تؤسس روكسالانا دورها باعتبارها شريكة للسلطان فإنها تقلب الاستبداد السياسى التركى. فمن الممكن لامرأة أمريكية أو إنكليزية مستقلة وصريحة ومخلصة أن تقلب الاستبداد بمجرد الإخلاص. تكتسب روكسالانا سلطة بجعل السلطان يقع فى غرامها، وهو ما لا تحققه بالرياء أو المكيدة، ولكن بأن تكون نفسها. روكسالانا الأجنبية تقلب عادات مجتمع لا تفهمه. وفى أغلب الحالات، فى القصص عن العالم المسلم، فإن النساء اللاتى نشأن فى المجتمع تؤول إليهن مهمة إصلاح مؤسساته أو تخريب سلطته الاستبدادية.

وتوحى مسرحية "السلطان" بأن الاستبداد السياسى فى تركيا مركزه القصر. وعندما تحول روكسالانا سليمان إلى "رجل خير"، من خلال علاقة زوجية تقوم على الحب، وليس على السلطة، فإنها تقلب أساس السلطة السياسية فى تركيا، بالكامل. وقد كانت فكرة أن السياسة القومية انعكاس للعلاقات العائلية من البديهيات بالنسبة للقرن الثامن عشر. وقد خصص فولنى هامشاً طويلاً فى الخرائب "لموضوع الطغيان العائلى". "الطغيان الأبوى أرسى الأساس للطغيان السياسى" هكذا كتب، وقال إنه يستطيع بسهولة أن "يكتب فصلاً طويلاً ومهماً" عن هذه الفكرة وحدها.

وكتب فولنى إنه "فى دولة بسيطة وبربرية يكون الأب طاغية، وتكون الأم جاريته والأطفال خدمه. وتظل السلطة الأبوية فى أقوى حالاتها فى البلدان الاستبدادية مثل تركيا، والصين، والهند. وفى هذه المجتمعات يمارس الحاكم المستبد السلطة من خلال كل الآباء فى البلد. يفترض المرء أن الطاغية يزود نفسه بالمتواطئين وبمستبدين تابعين من نوى المصالح ليحافظ على سلطته". وعلى غرار الطغاة المحطين من الباشوات والبكوات الذين يمارسون استبداداً اسوأ من استبداد السلطان، فإن رأس كل أسرة هو طاغية بلا رادع^(١٩).

لم يكن قد مضى وقت طويل على تحرير الأمريكين لأنفسهم مما تصوره الطغيان الأبوى الإنكليزى. وكان لموضوع الطغيان الأبوى، باعتباره شكلاً من أشكال الاستبداد، وباعتباره مادة تغذى عليها الأدب الاستشراقى وكذلك الرواية الإنكليزية الطالعة،

فى معظم الأدب الأمريكى فى الفترة الثورية والوطنية المبكرة، رنين خاص. وقد حفلت المجلات الأمريكية والبريطانية بحكايات استشرافية (ORIENTAL) التى استخدمها المؤلف تعنى، حرفياً، مشرقية لكن الحكايات كانت أمريكية وبريطانية استلهمها كاتبوها من تصوراتهم عن المشرق، ولهذا اعتبرناها استشرافية لا مشرقية - المترجم) عن محبين فى عمر الشباب يتحدون رغم اعتراضات الآباء أو يفضلون الهرب على أن تفرق بينهم إرادة الآباء. فقصة "سليمان وألمينا" على سبيل المثال، هى سلسلة من التنويعات على هذا الموضوع، حيث غرام الشباب يقاوم الطغيان بثلاث طرق مختلفة فى صفحاتها السبع القصار^(٢٠)، يترك سليمان بيته فى فارس، ويترك والده العطوف، ليدرس المزيد من أحوال الدنيا. وينجح فى هذا الأمر، خلال أسفاره من فارس إلى الهند، حيث قابل فى الطريق عاشقين شابين يوشكان أن يفترقا بسبب الأب الجشع للفتاة، ثم يقابل الحبيبين زارا وعباس اللذين أجبرهما والد زارا وهو ضابط بالجيش على أن يفترقا، وبعد ذلك الأسير فى جزيرة هرمز، وأخيراً ألمينا التى يتعين على سليمان أن ينقذها من حاكم دلهى المستبد.

فأول عاشقين يلتقيهما عباس يوشكان أن يفترقا بسبب جشع والد الفتاة الذى باعها لخان بخارى. ويحتفى العاشقان بوالد سليمان ويحسنان استخدام حريتهما. وعندما يموت والد الفتاة فإنها ترث ثروته. وتقوم هى وزوجها بتعويض من ظلمهم أبوها، وهم كثر. وبهذه الطريقة فهما يحرران الآخرين من تسلطه الاقتصادى، تماماً كما حررهما سليمان من طغيانه الشخصى. وبتحرير هذه المرأة من الزواج بالإجبار من طاغية سياسى، فقد سمح سليمان لها ولزوجها المختار بأن يعملأ أعمالاً صالحة. وهذا التصرف الكريم من جانبه، عندما أرسل الاثنين ليعيشا مع والده الحكيم، كان أكثر من مجرد عمل من أعمال الخير الشخصى. فهذا العمل سمح لهما بأن يصبحا حرين، وهما يستخدمان هذه الحرية من أجل أمور تتجاوز سعادتهما الشخصية، بكثير. فعندما عوضا أولئك الذين قمعهم والد الفتاة أصبح العاشقان، أخيراً، سعيدين هما أيضاً.

ويتوازي المثال الثاني من أمثلة العشاق الذين يسعون لتحرير أنفسهم من الطغيان الأبوى، في قصة زارا وعباس، مع حبكة واحدة من أكثر المسرحيات شعبية في ذلك الوقت، "الجبليون". زارا ابنة أحد ضباط الجيش، وعباس جندي تحت إمرته. ويقع الاثنان في الحب، على عكس ما يتمنى الوالد، الذي يستبد به "جنون الغيرة". وتتكرر زارا في هيئة فلاحه وتقود عباس عبر المنطقة الجبلية، حيث يهاجمهما اللصوص ويختطفون زارا. ويعود عباس إلى المعسكر ويتوسل إلى والد زارا أن يصحبه للبحث عنها "لكن ذلك التعيس غير الطبيعي.. يتفوه بأسوأ أنواع السباب لطفلته" ويرفض. ويصبح عباس ناسكاً متصوفاً بعد أن يملأه الغضب والمرارة من أفعال البشر. ويكون سليمان أول زائر لكهفه الجبلى منذ سنوات. ويثور سليمان على حقارة البشر، بعد أن سمع حكاية عباس وملأه "هياج الغضب النزيه". ويقول له رفيق أسفاره: "أنت تستقى صورة جزئية عن حياة الإنسان من المشكلات المعقدة لشخص واحد". أما والد زارا الذي لم يقبل بالاختيار الذي استقرت عليه، فهو يتركها أسيرة لدى اللصوص الجبليين. ويتساءل سليمان متعجباً: "هل هناك ما يمكن أن يدفع أباً إلى أن يجعل طفله تعيسة؟" وقصة زارا وعباس تقدم الدليل على إمكان حدوث هذا الأمر الذي لا يصدق.

لا يستطيع سليمان أن يساعد عباس في العثور على زارا. كما أنه لا يستطيع أن يساعد الأسير الذي يلقاه على جزيرة هرمز، والذي تطارده قصته، وهو يمضى في الطريق إلى دلهي. وهناك يقابل ألينا ويقع في غرامها، لكنه يبقى عاجزاً عن نسيان أسير هرمز. وتظهر ألينا فضائلها بأن تقول لسليمان: "اذهب إلى حيث توجهك الفضيلة". فيعود إلى هرمز وينقذ الأسير، ليجد لدى عودته إلى دلهي أن الحاكم الشهواني وضع ألينا في السجن، لأنه ينوى الإيقاع بها. ويلقى الحاكم بسليمان، أيضاً، في السجن. لكن سليمان يهرب، وينقذ ألينا من "رعب" الوقوع في أحضان الحاكم، ويعود العاشقان إلى فارس، إلى "الوادي السعيد" المرتبط بشباب سليمان، حيث يقدم الأب العجوز "وقلبه ملئ بالحنان، بركاته الأبوية لل اثنين".

وهذه القصة الرومانسية نموذج تمثيلي للأدب الاستشراقي الذي راج في القرن الثامن عشر. وعندما قابلت الليدى مونتاغيو أحمد بك، الأستاذ في الآداب العربية

والفارسية، فى بلغراد، كان بوسعها أن تروى له كما كبيرا من القصص الفارسية حتى إنه لم يصدق أنها تجهل تلك اللغة. وقد ترجمت هذه القصص إلى الإنكليزية والفرنسية بنهاية القرن السابع عشر، وكانت الطبعة الأمريكية الأولى من ألف ليلة وليلة فى تسعينيات القرن الثامن عشر. والعنصر الذى يربط بين أجزاء قصة سليمان وألمينا هو المقابلات المثيرة التى تجمع سليمان إلى من يسيئون استخدام سلطاتهم وإلى ضحاياهم، أما القصص الأكثر إحكاماً فى "ألف ليلة وليلة" فالرابط بينها هى المراوغة التى تقوم بها كل ليلة شهرزاد، فى مواجهة الإرادة المستبدة من جانب السلطان. فبعد أن خلقت له عالماً خيالياً ألهم خياله لدرجة تجعل من الصعب عليه أن يدمره، أصبح بإمكانها الحفاظ على حياتها وحياة ألف غيرها كان يمكن له أن يختارهن للزواج^(٢١).

وتعرض مسرحية "عبيد فى الجزائر" التى قدمتها سوزانا روسون فى ١٧٩٤ لأشكال عديدة من الطغيان الأبوى. فوالد فتنة يبيعها للدائى. وتتحدى زوريانا، ابنة الدائى، والدها لتساعد الأسرى الأمريكيين على الهرب. والرواية كلها تتتابع بقوة الدفع التى تنشأ عن حادثة لا نعرف بها إلا فى المشهد الأخير. فأحدى الأسيرات الأمريكيات وتدعى ريبيكا تحكى قصتها للأسرى الآخرين: لابنها أوغسطس وللأسير البريطانى كونستانت ولابنته أوليفيا. ثم يتبين أن كونستانت وريبيكا كانا زوجين وأن هنرى وأوليفيا هما طفلاهما، وأن الأسرة تمزق شملها منذ خمسة عشر عاماً. وقد تبرأ والد ريبيكا الأمريكية منها عندما تزوجت من كونستانت، الضابط البريطانى. وعندما مرض والد ريبيكا، ندم وتوسل إلى ابنته أن تعود وتغفر له. وقد ذهبت إليه مع ابنها أوغسطس، فى حين بقى كونستانت وأليفيا مع الكتيبة البريطانية. وعندما كانت ريبيكا بعيدة مع والدها، ترك كونستانت فى ميدان المعركة، بعد أن حسب رفاقه أنه مات، وتبعثرت الأسرة. بقيت ريبيكا وأوغسطس فى أمريكا، تلعن الثروة التى ورثتها عن أبيها، وتتساءل ما جدوى المال بعد أن فقدت أسرتها؟ إنها تظن أن كونستانت مات، وسمع كونستانت أنها ماتت حزناً عليه. وينتهى المطاف بكونستانت وأليفيا فى الهند، فى حين تبقى ريبيكا مع أوغسطس فى أمريكا. ثم يلتئم شمل الأسرة فى الجزائر،

حيث الكل أسرى، وحيث توافق أوليفيا على الزواج من الداي ثمنًا لحرية أبيها، ولكن بمجرد أن يلتئم شمل الأسرة، فإنهم يتحدثون الداي برفض الزواج، تمامًا كما تحدث ريبيكا وكونستانس والد ريبيكا وتزوجا. وتقسم ريبيكا وكونستانس وأوغسطس على الموت للحؤول دون زواج أوليفيا. ويستسلم الداي أمام هذا العرض للقوى الأسرية ويوافق على أن يكون حاكمًا وأبا أفضل، في المستقبل، واعدًا بأن "يرفض كل أشكال السلطة ما عدا تلك التي قد يرى أصدقائي الطيبون أنني لن أكون قادرًا على إساءة استخدامها" (٢٢).

ولا تتضح معالم القصة المعقدة التي تخص ريبيكا وكونستانس إلا عند النهاية. وتركيز المسرحية الحقيقي هو على فتنة "الخيار المفضل" لدى الداي، والتي تفتتح المسرحية وهي تشكو سجنها في القصر الفخم والحدائق والملابس التي يتيحها لها مركزها. وتقول عن الثراء المحيط بها: "أنا أحب كل هذا، لكني لا أحب أن أكون حبيسة". وقد كانت الليدي ماري مونتاغيو تحسب أن هذا السجن تختفى وراءه حرية لا تعرفه النساء الإنكليزيات، أما بالنسبة لسوزانا روسون فإن هذا النوع من الحرية، هذه العزلة المترفة التي تسمح بالتسيب الجنسي، لم تكن كافية. وتعتبر فتنة بكلماتها هي عما قاله الروائي الإنكليزي لورانس ستيرن، عندما تسأل: "هل العصفور البائس المحبوس في قفص (لأنه المفضل لدى من استعبده) يجد العزاء عن حرите المفقودة؟ كلا. وإن كان سجنه من أسلاك الذهب، وإن كان طعامه شهياً، وإن كان التدليل يغمره، فإن قلبه يظل يتألم تطلعاً إلى الحرية. إنه يسعى بكل سرور إلى حقول الهواء، وحتى إن علق فوق غصن عار، فسوف يطلق أغنيته، بكل سعادة، ولا يندم مرة واحدة على بيت العبودية". قد أحب والد فتنة، بن حسن، وزوجته التي خضعت لخطته، "الذهب أكثر مما أحبا طفلتهم" وباعاها للداي.

والشرير الحقيقي في المسرحية هو بن حسن الذي خون كل ثقة سعيًا وراء الثروة فقد ولد في إنكلترا وانتقل إلى الجزائر، وتحول من اليهودية إلى الإسلام، وبذلك فهو لم يخن ابنته وحدها، بل وخان أمته ودينه. وبالنهاية، فهو يخون نوعه عندما يتخفى في ملابس زوجته (٢٣) ليهرب من وجه طغمة ثائرة من العبيد الذين اقتحموا مسكنه.

سوف يفعل بن حسن أى شىء من أجل المال، وسوف تفعل ابنته فتنة أى شىء من أجل الحرية. وتغذى ريببكا الميل الطبيعى لديها إلى الحرية، وتعلمها أن "المرأة لم تخلق، قط ، لتكون الجارية البائسة للرجل". فريببكا جاءت "من تلك الأرض التى ترى الفضيلة فى الرجل أو المرأة العلامة الوحيدة على التفوق- إنها أمريكية". وهكذا فإن تعاليم ريببكا "تنقش" على قلب فتنة: "أشعر أنى ولدت حرة، وما دمت فى حياة، فسوف أناضل لأبقى كذلك". وتغنى فتنة أغنية عن وردة برية "تتفتح وتزهو" لتنشر الجمال والعطر حولها، حتى تقتطف، فتشحب سريعاً، قبل أن تذوى وتموت. والمرأة أيضاً "عندما تكتسى بأثواب الطبيعة" من دون زينة مصطنعة، يمكنها " أن تجعل الروح تسمو إلى الفضيلة " وأن تدفع بالرجال الشجعان إلى المجد، لكنها "تسقط فى الحزن، وتموت مكتئبة، إذا تحولت إلى جارية". وعلى النقيض من أبيها، الذى يحاول الهرب فى ثياب امرأة، تهرب فتنة من قصر الداي، فى ملابس الرجال. وهذا قلب واضح للأدوار النوعية. وتعكس روسون أيضاً دورى أوليفيا المراهقة وأوغسطس المراهق. تضع أوليفيا خطة لتحرير أبيها، فيما يظل أوغسطس ينتحب طوال الرواية لأنه عاجز عن تحرير أمه^(٢٤).

وتواصل فتنة تخريب الأدوار النوعية، رافضة عرضاً بالزواج من عاشقها الأمريكى، وعرضاً من ريببكا، بإحضارها إلى أمريكا. سوف تبقى فى الجزائر لمساندة أبيها. لقد خانها، لكنها لا تستطيع أن تخونه. سوف تبقى فى الجزائر لتلقنه درساً عن الإيمان بالأسرة. فالزوجة والأطفال ليسوا بضاعة، تباع أو تشتري. والنساء لسن أشياء بل هن بشر، ولهن دور مهم يتعين أن يلعبنه فى أى مجتمع أو أسرة.

والأمريكيون يعلمون الجزائريين والمسلمين واليهود هذه الدروس، ويغادرون الجزائر بعد أن يعلموا الداي " أن يتخلى عن كلمة رعية ليستخدم بدلها لفظاً ينم عن إعزاز وهو المواطن"، وهو صدى لإعلان روكسالانا، أن فى بلادها كل مواطن ملك، والملك نفسه مواطن. ويطلب الأمريكيون أن يثبت بسلوكه "مدى اهتمامه برفاه إخوانه فى الإنسانية " فيما يعودون إلى الأرض" التى أقامت فيها الحرية بلاطها" وهم يأملون أن يأتى يوم " تنشر فيه الحرية تأثيرها الطيب" بين كل الأمم^(٢٥).

وقد وقع سليمان الثانى فى مسرحية "السلطان" فى هوى روكسالانا التى كبحت جماح سلطته المستبدة. وفى مسرحية روسون "عبيد فى الجزائر" تكبح جماح سلطة الداي الأسر التى وحدها الحب، وليس الاستبداد. ودمرت شهرزاد الإرادة المستبدة لدى السلطان بخلق عالم وهمى يبهره لدرجة تجعل من المستحيل عليه أن يدمره. هذه النسوة استخدمن العقل والخيال ليفعلن ما لم يستطع الجمال الجسدى أن يفعله.

وقد سخرت روكسالانا من محاولات الميرا استخدام منديل معطر لكى تستعيد سليمان، رافضة بذلك الأشكال الجسدية الخالصة للمحبة، تماماً كما رفضت شهرزاد أن تكسب السلطان باستخدام السحر الجسدى أو الرومانسى.

إنهن يقاومن الطغيان الراسخ بالذكاء، بالثقافة، وبالخيال، وعندما يتصرن فإنهن يؤسسن مملكة الفضيلة والإحسان. وتنتهى سوزانا روسون مسرحيتها بنشيد ختامى تتصور فيه السيدات بين الجمهور وهن يقلن:

"هى تقول إن من حقنا السلطة الأعلى،

وفى الحقيقة فنحن نجمع على موافقتها.

ولدت النساء من أجل السلطة الشاملة،

وولد الرجال ليعشقوا ويصمتوا ويطيعوا".

وليس هذا بالضبط هو نوع السلطة الذى أرادته مسز روسون للنساء.

فالمرأة تحكم بقلبها، بمواساتها للحزين والمعذب:

لنرفع من سقط - لنشفق ونعفو،

هذه هى أفضل وأنبل امتيازاتنا.

وبهذه الامتيازات، وباتباع الخطة الرقيقة للطبيعة،

فإننا نوقع فى أغلال من حرير - الرجل السيد الطاغية^(٢٦).

أحد الأعمال التي طورت هذا الموضوع وحققت رواجاً كبيراً، استمد نواته من التاريخ وأصبح رواية متقنة، قبلت بعد ذلك باعتبارها تاريخاً. تلك كانت قصة خير الدين المعروف شعبياً باسم بارباروسا، وهو قبطان بحرى تركى ساعد الجزائريين على طرد الإسبان فى مطالع القرن السادس عشر ثم بقى فى الجزائر ليحولها من جمهورية مستقلة إلى تابع عسكري قوى يدور فى فلك الإمبراطورية العثمانية. وأدى نجاح بارباروسا ضد إسبانيا إلى ما يقارب القرنين من السيطرة العثمانية على الجزائر. ووفقاً للتواريخ الموجزة التي طبعت فى المجلات الأمريكية فإن الجزائريين لاقوا من القمع العثماني أكثر مما لاقوه من الإسبان. وتحت هذا الدرس السياسى درس شخصى. مركز الأحداث التي تحولت من تاريخ إلى رواية، كان نضال زافيرا ملكة الجزائر، أرملة الملك سليم، للحفاظ على استقلالها وعفتها، أمام محاولات بارباروسا الشهوانى.

وفى "التاريخ الموجز للجزايرلية" المطبوع فى مجلة ماساشوسيتس ماغازين فى ١٧٨٩، والذي أعيد طبعه بعد خمس سنوات فى "أمبريال هارولد" فى نيويورك، فإن الملك سليم دعا بارباروسا لمساعدته فى قتاله ضد الإسبان. وسرعان ما قتل "القرصان التركى" كما كان يدعى بارباروسا، الملك سليم واستولى على المملكة، وحاول أيضاً أن يأخذ أرملة سليم "زافيرا الجميلة". فقد عجز، "بكل ما لديه من عواطف وحشية، عن أن يقاوم سحرها". لكن زافيرا "لم تهتم بالمجد ولا بالعظمة ولا بالثراء أكثر من السمعة". ورفضت عرضه لها بأن تكون ملكة حتى لا تكون "موضع احتقار لدى كل المؤمنين". وقتلت زافيرا نفسها مفضلة الحفاظ على شرفها على الرضوخ لرغبات بارباروسا الشهوانية^(٢٧).

وتكشف رسائل زافيرا إلى بارباروسا التي جاءت فى "التاريخ الموجز" عن امرأة لا يغريها بهاء السلطة. إنها ترفض عروض بارباروسا بقولها "قد تكون فى غيرى من النساء من تهتم بالمجد والعظمة والثراء، أكثر مم تهتم بالسمعة التي فيها المجد الحقيقى والعظمة الأسمى والثراء الأعظم، فتلقى بنفسها عليك لتستمع بتلك الثروة المتوهجة التي تعرضها على بكل سخاء". وهى تعترف بأن "القليلىن هم الذين يرفضون مملكة تكون متاحة لهم" لكنها سترفض. وتتهم بارباروسا بالتواطؤ فى مصرع زوجها.

ويرد بارباروسا متصنعاً الصدمة، فيأمر باعتقال بعض "المشتبه بهم" وبعد إجبارهم بالتعذيب على الإدلاء باعترافات، يأمر بخنقهم. لكن ذلك لا يرضى زافيرا. فترفض عرضه، رغم توسلاته وتهديداته، وعندما يسأله عما يمكن أن يفعله، فوق هذا، من أجلها ترد عليه بكلام لا بد أنه ضرب على وتر ما عند الجمهور الأمريكي: "ما أطلبه منك هو الموت أو الحرية". وتعلم زافيرا أن الحرية ليست الاختيار الوارد. وعندما يرتقى عليها بارباروسا، محاولاً أن يأخذ عنوة ما لا تريد أن تعطيه إياه بحريتها، فإنها تحاول أن تطعنه بسكين. ويتفادى السكين، لكنها تجرح ذراعه. وفيما كانوا يضمدون له جرحه، انتحرت زافيرا بالسم. واعتبر بارباروسا انتحارها إهانة، ولكي ينتقم لنفسه، أمر بخنق كل النساء القائمات على خدمتها ودفنهن معها^(٢٨).

وقد حول الكاتب المسرحي الإنكليزي جون براون هذه القصة في ١٧٥٥ إلى مسرحية "بارباروسا، طاغية الجزائر" وفي المعالجة المسرحية تنجو زافيرا من الموت ومن العار بفضل عودة ابنها سليم، في الوقت المناسب. ويقتل سليم بارباروسا ويعيد إلى الجزائر السلطة الملكية الشرعية والأخيرة. والمسرحية حبكة ثانوية: أسر الإسبان إيرين، ابنة بارباروسا، في وهران. ولم ينقذها إلا الأمير سليم الذي يتوسل إليها أن "تذهب إلى الجزائر" لتحمل أمه، ولكي "تكون بالنسبة له ما كانه سليم لك". ويتعين على إيرين أن تختار بين أبيها والرجل الذي تحبه. وعلى عكس فتنة، فإنها تبقى عاجزة عن الاختيار. وعندما يعلم بارباروسا أن إيرين مدينة بحريتها لسليم، فإنه يدعوها "ابنة زائفة، غير مخلصة"، "فتاة خائنة" لأنها "وصلت إلى الحرية عن طريق عدو الوالد!"^(٢٩).

ورغم تنكر أبيها لها وتسميته إياها "هادمة كل ملذاتي" فإنها تبقى مخلصة له بل وتحذره من تمرد عليه يعدله سليم. لكنها تحاول أن تنقذ سليم عندما يرسل به إلى المخلعة (آلة تعذيب يمتط عليها جسد الإنسان حتى يتمزق ويموت - المترجم) ثم تحاول أن تنقذ أباهما عندما يهرب سليم ويقود التمرد. لكي تكون مخلصة لأبيها لا بد أن تقبل بموت محبوبها، ولكي تكون مخلصة لمحبوبها لا بد أن تقبل بموت أبيها. وأخيراً يخلو

أبوها الطريق، فحين يلقى الموت على يد سليم فإنه يستودعه إيرين. أما زافير
"التي لم تتزعزع فضيلتها" فإنها تطلب من سليم أن يتزوج إيرين ويجعلها ملكة حتى
"تمحو فضيلتها جرائم أبيها".

وبفضل عفة هاتين المرأتين يستعيد سليم السلطة، التي سيمارسها بحكمة. وقد
أثبت فضيلته بإنقاذ إيرين من أسريها الإسبان. وتقوم المسرحية على التوتر داخل
المرأتين. فإيرين ممزقة بين أبيها وحبيبها، وزافيرا بين مقاومتها لبارباروسا، الأمر
الذي سيفضى لا محالة إلى موتها، وبين الزواج منه، وهو ما قد يسمح لها بتحسين
أوضاع الشعب الجزائري التعيس. وتختار زافيرا؛ أما إيرين العاجزة عن أن تكون
مخلصة لأبيها ولحبيبها معا، فهناك من يختار لها. زافيرا هي بطلة المسرحية،
أما إيرين فمركزها المساوى.

وقد ظل المسرح الأمريكى يعتمد على هذه المسرحية، باعتبارها نصا أساسيا،
حتى حرب ١٨١٢. ولكن الأدب الأمريكى، فى الوقت ذاته، خلق زافيرا الخاصة به
فى مسز ماريا مارتن. ومن المستحيل القول بأن هذه قصة حقيقية، وهذا يساوى
فى صعوبة القول بأنها ليست قصة حقيقية. ورغم أن كتاب ماريا مارتن طبعت منه
اثنتا عشر طبعة بين ١٨٠٧ و ١٨١٨، وأعيد طبعه فى بوسطن وفيلادلفيا
ونيو يورك ونيوهافين وترنتون وفيرمونت وأوهايو، فلا أحد يعلم شيئا عن المؤلف.
والراوية امرأة إنكليزية، وتزعم الطبعة الأمريكية الأولى أنها إعادة طبع لنسخة إنكليزية،
ولكن لا يوجد أى وثيقة تدل على أن الكتاب نشر فى إنكلترا، على وجه الإطلاق. ولأن
مسز مارتن كانت أسيرة فى الجزائر لست سنوات بدأت فى ١٨٠٠، يبدو من المستحيل
أن تكون هناك طبعة من الكتاب قبل ١٨٠٧، عندما نشرت أول نسخة من النسخ
الموجودة من الكتاب، فى بوسطن^(٣١).

ومن السهل أن نفهم لماذا كان هذا الكتاب بهذه الشعبية. فقد احتوى على كل
عناصر سردية الأسر البيوريتانية، إضافة إلى التركى الشهوانى والوصف المرعب
للتعذيب والمعاناة^(٣٢).

ورغم أن مسز مارتن زعمت أنها إنكليزية، فمن السهل أيضاً أن تلمس التماهى بينها وبين القارئ في أمريكا. ولدت ماريا مارتن في ١٧٧٩ ابنة لوالدين "ثريين ومحترمين". وفي نهاية التسعينيات من القرن تتزوج الكابتن هنري مارتن من شركة الهند الشرقية. ولدى مسز مارتن دافع قوى للذهاب إلى البحر، وأخيراً يأخذها زوجها في رحلة إلى مينوركا في يونيه ١٨٠٠ وتحمل سفينتهما "يونيكورن" ١٢ راكباً وطاقماً من مائة بحار، تقريباً. وتشحط بها السفينة بسبب عاصفة، لكنهم ينجحون في تخليص السفينة من الصخور بالتخلص من مدافعها ويثبت أن هذا اختيار غير موفق عندما تطارد فرقاطة فرنسية القارب غير المسلح، الذي ينجح في الهرب، رغم ذلك. لكن "يونيكورن" تشحط مجدداً، على الساحل الإفريقي، هذه المرة. ويقفز بحاران أسودان إلى الماء ويربطان السفينة بحبل إلى الشاطئ، ويهبط منها كابتن مارتن وزوجته وقائد السفينة. وقبل أن ينقذوا أحداً آخر من الطاقم أو من الركاب ينقطع الحبل. وتعجز المجموعة على الشاطئ من الحصول على نجدة، لكنهم يسمعون الصيحات اليائسة من بقية أفراد الطاقم والمسافرين، وكثير منهم أطفال وقد تحولت بهم السفينة الضائعة إلى فخ عائم. وتحطم الأمواج السفينة "يونيكورن".

ويقضى الناجون الثلاثة ماريا مارتن وزوجها والضابط ليلة معذبة على الشاطئ. لم يجد الرجلان مخرجاً من ذلك الموقف: فإلى الجنوب غابة لا يمكن اجتيازها وإلى الشمال مستنقع. وفي غياب أي مخرج يواجه الثلاثة موقفاً يائساً في الصباح. وتقترح مسز مارتن أن يبدأوا اليوم الأول لشقاوتهم بالصلاة. وحدها من بين الثلاثة، تتذكر عجزهم أمام سلطان الرب القادر على كل شيء^(٢٣).

وفي الغابة يقابلون رجالاً يحملون الرماح فيوجهونهم إلى تينيس، حيث يأملون أن يرسلوا برقية موجزة إلى القنصل البريطاني في الجزائر. وبدلاً من ذلك، فإنهم يباعون كعبيد. ويشترى الحاكم التركي الشهواني مسز مارتن ويجعلها خادمة في المطبخ. وتأمل مسز مارتن أن توضع تحت سلطة امرأة، وعند رؤية النساء الأخريات يعملن في المطبخ تأمل أن لا تتعرض للمهانة وأن تتمكن من الحديث إلى النساء الأخريات.

ولكن سرعان ما يخيب أملها. فالمرأة المراكشية التى تدير المطبخ أكثر استبداداً من داي الجزائر، وشريكاتها فى العبودية، وإن قاسمناها حالتها وجنوستها، فهن برتغاليات، وليس بينهن من تتحدث الإنكليزية^(٢٤).

حتى هذه النقطة كانت مسز مارتن قد فقدت كل أمل. لم يستطع زوجها الكابتن مارتن أن يحميها من العبودية. ووجود امرأة فى مركز المشرف عليها كان أسوأ من وجود رجل، ولا واحدة من النساء الأخريات، اللاتى توقعن أن يشاركنها مشاعرها، تتحدث لغتها. لكنها تنجح فى إقامة صلة بينها وبين عبد آخر، مالكولم، الذى أحسن إليها، والذى تربطه بها رابطة أقوى من الجنوسة أو الزواج. إنه إنكليزى عاش فى الجزائر مدة تكفى لأن ينطق بلغتها.

ويعجب المسؤول التركى الذى يملك مسز مارتن بها وينقل لها إعجابه من خلال مالكولم، الذى أصبح فى وضع يمكنه من مساعدة مسز مارتن باعتباره مترجماً وباعتباره شارحاً للعرض الذى يقدمه التركى. لو وافقت على أن تصبح محظيته فسوف يكافئها التركى بأن يعطيها كل الحرية التى تتمتع بها كل زوجاته ومحظياته الأخريات. لكن مالكولم يقول لها إنها ليست مرغمة على الموافقة، وإن القانون المحلى سوف يحميها من أن يرغمها أحد على أن تكون محظية ما لم تختار ذلك. وقال لها إن التركى يمكن أن يعدم إذا استخدم معها القوة. إنها حرة فى الاختيار بين المذلة فى المطبخ وبين ذلك النوع من الحرية المحجبة التى قالت الليدى مارى مونتاغيو إن التركيات يتمتعن بها. وكان اختيار ماريا مارتن واضحاً. فهى ترفض التركى الذى يهتاج ويأمر بتكبيها والإلقاء بها فى سرداب. لكنها، رغم ذلك، لا تلتين. وليزيدها ضعفاً يأمر بحبسها منعزلة فى قلعة قديمة، حيث تبقى ثلاث سنوات تعيشها على الخبز العفن والماء القذر.

وبعد فترة من دخولها السجن فإن "الصلابة بدأت تعود" إليها و"توهجت بالرغبة فى أن تقنع العالم بأنها قادرة على أن تتحمل ما لم يتحمله إنسان قبلها". إنها تدرك أنها أسعد ببراءتها مما كان يمكن أن تكون عليه لو أنها قبلت بشروط التركى، وقاست وضاعة البشر، وعذابات الموت و"رعب الإحساس الداخلى بالذنب". وحتى فى الأسر، فإنها تشعر بحرية الضمير النقى^(٢٥).

ومع بقاء أمله فى تدمير روحها، قطع التركى عنها الزاد الشحيح. وبعد أحد عشر شهراً من التجويع، لم تكن قد انهارت. ولكن عندما أعطيت خبزاً جيداً وماء نظيفاً وجدت أن جسدها لم يحتملها. وتملاً بطنها، ولكن "للأسف، لم تدم متعتها طويلاً". وجدت أن "الإفراط يتبعه الألم والندم". يتورم جسدها وتشعر بأنها تنتفخ ويتقلص الجسد ويتورم، وتجد أن هذا التعذيب الجديد غير محتمل، شأنه شأن الشعور بالجوع. بدأت تصب اللعنات على أولئك الذين يستمتعون بالتعذيب، والذين بعد أن جوعوها، طوال هذه الفترة، راحوا يدعونها إلى النهم^(٣٦).

لكن إيمانها بقدرة الله لا تهتز، رغم كل هذا. ويأتيها الإلهام ذات ليلة عندما "يسطع القمر صافياً، ألقت بنظرة ضائعة مشتتة على السماء، ونزلت على ركبتيهما، وبكل ما فى روحها من عذاب، بحثت عن العزاء فلم تجده، لم يكن فى الدين أو فى الفلسفة ما يعزيها". بدت ضائعة وعاجزة تماماً. لكنها "لم تجدف، ولم تكن تخاف العدم، ولم تطلب من الرب الانتقام، الرب الخالق هو المتصرف بمصيرها". وهى تعلم أن الله لن يحملها ما لا طاقة لها به. فى هذه اللحظة، تحقق خلاصها.

هذا أحد المشاهد الكلاسيكية للعودة إلى الله، عندما تدرك ماريا مارتن خطيئة الشره، وأن إشباع جسدها الجائع الضمان ليس كافياً. إنها تترك نفسها لرحمة الله فتتحرر من فورها. وتبدأ الفقرة التالية لمشهد التوبة هذا، على النحو التالى "فى بواكير صباح أحد الأيام سمعت باب السرداب يفتح - بعد أن كانت سمعت الباب يوصد - ودخل سيد فى ملابس المسيحيين فى صحبة الحارس" لا يمثل الرجل ذو الملابس المسيحية ملك السموات بل كان يمثل ملك إنكلترا. إنه القنصل البريطانى، أرسل لتحرير مسز مارتن من عبوديتها القاسية والظالمة. لقد هرب زميلها فى العبودية مالكولم إلى الجزائر وأبلغ القنصل بما لقيته من معاملة قاسية وأصدر القنصل تعليماته للداى بالإفراج عنها^(٣٧).

وتخبر مسز مارتن القنصل بقصة أسرها ومعاناتها، وترغب فى البقاء فى الجزائر لتبحث عن زوجها. وينسحبها القنصل بالعودة إلى إنكلترا وترك مسألة البحث له هو.

وتعود إلى إنكلترا على سفينة بريطانية، ويستأجر القبطان البريطاني عربة تأخذها إلى بيت أبويها. لقد عجز زوجها الكابتن مارتن عن حمايتها في تينيس، وهي الآن تعتمد على إرادة الله وعلى حنان الغرباء. ويغمر على والدها عندما تصل. لم يكن يعرف بأسرها لكنه ظنها غرقت في البحر، بعد أن لم يسمع شيئاً عنها منذ أبحرت إلى مينوركا قبل ست سنوات.

عادت ماريا مارتن إلى أبيها، وبعد ستة أشهر يعود زوجها إليها. لكنها امرأة مختلفة عن تلك التي كانت تحن للبحر في ١٨٠٠. لقد تعلمت درساً قاسياً عن قدرة الله وتعلمت أيضاً عن قوتها هي الأخرى. لم يستطع زوجها أن يحميها، ولم تنقذها ثروة أبويها. وبدلاً من ذلك، فقد تركت نفسها لرحمة الله، وبقوته المقدسة ويتدخل من القنصل البريطاني، أطلق سراحها. وبعد أن أصبحت حرة أقنعت القنصل البريطاني بأن يبحث عن زوجها، وقد تحرر هنري مارتن بفضل جهود زوجته.

لم تقبل زافيرا وروكسالانا وريبيكا وأوليفيا وماريا مارتن إلا بالاختيار بين الحرية أو الموت، ولم تقبل إحداهن عبودية السجن أو العلاقات غير الطبيعية. فضلن الموت على هذا النوع من العار. وأوضحت قصص أخرى أن أولئك اللاتي اخترن العبودية، اللاتي اخترن أن يعشن كقطعة أثاث، بدلاً من الموت كامرأة حرة، لم تتحقق لهن النجاة. سليمان وألمينا، والسلطان، وعبيد في الجزائر، وألف ليلة وليلة، ورواية ماريا مارتن "تاريخ الأسر والعذاب" تظهر كلها أن الإحسان والفضيلة والذكاء يمكن أن تتغلب على السلطة الظالمة. وهذه القصص نقلت أفكاراً عن الاستبداد والسلطة لجمهور من القراء لم يكن من المحتمل أن يقرأ فولني أو مونتسكيو أو ترنشارد وغوردون. فالنساء في هذه القصص غالباً ما لا يكون لديهن سوى عفافهن يدافعن به عن أنفسهن ضد القوة غير المحدودة لأزواجهن أو لأبائهن أو الدولة.

والدرس المستخلص من هذه الرواية عن العالم المسلم هو أن النساء اللاتي استسلمن للسلطة المستبدة، بأمل الحفاظ على حياتهن بالتضحية بحريتهن، لم يكن ليعشن طويلاً للاستمتاع بالترف الخانع. فالاستسلام للإرادة المستبدة للآخر، سوف

تعنى فى معظم الأحيان، التضحية، ليس بالحرية وحدها، بل وبالحياة ذاتها. هذه النقطة مركزية بالنسبة إلى "قصة إيرين" التى ظهرت فى "رورال ماغازين" فى مايو ١٧٩٦. والقصة تقع أحداثها فى ١٤٥٣ بعد أن استولى الحاكم العثمانى محمد الفاتح على القسطنطينية، التى اختار آخر أباطرتها البيزنطيين أن يموت دفاعاً عن تاجه وعقيدته دون أن يستسلم للمسلمين. وقد أمر المنتصر "بعد أن بهره سحر القوة المطلقة" بإعدام كل الأسرى "باستثناء من يملك الشباب والجمال من الجنسين، الذين أبقى عليهم من أجل الأشياء الكريهة فى قصره". وقد نجحت أسيرة واحدة، وهى إيرين، الفتاة اليونانية ذات السبعة عشر عاماً، فى تذويب "قلبه القاسى"، وأهمل محمد جيشه ليقضى كل وقته معها. وهذا يتوازى مع الأحداث فى مسرحية بيكرستاف "السلطان" لكن قصة "إيرين" أكثر تمثيلاً لهذا النوع وليست ملهاة. إيرين لا تستطيع السيطرة على محمد، لكنها تصبح، فقط، هدفاً لشهوته.

وفى الوقت ذاته فالجيش المتعطل لم يعد لديه الانضباط الحديدى الذى فرضه محمد ولا منفذ لعدوانيته. ويتهامس الجنود المتذمرون بأن "العاطفة المسيطرة" على سلطانهم لم تعد الحرب، ويلمّحون إلى التمرد. ويحذر مصطفى المساعد المخلص لمحمد قائده. وبعد قضاء "ليلة رقيقة" مع إيرين فإن محمد يصدر التعليمات لخادوماتها بأن يلبسنها ويزينها بأجمل ما يستطعن وبأن يصفن "إذا كان هذا ممكناً، وهجاً جديداً لجمالها". وتصبح شيئاً جميلاً، لا شريكة فى السلطة، بل شيئاً مرغوباً. وعندما تكون مستعدة يمشى بها محمد أمام الجيش الذى جمعه، فى عرض علنى غير معتاد، ويرفع خمارها حتى يعجب بها الجميع. ويسأل إن كان أى منهم سبق له أن رأى "مثل هذا الجمال البالغ". ويهنئه المتملقون الذين اجتمعوا حوله "على حظه الطيب" مستمتعين بهذه النظرة المشاع والخاطفة لامرأة مرغوبة.

وبينما كان الجميع لا يزالون يبدون إعجابهم بها، يأخذ محمد شعر إيرين بإحدى يديه، ويرفع السيف بالأخرى ويقطع به رأسها. ويهتف فى الجمع المرتعد "هذا السيف يستطيع أن يمزق، وقتما أشاء، أواصر الحب"^(٣٨).

ولا يصعب على أعضاء البلاط فهم الدرس المخيف. فكل واحد منهم "اعتقد أنه رأى هذا السلاح القاتل يهتز فوق رأسه هو" وهذا الخوف مبرر فمحمد "ارتضت قسوته" أن يقتل معظمهم، بداية بمصطفى الذي تم خنقه في السراي. وتبين سلطة محمد المطلقة على رعاياه، وقدرته ليس فقط على قطع أواصر الحب بل وعنق المحبوبة، نتائج الخضوع لهذا النوع من الطغيان. لقد فعلت إيرين ما لم تكن لتفعله زافيرا وروكسالانا وماريا مارتن وشهرزاد: فمقابل الملابس الضخمة والتدله من قبل الجمهور، قبلت بتسلط محمد غير المحدود عليها. تخلت عن فضيلتها مقابل مملكة. فالنساء الأمريكيات اللاتي جئن حسب عبارة سوزانا روسون من أرض تكون فيها "الفضيلة العلامة الوحيدة على التفوق" نساء مثل ماريا مارتن وروكسالانا وريبيكا ونظيراتهن زافيرا وفتنة وشهرزاد يعرفن أنه ما من مملكة على الأرض تستحق كل هذا.

الفصل الرابع

الرق الأمريكى والعالم المسلم

أثار العالم المسلم بما فيه من طغيان سياسى ودينى وجنسى اهتماماً عميقاً لدى الأمريكيين، الذين استبد بهم خوف بالغ من أن تتجذر المؤسسات القمعية فى عالمهم الجديد. فالاستبداد يحدث، لأن الناس يسمحون له بأن يحدث، هذا ما عرفه الأمريكيون. وقد كان الأمريكيون مصممين على أن لا يقعوا فى الخطأ الذى وقع فيه غيرهم وقد كان بوسعهم أن يهنتوا أنفسهم لأنهم حالوا دون نشوء الاستبداد السياسى، وكانوا مصممين على كبح التعصب الدينى، وعلى الحد من الاستعباد الجنسى. ويتجنب هذه المصائد، بدا أن الأمريكيين تجنبوا المصير الذى عاناه كثيرون ممن استسلموا، بلا مبالاة، لواحد أو لغيره من أشكال الطغيان. لكن الاحتفال لم يكن ليوم، فعلى الرغم من أن الأمريكيين تجنبوا نوعاً من أنواع الطغيان، فقد اعتنقوا غيره، بوضوح. وعندما أسرت الجزائر السفن فى ١٧٨٥ و١٧٩٣ واحتفظت بنحو ١٢٠ بحاراً باعتبارهم "عبيداً"، أغضب الأمريكيين هذا النوع من القرصنة والخروج على القانون الدولى. لكن هذه الغضبة للأخلاق، مثل الاحتفال بالقيم المدنية، لم تكن لتبقى بعد نظرة فاحصة إلى المجتمع الأمريكى. كيف يمكن للأمريكيين أن يدينوا الجزائريين الذى استعبدوا الأمريكيين فيما كان الأمريكيون أنفسهم يشتغلون باستعباد الأفارقة؟ إذا كانت عبودية الأمريكيين البيض خطأ، فهل كانت صواباً بالنسبة للأفارقة السود؟ هل هرب الأمريكيون، حقاً، من الطغيان؟ هل تجنبوا الأخطاء التى ارتكبتها شعوب أخرى، إذا كانوا حظروا أشكال القمع باستثناء هذا الشكل الذى يبدو للكثير أنه الأكثر قسوة؟

وقف توماس جيفرسون موقفًا صلبًا من دول البربر، بشكل متسق. لكن أفكاره عن العبودية يصعب تحديدها، ربما لأنه هو ذاته وجد مشاكل كثيرة في معالجة القضية. لقد قضى وقتًا طويلاً، في فرنسا، في الإشراف على نشر كتابه الوحيد "ملاحظات على ولاية فيرجينيا". كان مترددًا في نشره خوفًا من أن يغضب الأمريكيون، في أرض الوطن، وبخاصة من أهل الولايات الجنوبية، من وجهة نظره الصريحة حول العبودية "كل المعاملات بين السيد والعبد هي ممارسة أذلية للأهواء العاصفة، بأقصى درجة، عبودية لا ترحم، من ناحية، واستسلام مهين من الناحية الأخرى". هذا وصف للعلاقة بين العبد والسيد في الولايات المتحدة، وأيضًا، للعلاقة التي تقوم في ظل النظم الاستبدادية، بين الحاكم والمحكوم. وكان جيفرسون يرى أن العبودية جاءت إلى أمريكا بالطغيان الذي قاد الثورة ضده، وأن العبودية تهدد بتدمير المجتمع الحر الذي ساعد على خلقه. فالنظام العبودي شوه شخصيتي السيد والعبد، إلى درجة أن الإنسان الذي ينجو من أن يناله أثر منه يكون أعجوبة، كما كتب جيفرسون.

وكان يتساءل: "أى نوع من رجال الدولة ذلك الذى يمكن أن يسمح لنصف المواطنين بأن يدوسوا بأقدامهم، على هذا النحو، حقوق النصف الآخر" وأى نوع من الجمهورية ذلك الذى يجعل نصف الشعب طواغيت، والنصف الآخر أعداء لهم؟ إنه، حقا، نظام مشوه وخطير، نظام كان جيفرسون فى ١٧٨٢ يعتقد أنه لا يمكن له أن يبقى. "أرتعد خوفاً على بلادى، بالفعل، عندما أفكر فى عدالة الرب: فى أن عدالته لن تنام إلى الأبد" هكذا كتب جيفرسون.

واعتقد جون آدمز، الذى أعطاه جيفرسون واحدة من أول مائتى نسخة من الكتاب، أن الفقرات حول العبودية كانت "فى قيمة اللآلى". لكن جيفرسون ظل قلقاً، بسبب ما يمكن أن يحدث عندما يمل نصف النوع البشرى من دوسهم بأقدام النصف الآخر، كما كان قلقاً بسبب ما يمكن أن يظنه به أصدقائه فى أمريكا لنشره هذه الحقائق غير السارة، رغم أنها واضحة بذاتها.

وحاول تشارلز طومسون، أمين الكونغرس، أن يشجع جيفرسون. فلربما كانت آراء جيفرسون الصحيحة عن العبودية مزعجة بالنسبة لأهل وطنه، ولكن كان هذا هو ما يحتاجون سماعه، بالضبط. لقد قدم خدمة لبلاده عندما أفصح عما يدور بعقله. وإن لم يستطع الدين أو المنطق أو الفلسفة إقناع الأمريكيين بضرورة إلغاء العبودية فالعنف، برأى طومسون، يستطيع ذلك. وإن لم يستطع الأمريكيون أن يتصرفوا، لصالحهم هم، وأن يلغوا العبودية بطريقة سليمة، فسوف يتصرف العبيد بأنفسهم، بعد حين، بعنف دفاعاً عن مصالحهم. ولم يكن جيفرسون أو طومسون القريبان من مراكز السلطة الأمريكية، يظنان أن الزعماء الأمريكيين الذين يعرفانهم معرفة جيدة يمكن أن يقدموا على هذا العمل البعيد النظر. وكتب طومسون: "أعترف بأننى أشد خوفاً من هذا الأمر أكثر من خوفاً من القرصنة الجزائرية.. التى نسمع عنها كثيراً هذه الأيام"^(١).

وكانت ابنة جيفرسون المراهقة مارتا التى تقيم فى دير باريس تعلم مدى قلق أبيها حول هاتين القضيتين، الهجمات الجزائرية على التجارة الأمريكية وعبودية الإفريقيين فى أمريكا. وفى أثناء أسفارها فى جنوب فرنسا فى ربيع ١٧٨٧ كانت تكتب له بانتظام، محاولة أن تبقى على علم بالأحداث العامة، لعلها بمدى اهتمامه بهذه الأمور، ولكن دون أن تعلم أن شبكة المراسلين لديه تقدم له معرفة بأحداث العالم أفضل مما يمكن أن تفعله فتاة فى السادسة عشرة تعيش فى دير. أخبرته بأن ألمانيا وروسيا والبندقية شنت الحرب على تركيا وأن إسبانيا تعاني من الطاعون. وهذه الأحداث البعيدة، كما تعلم هى، تعنى الكثير له، لكنها كانت قليلة المغزى لديها، ولهذا فلم تعالجها إلا على نحو موجز. ولكنها عندما كانت تجد موضوعاً يؤثر فيها، كانت تتوقف عنده. وقد أثارت اهتمام مارتا قصة معركة بحرية، لم تحدث قط فى حدود ما يمكن البرهنة عليه. "التقت سفينة من فيرجينيا قادمة إلى إسبانيا مع قرصان (جزائري) بنفس القوة "هكذا كتبت" تقاتلا، واستمرت المعركة ساعة وربع الساعة. وانتصر الأمريكيون واعتلوا سفينة القرصان حيث وجدوا الأغلال التى جهزت من أجلهم، فأخذوها واستخدموها مع الجزائريين أنفسهم". وأدركت مارتا السخرية فى تطور الأحداث هذه. ولكن بدلاً من أن تغتبط بانتصار الأمريكيين، رأت فى الأمر مأساة مركبة.

"عادوا إلى فيرجينيا على أن يذهبوا منها إلى الجزائر لاستبدال المسجونين، فإذا رفض الجزائريون فإن هذه المخلوقات التعيسة ستباع كرقيق". فالجزائريون، وهم الأعداء المصممون على استعباد الأمريكيين، هم الآن المخلوقات التعيسة، التي تستحق الشفقة التي كان يمكن أن تستهدف الأمريكيين. لكن مارتا مضت بهذا الاهتمام إلى ما هو أبعد بخطوة. كان يمكن أن يستعبد الفيرجينيون الجزائريين، لكنها تتساءل: "يا إلهي الرحيم، أليس عندنا ما يكفي؟ أتمنى من كل قلبي لو أن الزوج البؤساء يتحررون جميعاً. إنه لما يحزن قلبي أن أفكر في أن إخواننا في الإنسانية هؤلاء يجب أن يعاملوا على هذا النحو الفظيع الذي يعاملهم به كثير من أهل بلادنا". لقد أفزعت قصة المعركة البحرية هذه مارتا جيفرسون، وهي المعركة التي لم يرد لها ذكر في أى موضع آخر. لكن خطر العبودية لم يجعلها غاضبة من اللإنسانية في الجزائر أو في بيوت الحريم في العالم المسلم، لكنها ذكرت بها بفظائع العبودية في أمريكا، بدلاً من ذلك. ولا نستطيع أن نعرف كيف فكر أبوها، لأنه لم يذكر هذه الحكاية، قط، ولا تعليق مارتا عليها، عندما كتب يرد عليها. كما أنه لم يذكرها لأحد آخر.

ظل شبح العبودية الأمريكية معلقاً فوق اللقاء بين الأمريكيين والجزائريين. وقد روت قصيدة في ١٧٩٧ بعنوان "الأمريكي في الجزائر، أو وطني ٧٦ في الأسر" قصتين. فالأنشودة الأولى هي قصة أمريكي أبيض ممن حاربوا في بنكرهيل، وقد أجبرته الظروف (سرق "بعض الأشرار المتهورين الذين خلت أرواحهم من الشعور" إرثه، وكما جرى لغيره من المحاربين القدماء من الجيش الثوري، فالصكوك التي حصل عليها كراتب صارت الآن تساوى "بالكاد عشر" قيمتها) على أن يتجه إلى العمل البحري. وقد حرمت المشاكل الاقتصادية في ثمانينيات القرن الثامن عشر هذا الرجل وغيره من الأمن الذي حارب من أجل تحقيقه. لكن متاعبه لا تزال في بدايتها. يخطف قرصان جزائري سفينته، وينتظر هذا المحارب الأمريكي القديم في أحد سجون الجزائر أن تخلصه بلاده. وتستنهض قصته الجمهور الأمريكي الذي ينعم بالحرية ناسياً أولئك الذين حاربوا وقاسوا لتحقيقها.

وينتقل النشيد الثانى باهتمام القارئ بعيداً "عن ساحل القرصنة هذا الذى تحكمه العبودية / حيث يحمل أبطال الحرية أغلال الاستبداد"، وبدلاً من النظر إلى بشاعات "ساحل القرصنة" فإن الشاعر يريد من جمهوره أن "يستدير إلى كولومبيا - عبر الأمواج الغربية، وانظر إمبراطوريتها الواسعة الانتشار تحفل بالعبيد"، فوصف بشاعات العبودية فى الجزائر مثل ذلك الذى تجده فى النشيد الأول، كان أمراً شائعاً. لكن هذا النشيد يحكى حكاية مخيفة بدرجة أشد، عن محارب قديم من بنكرهيل سلبت حريته واستعبده أناس يزعمون أن الناس خلقوا جميعاً متساوين. وهذا المتحدث هو أمريكى أسود حارب من أجل الاستقلال، وهو الآن عبد للناس الذين حارب من أجل حريتهم. فالجزائريون لم يعلنوا، قط، أن الناس خلقوا جميعاً متساوين: لكن الأمريكيين فعلوا. ويقول المتحدث: "وفقاً لإعلانكم أنتم فنحن أحرار" وطلب من الأمريكيين أن يكفوا عن التباهى بحريتهم وأن "ينظروا إلى مطابخهم ليدركوا عارهم / وليكفوا عن إيذاء أسماعنا باسم الحرية..". هذا "الشاعر الأسود" أفزعه أنه حتى أبطال الحرية، أمثال جورج واشنطن، يملكون العبيد، وهو ما يعد تسفيها لادعاءات الأمريكيين حول الحرية والأخلاق^(٢). يلوم النشيد الأول الأمريكيين لإهمالهم الرجال الذين كسبوا معركة الحرية لصالحهم، والثانى يدين الأمريكيين لإهمال الحرية ذاتها، تلك التى حارب هؤلاء الرجال لتحقيقها.

وقد نشرت رورال ماغازين أو فيرمونت ريبوزترى نسخة من الحياة الواقعية من "وطنى ٧٦" خلال المناظرة حول الأسرى الأمريكيين فى مارس ١٧٩٥. وكانت الصحف، آنذاك، مليئة بقصص أسرى أمريكيين فى الجزائر، قصة حقيقية تشبه، إلى حد بعيد تلك التى رواها "وطنى ٧٦" الأول. وأعادت رورال ماغازين نشر واحدة منها، تحت عنوان "لعنات العبودية". وكان جون بيرنهام الذى كانت هذه هى قصته، قد عاد قبل وقت قصير إلى وطنه من الأسر فى الجزائر، ولكن إلى جوار قصة بيرنهام أعاد المحررون نشر قصة أسر أخرى، قصة كاطو مونغو، الأمير الإفريقى الذى عاد قبل وقت قصير إلى ويدا، وهو ميناء فى غرب إفريقيا، بعد طول استعباد فى أمريكا. وجعلت قصة المعاناة التى مر بها كاطو مونغو فى أمريكا قصة بيرنهام تبدو قليلة الخطر، لأنه قدم

"رواية طويلة ومحزنة للمعاملة التي يلقاها الإفريقيون التعساء في أرض القسوة تلك". وفيما كان الأمريكيون يناقشون كيفية التخفيف من آلام الأمريكيين "المستعبدين" في الجزائر، اقترح كاطو مونغو على الإفريقيين أن يتخذوا "تدابير ما" لتخليص "من يمكن تخليصهم من إخواننا الذين تساعدنا قوتنا على إعادتهم إلى أسرهم والمرتبطين بهم". وكرر وهو يمتلىء بالفزع أن "عديدين من الأسيرة المالكة في هذه المملكة" هم الآن "يقومون بأعمال مهنية في مطابخ الولايات المتحدة!!!"^(٤).

وأعادت رورال ماغازين، أيضاً، نشر قصة مويو، الرجل الأسود الحر الذي يعيش في كونيكتيكت الذي ساعد كاطو مونغو على الهرب إلى ماساشوسيس، حيث كانت العبودية قد ألغيت. ورغم أن العبيد في كونيكتيكت كانوا يعاملون أفضل مما يعاملون في الولايات الأخرى فقد كانت معاملتهم سيئة، كما قال مويو. وكان المجلس التشريعي في كونيكتيكت قد سمح مؤخراً "للأثنية" بكبح ميوله للخير، فرفض مشروع قرار بإلغاء العبودية. فالمجلس "لم يعتبر أن من حقه نزع ملكية الأفراد"، وهكذا فقد رفض منح الحرية لأفراد آخرين. ورغم أن المجلس تنازل عندئذ عن أرض هي ملكية عامة قيمتها مليون دولار. "فأرواحهم لم تكن كريمة بما يكفي" لتحرير العبيد الأفارقة. لكن مويو عاد بموضوع العبودية إلى الجزائر، معتبراً أن الأسر في الجزائر والعبودية في أمريكا عرضان للامبالاة الأخلاقية في أمريكا. فالعبيد في أمريكا لا يحق لهم أن يشكوا، كما قال مويو، ما دام هناك أمريكيون "مستعبدين الآن في المملكة الجزائرية ولا يجد أبناء وطنهم في أنفسهم ما يكفي من الكرم" لأن يخلصوهم. لقد كان الأسر في الجزائر عقاباً للأمريكيين على قبولهم بالعبودية في أمريكا.

وقد أصدر ماثيو كاري، وهو أحد أبرز الناشرين في الجمهورية الجديدة "تقريراً موجزاً عن الجزائر" في ١٧٩٤، مستفيداً من الاهتمام بالمملكة الشمال إفريقية، عندما كانت الولايات المتحدة تدرس الرد على الهجمات الجزائرية على السفن الأمريكية. وقد أدان كاري الجزائريين على أخذهم رهائن أمريكيين وبيعهم كعبيد، لكنه أشار إلى "أننا في مسألة بيع وشرء العبيد لا يحق لنا أن نتهم الجزائريين بأنهم ينفرون بالبربرية،

على أى نحو كان" وقد أزعج وليم إيتون الذى وصل فى ١٧٩٧ إلى تونس قنصلاً أمريكياً أن يرى الأوروبيين وقد استعبدهم التونسيون.

وكتب فى يومياته مستعيراً عبارة لورانس سيترن فى "الرحلة العاطفية": "أيتها العبودية، أنت ابنة المرارة. ولو توفرت لإيتون القوة "لصب انتقامه فى لحظة مظلمة على المدافعين (عن العبودية) بأسخن من الغضب الأزرق للعنة المشيخية - ولكن إنتظرا! يا للحسرة، كم من أبناء وطنى من سيشملهم هذا الدمار الهائل" لم يكن بوسعهم أن يدين تونس دون أن يدين أمريكا. "بلاد البربر هى الجحيم - وهكذا هى أمريكا، للأسف، بالكامل جنوبى بنسلفانيا، فهناك القمع والعبودية والتعاسة". لم يكن بوسع إيتون، الممثل الرسمى للولايات المتحدة، أن يتجاهل لا أخلاقية بلاده. وقد كتب إلى زوجته "نحن نتباهى بحريتنا وبعملنا الوطنى. كم مرة رأيت، فى الولايات الجنوبية من بلادى، أمهات باكيات يقدن أطفالهن الأبرياء إلى حيث يباعون، بعذاب عميق كما لو أنهم يقدنهم إلى الذبح، ورغم ذلك كان صدرى هادئاً إزاء هذه الاعتداءات على الإنسانية العزلاء" وقد انزعج إيتون لمحدودية إنسانيته هو، ولعن إزواجية معاييرها التى جعلته يلعن التونسيين لاستعبادهم الأوروبيين رغم أن "العبيد المسيحيين لدى برارة إفريقيا يعاملون بإنسانية تفوق ما يلقاه العبيد الأفارقة من معتنقى المسيحية فى أمريكا المتحضرة، فالمشاعر تتأذى لدرجة النزف إزاء تعاسات أولئك الذين قضت عليهم الأقدار بالعبودية هنا". وقد أزعج إيتون عجزه عن التأثر لاستعباد الأفارقة فى أمريكا بقدر ما تأثر لاستعباد البيض فى إفريقيا^(٥).

وقد ألف رويول تيلر، وهو كاتب ومحام من نيو إنغلند كان على وشك الزواج من ابنة جون وأبيغيل أدامز، الرواية الأكثر عمقاً عن التجربة الأمريكية فى الجزائر "أسير الجزائرية أو حياة ومغامرات الدكتور أبدايك أندرهيل، الذى قضى ست سنوات أسير الجزائرية (١٧٩٧). وتبدأ الرواية بالسخرية من مجتمع نيو إنغلند، الذى يعجز الطبيب ذو التعليم الكلاسيكى أبدايك أندرهيل، عن أن يجد لنفسه مكاناً آمناً فيه. فينتجه إلى البحر ثم ينتهى به الأمر طبيباً على سفينة بريطانية تعمل بالرقيق. ويختار الدكتور

أندرهيل البحث عن الثروة لا مراعاة الأخلاق. وتقتل ظروف البحر السيئة والأمراض حمولة السفينة من البشر، وأخيراً يقنع أندرهيل قبطان السفينة بالرسو على الساحل الإفريقي حتى يتمكن من إقامة مستشفى للأسرى المهددين بالموت. وعلى الشاطئ ظل يطيب الأسرى السود حتى استعادوا صحتهم. ويبقى على الشاطئ مع خمس من السود الذين يتعافون عندما تسوق سفينة قراصنة جزائرية سفينة العبيد، بعيداً. ويهرب أربعة من الأسرى، باحثين عن طريق للعودة إلى وطنهم. ويأسر الجزائريون أندرهيل والأسير الباقي، فيتخذ الجزائريون من الأسود بحاراً ويحبسون أندرهيل فى بطن السفينة. ولا يجد أندرهيل ما يأكله إلا ما يستطيع أسيره السابق أن يسرقه له من فترات. ويؤثر هذا الإحسان على ضمير أندرهيل. وينتهي المجلد الأول وأندرهيل يعد بأنه إذا أتيح له أن يعود إلى أمريكا فسوف "يطير إلى الإخوة المواطنين فى الولايات الجنوبية" ليركع أمامهم "راجياً إياهم، باسم الإنسانية" أن يوقفوا تجارة العبيد. وإن لم يتأثروا باسم الإنسانية "فسوف أناشدهم من أجل الاتساق مع الذات، أن يتوقفوا عن حرمان إخوانهم فى الإنسانية من تلك الحرية التى أعلن كتبهم وخطبائهم وممثلوهم وشيوخهم بل وديساتيرهم أنها حق بالملاد، غير قابل للتصرف، للإنسان" ومن الواضح أن أندرهيل ينسى هذا الإعلان الصريح بمجرد أن يفرج عنه الجزائريون فى ١٧٩٥. وينتهي المجلد الثانى من الكتاب بعودة أندرهيل إلى أمريكا ليحضر إخوته المواطنين على حماية وحدتهم، وعلى أن يتذكروا أننا "بالوحدة ننهض، وبالفرة نسقط"^(٦).

ومثل معظم الأمريكيين يختار أندرهيل الوحدة على حساب الحرية. وتبقى فكرة الاختيار مركزية فى رواية تيلر. وقد صب ناقد معاصر جام غضبه على الكتاب بسبب فصل واحد يتجادل فيه أندرهيل مع أحد الملالي حول الدين. فالملا وهو يونانى اعتنق الإسلام يقول لأندرهيل إن مسيحيتة هى نتيجة للمولد والعادة، وليس للاختيار. ولو أن أندرهيل ولد فى الهند، لكان هندوسياً، ولكن لأنه ولد فى نيو إنغلند فهو مسيحى. واعتقد الناقد، وهو بدوره مسيحى من نيو إنغلند أن هذا الفصل يستحق "اللوم الأكثر حدة" وأن تايلى "تعتمد على هذا النحو أن يعطى الملا أقوى الحجج، حتى يبدو تمسك أبدأيك بالمسيحية نتيجة للعناء أكثر منه نتيجة للاقتناع"^(٧).

والحجة الأكثر إقناعاً عند الملا هي أن المسلمين "لم يجبروا أحداً، حتى الآن، على اعتناق دينهم" لكنهم قبلوا كل من فعل ذلك، باعتباره أخاً لهم. وقال الملا لآندرهيل إن الإسلام حرر كل عبد تحول إليه لأن "أرواح كل المؤمنين يلفها ثوب واحد عطر هو الحب الأبدي. نحن نترك لمسيحي الهند الغربية، وللمسيحيين في مزارعكم الجنوبية، مهمة تعميد التعساء من الأفارقة ليدخلوا دينكم، وبعدها تستخدمون إخوانكم في المسيحية استخدامكم للبهائم". يضع تيلر هذه الحجة على لسان شيخ مسلم، سامحاً بذلك للمدافع عن دين كان أمريكيون كثيرون يعتقدون أنه دين زائف، دين خال من القداسة ومن الإنسانية معاً، أن يحاضر الأمريكيين حول واجبهم الأخلاقي. ولم يستطع آندرهيل إلا أن يقر بأن الشيخ كان على صواب^(٨).

ولا يستطيع الأمريكيون أن ينظروا إلى العالم المسلم نظرة تدقيق دون أن يروا انعكاساً يثير الاضطراب. وقد قالت رواية أخرى تولدت عن لقاء الأمريكيين بالإسلام إننا "مع غياب الوعي عندنا بجرائمنا، أو مع عدم استعدادنا لأن نعرفها العالم، فكثيراً ما ندين الآخرين بتهمة ارتكاب الممارسات التي نمتدح أنفسنا عند ارتكابها، والتي نتمنى أن تقبل باعتبارها نماذج للاستقامة، أو نصدر حكم الإدانة، وقد أعمانا التحيز، على مسلك الآخرين الأقل جرماً منا" هذه الرواية التي صدرت في ١٨٠١ بعنوان "الإنسانية في الجزائر أو قصة عازم" تروى على لسان أسير أمريكي في الجزائر تحرر بفضل الوصية الخيرة التي تركها عازم، التاجر الذي تكرم بأن أوصى بتحرير رقبة كل عام. وقد أثبت هذا الإحسان من جانب عازم وجود إنسانية في الجزائر، كما يقول العنوان الذي يبدو أنه متناقض مع نفسه. وقد كان عازم رجلاً أسود من السنغال، وقد أصبح عبداً في الجزائر، لكن سيده العارف بفضله أعتقه فأسس مشروعاً تجارياً. ولم يكن ليحصل على هذه الفرصة في أمريكا لو أن الصدفة جعلته يستعبد هناك وليس في الجزائر.

"الإنسانية في الجزائر" هي رواية مناهضة للعبودية، لا تستهدف وحشية دول البربر بل تستهدف لا إنسانية الولايات المتحدة. فالجزائريون الذين حولوا ١٢٠ بحارا

أمريكا إلى رهائن، كانوا، فى الحقيقة، يردون علينا "مقابل وحشية مماثلة". لقد كان من الضرورى أن ينظر الأمريكيون إلى أنفسهم بأمانة وأن يعترفوا بخطيئة العبودية فى أرض مسيحية جمهورية. وقد أعلن المؤلف أننا "وقد تعلمنا منذ الطفولة أن نفكر هكذا، أصبح من الصعب علينا أن نتصور أن محمديا يمكن أن يكون له قلب يشعر، أو أن يكون قادراً على الإحسان. لكن قصة عازم "التي يمكن الوثوق بصدقيتها" أثبتت وجود "إنسانية فى الجزائر". وهذا يعنى ضمناً عدم وجود إنسانية فى أمريكا، فالأمريكي المسيحي الأبيض مدين بحريته للإفريقي المسلم الأسود^(٩).

والى جانب إدانة العبودية فقد قدمت "الإنسانية فى الجزائر" للأمريكيين خياراً لإنقاذ أرواحهم وأمتهم. لقد اختار عمرى، سيد عازم، عمل الخير عندما أعتق عازم بعد أن منع الإفريقي المخلص عربيا شهوانيا من اغتصاب ابنته نارينا. لكن فلاكوس الذى يملك الزنيا شقيقة عازم "ممتلئ بالشعور بالأهمية الذى غالباً ما يصيب محدثى النعمة" وهو يرفض التخلي عن "ما يبدو أن أهواءه تمليه عليه أو أن إرادته تقرره" إذ إنه يشتهى الزنيا الجميلة لنفسه. ويجعله "الاستقلال الذى صنعتة الثروة" يصم أذنيه عن نداء الشفقة ونداء العقل، معاً. ولا يتبين لفلاكوس إثمه إلا عندما يصيبه الطاعون فيخشى أن يحرمة طمعه من دخول الجنة. والأمريكيون أيضاً فى موقف الاختيار. فإما أن يقلدوا عمرى، الذى دفعه العرفان وحب الخير إلى أن يعتق خادمه المخلص ويثبته فى التجارة، ليس من باب الإحسان ولكن على أساس اقتصادى متين، لأن عازم حاذق وناجح. ويواصل نجل عمرى عمل الخير الذى بدأه عازم بعد وفاة الأخير بالطاعون. ويختار هذا الابن الناجح لأحد التجار العمل الخيرى، فيفتدى الأسرى، مفضلاً ذلك على جمع المال. ويعمل على إلغاء الرق. أو أن يقلد الأمريكيون فلاكوس، الذى تحركه الرغبة فى الثروة والنفوذ ويموت بالطاعون. هذا تحذير وجهه الكاتب للقراء الأمريكيين. فالقبول بالعبودية يعد بالثروة الدنيوية، لكن العمل على تحرير العبيد هو وحده الذى يعد بالخلاص.

وكما فى كتاب تيلر "أسير الجزائرية" فالإسلام، وليست المسيحية، هو الطريق إلى الخلاص. وبالنسبة للأمريكيين المسيحيين الواثقين من تفوقهم الخلقى، كان هذا درساً صادمًا تعلموه. ولكن ما دام بعض الأمريكيين المسيحيين يملكون العبيد والآخرين تقبلوا منهم هذا الإثم فلا يحق لأى أمريكى أن يعظ الآخرين من موقع رضا النفس عن فضائلها. وبالأحرى فقد ترك أحد المسلمين الجزائريين فى نهاية "الإنسانية فى الجزائر" ليعظ الأمريكيين وبقية العالم. ويدعو عمرى أن يشرق نور الإسلام عبر العالم كله، وأن يتذكر كل ملاك العبيد، فى كل مكان ذلك المفهوم القرآنى المهم "أيها السادة عاملوا خدمكم برفق". وأهم من ذلك الكلمات المقدسة "من دم واحد خلقت كل الأمم التى تدب على سطح الأرض" (١٠).

هذه الرواية التى كانت تباع فى شمال ولاية نيويورك وفى غرب فيرمونت (المنطقتان محافظتان ويقل فيهما غير البيض وغير المسيحيين، بخاصة فى ذلك الوقت - المترجم) تعد تذكرة، لا تخلو من حدة، للأمريكيين بأن لديهم القدرة على خلق العالم من جديد، ولكن يتعين عليهم ألا يتسرعوا فى تهنئة أنفسهم، قبل الآوان، على نجاحهم فى ذلك. فالرواية عمل تأملى فى فكرة الاختيار، وهى نقطة يبرزها ما يمكن أن يكون خطأ فى البداية. فالمؤلف الذى يزعم أنه كان أحد ركاب سفينة ريتشارد أوبرايان، يقول إنه أقلع مع أوبرايان فى ١٠ مايو ١٧٨٦. فى ذلك التاريخ كان أوبرايان قد مضى عليه عشرة أشهر أسيراً لدى الجزائريين. وقد استخدم المؤلف اسم أوبرايان ليعطى روايته نكهة الحقيقة.

ولكن على الرغم من أن هذا التاريخ يثبت أن العمل روائى، فإنه يشير إلى أنه أكثر من مجرد حكاية عاطفية. وفى ١٠ مايو ١٧٧٥ اجتمع الكونغرس العمومى الثانى، وكان يجتمع لأول مرة والبلاد فى حالة حرب. لكنهم لم يكونوا قد قرروا بعد الهدف من الحرب. كان معظم الوفود يأملون حل الخلافات فى إطار الإمبراطورية البريطانية. وبعد سنة واحدة، فى ١٠ مايو ١٧٧٦ واجه الموفدون موقفاً متغيراً، وكان معظمهم قد أصبح مستعداً لقبول الاستقلال. فى ذلك التاريخ، دعوا المستعمرات إلى إنشاء حكومات جديدة.

لم يكن ذلك إعلاناً للاستقلال، لكنه كان الخطوة الأكثر أهمية باتجاه الاستقلال، أو كما قال أحد أعضاء الوفود، كانت هذه آلة لتصنيع الاستقلال.

كان ١٠ مايو تاريخاً مهماً، وإن كان قد ترك الاختيار معلقاً في الهواء، بتعبير جيفرسون، الاختيار بين "التسليم والسيف". وقد سمح ١٠ مايو لأهل المستعمرات بأن يكون لهم ٤ يوليو (يوم الاستقلال - المترجم) إذا اختاروا أن يكون لهم. ورحلة الراوى فى "الإنسانية فى الجزائر" هى رحلة رمزية إلى منتصف الطريق، بقدر ما كانت تصرفات أهل المستعمرات فى ١٠ مايو رحلة إلى منتصف الطريق. وبحلول ١٨٠١ كان الاستقلال الأمريكى آمناً. لكن المؤلف أراد للأمريكيين أن يمضوا قدماً، وأن يستقر اختيارهم، بالكامل، على الحرية، ليس لأنفسهم فقط بل للإنسانية كلها. وعلى غرار تيلر، فقد أراد هذا المؤلف أن يلاطف قراءه بأن يجعل مسلماً يحاضرهم عن الأخوة، مثبتاً للأمريكيين أن الناس الذين يعتبرونهم منحطين أخلاقياً كانوا أفضل منهم خلقاً، فى الحقيقة. فهؤلاء المسلمون الخياليون أثبتوا للأمريكيين المسيحيين أن العبودية خطيئة فى أرض الحرية^(١١).

ويمكننا تجاهل هذه الرواية باعتبارها عملاً غير مهم وغامض من مؤلف متعصب. لكن المرء يدهش من عدد الأمريكيين الذين استخلصوا بأنفسهم هذا الدرس المرفى الجزائر. فنتائج الخضوع للطغيان، أو السماح لأى شكل من أشكال الطغيان بأن يضرب جنوره، هى نتائج خطيرة. لقد اعتاد الأمريكيون على أن يروا فى العالم المسلم دروساً لمن قبلوا بالطغيان، وكانت السلطة المستبدة بيد السلطان التركى، والسلطة الفوضوية فى الجزائر، وخراب المدن التى عرفت الازدهار يوماً، فى موريتانيا، فى شمال إفريقيا، فى مصر، فى سوريا وفى العراق نذيراً للأمريكيين بما يمكن أن يحدث لهم. وتنتهى قصة عازم بواحد من أكثر التصريحات إيجابية حول الإسلام فى الأدب الأمريكى المبكر. فقد أشارت "الإنسانية فى الجزائر" إلى أن الإسلام، لا المسيحية، هو الدين الذى منح كل البشر الحرية. وقد كان هناك شىء خاطئ، إما فى المسيحية أو فى أتباعها، سمح للإسلام بأن يتميز على هذا النحو.

هل يحق للأمريكيين حقاً أن يزعموا أنهم مختلفون عن الفاشلين من أهل العالم القديم، إن قبلوا بالعبودية ؟ بوسعهم أن يختاروا أى نوع من الشعوب يريدون أن يكونوا. وقد صور عمل بعنوان "نسخة من رسالة سراق العبيد الإنكليزي في الجزائر لصديقه في إنكلترا" المنشور في نيويورك وساليم في تسعينيات القرن الثامن عشر رجلاً أتيح له أن يختار بين أن يكون عبداً أو سواقاً للعبيد في الجزائر. وطن نفسه على مركز القوة الذي آل إليه، لأن واقع العبيد في الجزائر لم يكن أسوأ كثيراً من واقع البحارة الإنكليز (قال وينستون تشرشل، وكان الأدميرال الأول للبحرية في مطلع القرن العشرين، إن حياة البحار الإنكليزي تدور حول ثلاثة محاور: الكحول واللواط والضرب بالعصا - المترجم) أو حتى واقع الغالبية من الشعب الإنكليزي (في القرن الثامن عشر- المترجم). وكانت هذه فكرة مرعبة، ربما بقدر الرعب من فكرة أن العبودية في أمريكا قد تكون أسوأ من العبودية في الجزائر وأكثر تورطاً في الخطيئة، حيث إن الجزائريين لم يخلطوا عبوديتهم بالنفاق الذي يفسد الخلطة.

وقد كان سواق العبيد الإنكليزي هذا يقود عشرين عبداً "بعضهم إسبان، وبعضهم إنكليز، وبعضهم أمريكيون" وفي البداية كان يصعب عليه ضرب مواطنيه بالسياط. "لكن العادة، كما يقال، طبيعة ثانية" والآن لم يعد يرى في ضرب إنكليزي بالسوط أكثر مما يرى في ضرب الحصان. كان يأمل أن لا يدينه صديقه في إنكلترا، لأنه قبل وظيفة سواق العبيد عند الجزائريين. لكنه، في معرض الدفاع عن نفسه، قال إن "الكفار" في الجزائر ليسوا بأسوأ من المزارعين في جامايكا، الذين كان عندهم من العبيد السود عشرة أضعاف ما عند الجزائريين من البيض. وأكثر من ذلك فالبحارة الإنكليز الأسرى في الجزائر "أحسن حالاً هنا عما كانوا عليه في بلادنا" حيث لم يكونوا إلا عبيداً. وذكر أصدقاءه بأنهم انبهروا بالخدمة في سفينة حربية فانضموا إليها. وتذكر سقوط أحد الرفاق من فوق القلع على الكلب المدلل لعشيقه القبطان. وجلد الرجل الجريح لأنه سقط في مكان غير مناسب. وبالمقارنة إلى الطريقة التي يعامل بها الإنكليز العبيد السود والبحارة العاديين، فإن الأسرى في الجزائر يعاملون معاملة رحيمة.

لقد كان الأسرى فى الجزائر يجبرون على العمل، أما فى بلادنا فبوسعهم أن يعملوا أو يموتوا جوعاً. ويعلق هذا الخطاب، بحدة، على المجتمع الإنكليزى ويطلب من القارئ أن ينظر فى أحوال مجتمعه قبل أن يدين غيره. هل يمكن لبحار أمريكى أن يختار أن يصبح سواق عبيد فى الجزائر، وأن يجلد بالسوط البحارة الأمريكين كما يجلد حصاناً؟ ما دام الأمريكيون يحتفظون فى بلادهم بالعبيد أو يعامل أحدهم الآخر باعتباره أقل آدمية، فقد كانت هذه إمكانية حقيقية^(١٢).

ومع ظهور نظام حزبى أمريكى فى مطالع التسعينيات من القرن الثامن عشر. ومع قيام أهل فيرجينيا بأوار نشيطة فى مساندة الأفكار التى روجت لها الثورة الفرنسية عن المساواة بين كل البشر والديمقراطية، وفى شجب الاتحاديين الذين كان كثيرون منهم من نيوانغلند لأنهم اعتنقوا مبادئ التراتبية والاستقرار الاجتماعى، فقد رد بعض أهل نيو إنغلند، باستخدام المجاز الجزائرى لتقريع أهل فرجينيا الذين يقتنون العبيد لأنهم يدعون لأفكار لا يمارسونها وأعادت بعض الصحف فى نيو إنغلند نشر "الهجائية الأجر بالإعجاب عن العقائد الديمقراطية والممارسات الاستبدادية للديماغوغيين الجنوبيين المتبجحين فى ظهرانينا" الذين يبشرون "بالمساواة بين البشر" فى الكونغرس فيما هم يمارسون "بربرية القراصنة" فى مزارعهم، وكان النشر تحت عنوان "العقيدة ضد الممارسة". وقد كانت هذه الهجائية تدور حول إعلان عن عبد أبى، مع وعد بمكافأة لمن يعيد "العبد الأمريكى"، وهو "شريد جاحد" و"كافر لا صلاح له" لم يتيسر دفعه بالإقناع أو بالعقاب أو بالتهذيب إلى التخلّى عن "أخطائه المسيحية" وبدلاً من ذلك فقد هرب مستخدماً وثيقة "مستعارة" بأنه عتيق. فالعبد الذى تحرر كان بوسعه، بعد أن يحصل على مثل هذه الوثيقة، أن يقرضها لعبد آخر، وباستخدام هذا "النوع المخترع حديثاً من السرقة" أمكن تحرير نصف العبيد فى الجزائر.

والمحرون الذين غشوا ملاكهم القانونيين بهذه الطريقة يمكن أن يعتبروا اقتسام الوثائق فيما بينهم، على هذا النحو "عملاً خيراً". فإى فكرة غريبة وسخيفة هى فكرة المسيحيين عن عمل الخير^(١٣). وهكذا فإن الفيرجينيين الذين يدينون بالحرية وما زالوا

يمكنون العبيد، كانوا أشد نفاقاً من أهل نيو إنغلند، الذين لا يصدرن تصريحات عن المساواة لكنهم لا يملكون عبيداً. وقد كان بوسع مويو الرجل الذى ينتمى لولاية كونيتيكت والذى ظهرت قصته مع قصة كاطو مونغو فى رورال ماغازين أن يوضح أن كل الأمريكيين متورطون فى النظام العبودى، وأن الموقع الجغرافى لا يضمن لأحد الاستقامة الخلقية.

وقد استخدمت مسرحية فى ١٨١٢ أجواء نول البربر لشجب العبودية ولتمييز نيو إنغلند عن بقية الولايات التى تقبل بالرق. وفى مسرحية جيمس إليسون "الأسير الأمريكى أو محاصرة طرابلس الغرب" يقول البحار الأسير جاك بيناكل للمشرف حسن إن أمريكا "مكان ساحر، يا سيادة المشرف، ليست فيها عبودية! كلهم يولدون أحراراً" ويرد حسن "ليست فيها عبودية إذن؟ اذهب إلى حيث ينحنى الطريق إلى السنغال واسأل الأمهات البائسات عن أزواجهن وأبنائهن! فكيف سيكون ردهن؟ كتبت عليهم العبودية، وفى بلدك الذى تتبجح به أيضاً! وفى هذه اللحظة يدخل الشخص الأسود الوحيد فى المسرحية، وهو جوبا طباخ السفينة ويؤكد لحسن أنه فى ماساشوسيتس "نحن السادة السود كلنا أحرار!"^(١٤). وقد حاولت "الأسير الأمريكى" ما حاولته "العقيدة ضد الممارسة" بتمييز نيو إنغلند عن الولايات التى تطبق نظام العبودية. ولكن، وكما أشار المللانى "أسير الجزائرية" التى كتبها تيلر، فكل المؤمنين يربط بينهم ثوب واحد. وكما أصر المؤلف المجهول لكتاب "الإنسانية فى الجزائر" فالأمريكيون فى أحد أقسام البلاد ليس بوسعهم أن يبرئوا أنفسهم من خطايا الباقين، فالشر فى أحد أرجاء البلاد يمس الأمريكيين جميعاً. وقد كان واجب جميع الأمريكيين أن يختاروا الجانب الذى ينحازون إليه.

وقد راجت "الإنسانية فى الجزائر" فى منطقة صغيرة فى فيرمونت وشمال ولاية نيويورك. وطبعت "أسير الجزائرية" التى كتبتها تيلر ثلاث طبعات فى العقد الذى تلا كتابتها، ثم اختفت. وربما كان للأعمال الأخرى التى أشرنا إليها جمهور أصغر وتأثير أصغر. فما هو مدى أهمية موضوع البربر هذا بكامله؟ هل أدرك المعاصرون، بالفعل، الرسالة التى حاولت أن تبثها هذه الأعمال بخصوص العبودية والخطيئة؟ حقيقة أنه

تعين أن تتكرر الرسالة على هذا النحو من التواتر تشير إلى أنهم لم يفعلوا. لكن براهين أخرى تشير إلى أن بعض الأمريكيين، على الأقل، وصلتهم الرسالة، وأن أولئك الذين وصلتهم الرسالة كانوا في مركز يسمح لهم بأن يتصرفوا بناء على ما يكتسبون من معارف. وأحد الكتب الأشد تأثيراً في المراحل المبكرة من عمر الجمهورية "الخطيب الكولومبي" الذي وضعه كاليب بنغام، كان مجموعة من المقالات والقصائد والخطاب مصممة كدليل عملي للشباب الطامحين إلى أن يكونوا رجال دولة أو محامين أو قيادات في المجتمع.

ومن المختارات مسرحية ذات فصلين بعنوان "عبيد في بلاد البربر" تقوم على ذات المحاور، عن الحرية والعبودية والنفاق الوطني، وهي المحاور التي وجدها مؤلفون آخرون جذابة للغاية. والشخص الرئيسة في البلاد هي ثلاثة إخوة من البندقية أسر اثنان منهما في تونس. لكن في المسرحية، أيضاً، أسير أمريكي اسمه كدناپ (KIDNAP تعني يختطف - المترجم) اختطف هو وعبدته شارب. ويعلم باشا تونس حامد من شارب أن كدناپ كان سيداً قاسياً وسكيراً. فيأمر حامد ببيع الأمريكي لمن يدفع أعلى ثمن على أن يكون شارب فوقه مشرفاً ليعطي كدناپ "ميزة درس بالسوط من عبده السابق الذي عامله بكل هذا الرفق". ويأمل الباشا أن يتعلم كدناپ في العبودية درساً "لا يمكن أن يتعلمه في يساره، درس الإنسانية"^(١٤).

وظل "الخطيب الكولومبي" مرجعاً مؤثراً لسنوات طويلة. وفي أوائل الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وبعد أن اختفت الأعمال الأخرى التي عرضنا لها في هذا الفصل، تماماً، علم عبد شاب في بلتيمور نفسه القراءة، سرا، واشترى نسخة من "الخطيب الكولومبي". لم يكن فريدريك بيلي بحاجة إلى أن يقرأ كتاباً ليعرف أن العبودية خطأ. لكنه تعلم من هذا الكتاب أنه، حتى بعض البيض يقرون بأن العبودية تناقض ما يؤمنون به من عقائد الإنسانية والحرية. واستوعب عقل بيلي الراجح أن الأمريكيين البيض، إن قالوا بالحرية لأنفسهم، تولد لديهم شعور غير مريح إذا اعتبرت محظورة على الآخرين. واستمتع بالطريقة التي أخذت بها هذه المسرحية القصيرة فكرة يقبلها

كل الأمريكيين البيض - وهى أن استعباد البيض المسيحيين خطأ - واستخدمتها لتقييم حجة لا يملكون رفضها - أن العبودية خطأ بالنسبة للجميع.

وبعد ذلك بعدة سنوات هرب بيلي، وغير اسمه إلى فريدريك دوغلاس، وقضى بقية حياته يذكر الأمريكيين بحقائق سبق لهم أن أعلنوا أنها واضحة من تلقاء نفسها^(١٦).

ومثل مارتا جيفرسون والسيد مويو والمؤلف المجهول لكتاب "إنسانية فى الجزائر" كان فريدريك دوغلاس يعلم أن كل الأمريكيين سواء كانوا من ملاك العبيد أو لم يكونوا، متورطون فى جريمة العبودية. كانوا يعلمون بأن الانتماء إلى الأمة ذاتها، يجعل جميع الأمريكيين مسؤولين عن أخلاق هذه الأمة وكذلك عن استقامتها السياسية. والرضا عن الذات فى مواجهة الشر هو خطيئة تساوى الشر ذاته. والملا فى رواية تيلر "أسير الجزائرية" قال إن كل المسلمين يلفهم ثوب عاطر واحد وخالد، والأمريكيون الذين كانوا عاقدى العزم على أن يعيدوا خلق عالمهم الخاص، وعلى أن يرفعوه أمام العالم كمثال يحتذى به الجميع، أيضاً، لم يكن من الواجب أن ينسوا أن كل فعل يفعلونه يحكم عليه الرب وبقية البشر فى كل أنحاء العالم. وهكذا، ورغم أن بوسع الأمريكيين أن يهنتوا أنفسهم على تجنبهم الاستبداد المأساوى الذى أفقر تركيا ومصر وموريتانيا، والانحراف الجنسى الذى سبب المهانة لنساء المسلمين وأفسد العلاقات الأكثر حميمية، فلا يمكن لهم أن ينظروا إلى العبودية فى العالم المسلم دون أن يواجهوا جهامة الحقيقة التى تقول بأنهم ليسوا، فى الواقع، مختلفين عن أى شعب آخر فى العالم. فهم لم يستأصلوا من الطبيعة البشرية تلك الجرثومة التى تجعل الرجال يطفون، لم يخلقوا مجتمعاً يحول دون قهر القلة للباقيين، ولم يضمنوا أن ترفض الكثرة الطغيان.

كمنت معضلة العبودية تحت السطح مباشرة فى الجدل السياسى والدستورى فى سبعينيات وثمانينيات القرن الثامن عشر. وكان أحكم المؤسسين، أمثال جيمس ماديسون، يؤمنون بأن هذه المشكلة من شأنها أن تحبط كل الحلول الوسط التى صاغوها بكل عناية. لكن حتى أكثرهم حكمة لم يكن قادراً على أن يجد طريقاً للخروج من هذه المشكلة.

وكما لاحظ رجل كونيكتيكت السيد مويو فقد فضل المشترون الأمريكيون، حتى في نيو إنغلند، حقوق الملكية لدى ملاك العبيد على حقوق الإنسان المستعبد. وفي أمة تأسست بغرض حماية حقوق الملكية، فقد كان ذلك نذير شؤم. ففي ١٧٩٠ اشتعل التوتر بين الحقوق الشخصية وحقوق الملكية، في الكونغرس الأمريكي. تقدمت مجموعة من الكويكر (QUAKERS) الصباحيون أو المجتمعون كل عام، وهم جماعة بروتستانتية ترفض الحرب وتدافع عن حقوق الأقليات، وكان لهم دور كبير في مناهضة الرق، وفي تأسيس جماعات معاصرة مثل "منظمة العفو الدولية" و "غرين بيس" أو السلام الأخضر- المترجم) من بنسلفانيا بالتماس إلى الكونغرس لإلغاء تجارة الرقيق. وكان الدستور يعطى للكونغرس السلطة لأن يفعل ذلك، ولكن ليس قبل ١٨٠٨. ولم ير الكويكر أى خير في الانتظار ثمانية عشر شهراً لاستئصال خطيئة. لكن النواب من ساوث كارولينا وجيورجيا، الذين كان النخبون البيض في دوائرهم محتاجين لاستيراد العبيد لزراعة محاصيل الأرز الخاصة بهم، اعترضوا. قالوا إنهم ما زالوا بحاجة إلى عبيدهم، والدستور يسمح لهم باستيراد العبيد حتى ١٨٠٨. ولو لم يكن الدستور يسمح بذلك فربما لم يكونوا ليقبلوه.

ويمكن تجاهل جماعة الكويكر، شأنهم شأن مؤلف "الإنسانية في الجزائر" باعتبارهم متشددين دينيين يريدون أن يلزموا الآخرين بمعاييرهم الخلقية. وكان معظم أعضاء الكونجرس مستعدين لتجاهل جماعة الكويكر ليركزوا على إنشاء بنك وطني، وحق الدولة في الاستدانة، والضرائب المحلية، ومقر العاصمة الوطنية، وهي أمور كانت تفاقم انقسام الحكومة الجديدة إلى شيع سياسية. وكان يكفي لصرف النظر عن جماعة الكويكر مجرد القول بأن الكونغرس لا يحق له التدخل في مؤسسات الولايات، ولا يمكنه إلغاء الرق قبل ١٨٠٨. لكن الكونغرس تسلم، بعد يومين من وصول الالتماس من جماعة الكويكر، التماساً آخر من جماعة علمانية هي "جمعية بنسلفانيا لإلغاء الرق". وبدلاً من استخدام الحجج الدينية استخدمت الجمعية البنسلفانية حججاً سياسية وأيديولوجية نبعت من صميم النضال الثوري الأمريكي. "من الاقتناع بأن الحرية المتكافئة هي في الأصل مقدور كل إنسان، وهي الآن حقه بالميلاد" فإن جمعية بنسلفانيا تدفعها

"أقوى الروابط بين البشر" إلى أن "تلجأ لكل مسعى يمكن تبريره لفك أغلال الرق". ودعت الجمعية الكونغرس إلى أن يفعل الشيء ذاته، وحثته على أن "يخطوا إلى حافة" سلطته لكف "جميع أنواع الاتجار في أشخاص هم إخوتنا في الإنسانية"^(١٧). ووقع على هذا الالتماس رئيس جمعية بنسلفانيا بنجامين فرانكلين.

ورغم أنه كان من السهل تجاهل جماعة الكويكر فلم يكن الأمر كذلك مع بنجامين فرانكلين. وتعين على حماة العبودية أن يطرحوا حججاً مختلفة ليستخدموها ضد حركة سياسية مناهضة للرق أسست موقفها على تصورات سياسية يشاركونها الإيمان بها. واكتفى أحد أعضاء الكونغرس عن ساوث كارولينا بأن فرانكلين "كان يتعين عليه أن يعرف الكونغرس بشكل أفضل" وكرر القول بأن الكونغرس لم يكن يملك أى سلطة للتدخل فى مؤسسة محلية أو فى حقوق التملك أو على سلطة الولايات لن يكون كافياً، وأن الحماس الأخلاقى الذى امتزج بمثل الثورة كان كفيلاً بتدمير الجوانب القانونية فى المنطق المستند إلى حقوق التملك وإلى حقوق الولايات. كان رجل الكونغرس عن جيورجيا جيمس جاكسون يعلم ذلك كما كان يعلم أن المدافعين عن الرق لم يكن أن يقبلوا بالفرضية التى انطلق منها مهاجموهم: أن العبودية شر. ولو فعلوا ذلك لانتهدت المعركة. وإن كانوا يريدون للعبودية أن تبقى رغم هجمات فرانكلين وجماعة الكويكر، فيتعين عليهم أن يثبتوا أن العبودية شىء طيب.

وقد فعل ذلك باتهام فرانكلين وجماعة الكويكر بأنهم عابثون اشتطوا فى حماسهم وحاولوا تدمير نظام اجتماعى قيم. وقال جاكسون إن أولئك الذين هاجموا الرق كانوا جهلاء. فالدين والاقتصاد والسياسة والتاريخ، كلها تبرر العبودية، وفرانكلين وجماعة الكويكر يجهلون كل هذه الأمور. فالأفارقة الذين يستعبدون يجرى تعلمهم الفضائل المسيحية، وقد أسدى الجيورجيون لهؤلاء العبيد معروفاً كبيراً بانتشالهم من البربرية. فالعبيد استفادوا، إذن، من الرعاية الخيرة التى قدمها سادة مسيحيون بحق مثل جاكسون. وتساءل جاكسون: لو أننا أعتقنا العبيد فماذا سيفعلون؟ سيدمرون اقتصاد جيورجيا. فالعبيد لا يعملون إلا إذا أجبروا على ذلك. ولو انتقل العبيد المعتوقون إلى المناطق

الحدودية فسوف يقتلهم الهنود. وهكذا فالخيار الإنسانى الوحيد هو أن تبقى على عبودية هؤلاء الناس، وأن تعلمهم المسيحية وتسمح لهم بزراعة الأرز فى جيورجيا.

كان جاكسون سياسيا شابا وطموحا، وكان فرانكلين عجوزاً. ومن المحتمل جدا أن فرانكلين كان يتوقع أن يكون الالتماس بخصوص الرق آخر عمل عام يقوم به: كان فى الرابعة والثمانين من عمره ولم يكن بينه وبين القبر إلا عدة أسابيع. لكنه عندما قرأ خطاب، عضو الكونغرس جاكسون عن الرق فى صحيفة فيديرال غازيت فى مارس ١٧٩٠ أطلق قذيفة أخرى. كان من الخطر ترك جاكسون دون أن يتصدى له أحد، والسماح للجمهورية الأمريكية التى ساهم فرانكلين فى خلقها بأن تمضى باتجاه مستقبل فاسد أخلاقيا. وكان فرانكلين يعلم، أيضاً، أن الانفعال الأخلاقى والهجوم المباشر يسهل تجاهلها. وقد تعلم من أكثر من سبعين عاماً فى الحياة العامة أن يستخدم أسلحة أكثر فتكاً. كان يعرف كيف يكتب الهجائيات، وكان يعلم أن أكثر أدوات الخطابة فاعلية التظاهر بموافقة الخصم، ثم الخروج بحجة تقوم على فرضية مضحكة والوصول بها إلى غايتها السخيفة.

وهكذا فقد كتب تحت اسم "هيستوريكوس" مادحاً خطاب جاكسون ومشيراً إلى أنه يذكره بخطاب مماثل قرأه قبل سنوات فى كتاب "تقرير مارتن عن عمله القنصلى" وهو كتاب اخترعه فرانكلين. والخطاب الذى يعد خطاب جاكسون صدى له، لدرجة التشابه، ألقاه سيدى مهمت إبراهيم داي الجزائر فى ١٦٨٧^(١٨). فقد التمتست مجموعة من المتهوسين الدينيين وهم "الإريكا" أو "المتطهرون" من الداي أن يلغى استعباد المسيحيين وممارسة القرصنة ضدهم. وزعم الإريكا أن العبودية والقرصنة ظلم ومنافيان لأحكام القرآن. وبعد أن حدد المناسبة، أخذ فرانكلين خطاب جاكسون المدافع عن استعباد الإفريقيين فى أمريكا وجعله دفاعاً عن استعباد المسيحيين فى شمال إفريقيا.

وقد وافق سيدى مهمت على أن العبودية والقرصنة يمكن أن يكونا ظالمين، لكنه تساءل "إذا تخلينا عن استعباد "المسيحيين" فمن الذى سيزرع أرضنا فى هذا المناخ الحار؟"

وكان جاكسون قد أثار هذه النقطة ذاتها. وتساءل سيدي مهمت "لو أن الجزائريين لا يملكون عبيداً مسيحيين ألم نكن نحن سنصبح عبيداً هناك؟ وما الذى يمكن أن يحدث للعبيد أنفسهم لو أن سادتهم المسلمين أعتقوهم؟ "هل نتركهم يشحنون فى شوارعنا، أم نتركهم ينهبون ممتلكاتنا؟" لن يكون المسيحيون الطلقاء، أبداً، أنداداً للمسلمين، وهم لن "يعتقوا ديانتنا المقدسة، لن يكتسبوا سلوكياتنا، ولن يلوث شعبنا أنفسهم بالتزاوج معهم". ولأنهم اعتادوا العبودية، فلن يعملوا إلا إذا أجبروا على أن يفعلوا ذلك، وإن ذهبوا إلى المناطق الحدودية، فهم أجهل من أن يقيموا "حكماً رشيداً" وسوف يذبحهم الأعراب المتوحشون. وليس هذا الضعف الجاهل نتيجة خطأ منهم: ففي بلادهم يعامل كل هؤلاء المسيحيين - الإسبان والبرتغاليين والفرنسيين والإيطاليين - معاملة العبيد. وقد أحسن الجزائريون إليهم عندما جاؤوا بهم للعمل "حيث تبعث شمس الإسلام بنورها". وإذا أعدناهم إلى أوروبا فسوف نعيدهم "إلى الظلمة". وأخيراً، فإن تخلت الجزائر عن الاستعباد والقرصنة والنهب، فإن هذا سيدمر اقتصادنا لمجرد إرضاء "أوهام طائفة مخبولة".

وقد وجد الجزائريون صعوبة فى القول بأن القرصنة والنهب خطأ. وبعد أن استمعوا إلى سيدي مهمت قرروا أن منطق الأخلاق هو "فى أفضل حالاته مثير للمشاكل". فإنهااء الرق من شأنه أن ينتج من المشاكل أكثر مما يحل، وإن كان البعض يظن أن العبودية خطأ أخلاقى، فمن مصلحة الأغلبية تركها لحالها. وقد توصل الكونغرس الأمريكى إلى الخلاصة ذاتها: سواء كان النهب أو العبودية خطأ أم صوابا فهما من مصالح الولايات.

وقد اخترع فرانكلين الإريكا وسيدي مهمت و "تقرير مارتن عن خدمته القنصلية". ولكن لسوء الحظ، فهو لم يخترع جيمس جاكسون. وأثبتت أوجه الشبه التى قال فرانكلين إنه وجدها بين خطابى جاكسون وسيدي مهمت أن "مصالح الرجال وعقولهم تعمل ويجرى العمل وفقاً لها على نحو متشابه لدرجة مذهلة فى كل البلدان والمناخات،

ما داموا يعيشون ظروفًا متشابهة". ورغم أن الأمريكيين تبجحوا بإخلاصهم هم لحقوق الإنسان، فقد أثبتوا أنهم لا يختلفون عن الأتراك أو الجزائريين عندما تتضارب هذه الحقوق مع حرصهم على مصالحهم. وقد تم تجاهل تحذير جيفرسون الصريح من العبودية - من أنها قد تدمر الجمهورية الأمريكية بتشويه شخصيات الأمريكيين - والنداء الذي أطلقته رواية "الإنسانية في الجزائر" داعية الأمريكيين إلى أن ينتبهوا إلى مسؤولياتهم الأخلاقية. وراح الأمريكيون يبحثون عن مصالحهم المباشرة، تاركين لغيرهم مواجهة نتائج أخطائهم. وقد توصل فرانكلين، في آخر مقال نشره في حياته، إلى الخلاصة القائمة بأن الأمريكيين ليسوا أقرب من الجزائريين إلى الانتباه إلى مسؤولياتهم الأخلاقية.

الفصل الخامس

الأسرى الأمريكيون فى العالم المسلم

فى ١٨٠٠ كان قرابة المليون من البشر من أصول إفريقية مستعبدين فى الولايات المتحدة. وبعكس سبعمئة أمريكى أسرى فى الدول المسلمة بين ١٧٨٥ و ١٨١٥ فإن المليون إفريقى - أمريكى هؤلاء لم يكونوا يتوقعون أن تخلصهم بلدانهم أو عائلاتهم من العبودية، ولا كان بوسعهم أن يتطلعوا إلى أعادتهم إلى الحرية. وبالمقارنة إلى عذابات العبيد فى أمريكا، فإن شكاوى سبعمئة أمريكى دعوا أنفسهم عبيداً فى دول البربر تبدو مبالغاً فيها وموسومة بالنفاق.

العبودية فى أمريكا كانت أمراً يبقى مابقى المرء حيا، وكانت وراثية وقاسية. وكانت تتحدد، أيضاً، بالعرق. ولم يكن هذا هو الحال فى الدول المسلمة، التى كان فيها عبيد، ولكن لا يمكن اعتبارها مجتمعات عبودية. وقد اقتنى المسلمون العبيد لأسباب سياسية، لا لأسباب اقتصادية. وأبناء العبيد كانوا يولدون أحراراً، كما أن العبد نفسه يتحرر بمجرد تحوله إلى الإسلام. وكان بوسع العبيد فى العالم المسلم أن يحوزوا الممتلكات، وأن تؤخذ بشهاداتهم فى المحاكم، بل وأن يعملوا وزراء للدولة. وقد كان جيمس ليندر كانكارت أسيراً أمريكياً، امتهك الحانات والسفن، وعمل فى وظيفة السكرتير المسيحى للداى.

ما هذه العبودية؟ لماذا اختلفت العبودية فى الجزائر، إلى هذا الحد، عنها فى أمريكا؟ لقد تغير تعريف الرق فى الغرب منذ القرن الخامس، عندما تم تكبيل الكاتب

الإسباني ميغويل دي سيرفانتيس سافيدرا وغيره إلى المجاديف في الغليونات الجزائرية. لم تكن العبودية في القرن الخامس عشر تعنى فقدان الحرية. فقلة من الناس في القرن الخامس عشر هم الذين كانت عندهم حرية يمكن أن يفقدوها. وبدلاً من ذلك كانت العبودية طريقة لإدماج الغرباء الذين لا نسب لهم بالمجتمع. ربما أسر هؤلاء الغرباء في حرب، أو شردتهم الحرب في وطنهم، وربما خالفوا قانون المدونة القانونية لمجتمعهم وفقدوا بذلك حقهم في أن يكونوا أعضاء في هذا المجتمع. وقد كان إجبار المجرمين أو الكفار أو الأسرى من الأعداء على العمل أكثر إنسانية (وقد كانت إسبانيا والعالم المسلم في حالة حرب عندما استعبدوا سيرفانتيس) من قتلهم. وقد أعطت العبودية، باعتبارها وضعاً مؤقتاً هؤلاء الغرباء، الذين لا نسب لهم، مكاناً في المجتمع في حين كان قدرهم الدائم يتحدد إما بما تفعله عائلاتهم وحكوماتهم أو باختيارهم الإسلام^(١).

وقد استمسكت الجزائر وغيرها من الدول المسلمة بهذه الفكرة عن العبودية، في حين اتخذت العبودية في العالم الجديد معنى مختلفاً، بشكل جذري. لقد أقام العرب والإيطاليون والإسبان مزارع السكر في المتوسط، مستخدمين العمل الإجباري الذي أداه الأسرى السياسيون. المراكشيون واليونانيون والجركس والقوقازيون. ووجدت دول شمال إفريقيا مصدراً آخر للأسرى في معاملاتها مع الدول المسلمة في سونغاي ومالي، التي كانت تستعبد الكفار مع مجتمعات الغابة جنوبى الصحراء. وأصبحت تيمبكتو بالنسبة لمراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب سوقاً للذهب والعبيد معاً، بحلول القرن الرابع عشر. وفي ١٤٣٣ حاصر البرتغاليون رأس بوجادور وسقطت تيمبكتو في أيدي الطوارق. وفي اللحظة التي انقطعت فيها تجارة القوافل في إفريقيا المسلمة، كان الأوروبيون المسيحيون في وضع يسمح لهم بافتتاح مراكزهم التجارية على الساحل الإفريقي. ووجدت البرتغال طريقاً للالتفاف على احتكار المسلمين لتجارة العبيد الأفارقة، كما وجدت طريقاً إلى الجزر الأطلسية - ماديرا والرأس الأخضر، التي كانت مناسبة لإنتاج السكر. وبعد عشرين عاماً من عبور البرتغاليين لرأس بوجادور، انتزع العثمانيون القسطنطينية من المسيحيين، قاطعين طريق الوصول إلى تجارة العبيد في البحر الأسود.

كل هذه المناورات المعقدة والأحداث التي تبدو وكأن لا رابط بينها، فى القرن الذى سبق إبحار كولومبس باتجاه الغرب، غيرت طبيعة الرحلة التى كان سيقوم بها والأرض التى سيعثر عليها. وحتى ١٤٩٠ كانت جزائر ماديرا وساوباولو البرتغالية جزر سكر، تماماً كما كانت صقلية ومايوركا، كما سوف تصبح كوبا وباربادوسا، بالضبط. ولكن اقتصادات المزارع هذه كانت لديها مصادر عمالة مختلفة: كلهم استخدموا العبيد، لكن العبيد فى المتوسط كان معظمهم غنائم الحرب والفتوحات الذين فرض عليهم المنتصرون العمل، فى حين أن عبيد الأطلسى والكاريبى كانوا ممن أسروا ثم باعهم أسروهم للأوروبيين.

ونقل البرتغاليون هذا النظام العبودى إلى مستعمراتهم فى البرازيل، وعندما أفزع الإسبان الموت والخراب الذى جلبوه على أهل العالم الجديد، اتجهوا هم أيضاً إلى إفريقيا، باعتبارها مصدراً للعبيد. وقد كان على الإنكليز والهولنديين الذين تبعوا البرتغاليين إلى ساحل إفريقيا وتبعوا الإسبان إلى الأمريكتين أن يصلوا بنظام التجارة فى العبيد فى إفريقيا وبيع العبيد للمزارعين الأمريكين إلى درجة الكمال.

وبحلول العام ١٨٠٠ كانت العبودية لا تزال تعنى الأسر فى العالم المسلم، وكانت لا تزال وسيلة لإدماج الذين لا نسب لهم فى المجتمع. وكان بوسع هؤلاء الأسرى المسيحيين أن يصبحوا أحراراً عندما يقبلون بالإسلام ديناً: كانت عبوديتهم محطة على الطريق بين الوثنية والإيمان. ولكن بحلول العام ١٨٠٠ كانت العبودية فى الأمريكتين تعنى عبودية تبقى طوال العمر وتورث. أما العبد فبدلاً من أن يبقى تحوله إلى الإسلام وعضويته فى المجتمع أمراً وارداً، فقد كان فى أمريكا قطعة أثاث، شيئاً مملوكاً ليست له، بتعبير كبير القضاة الأمريكى، "أية حقوق تلزم الرجل الأبيض باحترامها". وقد كان الأسرى الأمريكيون يعلمون ما كان عليه العبيد فى أمريكا ويعلمون أنهم يرفضون العبودية.

وعندما كتب هؤلاء الأسرى إلى بنى وطنهم عن عبوديتهم، فقد فهم الأمريكيون مقصدهم على نحو يختلف عن فهم الجزائريين أو المراكشيين الذين استعبدوهم لهذا المقصد.

فقد اتبع الأسرى الأمريكيون الذين كتبوا ما جرى لهم فى الأسر نموذجاً كان مستقراً، بالفعل، فى الأدب الأمريكى، وهو نموذج أسسه التطهريون الذى أسرههم الهنود فى القرن السابع عشر. ولم يكن المقصود بتلك القصص، التى كتب معظمها فى أعقاب حرب الملك فيليب فى سبعينيات القرن السابع عشر، أن تخبر "القراء" بما كان عليه الألفونكوين أو الإيروكوا، بل أن تخبر "القراء الأمريكيين" (علامات التنصيص من عندى لتوضيح المغزى - المترجم) بما كانوا عليه. فهؤلاء الأسرى التطهريون نجوا من أمرين، من عذاب الأسر عند الهنود و - فى حالات كثيرة - من الغواية الأسوأ كثيراً بأن يخلصوا أنفسهم بالانضمام إلى الفرنسيين الكاثوليك وهم الحلفاء المتعالمون للهنود. فالأسرى الذين تم تخليصهم تحدوا الموت والكاثوليكية ليعودوا إلى نيو إنغلند، وكان المقصود بهذه السرديات عن الأسر أن تقوى إيمان أبناء وطنهم. وكانت للسرديات التى أنتجها الأمريكيون الأسرى فى العالم المسلم وظيفة مماثلة. فقد ذكرت الأمريكيين بالحاجة إلى القوة والشجاعة وبالجاء الحسن لمن يأبى التسليم. وهكذا أوصى أحد القراء فى ١٧٩٥ بأن يقرأ الآخرون تقرير دانييل سوندرز عن غرق سفينته قبالة الساحل العربى. "كم أن المعاناة مريرة والشجاعة الكريمة والمبادرة الخلاقة نبيلان. وكم هو سريع احتواء الفرع بالتعاطف "هكذا قال القارئ". هذا المركب الصعب يمضى بنا إلى مسراتنا السامية"^(٢).

وقد أظهرت كل سرديات الأسر، سواء تناولت المعاناة على أيدي العرب أو الجزائريين أو الألفونكوين، المركب الصعب وانتهت بلمحة إلى المسرات السامية. وختم القارئ الذى استعرض ذلك العمل بقوله "نحن نشاهد العذاب. لكننا نتعلم كيف تكون الراحة (منه). نشفق على المعذب، لكننا نصمم على (محاكاة) المحسن"^(٣). وكان القصد من هذه القصص تعليم الأمريكيين على أرض الوطن التصرف على نحو معين، بالمقابلة بين غلظة الجزائريين والعرب وإحسان الأفراد الذين بادروا لإنهاء معاناة الأسرى الأمريكيين. وأثبت الأسرى أنفسهم ما يتحلون به من فضائل فى أشد الظروف قسوة. والمركب الصعب الذى اتخذته الأمريكيون قادهم وقاد أبناء بلدهم الباقين على أرض الوطن إلى المسرات السامية فى الحياة.

لكن الأسرى لم يكونوا أدوات بلاغية أو موضوعات أدبية. كانوا بشراً حقيقيين وكانت خبراتهم، بغض النظر عن نوعية الاستخدامات التي آلت إليها لدى جمهور القراء والكتاب، خبرات حقيقية. لقد أسرت خمس وثلاثون سفينة أمريكية، على وجه التقريب، وفوقها ما يزيد على ٧٠٠ بحار، في الفترة من ١٧٨٥ و ١٨١٥ بأيدي نول البربر. وقد أسرت السفن وبحارتها في البحر وعوملوا باعتبارهم رهائن سياسيين. وكان خاطفونهم يأملون أن يعيدوا الرجال والسفن، مقابل المال، إلى إصدقائهم أو إلى حكوماتهم. وقد أسرت الجزائر اثنتين وعشرين سفينة، وأسرت طرابلس الغرب ستاً، ومراكش خمساً، وتونس اثنتين^(٤). أسرت نول البربر السفن لأسباب سياسية أو دبلوماسية. في ١٧٧٨ اعترف الإمبراطور مولاي محمد باستقلال أمريكا، جاعلاً مراكش الدولة الثانية بعد فرنسا في القبول بالولايات المتحدة دولة مستقلة. وأعرب مولاي محمد عن اهتمامه بعقد معاهدة مع الدولة الجديدة، ووعد بأنه لن يحمي السفن الأمريكية من هجمات طراداته فحسب، بل وسيرحب بها في الموانئ المراكشية. وتباطأ الأمريكيون في التجاوب مع بواذر حسن النية هذه، وبحلول ١٧٨٥ كان مولاي محمد قد مل الانتظار. وأمر طرادا مراكشيا بأسر سفينة أمريكية والإبقاء عليها رهينة حتى تبعث إليه الولايات المتحدة بسفير. وأصبحت السفينة التجارية بيتسي رهينة لضمان التفاوض حول معاهدة، وقد أطلق مولاي محمد سراح السفينة وطاقمها عندما وعدت الولايات المتحدة بإرسال من يفاوضه. وأبلغ الطاقم المسؤولين بأن خاطفيهم أحسنوا معاملتهم. ويمكن القول إن الإمبراطور هو الذي استخرج السفينة الفارقة الفيرجينية جيمس ميرسييه التي كان البدو قد أسروها^(٥).

وقد كان أسر ميرسييه مختلفاً عن التجربة التي مر بها المسجونون السياسيون في الجزائر أو تونس أو مراكش. كان هو أتعس حظاً. فقد غرقت سفينته قبالة سواحل الصحراوي جنوبي مراكش. وقد غرقت سفن أمريكية أخرى قبالة سواحل جزيرة العرب أو موريتانيا، ومن نجا من الدمار والأمواج كان موته، في الغالب، محتوماً بسبب العطش. وإذا نجوا، كما جرى للقلة ومنهم ميرسييه، فإن ذلك كان يرجع إلى عثور القبائل الصحراوية عليهم، فتسلبهم ملابسهم وأشياءهم الثمينة، وكان الأرجح أن

تحتفظ بهم عبيداً أو أن تبيعهم. فى تلك الحالات لم يكن الرجال أسرى سياسيين بل عبيداً بالفعل للناس الذين وجدوهم، وإن كانوا شاركوا سادتهم حياة المساواة البدوية الفظة المختلفة، تمام الاختلاف، عن حياة العبد الأمريكى. وبعضهم، كمرسييه مثلاً، قد يجد طريقه إلى أرض يحكمها عاهل محسن مثل مولاي محمد، الذى يطلق سراحه لأغراض سياسية تخصه. وقلة من الآخرين، مثل جيمس رايلى، الذى غرقت سفينته كوميرس قبالة ساحل مراكش فى ١٨١٥، تمكن من إقناع أسريه بأخذه إلى مدينة ساحلية بوعد أن يفديه قنصل أوروبى بمبلغ كبير^(٦).

كانت هذه، إذن، خبرات الأسرى. كان بعضهم أسرى حرب وبعضهم رهائن سياسيين. لكنهم جميعاً وصفوا تجربتهم باعتبارها عبودية. فقد كتب جون فوس لأمه من الجزائر قائلاً "أنا عبد لدى المحمديين". وأبلغ كابتن جيمس تايلور الذى كان هو الآخر أسيراً فى الجزائر ملاك سفينته بأنها فقدت لكن "ما أنا واثق بأنه الأسوأ بالنسبة لمشاعركم" أنه هو والطاقم كانوا محبوسين فى "عبودية قاسية". وقد نشر مجهول من نيو إنغلند التماساً باسم الأمريكيين فى الجزائر، يدعو فيه الأمريكيين فى أرض الوطن إلى إنقاذ "إخوتهم المواطنين المقيدين بالأغلال فى سفن ماهوميت الزائف" وقد كانت صورتها عبيد السفن ومحمد باعتباره "زائفاً" عنصريين أساسيين فى تصور الأمريكيين للعالم المسلم، ولم تكن للواقع علاقة بهذا التصور. وفى قصيدة من عام ١٧٩٥ بعنوان "أسير أمريكى فى الجزائر" يكدح الأسير الأمريكى ويموت وهو مقيد إلى مجداف سفينة^(٧).

وقد تجاوز استخدام الصور غير المتسقة مع حاضرها التاريخى واستخدام كلمة "عبودية" مجرد كونه غلوا أو محاولة لجعل الحال تبدو أسوأ. فقد أسمى الأسرى أنفسهم عبيداً حتى عندما كانوا يقرون بأن معاملتهم لم تكن سيئة. فالعبودية لم تكن، بالضرورة، المعاملة الفظة. وقد كتب وليم نايت الذى أسر فى طرابلس الغرب فى ١٨٠٣ إلى نويه فى أرض الوطن أنه عومل "بأحسن كثيراً مما توقع"، لكنه وقع رسالته باعتباره "عبد باشا طرابلس الغرب". ويبدو أن وليم راى من مشاة البحرية، الذى أسر فى

طرابلس الغرب، قضى معظم وقته فى الأسر يكتب الشعر، لكنه وضع عنواناً لمذكراته عن هذه التجربة هو "فضائع العبودية"^(٨).

ربما كان هؤلاء الرجال مدركين أو غير مدركين لاختلاف معنى العبودية فى أمريكا عنها فى إفريقيا. ما عرفوه كان أن العبودية، فى أى شكل كانت، ليست لهم. لم يكن سيئاً أن تكون عبداً لأنك تعامل بفضاظة. بل بالنسبة لهؤلاء الأمريكيين كانت العبودية خطأ لأنها تحرمهم من حريتهم. وبالنسبة للأمريكيين أصبحت الحرية، وليس الانتماء، نقيض العبودية. وقد زودت رواية لورانس ستيرن "رحلة عاطفية عبر فرنسا وإيطاليا" التى نشرت لأول مرة ١٧٦٨ هذا الجيل من الأمريكيين بالتعريف الأقوى للعبودية. "أتخذت ما شئت من الأقنعة، ما زلت أنت العبودية! قلت أنا - ما زلت شراباً مرا، ورغم أن الآلاف من كل جيل أجبروا على أن يتجرعوك، فهذا لا يجعلك أقل مرارة". وتبرز هذه العبارة، المرة تلو المرة، فى الأدب الذى تولد عن الأسر الجزائرى، فقد اقتبسها دافيد همريز ووليم إيتون ورجل الإحسان المجهول الذى سنناقش موضوعه فى الفصل القالى.

فقد وضع بطل ستيرن لنفسه خطة متفائلة للهروب من متاعبه بأن يسجن بسبب الدين فى الباستيل، الذى يقول لنفسه إنه مجرد برج، أى مجرد منزل لا تستطيع أن تغادره. ومع قلم وأوراق وقدرة على الصبر يكون بوسع المرء أن يقضى شهراً أو ستة أسابيع فى منزل كهذا. لكنه سرعان ما يغير رأيه عندما يسمع طائر زرزور فى قفص يصرخ "لا أستطيع الخروج - لا أستطيع الخروج" وهو يحاول أن يندفع عبر الأسلاك ليخرج منها. هذا الزرزور، برغبته العارمة فى الحرية، يلقي الآخرين درساً فى معنى الأسر وقيمة الحرية. ويحاول المؤلف، بعد أن علمه الطائر، أن يكتب عن "ملايين من إخوتى فى الإنسانية الذين ولدوا وليس لهم ميراث سوى العبودية" لكن هذه الأرقام بذاتها تحبطه فيكتب تقريراً محزناً عن أسير واحد، يذوى جسده ويدمى قلبه من "الأمل المرجأ". العبودية ليست خطأ لأنها قاسية، ولكن لأنها حالة غير طبيعية تنكر على

الإنسان حريته. ومهما كان القناع الذى تتخفى وراءه، وسواء كانت تعنى تكبيل العمالة بالقيود فى مزرعة بالهند الغربية أو الحياة فى قفص من ذهب، فالعبيد شراب مر للرجال الأحرار^(٩).

وقد اعتنق الأمريكيون الذين أسروا فى الجزائر فى ١٧٨٥ هذا المفهوم للعبودية. فؤلئك الذين أجبروا على العمل فى حديقة الداى، عبيداً للداى، بالفعل، كانوا يشكون من أن أربعة عشر رجلاً كانوا مكلفين بعمل يكفى لإنجازه أربعة رجال، قائلين "لم يكن لدينا عمل كثير" وكانوا يقاسون من الملل أكثر من أى شىء آخر. والقباطنة الأمريكيون الثلاثة الذين وقعوا فى الأسر - ريتشارد أوبرايا، وأيزاك ستيفنز، وزاكاريا كوفن - كانوا تحت حماية القنصل البريطانى. وقد اكتشفوا أن القنصل يتظاهر بالصدقة معهم، وأنه أخذهم تحت حمايته لمجرد إذلالهم. وكان وضع الرجال الذين كلفوا بالعمل فى حديقة الداى أسعد حظاً من هؤلاء الرجال، الذين كان القنصل البريطانى يكوم فوق رؤوسهم "كل مهانة يمكن أن تتفتق عنها الطبيعة البشرية ليجعل وضعهم مذلاً، إلى أقصى درجة". وقد صدم أحد الأسرى لدى الداى عندما وجد قاداته يمارسون الأعمال الشاقة فى حديقة القنصل، أحدهم يزرع شجرة، والآخر يسقى الخنازير، والثالث يسوق بغلاً يحمل سماداً عضوياً. وكان الأكثر إيذاءً لكرامة هؤلاء الرجال أن القنصل أقام حفل عشاء لقباطنه وضباط سفن بريطانية وكلف الأمريكيين بخدمة الموائد.

ورغم أن القنصل البريطانى أذل القباطنة الثلاثة، ورغم أن الأسير الذى كان فى قصر الداى والذى صدم لحالتهم رأى أنهم عانوا أكثر مما عانى، فقد كانوا، فى الحقيقة أفضل حالاً من البحارة العاديين، وكانوا يدركون ذلك. وبالنهاية، فإن السفير الإسبانى الذى كانت تحدوه الرغبة لمعاملة الأمريكيين أجر منزلاً من أجل القباطنة الثلاثة. وقد كان على البحارة العاديين أن ينهضوا بقدر أكبر من العمل البدنى كما كانت أمامهم مغريات أكثر ليقطعوا صلتهم ببلادهم البعيدة ويعيشوا حياة أفضل فى الجزائر.

لقد لفت جيمس ليندر كاثكارت، أحد البحارة الذين عملوا في حديقة الداي، انتباه حسن وزير البحرية. وأتاح ذلك لكاثكارت فرصاً تمكن من استغلالها. فبرعاية حسن اشترى كاثكارت حانات روت ظمأ العبيد المسيحيين، ثم وصل به الأمر أنه امتلك عدة سفن تجارية صغيرة. وتحسن مركزه، بشكل كبير، في ١٧٩٣ عندما أصبح حسن الداي وأصبح حسن كبير الأمناء المسيحيين لكل مراسلات الجزائر مع الأمم المسيحية. ورغم أن كاثكارت لم يتخل عن مسيحيته، قط، ليعتق الإسلام، فإن سنوات خدمته لدای الجزائر لونت شخصيته. وبعد سنوات، عندما أصبح كاثكارت القنصل الأمريكي في طرابلس الغرب وأوبرايان القنصل الأمريكي العام في الجزائر، قارن وليم إيتون بين شخصيتهما. قال إيتون إن أوبرايان كان أسيراً، لكنه لم يكن عبداً، قط. ولسوء حظ كاثكارت فإن خدمته للدای، وفقاً لما كتبه إيتون، جعلته يخاف كل ذي سلطان، بخاصة الطغاة نوى السلطان المطلق في نول البربر، حتى إنه كان يرتعد "عندما يقطبون كما تقلص تحت ضربات سياطهم". إن كاثكارت "لم يكن تهزه طلقات المدافع المرعدة من سفينة حربية"، لكنه كان "يرتجف لإيماءة من رأس معمة - ذلك هو تأثير العادة، ويوسعي أن أقول التعليم" (١١).

ورغم أن كاثكارت لم يتخل عن صفته باعتباره أمريكياً، فقد عمل مع الداي، ما جعله أقل أمريكية - وبعبارة إيتون، أكثر عبودية. وكان إيتون يتفهم أسباب ذلك عند كاثكارت: لم يكن عمره تجاوز السابعة عشرة عندما وقع في الأسر في ١٧٨٥، وكان خاضعاً لإمرة الآخرين، معظم حياته. فبعد سنوات الطفولة القليلة في أيرلندا عمل خادماً كابينية وملاح عادى على سفن تجارية، ثم انضم إلى البحرية الأمريكية. وقضى عامين أسير حرب لدى البريطانيين. لم يعتد أن يتصرف أو يفكر بشكل مستقل. ورغم ذلك فقد اتخذ القرار الخطأ، برأى إيتون عندما اختار خدمة الداي. وفي عام ١٨٠٣ عندما أسرت طرابلس الغرب ٣٠٠ بحار أمريكي، كتب إليهم إدوارد بريبل القائد الأمريكي لأسطول المتوسط يذكرهم بأن "رغم أن ظروف الحرب جعلتكم أسرى لدى باشا طرابلس الغرب، فهي لم تجعلكم عبيداً له - والأمر متروك لكم أن تكونوا عبيداً أو لا تكونوا". وهكذا فقد كان بمقدورهم أن يرفضوا أن يكونوا عبيداً، رغم أن الموقف بدا وكأنه حرمهم من كل.

اختيار. وحذر بريبل البحارة من أن أى واحد يختار بإرادته أن يعمل لدى الباشا سوف يعامل معاملة الخونة من جانب الأمريكيين. لقد كان رجال بريبل، كما كان أوبرايان، أسرى لكنهم رفضوا أن يكونوا عبيداً. وقد وافق بريبل وإيتون على أنه ما من أمريكي يمكن له أن يسمح لنفسه بالخضوع للإرادة المستبدة لشخص آخر^(١٢).

ورغم أن إيتون وبريبل كانا يدركان أن الأمريكيين قد يرغبون على خدمة أسريهم فإن ذلك اختلف عن الخضوع للإرادة المستبدة لأسريهم. فالعبودية والحرية مفهومان ذهنيان أكثر مما هما حالتان ماديتان. ولم يكن الأسر يتحول إلى عبودية إلا عندما يستسلم له الأسير. فالعبودية لم تكن حياة التعب، ولا كانت الحرية حياة الراحة، بل على الأحرى فقد تحددت العبودية والحرية وفقاً لموقف الإنسان من العمل والراحة.

فلم يكن الأمريكيون النزاعون إلى الاستقلال ليوطنوا أنفسهم على الأسر بأكثر مما كان عصفور لورانس ستيرن يستطيع أن يوطن نفسه على القبول بالقفص. وعندما جُنَّ جيمس هارنيت وهو فى الجزائر وصف أوبرايان ذلك بأنه "تناقض حاد نشأ عن النزعة الأمريكية إلى الاستقلال" مشيراً إلى أن هارنيت فقد عقله تحت ضغط نشأ عن كونه أمريكي وأسير، فى آن معاً، وهو ما يعنى أنه حر وخاضع لإرادة غيره، فى آن معاً^(١٣).

وقد عومل البحارة العاديون معاملة مختلفة عما عومل به الضابط سواء من قبل الملكيات التى أسرتهم أو حكومتهم الوطنية. فقد أجبر البحارة على العمل، ولم يحدث هذا مع الضباط. وقد تلقى الأسرى الأمريكيون فى الجزائر راتباً شهرياً من حكومتهم الوطنية، مع هدايا بين الحين والحين من القناصل الإسبان والسويديين والهولنديين. وكان القبطان يحصل على ثمانية دولارات شهرياً، والضابط على ٦ دولارات، والبحار على ثلاثة دولارات ونصف دولار. وعندما عاد القباطنة إلى أرض الوطن وجدوا أن التبرعات اتخذت هى الأخرى هذه البنية التراتبية. وقد تم الاحتفاظ بمبلغ ٨٨٧٢٨ دولار جمعها مسرح بوسطن للأسرى فى ١٧٩٥ أمانة لصالحهم فى يونيون بانك. وعندما عاد ٢٤ أسيراً عادوا إلى نيو إنغلند فى ١٧٩٧، وزعت عليهم الأموال بواقع ثلاثين دولاراً للبحار

و٣٥ دولاراً للضابط و٥٠ دولاراً للقبطان، باستثناء أيزاك ستيفنز، الأرفع مكانة بينهم، والذي تلقى ٦٥ دولاراً^(١٤).

وفى طرابلس الغرب أبقي الباشا يوسف على الضباط فى قصره، فيما وضع البحارة فى عديد من الأبنية الخالية فى المدينة، وكان أحدها مخبئاً. لكن الكابتن وليم بينبريدج من السفينة فيلادلفيا كان يرى البحارة مرتاحين أكثر من الضباط، وتمنى ضابط واحد، على الأقل، لو أنه كان مع الجنود يشتغل، مثلهم، بالعمل الشاق. ورغم أن الضباط عوملوا معاملة أفضل "أكثر مما هو متوقع، منطقياً، من أحد أمراء البربر"، فقد كان الأفضل لهم لو أنهم مع البحارة "فى العمل الشاق" لأن ذلك كان يتيح "الإحساس بالهواء المنعش، الذى هو من أساسيات الطبيعة البشرية".

وقد كتب القنصل البريطانى فى طرابلس الغرب يقول إن البحارة كان لهم رأى آخر. وقال إن البحارة الأمريكيين الذين لقيهم فى الشارع "اشتكوا مر الشكوى من مصاعب العيش ومشقة العمل"، وأخيراً حصل الضباط على امتياز الهواء المنعش من دون مشقة العمل عندما سمح لهم الباشا بالتنزه فى الريف "مرتين أو ثلاثاً، فى الأسبوع". ورغم ذلك فقد شكوا ضابط أمريكى من أن حديقة الزهور التى تخص الباشا "ليست منسقة بشكل ينم عن أى ذوق، والأزهار فيها هى من الأصناف الأكثر شيوعاً" رغم أنه اعتبر حديقة البرتغال الخاصة بالباشا "مبهجة لدرجة تفوق الخيال" وكتب لأصدقائه فى أرض الوطن يقول "نسترخى ساعتين أو ثلاثاً فى ظل شجرات البرتغال، مستمتعين بالهواء المفرح العليل وآكلين ألد الفواكة". ولا شك أن هذا أسر من نوع خاص^(١٥).

وقد نعم جوناثان كودرى الضابط الطبيب على السفينة فيلادلفيا بدرجة مدهشة من الحرية فى طرابلس الغرب، وأصبحت له علاقة حميمة مع عائلة الباشا، يلعب الشطرنج مع ولى العهد، ويزور ضيعة أمير البحر مراد الرئيس، فى الريف، ويتعشى مع الأسرة المالكة. وذات يوم من أيام يناير كان كودرى يرتاح بين الأزهار وشجرات الموالح فى الضيعة الريفية للباشا، مع الأمير ورئيس الوزراء. وعاد إلى المدينة بعد هبوط الظلام، ليكتب فى يومياته، بعد تقرير عن اليوم الذى قضاه فى الريف "جون هيليارد

مات في المساء". كان هيليارد بحارا عاديا، ذهب كودري إليه ليعالجه، ولكن كان فات أوان إنقاذ حياته. وكتب جندى مشاة البحرية وليم راى مرثية لرفيقة هيليارد حين مات. وبعد سنوات، انفجر راى غاضباً عندما قرأ التعليق "المقتضب" الذي كتبه الطبيب بعد أن نشر يومياته: لو أن الدكتور كودري أظهر من الاهتمام "بالبحار الذي كان يذوى في زنزانة موحشة" بما يماثل اهتمامه بحديقة الزهور الخاصة بالأمير، لكان جون هيليارد حيا الآن. وعندما نشر راى ديوان أشعاره، وضع تعليق كودري الموجز - "جون هيليارد مات في المساء" - فوق مرثيته لهيليارد^(١٦).

عاش الجنود والضباط حيوات جد مختلفة في الأسر. ففي مايو ١٨٠٤ نشرت الصحف الأمريكية رسالة من ضابط أسير في طرابلس الغرب. وتصف الرسالة كيف بعث يوسف قرامانلى إليه بالضباط بعد أن سمع أن أسرى الحرب الطرابلسيين في أمريكا يعاملون معاملة سيئة. وليقابل الإساءة بالإساءة طرد قرامانلى الضباط من قصره. وسبق الضباط عبر الشوارع المكتظة بجماهير غلبها الفضول وحرصت على أن تلقى نظرة على الأمريكيين الغرائبيين (EXOTIC) هذه هي الصفة الأساسية في الإنسان الشرقي كما يراه أهل الغرب ووصف الأمريكيين بهذه الصفة يعنى أن الكاتب يراهم هنا بعين الليبيين، موحياً للقارئ بأن الغرائبية ليست صفة أصيلة في أحد - المترجم)، وأخذوا إلى سرداب "أسود موحش أجدر به أن يكون مقر العفاريت من أن يكون مسكن البشر الفانين". لقد قصد الضابط التأثير في قارئ رسالته. وربما كان يردد، عن قصد، أصداء قصة من قصص الرعب وهو يصف أن "الشمس ذهبت نوافذ سجننا" عندما كان الرجال ينهضون من فوق أسرتهم الحجرية "وكيف أنهم سيقوا وسط دهماء" فاعرة أفواهها أخرجها "الفضول أو الأمل في النهب" ليروا الضباط الأمريكيين. ووصفه للسجن ذاته يبدو مأخوذاً من رواية رعب، مباشرة: جدرانه كانت "كاملة السوداء وتقطر منها رطوبة ممرضة، والسقف المقوس تتدلى منه العناكب"، كانت الأرضية غير مستوية وتزحف فيها الديدان، والضوء الوحيد يأتى من كوة صغيرة في السقف "وقد ساعد هذا البصيص الواهن على جعل العتمة مرئية". وعندما اعتادت عينا الضابط العتمة المرئية أخذ يفكر بالنهر ستايكس، النهر الجرافى الذى يفصل بين الأحياء والموتى.

وتبث المقطوعة بكاملها شعوراً بالرعب وباليأس. ولكن البطل، وفقاً لأفضل الأعراف الروائية، ينجو من مقر العفاريت: يلين الباشا يوسف في النهاية، ربما بعد أن لقن الأسرى درساً، ويعيدهم جميعاً إلى قصره. ويرتاح القارئ بقدر ما ارتاح الضباط بإفلاتهم من السجن. لكن التأثير الكلى يتغير، عن غير قصد، عندما يذكر الضابط أن بحارة فيلادلفيا سبقوا إلى السرداب، مقر العفاريت، وبقوا فيه بعد أن سيق الضباط عائدين إلى القصر مرة أخرى^(١٧).

ورغم اختلاف مراكز ومساكن الجنود والضباط، واستحالة اعتيادهم على الأسر، فإن قلة من الضباط تخلت عن وطنها وعن رفاقها لتعتنق الإسلام. فلو أنهم اعتنقوا الإسلام أو قرروا خدمة الباشا يوسف أو الداي فلربما كان أتيح لهم أن يعيشوا حياة رغدة.

وكان الكابتن برينبريدج يعتقد أنه "لم يوجد، قط، بين البشر الفانين من هو أسوأ أخلاقاً من جماعة البحارة" وصدمه أن بعض الأسرى من البحارة سرقوا ملابس لرفاقهم لشراء شراب. لكن انحطاطهم لم يبلغ درجة التبرؤ من بلدهم. ولم يتحول إلا خمسة من ٣٠٠ من بحارة فيلادلفيا فـ "أصبحوا أتراكاً" (TURKS يقصد مسلمين - المترجم)، وكان وليم راى ممتناً لأن "أول من دنس علمنا في طرابلس الغرب بهذا الفعل لم يكن أمريكياً حقيقياً بل ألمانياً" تعيس زنيم" خان رفاقه بالتجسس عليهم حتى قبل أن يتزى "بزى تركى"^(١٨).

وتيسر للمارقين أو المرتدين أن يعلو شأنهم في دول البربر. وكان أهم مسؤولين في طرابلس الغرب بعد الباشا مهاجرين، أو مارقين، تحولوا إلى الإسلام. فرئيس الوزراء محمد داغيس كان روسياً عمل سفيراً لطرابلس الغرب لدى إنكلترا وفرنسا وإسبانيا و نابولي قبل أن يصبح رئيس وزراء. أما أمير البحر مراد ريس فكان إسكتلندياً اسمه بيتزل ليزل وصل، في الحقيقة، إلى طرابلس الغرب بحاراً على السفينة بيتسى التي أسرتها طرابلس الغرب ١٧٩٦. وبقي ليزل هناك ليصبح أمير البحر الرئيسى عندهم وليتزوج واحدة من بنات يوسف قرامانلى^(١٩).

ورغم أن هذا الطريق كان مفتوحاً للأمريكيين أيضاً فقلة هم الذين سلكوه. وكتب ريتشارد أوبرايان في تقرير له أن الأسرى الذين أخذوا إلى قصر الداى فى ١٧٨٥ كانوا يلقون التشجيع على أن يتحولوا إلى أتباع لماهوميت" لكنهم رفضوا مفضلين دفع الفدية. وأحد من تعرضوا للضغط لكي يتحولوا كان كاثكارت الأيرلندى الذى كتب عن أيرلندى آخر يدعى كول وصل إلى الجزائر فى ١٧٩٣ فى الوقت الذى جىء فيه بمائة من الأسرى الأمريكيين إلى المدينة. وقد تسمى كول إبراهيم وقضى معظم وقته فى الجزائر فى ماخور يملكه أيرلندى آخر يدعى ديفنز. وربما مست قصة هذين الأيرلنديين وتراً عند كاثكارت، الذى ولد هو الآخر فى أيرلندا، وكان هو الآخر يملك الحانات فى الجزائر. وقد اعتبر كول وديفنز "أكثر الأشرار وعورة فى المملكة"، وقال إنهما موضع كراهية "من الأتراك والمغاربة واليهود والمسيحيين". فهل كان كاثكارت، وهو السكرتير المسيحى للداى ومنافس ديفنز، متورطاً فى الغارة الرسمية على الماخور وفى اعتقال هذين الأيرلنديين المارقين؟ لا شك أنه كان بين المسيحيين الذين أسعدهم أن يروا الرجلين وقد طردا من الجزائر مع تحذيرهما من العودة إلى الجزائر إذا كانا حريصين على حياتهما^(٢٠).

وروى أسير أمريكى آخر قصة البحار الفرنسى الذى قفز من سفينته فى فبراير ١٧٩٥ وتحول إلى الإسلام "بحماس مضلل". ورغم أنه كوفى بسخاء على تخليه عن دينه، فإن ضميره أرقه. ونم "الوجه المربد والهيئة المضطربة والطابع الحزين" لهذا المارق عن شعور "بالندم.. يأكل فؤاده". وقد كان قراره مصدر عذابه، فقضى ليالى أرق كثيرة يحاول فيها أن يجد مخرجاً. وعندما جاءت سفينة بريطانية إلى الميناء حاول هذا المواطن السابق فى الجمهورية الفرنسية أن يهرب بها، بأمل أن يجد تحت الراية البريطانية الأمن الذى لم يجده تحت الهلال. وقد ضبط وقطع رأسه فى ٢ يوليو ١٧٩٥، وهى نهاية اعتبرها الأسير الأمريكى مناسبة لـ "تعيس" استبدال "الدين الحقيقى بديانة ماهوميت". فما هى الأهمية التى تنطوى عليها هذه القصة التى طبعت فى فترة شهدت ما يشبه الحرب بين الولايات المتحدة وفرنسا؟ وما مغزى أن المارق الذى لا يقر له قرار على دين أو على بلد ينتمى له تقرر مصيره من قبل آخرين يوم ٢ يوليو، ذكرى اليوم

الذى اختار فيه الأمريكيون الاستقلال؟ تظهر هذه القصة الموجزة فى الطبعة الثانية لسردية فوس - ولا ذكر لها فى الطبعة الأولى. وقد تكون القصة عنصر تجميل تحريرى لهذه السردية عن الأسرى الأمريكيين، بالإشارة إلى الفارق بين الأسرى الأمريكيين الذين يبقون على ولائهم لبلادهم وبين الفرنسيين الذين لا عقيدة لهم. وسواء كان هذا الفرنسى خيالاً أو حقيقة فإنه كان ينتمى إلى أمة تحارب سلطة مسيحية. لقد هرب ليحتمى بالهلال، فى البداية، ثم بحث عن الحماية تحت الراية البريطانية. ولم يجد الحماية فى أحدهما من ضميره الشخصى^(٢١).

وربما تكون هذه الشحنة الأيديولوجية والسياسية بكاملها أكثر مما تحتل هذه القصة البسيطة. وقد تكون الحقيقة الوحيدة المهمة هى أن البحار كان فرنسيا وليس أمريكيا. فالأمريكيون لا يتنكرون لوطنهم أو لدينهم، وإذا فعلوا، أو إذا كتب أمريكيون آخرون عن "تحولهم إلى أتراك" فإن الظروف تكون استثنائية، وغالباً ما يكون اللوم على أمة أخرى. وقد علم موردكاى مانيول نوا القنصل الأمريكى فى تونس فى ١٨١٣ بأن بحارا أمريكيا يدعى ووكر اضطر للعمل فى البحرية البريطانية فى ١٨١٠. وكانت لوكر زوجة وأطفال فى بالتيمور لكن "القسوة المنظمة" التى تعرض لها من قبل الضباط البريطانيين جعلته ينسى وطنه وأسرته فى أمريكا. وعندما توقفت به السفينة فى الجزائر هرب منها ووكر متخلياً "عن وطنه وأسرته ودينه" طالباً اللجوء "وسط قطع من البرابرة". أجبرت القسوة البريطانية هذا الرجل أن يتبرأ من أمريكا ويعيش فى الجزائر^(٢٢).

وقد كانت لخيانة الضمير تبعات شديدة. ورغم أنه كان من السهل اعتناق الإسلام فقد كان من الصعب أن يغير الإنسان أفكاره. وقد تذكر وليم راي نهاية الحرب الطرابلسية، بعد أن اتفق يوسف قرامانلى والأمريكيون على معاهدة سلام. فقد استدعى إلى القصر خمسة أسرى أمريكيين ممن خانوا العلم الوطنى. وسألهم الباشا إن كانوا يريدون أن يبقوا فى طرابلس الغرب أو أن يعودوا إلى أمريكا مع رفاقهم السابقين. وقرر واحد فقط، وهو جون ويلسون الألمانى الذى كان أول من "تحول إلى التركية" أن يبقى. وكان الباقون قد ملوا طرابلس الغرب ويريدون العودة لوطنهم. لكنهم لم يرجعوا.

ويتذكر رأى ملامح الرعب على وجوه الرجال الأربعة عندما ساقوهم تحت الحراسة إلى خارج المدينة، ولم يشاهد أى منهم بعد ذلك، قط^(٢٣).

كانت التبعات شديدة، لكن الأمريكيون الذين عانوها كانوا قلة. وقد بقى البحارة الأمريكيون مخلصين لبلادهم، تحت وطأة الظروف الأشد قسوة، حتى عندما بدا أن الأمة تتخلى عنهم. كتب كاثكارت "يا أمريكا هل بوسعك أن ترين الحال التعيسة لمواطنيك فى الأسر، أولئك الذين بذلوا الدم ليضمنوا لك الحرية التى تتمتعين بها الآن؟ وقد اعتبر كاثكارت أسره مأساة حقيقية، فهو والأسرى الآخرون ساعدوا أمريكا فى نيل استقلالها، وهذا الاستقلال جعل السفن الأمريكية مكشوفة أمام الهجمات الجزائرية. وفيما كان الأمريكيون، على أرض الوطن، يتمتعون بمنافع الاستقلال، فإن كاثكارت والرجال الآخرون الذين ساعدوا على تحقيق الاستقلال "بقوا" ضحايا للسلطة المتعسفة والاستبداد البربرى".

وأحزن كاثكارت، على نحو خاص، أنه فيما كان هو وأمريكيون آخرون "منفيين" تعساء من البلد الذى حاربنا من أجله" فى الولايات المتحدة "أصبح حتى للزواج نصيب فى المشاورات التى تدور بينكم وحصلوا ثمار قوانينكم ونظمكم الحكيمة والمستقيمة، فيما نحن الرجال الذين ساعدوا فى كل مبادراتكم الحميدة، مستبعدون^(٢٤). لقد حارب الأمريكيون السود، هم أيضاً، من أجل الاستقلال وساعدوا فى المبادرات الحميدة الأخرى. وهذا اتجاه من المزعج أن تجده فى سرديّة عن الأسر. لم يشعر كاثكارت بأن أسره كان خطأ لأنه رجل يستحق الحرية، ولكن بالأحرى لأنه رجل أبيض. ورغم أن الأسرى الآخرين لم يضعوا اعتباراً للون بوضوح، كما فعل كاثكارت، فإن موضوع اللون يتخلل سرديات الأسر الأمريكية. فقد أسر الأمريكيون السود فى الجزائر وطرابلس الغرب وشبه جزيرة العرب وموريتانيا، لكن لسوء الحظ فإن أحداً منهم لم يكتب عن تجربته. إنهم يظهرون فى سرديات الآخرين وفى الروايات الخيالية عن الأسر. ورغم أن الأسرى من كل الجنسيات ممن أبحروا على سفن أمريكية - من ألمان وأيرلنديين وإنكليز وأمريكيين - وجلوا عنصراً مشتركاً بينهم باعتبارهم أسرى فى الجزائر فإن

هذه المشاركة لم تجتز حاجز اللون. فالخلافات بين الأسرى فى الرتبة أو فى المكان الذى وقع فيه الأسر أو فى أسباب الأسر هى غير ذات مغزى بالمقارنة إلى الاختلافات العرقية. فقد كان على الأسرى السود أن يحتملوا عبثاً إضافياً تمثل فى استبعادهم من التضامن الذى نشأ بين الأسرى الآخرين، وبالتمييز فى المعاملة الذى يلقونه من زملائهم بأكثر مما يلقونه من أسريهم. وربما كان كاثكارت انفراد بالمقابلة بين معاناته هو فى الجزائر وبين الحياة الطيبة التى ينعم بها السود فى أمريكا. لكنه لم ينفرد برؤية الحاجز الذى يستحيل اجتيازه بين البيض والسود، بأكثر مما كان والد هكبرى فن فريدا فى النظر إلى الظلم الذى يجعل الأسود أستاذاً فى الجامعة ويعطيه حق التصويت.

لم يسقط الأسر حاجز اللون حتى عندما كان يعمق لدى الأسرى الأمريكيين شعورهم بهويتهم باعتبارهم أمريكيين. وعندما غرقت السفينة كوميرس قبالة ساحل شبه الجزيرة العربية فى ١٧٩٢ فإن واحداً فقط من بحارتها الأربعة والثلاثين بيع كرقيق. كان ذلك جوبيا هيل من بوسطن، الرجل الأسود الوحيد على متن السفينة. وقد تم فصل هيل، على الفور، عن البحارة البيض ووضع مع ١٣ بحاراً من الهند الشرقية كانوا ضمن طاقم كوميرس. وعندما استغاث هيل، "فى أسوأ لحظات التأزم"، برفاقه البيض ومواطنيه الأمريكيين لينقذوه، صدم العرب أنه يتكلم الإنكليزية وشدوا وثاقه. وظل هيل يتوسل إلى البيض أن يؤازروه، لكن البحارة البيض الذين كانوا أنفسهم يتوقعون أن يشد وثاقهم فى أى لحظة، "أو نعدم على الفور إذا أظهرنا أى مقاومة" أصموا أذانهم عن سماع استغاثات هيل طالباً للنجدة. وفيما سمعوه يتوسل ويصرخ، قرر البيض فيما بينهم "إذا قرر العرب أن يمسكوا بواحد ما فسوف ننقذه أو نموت بونه" (٢٥).

وتبين أن العرب لا يبالون بأحد من البحارة البيض. كان العرب يمارسون تجارة رقيق واسعة فى شرق إفريقيا ولم يكن العبيد البيض مجدين لتجارتهم. وبعد أن جردوا البحارة البيض من أشياءهم الثمينة، التى كان منها، برأيهم "جوبيا هيل" عبيدهم "تركوا البيض لمصيرهم فى الصحراء". وبعدها باع العرب هيل لعصابة من البدو لقاء

ستين قطعة من الفضة، ووفقاً لرواية واحد من البيض الناجين فقد بقي "هذا الأسود من بوسطن مع العرب، ربما كواحد من العبيد". وربما نجا، كعبد، مع أسريه البدويين، فلم ينج من البيض سوى ثمانية من العشرين^(٢٦).

وفى ١٨٠٧ أوقفت سفينة تونسية سفينة تجارية أمريكية فى المتوسط وأمر القبطان التونسى جميع البحارة الأمريكيين بأن يصطفوا على ظهر السفينة. وثبت ناظريه على بحارين أمريكيين من المخططين وطلب أن يعرف البلد الذى جاء منه. وقال قبطانها إنهما أمريكيان. لكن لم يكن لديه دليل سوى أنهما جاءا مع بقية الطاقم من الولايات المتحدة. وكان القبطان التونسى "يسمع أن الأمريكيين مخادعون" وقال إن الرجلين يشبهان المسلمين رغم أنهما كانا حليقى الذقن والشارب، لونهما لون المسلمين ويتظاهران، برأى القبطان التونسى، بأنهما لا يفهمان العربية. كانت الحرب دائرة بين الجزائر وتونس وكان باى تونس بحاجة إلى كل أبنائه لمحاربة الجزائريين وأخذ التونسى الأمريكيين معه. ولم يملك البحارة الأمريكيون الآخرون من الحؤول دون ذلك. وكان ذهاب الاثنين من شأنه أن يسبب نقصاً فى الطاقة البشرية اللازمة للسفينة تعين تعويضه فى أليكانتى. وخطط القبطان الأمريكى لرفع الأمر إلى عناية حكومته. ومرة أخرى، وكما حدث مع جوبا هيل فى بلاد العرب، فقد اعترض الأمريكيون العرب لكنهم لم يكونوا ليدافعوا عن أمريكى أسود^(٢٧).

وكان سيبيو جاكسون رجلاً أسود من نيويورك أسره الجزائريون فى ١٧٩٣. وشأن البحارة الأمريكيون الآخرين فقد أرسلوه للعمل فى الحوض الجاف للسفن. وكتب جون فوس عن مصرع سيبيو جاكسون كمثال على قسوة الجزائريلى. مرض جاكسون، وبعد عدة أيام فى المستشفى الإشبانى، أجبره أحد المشرفين الجزائريلى على العودة إلى العمل فى حوض السفن. وعمل جاكسون بأقصى طاقته نصف ساعة لكن ذلك لم يكن مرضياً للمشرف الذى راح يضربه ليجعله يجتهد أكثر. وانهار جاكسون ومات فى أصيل ذلك اليوم^(٢٩).

وقد سجل جيمس ويلسون ستيفنز يوماً أكثر سعادة، من أيام جاكسون، في روايته "تقرير تاريخي وجغرافي عن الجزائر" وجاءت هذه الحكاية طرفة تخفف من الصورة المرسومة لقسوة الجزائريّة، ولتبين كيف يسلى الأسرى أنفسهم ويدبرون المقالب ليجعلوا حياتهم الصعبة أسهل. ذات يوم، وبعد أن انتهى "المغاربة والعبيد" من عملهم في حوض السفن، تجمعوا حول قدر كبير من الكسكس. تدافع الرجال ليكونوا في مقدمة الزحام حيث "أخذ أحد الأمريكيين سيبيو من كعبه وألقى به إلى القدر ليغوص فيه برأسه" وظل سيبيو يقاوم الغرق في المرق حتى سحبه أحد المغاربة إلى خارج القدر. كان هيل "مدهوناً بالأبيض" لكن لم ينله أذى، وضحك الرجال وأخذ بعض من الكسكس إلى قصر الداى^(٣٠). مدبر هذا المقلب كان يمكن أن يلقى في القدر بأى رجل واقف أمامه - وربما لم يكن لهذا المقلب أى مغزى عنصري. وربما لعب الأسرى مثل هذه الألعاب، بعضهم ضد بعض، بشكل متكرر تخفيفاً للملل والتأزم في حياتهم. والمقالب المسجلة في أدبيات الأسر قليلة، وهذه الحادثة التي يحتل فيها سيبيو مركز الضحية تتناقض مع التضامن الذي يحرص عليه الأسرى البيض في مواجهة العالم المسلم المعادى، تناقضاً واضحاً. فسيبيو يدعى "أمريكا أسود" وليس أسيراً أمريكياً. ويلقى به إلى القدر أمريكى أبيض، ويخرجه منه مغربى. وكل الأسرى الآخرين يضحكون، ولم تقل الوثائق إن كان سيبيو شاركهم الضحك.

وكان بوسع الأسرى السود استخدام الفكاهة للتخفيف من عذابهم. هذا ما تعلمه جيمس رايلي على يدى عبد أسود اسمه بويريك، عندما غرقت سفينة رايلي "كوميرس" قبالة موريتانيا في ١٨١٥. فكل ليلة، بين صلاة العشاء، وحلب النياق في منتصف الليل، وعندما كان رايلي والأمريكيون يحاولون الحصول على قسط من الراحة، كان بويريك يسلى النساء العربيات وأسرى المعسكر باستعراض فكاهاى. وقد اجتذب بويريك "دائماً كثيراً من المشاهدين المعجبين بفطنته والذين تضحكهم ألعيبه وبهلوانيته" التي كان يوجه معظمها للنيل من الأسرى الأمريكيين. وقد أظهر بويريك للجمهور كم أن

الأمريكيين مخلوقات تثير الشفقة، بالإشارة بعضاً إلى جلودهم التي احرقتها الشمس قائلاً "لا يستطيعون حتى احتمال أشعة الشمس (صورة الرب، كما يسمونها) وهي تشرق عليهم". وكان بويريك يخاطب رايلي، بخبث باعتباره "الريس" أو القبطان، ساخرًا من اللقب السلطوي الذي كان يحمله هذا الذي يقف عارياً وعاجزاً كأنه ظل رجل. واستمتعت النساء العربيات اللاتي كن، في هذا المجتمع، يماثلن بويريك أو الأسرى الأمريكيين، من حيث أنهن بلا سلطة، بـ "تهريج" الأسود، على نحو خاص وبقيين في ضحك صاخب حتى منتصف الليل" حيث يأتي موعد حلب النياق.

وقد تفهم رايلي ما كان يفعله بويريك، لكن الأسرى الأمريكيين الآخرين لم يفهموه. وشكا جيمس كلارك إلى رايلي من أنه يكفي "أن ننحط لمرتبة العبيد عن العرب المتوحشين" وأن "نعري وننوي ونهان" أما أن نحتمل "سخرية ومهانة من عبد أسود ل... ن" فهذا ما كان يفوق احتمالاه. وشأن كاثكارت لم يحتمل كلارك فكرة أن رجلاً أسود استوعب الظرف بأفضل منه. وطلب رايلي من كلارك أن "يترك الزنجى يضحك، إذا وجد مسرة في ذلك، أنا مستعد لجعله يفعل ذلك، ولو على حسابي: إنه هو ذاته عبد بائس، عار ومعدم، ويعيد الأهل والأصدقاء، وهو يحاول - فقط - أن يحوز رضا سادته وسيداته، بالسخرية منا، إذ يعتبرنا أدنى مكانة بالنسبة إليه كما أنه أدنى مكانة بالنسبة لهم" (٣١).

حاول بويريك، برأى رايلي، أن يتجاوز الأزمة بجعل الحياة محتملة. وبالسخرية من الأمريكيين أسس تفوقه عليهم. وكان رايلي مستعداً، هو الآخر، للجوء لأي وسيلة تساعد على اجتياز المحنة. وقد جعله عذابه أقدر على فهم العبودية والسلطة بشكل أعمق. وسوف نفحص عذابات رايلي، على نحو أكثر اكتمالاً في فصل تال، لقد تعلم في أسره درسا فـات كاثكارت وكلارك. فما دام الأمريكيون امتلكوا العبيد، فلم يكن بوسعهم أن يكونوا، هم أنفسهم، أحراراً.

لم يكن الأمريكيون الذين أسروا في العالم المسلم عبيداً بالمعنى المفهوم لدى الأمريكيين. فأسروهم المسلمون فهموا العبودية على نحو غير ذلك الذي فهمه الأمريكيون. بالنسبة للأمريكيين كانت العبودية قيذا تعسفيا دائما على الحرية. أما بالنسبة للمراكشيين أو الجزائريين أو أهل الجزيرة العربية ممن أسروا البحارة الأمريكيين، فقد كانت العبودية حالة مؤقتة يمكن للغرباء أن يخرجوا منها بفدية تعيدهم إلى أوطانهم أو بقبولهم في المجتمع المسلم. وبالنسبة للأمريكيين مثلت العبودية العار وإنكاراً لآدمية: كان هذا التعريف ينطبق على الأوضاع في أمريكا. ولم يكن بوسع البحارة الأمريكيين أن يقبلوا العبودية وأن يبقوا أمريكيين. وهكذا كان أسرهم في العالم المسلم اختباراً لشخصية الأمريكيين الذين احتملوه.

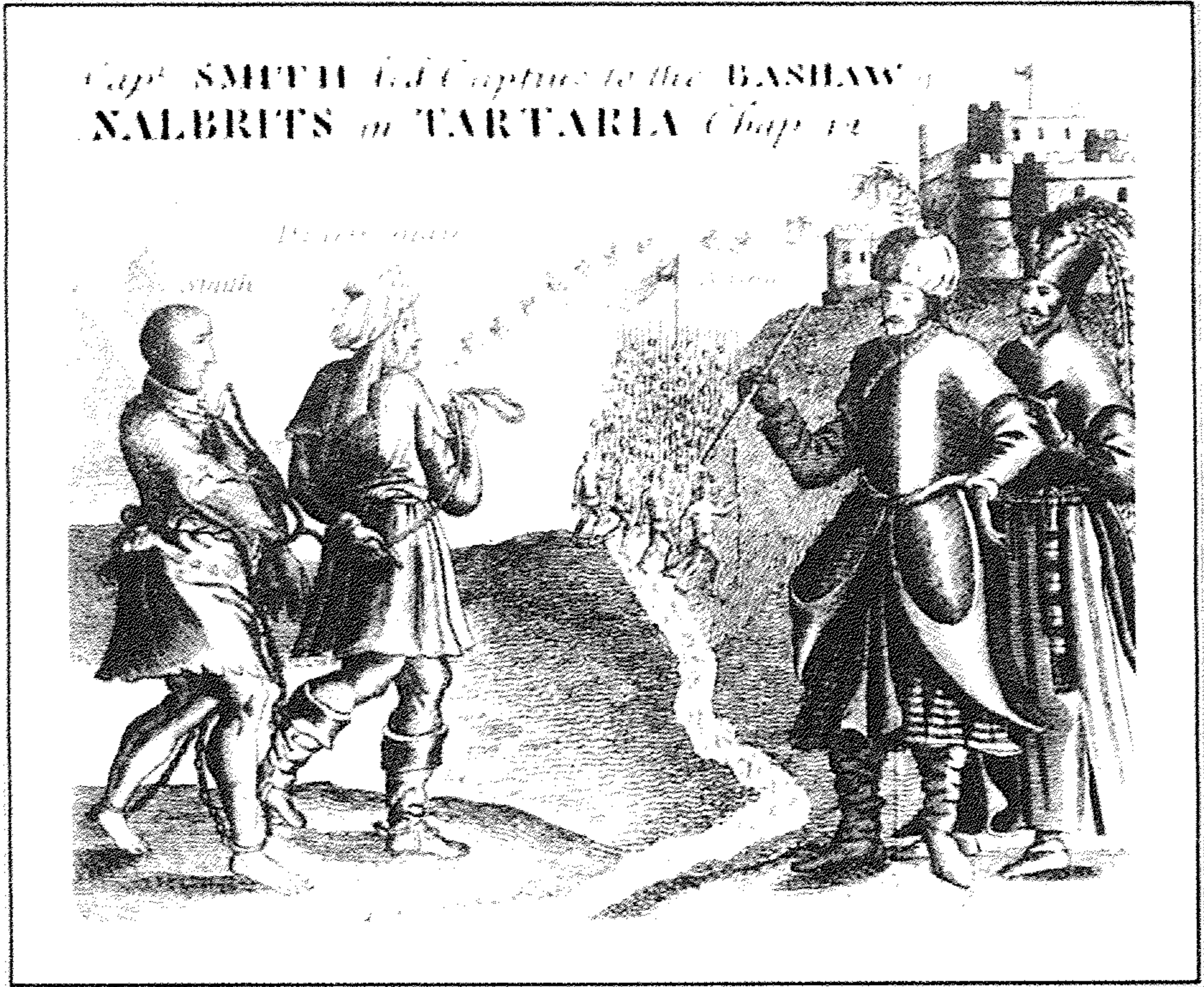
ومن ناحية أخرى، فالدول المسلمة قبلت بالعبيد السابقين في مراكز السلطة والنفوذ. فكل من قبل بالإسلام أصبح أخاً في العقيدة، وبالمقابل، فإن الأمريكيين وضعوا خطاً فاصلاً بين من يسمح لهم بأن ينضموا لمجتمعهم السياسى ومن لا يسمح لهم بذلك. وقد بقيت وشائج الهوية الأمريكية، لأن الرجال لم يتبرؤوا من بلادهم. ولكن الأمريكيين وقد كونوا مجموعة واحدة من الوشائج السياسية فإنهم لم يفكوا الوشائج الأخرى الأكثر قوة، وشائج العرق والطبقة. بل إن الأسر قوى هذه الوشائج. فحافظ الضباط الأمريكيون على انضباط الجنود الأمريكيين ووقف البحارة الأمريكيون ينظرون فيما كان رفاقهم السود يحملون إلى أسواق الرقيق أو يضحكون عليهم حين يقذف بهم في أوعية الكسكس.

لقد اختبر الأسر في بلاد المسلمين شخصيات الرجال الذين احتملوه، لكنه اختبر، أيضاً، شخصية وطنهم. واجه الأسرى، باعتبارهم أفراداً، مشكلة مدى الاحتمال ومدى مسؤولياتهم تجاه إخوانهم. هل يسرقون ملابسهم ليشتروا المشروبات، كما فعل بعض بحارة فيلادلفيا، أم سينفقون كل ما لديهم من طاقة ليخلص بعضهم بعضاً من العبودية والموت؟ وعلى أرض الوطن، تعين على الأمة الأمريكية أن تسأل أى نوع من الأمم هي إذا سمحت لأبنائها بالبقاء في الأسر، وأى نوع من الحكم أقاموا إن لم يخلص مواطنيه من الأسر في بلاد البربر.

١ - المقابلات الأولى(*)

بدأ كابتن جون سميث، الذى أسس جيمستاون فى فيرجينيا، بعد ذلك حياته المهنية مرتزقاً يحارب الأتراك فى أوروبا الشرقية. وقد أسره العدو المسلم، ويرى هنا وهو يساق أسيراً إلى باشا نالبرتس. لكن سميث لم يقبل بأسره، فقتل أسره، وسرق حصانه وهرب. وقد تذكر سميث هذه المقابلة، فيما بعد، عندما وصل إلى فيرجينيا ووقع معاهدة مع بوهاتين.

- كابتن سميث يساق أسيراً إلى باشا نالبرتس فى بلاد التتار. الفصل ١٢ من الأسفار الحقيقية والمغامرات والملاحظات للكابتن جون سميث، فى أوروبا وآسيا وإفريق وأمريكا.. (لندن ١٦٢٩ / ريتشموند ١٨١٩) بتصريح من الجمعية الأثرية الأمريكية.



(*) الصور بين صفحتى ١٢٦ و ١٢٧ فى النسخة الإنكليزية.

- كابتن سميث يقتل باشا نابرتس ويهرب على حصانه. الأسفار الحقيقية والمغامرات والملاحظات للكابتن جون سميث في أوروبا وآسيا وإفريق وأمريكا.. (لندن ١٦٢٩ / ريتشموند ١٨١٩) بتصريح من الجمعية الأثرية الأمريكية.



٢ - من صور السلطة



- مال الغربيون إلى رؤية العالم المسلم باعتباره مكاناً بلا قانون، حيث لا يمكن السيطرة على الطبيعة المتوحشة للإنسان إلا بحكم مطلق. ويظهر هذا الرسم بالألوان المائية من القرن التاسع عشر حاكم طرابلس الغرب مسلحاً بثلاث سكاكين ويسيف يبدو، ويا للخرابة، كالثعبان. ويمكن لقدرة على التحكم بشعبه، في النهاية، أن تدمره. "سيدي حسن، باي طرابلس" (فنان مجهول، بعد ١٨١٣). بتصريح من مكتبة بوسطن العامة، قسم النسخ، مجموعة هولت.



- هذا البورتريه الهولندي أو الألماني من القرن السابع عشر لملك مغربي. يمكن بسهولة، أن يكون بورتريه حاكم هندي أمريكي. وغالباً ما وجد الأمريكيون تشابهاً بين سكان الصحراء - البربر والطوارق - وبين الأمريكيين الأصليين، إذ رأوا أن كليهما يعيش حياة بسيطة، مع إمكانية البساطة النبيلة أو البربرية المتوحشة - "EIN KONIG DER MOH REUIN ORIENT" (كاسبار لويكين) بتصريح من مكتبة بوسطن العامة، قسم النسخ، مجموعة هولت.

٣ - الجنوسة فى العالم المسلم

- هاتان النسختان من القرن التاسع عشر تظهران الصورة المزدوجة لدى الغربيين عن المرأة المسلمة. فقد كان الغربيون يأسفون لقمع المرأة المسلمة المرموز إليها فى النسخة الأولى بتخفى هذه المرأة، بشكل كامل. وفى النسخة الثانية، حلت محل التخفى حسية غير مكبوتة، إذ تخلع الراقصة المغربية طبقات الثياب التى تغطيها. وربما كان التضيق على النساء، من وجهة نظر الغربيين الذين ساءهم، على الأقل، ضروريا لمنع هذا النوع من الكشف الشهوانى.



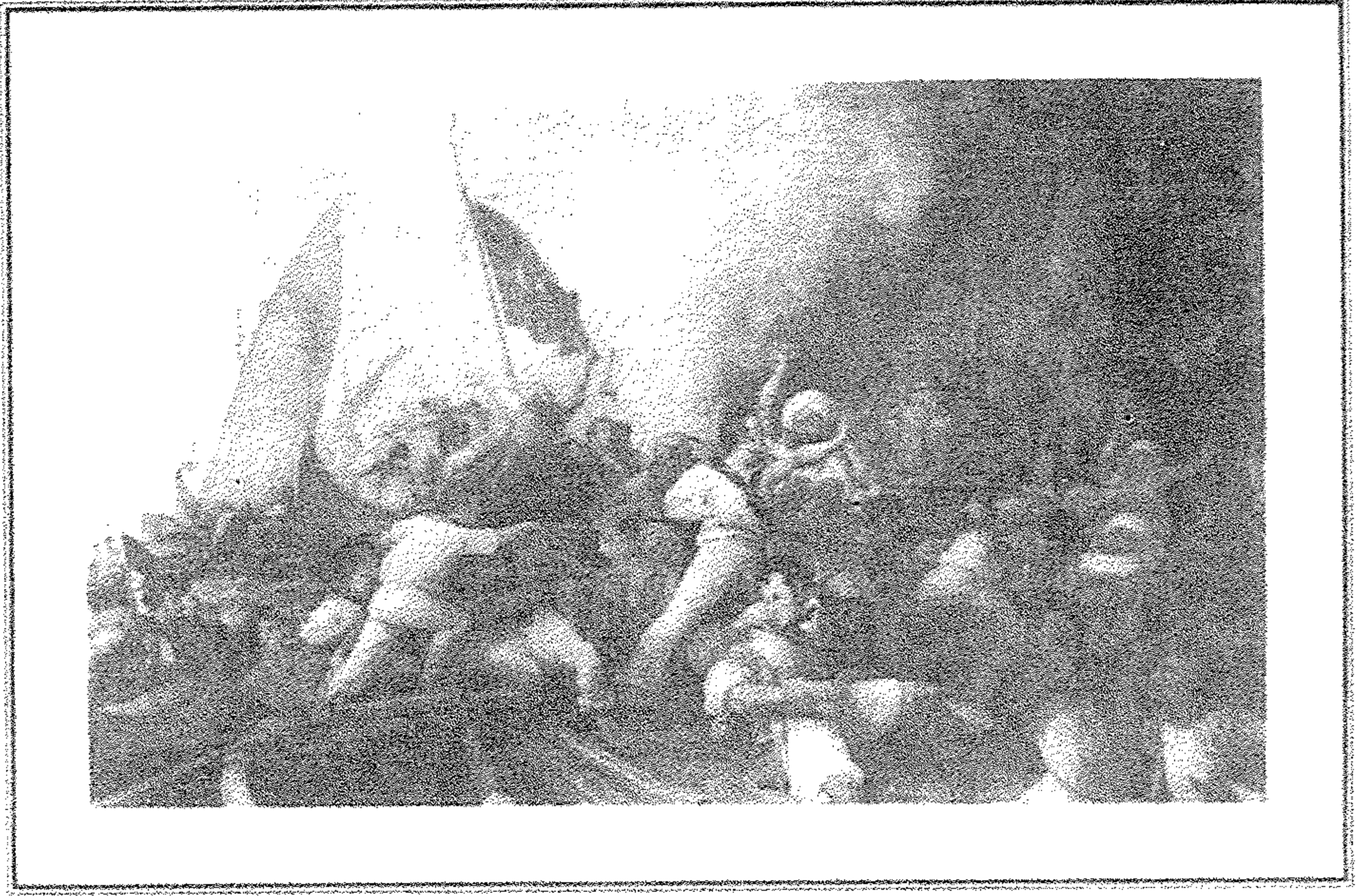
- يتفضل السلطان على السلطانة والنساء الأخريات في السراى بمنحة المشى في الحدائق أربع أو خمس مرات في السنة، وفقاً لهذا الرسم بالحفر. ويستوثق الحضيان البيض من أنه لا وجود لأحد في حدود ١٠٠ خطوة من أسوار الحديقة، ويصحب الحضيان السود السيدات في نزهتهن. اللوحة ٢٠، أويرى دولا موتراى. رحلات عبر أوروبا وآسيا وإلى قسم من إفريقيا (لندن ١٧٢٣) المجلد بتصريح من مكتبة بوسطن العامة.



- يظهر هذا المشهد رجلا مسيحيا (الشكل g) يحاول أن يبيع ابنتيه (الشكلين F و E) إلى تاجر فارسي (الشكل H). خمسة موسكوفيين واقفين". جزء من خريطة بحر قزوين، من أسفار عبر أوروبا وآسيا وقسم من إفريقيا لأوبري دولا موتراي (لندن ١٧٢٣) المجلد بتصريح من مكتبة بوسطن العامة.

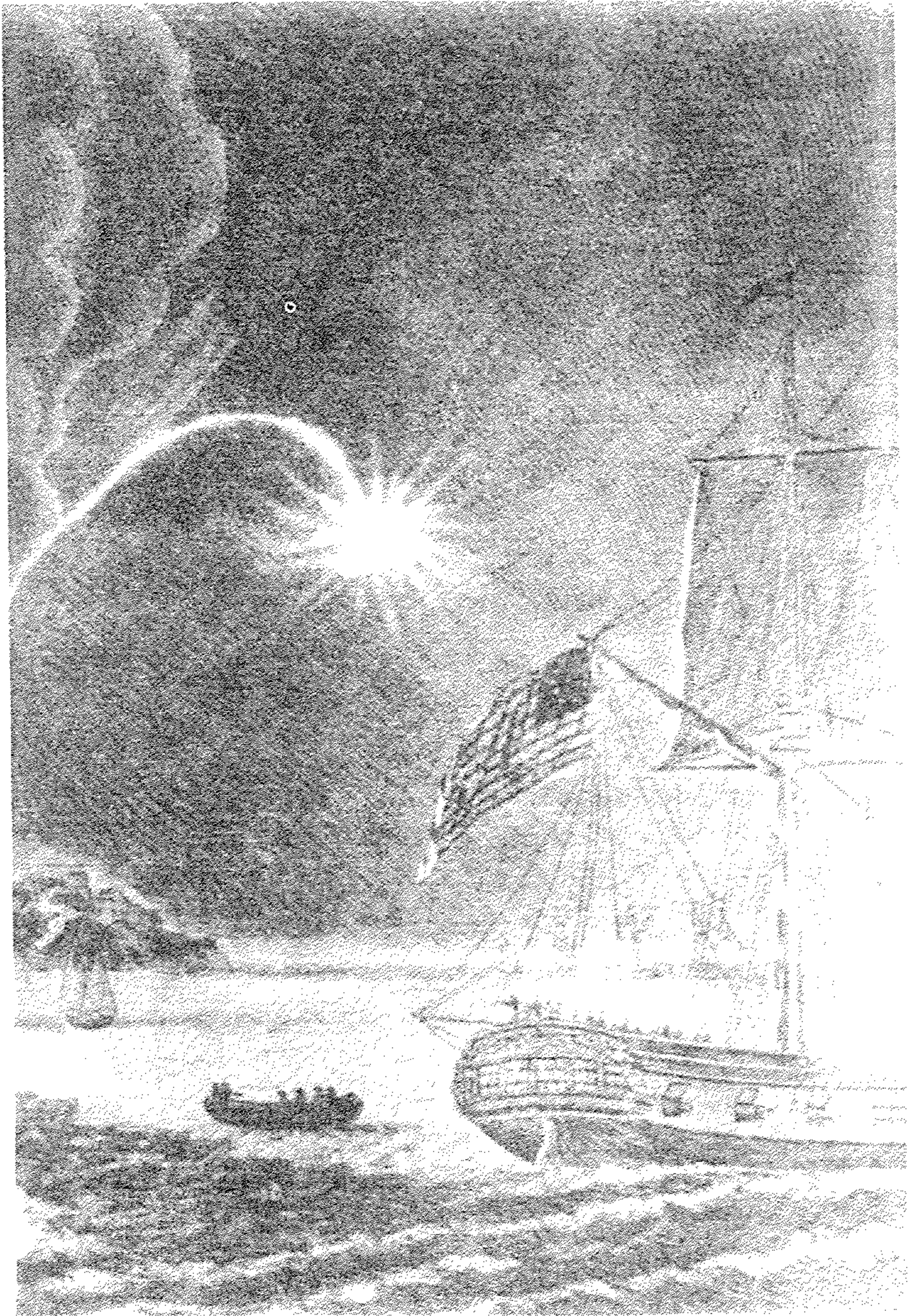


- يشاهد ستيفن ديكتور أسفل الوسط على اليمين، يخوض صراعاً قاتلاً مع القبطان الطرابلسي. وقعت المعركة في أثناء قصف طرابلس الغرب يوم ٣ أغسطس ١٨٠٤. "ديكتور يصعد إلى زورق مسلح طرابلسي" لوحة جينيس مالوني كارتير. بتصريح من مؤسسة التاريخ البحري.



- تحولت إنتربييد إلى قنبلة عائمة حاول كابتن ريتشارد سومرز واثنان عشر رجلاً الدخول بها إلى ميناء طرابلس الغرب، سرا ولأنهم اكتشفوا قبل أن يصلوا أسوار قلعة الباشا فقد فضلوا "الموت وتدمير العدو على الأسر وعذاب العبودية" ففجروا السفينة وهم فيها. وقد خلد تراث البحرية سومرز ورجاله الاثنا عشر. وبعد ذلك بثلاث سنوات تزوجت شقيقة الملازم هنري وادزورث من ستيفن لونغفيلو، وخلدت اسم أخيها البطل بأن أسمت ابنها البكر هنري وادزورث لونغفيلو. تفجير "أنتربييد" سفينة النار. بتصريح من مجموعة بيفرلى. آر. رويسنن، متحف البحرية الأمريكية.





– على عكس النساء التركيات أو الجركسيات أو المغربيات أو الإفريقيات السود اللاتي يمكن أن يقبلن حياة الحریم فإن ماريا مارتن الأمريكية / الإنكليزية قاومت محاولات الحاكم التركي في الجزائر للتودد إليها ووضعت في حبس انفرادي.



الفصل السادس

العالم المسلم والإحسان الأمريكي

ظل قرابة أربعين من الأسرى الأمريكيين معذبين فى الجزائر، لمدة ثمانى سنوات بعد ١٧٨٥، يتساءلون متى سوف تخلصهم بلادهم. وفى ١٧٩٣، عندما أسرت الجزائر مائة أمريكى آخرين، لم يعد بمقدور بلادهم أن تواصل تجاهل مصيبة الأسرى. وفى مختلف أنحاء الولايات المتحدة، كان المواطنون الأفراد يتنافشون حول أفضل الطرق لإعادة الأسرى، وضغط بعضهم على الحكومة لتتصرف بقدر أكبر من القوة والسرعة. وكانت حكومتهم تصر على أنها تفعل كل ما بوسعها، وعندما وعد المواطنون الأفراد بأن يتصرفوا بطريقتهم، رفضت الحكومة عروضهم الخيرة. واكتسب الجدل معنى يتجاوز استعادة الأسرى بأفضل الطرق الممكنة. واعتبرت إدارة جورج واشنطن، التى ترى أنها انتخبت لتتولى شؤون السياسة الدولية، أن المواطنين العاديين الذين يريدون دفع الجزية لاستعادة الأسرى يتدخلون فى عمل الحكومة. وتساءل بعض المواطنين العاديين الذين اعتبروا تخفيف آلام المعذبين أهم من الامتيازات الرئاسية عن نوع أولئك الناس الذين يتركون إخوانهم يرسفون فى الأغلال. وقبل أنصار الإنسانية، بشكل استثنائى، زعم الحكومة أنها تفعل ما بوسعها، على أساس ثقتهم فى الطبيعة الخيرة للرئيس جورج واشنطن.

لكن أنصار الإنسانية لم يكن بوسعهم أن يعدوا بأن يقنعوا بالانتظار وهم يخوضون نقاشاً مطولاً ومؤملاً فى ١٧٩٤ و ١٧٩٥ وتساؤلات عن مصير شعب يتجاهل صرخات المستبعبدين. وفى هذا النقاش تتضح لنا بداية الصراع بين الاستمراء، أو مساندة

الأمر القائم، وبين النزعة الخيرية عند أنصار الإنسانية الذين يفوق حرصهم على فعل الخير الحرص على السلام أو النظام. وقد تتساءل الروح الخيرة: أى جدوى فى السلام أو النظام للكثيرين إذا كان ثمنه العبودية للبعض؟ وفى الجدل حول الجزائر، علم أنصار الإنسانية أن واشنطن، مهما كان حرصه على الامتيازات الرئاسية، كان يتحرك باتجاه الهدف ذاته، ولكن عبر طريق مختلف. أما فى الجدل الذى تلى ذلك، والذى دار حول العبودية فى أمريكا، كان بوسع أنصار الإنسانية أن يروا زعماء الأمة يتحركون، ليس فقط على طريق مختلف، بل وفى اتجاه هدف مختلف. وكان على أنصار الإنسانية أن يعلموا، فيما بعد، القدر الذى كان ينتظر الأمة التى تتجاهل صرخات المستبعبدين. لم يكونوا ليواجهوا اللامبالاة الأخلاقية والاستمراء للذين واجها حركة ١٧٩٥، بل وأيضاً عداء وخصومة معلنة من رجال فى السلطة.

ففى أوائل ١٧٩٤ عندما وصلت أنباء أسرى الجزائر إلى الولايات المتحدة، حاول بعض الأمريكيين مساعدة مواطنيهم. وشكل بعض المهتمين من المواطنين فى ساليـم "جمعية صغيرة" لجمع المال "لإغاثة المعلومين من الأسرى فى قبضة الجزائرية".

وفى فيلادلفيا شكل رجل الأعمال الجمهورى ستيفن جيرارد وآخرون لجنة تجمع المال لإغاثة الأسرى. وجمعت هذه الجهود، وأمثالها، مبالغ صغيرة، كان المتبرعون يأملون أن يخففوا بها آلام الأسرى أو أن يشتروا بها حريتهم. ورغم أن تركيز المتبرعين وجامعى التبرعات كان على التبرعات الفردية، فقد ضغط بعضهم، إضافة إلى ذلك، من أجل عمل حكومى أكثر سرعة.

وفى أبريل ١٧٩٤ كتب مواطن مجهول أسـمى نفسه "إحسان" إلى وزير الخارجية إدموند راندولف يقول إنه فى نيو إنغلند "فإن معاناة مواطنينا فى الجزائر" كانت موضوعاً مشتركاً بين كل المناقشات، وإن المزارعين فى كافة أرجاء نيو إنغلند كانوا مستعدين للمساهمة: لم يتعهد أحد بأقل من دولار، وتعهد "إحسان" بعشرة جنيهات. ولم يكن "إحسان" راغباً فى أن يملى سياسة ما على الرئيس لكنه اعتبر أن بوسع واشنطن تشجيع المساهمة العامة. وكان هذا يعنى مجرد تنظيم الأمريكيين ليضعوا

ما كانوا، بالفعل، راغبين به. ولو أن واشنطن أصدر إعلاناً يحض الناس على التبرع، وقرئ الإعلان في الكنائس، في مختلف أنحاء العالم، فمن المؤكد، برأى "إحسان" أن المبلغ الذى سيجمع سيكون "مبلغاً هائلاً" وسوف ينعم واشنطن بالشعور بالرضا لأنه يقود الشعب الأمريكى، فى الاتجاه الصحيح^(١).

ولم يكن "إحسان" يعلم أن الرئيس سبق له رفض هذه الفكرة. وفى ١٧٨٩، بعد خمس سنوات اقترح عملاق الملاحة ماثيو إيريون، وهو مالك السفينة الأسيرة "نوفين" مسألة التبرع العام، على نحو مماثل، على الرئيس واشنطن. وكان لدى إيريون اهتمام إنسانى بالأسرى إضافة إلى مصلحة مالية فى تخليصهم، لكنه حذر واشنطن، أيضاً، من الوصمة التى قد توصم بها الحكومة العاجزة عن حماية مواطنيها فى الخارج. واقترح إيريون أن يشجع الرئيس التجار وغيرهم على التبرع لتخليص الأسرى. لكن واشنطن لم تعجبه فكرة استخدام منصبه العام لتحقيق ما بدا له مصلحة خاصة. بل وكان أقل ارتياحاً لفكرة تدخل المواطنين العاديين ليؤدوا وظيفة الحكومة. وافق واشنطن على أن حماية المواطنين الأمريكيين هى مسؤولية الحكومة. وإن بدا أفراد من المواطنين الأمريكيين تخليص الأسرى، فقد يضر ذلك بالمفاوضات الصعبة بين الولايات المتحدة والجزائر. "ولم يقتنع بأنه من الملائم" بالنسبة له أن يقترح أو يصادق على "تبرع من التجار وغيرهم.. لجمع مبلغ لإنقاذ هؤلاء التعساء" من العبودية. ورغم أن الرئيس واشنطن وعد "أن يقدم كل عون، بكل سرور" من أجل إطلاق الأسرى، فقد اعتقد أن المساهمات الخاصة قد تعوق المفاوضات، التى كان وزير الخارجية جيفرسون يجريها، آنذاك. وقد كانت رعاية الأسرى وظيفة الحكومة الجديدة، رغم أنه لم يكن بمقدور واشنطن أن يخبر إيريون بما إذا كانت مفاوضات جيفرسون ستنتج^(٢).

وقد كانت لإيريون مصلحة مالية فيما تفعله الحكومة: أراد أن تعيد الولايات المتحدة سفينته وأن تحمى سفنه التجارية الأخرى فى المتوسط. وحث آخرون، مثل ستيفن جيرارد على العمل لأسباب سياسية. فقد تشكلت لجنة جيرارد الخيرية، فى الحقيقة، لمناهضة السياسات الأمريكية الموالية لبريطانيا ولمساندة فرنسا الجمهورية فى حربها ضد إنكلترا - أما الأسرى البؤساء فقد جاؤوا بعد ذلك. وكان جيرارد وغيره

من الجمهوريين يعلمون أن إنكلترا كانت وراء الهدنة بين الجزائر والبرتغال، وهذا الاتفاق أطلق "بربر إفريقيا لينهبوا ويستعبدوا مواطنى الولايات المتحدة" فأصبح سبباً آخر للاستياء من بريطانيا. وهذه الأنانية أو السياسية جعلت واشنطن يشك فى نوايا أشخاص مثل "إحسان" الذى يفترض أنه كان شديد الاهتمام بمعاناة الأسرى. أما مسألة الحكومة التى تسمح بأن يبقى مواطنوها فى الأسر، فقد كان واشنطن يعلم، وكذلك كان جيفرسون، أنه لو أظهرت الولايات المتحدة حرصاً زائداً على تخليص أسراها فقد كان الجزائريون - يعرفون أن الأسرى الأمريكيين صيد سمين^(٣).

ولم يكن لدى واشنطن فى ١٧٩٤ أى ميل إلى جعل المواطنين العاديين يقررون السياسات العامة. كانت إدارتها قد انتهت للتو من قمع تمرد فى غرب بنسلفانيا، حيث قرر المواطنون أن فرض ضريبة على الويسكى أمر خاطئ، ورفضوا الدفع، ومنعوا جامعى الضرائب من جعل أحد منهم يدفع الضريبة. واعتقد واشنطن أن ما شجع على ذلك هو تأليف المواطنين لجمعيات ديمقراطية - جمهورية لمناقشة القضايا السياسية والضغط من أجل سياسات حكومية معينة. ورغم أن دعاة الخير ودعاة الإسراع بتخليص الأسرى زعموا أن دافعهم هو التعاطف فقد كانوا يحاولون، رغم ذلك، أن يقرروا للمسؤولين المنتخبين إلى ما يجب عمله. أما فكرتهم عن جمع الأموال وإرسالها إلى الجزائر، بعيداً عن أجهزة الحكومة، بطريقتهم الخاصة، فقد كان هذا يعنى الاستيلاء على السلطة القانونية، تماماً كما قرر أهل غرب بنسلفانيا أنهم ليسوا ملزمين بطاعة قانون فرض الضريبة.

هذا الجو السياسى المشحون حال دون حدوث التعاطف العام الذى كان "إحسان" يأمل أن يجده. وفى رسالة إلى الكونغرس انتقد واشنطن "الجمعيات التى نشأت ذاتياً" والتى حاولت أن تملى على الحكومة سياساتها. وهاجم واشنطن الجمعيات الديمقراطية - الجمهورية والمجموعات المشابهة لما حاول جيرارد إنشاءه فى فيلادلفيا، الذين اعتبروا أنفسهم حكومة بديلة، تم تنظيمها بالمعارضة للممثلين المنتخبين، على نحو صحيح. ورغم أنه كانت هناك فروق عميقة بين أنصار الإنسانية فى نيو إنغلند الذين أرادوا جمع المال لتخليص الأسرى فى الجزائر وبين الديمقراطيين - الجمهوريين

الذين لم يكونوا راغبين في دفع ضرائب على الويسكى فقد كانا، كلاهما، من جماعات المواطنين غير الرسميين الذين لم يكونوا مسؤولين أمام أحد سوى أنفسهم، والذين نظموا أنفسهم لتوجيه سياسة الحكومة. وكان لدى واشنطن من الاتساق ما يجعله يدرك التشابه، وقد عارض الحركة الخيرية باعتبارها تدخلاً غير مقبول في سلطات الحكومة^(٤).

لكن صمت واشنطن المدوي بخصوص القضية تعرض للضغط في يوليو. فقد كان مساعده السابق دايفيد همفريز، الذي أصبح وزيراً لدى البرتغال، قد كلف بالتفاوض حول معاهدة مع الجزائر. وقد كان همفريز سكرتيراً للمفوضين الأمريكيين في أوروبا - جيفرسون وأدامز وفرانكلين - عندما بدأوا التعامل مع شؤون دول البربر في ١٧٨٥. واختار جيفرسون، عندما أصبح وزيراً للخارجية، همفريز للتفاوض مع الجزائريين بعد أن مات وكيلاه الآخران جون بول جونز وتوماس باركللي، في ١٧٩٣. وقد تأثر همفريز، تأثراً عميقاً، بمصيبة الأسرى الأمريكيين، واعتقد أنه من المهم حشد الرأي العام الأمريكي لصالحهم. وقد وجه رسالة مطولة لتنشرها الصحف الأمريكية تدعو إلى يانصيب وطني لجمع المال لتخليص الأسرى.

وهذا أربك القضية. فالكمل كان يعلم أن همفريز هو من الدائرة الداخلية لواشنطن، وبما أنه من المفترض أن يفاوض الجزائر فإن "خطابه" بدا سياسة رسمية. كتب همفريز إن الولايات المتحدة لا يجب أن تتفاوض حول معاهدة قبل إطلاق الأسرى، وقال إن سياسة إرساء السلام أولاً، وإطلاق الأسرى بعد ذلك، سياسة خاطئة.

فمن المؤكد أن الفراغ من قضية الأسرى من شأنه أن يساعد المفاوضات، وتخليص الأسرى مقابل عدة مئات من ألوف الدولارات، من شأنه أن يحل المشكلة. وفي الوقت ذاته، أكد همفريز الضرورة الإنسانية للتحرك. فالطاعون "هذه العقوبة السماوية الرهيبة" يفتك بالجزائر "مدينة التعاسة البشرية"، وما لم يخلص الأسرى على وجه السرعة، فسوف يموتون في الجزائر. وذكر همفريز، وهو شاعر، الشعب الأمريكي بأن بعضاً من "إخوانهم المواطنين الشجعان" الذين هم الآن "محشورون بشكل جائر في

سجون ضيقة قد "حاربوا الممارك التي أسست استقلالنا". وربما بالغ في هذه الصور، لكنه كان يعلم أن "الخيال بوسعه أن يضع أمام عين العقل الصورة البشعة لمثل هذه الحالة، بأفضل من الوصف".

واحد آخر من مساعدي واشنطن، وهو بنجامين لينكولن الذي أصبح جامع ضرائب في بوسطن أريكه ما قرأه من رسالة همفريز، كان لينكولن يعلم ما هي سياسة واشنطن ويرى أن همفريز يمضى بعكس اتجاهها. وهكذا أرسل النسخة التي لديه إلى وزير الخارجية إدموند راندولف طالباً تعليماته. وكان لينكولن يعلم أنه عندما يوجه مواطن عادى رسالة كهذه إلى الشعب الأمريكى، مطالباً بتغيير فى سياسة الحكومة فإنه، شأن الغالبية من الشعب الأمريكى، سوف يتجاهلها، بكل بساطة. لكن همفريز كان قريباً إلى واشنطن، ومكلف بمعالجة المفاوضات مع الجزائر. هل كان يطمس المساحة الفاصلة بين مشاعره الإنسانية وواجباته الرسمية؟

اتفق وزير الخارجية راندولف مع لينكولن فى الرأى. وعندما تسلم راندولف الخطاب من لينكولن، كان قد نشر فى عدد من الصحف الأمريكية. وتأثر الناس بوصف همفريز لبلوى الأسرى وظنوا أنه يتحدث بلسان حكومتهم. وكلف راندولف بمهمة حساسة وهى تقرير همفريز، من دون استعداد، ورفض كرم الشعب الأمريكى مع شكرهم على ذلك الكرم. وقال راندولف إن اليانصيب الذى اقترحه همفريز غير ضرورى، حيث إن الحكومة خصصت، بالفعل، ٨٠٠,٠٠٠ دولار "لاستمالة الداي إلى السلام والقديّة" ورغم أنه لا يسع الحكومة قبول مساهمات خاصة لإدارة الشأن العام، فإن راندولف قال إنه سيوجه أى تبرعات خاصة إلى الأسرى فى الجزائر كإغاثة مؤقتة. وفى الوقت ذاته طلب راندولف من همفريز أن يحتفظ بمشاعره الخاصة بعيداً عن التأثير على مسلكه العام. ومضى راندولف إلى القول إن رسالته "ليست فوق النقد"، وإن بعض من قرأوها (لم يذكر راندولف لينكولن أو غيره) شعروا بأن الإنسانية الزائدة دفعت همفريز إلى إظهار مشاعره علناً، بطريقة "تشبه نداء الحكومة إلى الشعب". وهذا تعارض مع السياسات الحكومية، بشكل مباشر. فالناس انتخبوا الحكومة ويتعين عليهم أن يثقوا بإدارتها لأمرها. وبعد أن قال ذلك، وبعد أن قوم السفير الإنسانى النزعة، فإن راندولف

أبلغ همفريز بأنه لم يزل يثق بقدراته، ثقة كاملة، وبأن جى إف غابرييلز التاجر المتوسطى، عُن قنصلاً لدى الجزائر. لكن غابرييلز لن يتوجه إلى مقر عمله "لأن راندولف لا يعرف أين هو". ولهذا فقد كلف راندولف، كما أوضح لهمفريز، قبطانا دينماركيا يدعى هايسل لإجراء المفاوضات. لكن هايسل، هو الآخر، لن يتوجه إلى الجزائر. وكان هذا أمراً طيباً لأنه، وإن لم يعرف راندولف بذلك، كان جاسوسا بريطانيا. وربما تعجب همفريز، بعد ما قرأه عن المشاكل التى واجهت راندولف فى العثور على وكيل، كيف كانت إنسانيته عائقاً بوجه المفاوضات^(٧).

وكما كان يخشى راندولف ولنيكولن، بالضبط، فإن رسالة همفريز أعطت الانطباع بأن الحكومة تشجع التبرعات الخاصة. ورغم أنه ما من جهة حكومية محلية أو اتحادية تبنت اقتراح همفريزى بتنظيم يانصيب، فإن المواطنين العاديين تحمسوا للمشاركة. وطوال الشهور القليلة التالية حفلت الصحف بتوسلات من إنسانيين مجهولين، كان بعضهم من رجال الدين، على الأرجح، وقد تأثروا بمعاناة الأسرى فى الجزائر. واشتركت المقترحات التى طرحها هؤلاء الكتاب الخيريون فى ملمحين: كلهم اقترحوا طرقاً لتخليص الأسرى الأمريكيين من عبوديتهم فى الجزائر، لكنهم جميعاً خصوا الجمهور الأمريكى، الراضى بالأمر الواقع، بالنقد.

وقد أدانت هذه النداءات الإنسانية التصرفات الجزائرية والبريطانية أكثر مما أدانت الإحجام الأمريكى عن التصرف. ورغم أنهم أجمعوا على أن الجزائر أخطأت التصرف فإن الجريمة الحقيقية، بالنسبة لهم، هى أن الأفراد الأمريكيين لم يتصرفوا، إطلاقاً. أى نوع من البشر نحن، هكذا تساءل الكتاب، حتى نبقى ساكتين وإخوتنا فى الأغلال؟

وفى بوسطن سأل كاتب مجهول يدعو نفسه "هيراقليطوس" فى نوفمبر ١٧٩٤: لماذا تجاهل الأمريكيون الأسرى؟ لماذا "رغبوا فى أن يحجبوا عنا معاناتهم وواجبنا والأخطاء التى نرتكبها بحقهم؟" كيف يمكن أن يجلس الأمريكيون هادئين "تحت ظل شجرة الحرية" وهم يرقبون "إخوتنا وأصدقاءنا يئنون" تحت نير الشياطين وسياطهم؟

ولم يكن يعرف ما يقول عن أولئك "الذين بوسعهم أن يتركوا أبناء وطنهم في حال من العبودية هو أسوأ من الموت، دون اهتمام" (٨).

وقد صدمت هيراقليطوس الحياة اللاهية الناعمة التي ينعم بها الأمريكيون متجاهلين أولئك الأتسح حظاً. فالأغنياء ينفقون، في بعض الأحيان، على حفل عشاء واحد ما يكفي لإنقاذ أسير "وإعادة أصدقائنا إلينا". وكانت المسارح تزدهم لليالي التي تخصص لصالح ممثل أو ممثلة من المحبوبين، ولكن في ليلة خصصت لجمع المال للأسرى "لم يكن المسرح قريباً من اكتمال العدد". وقد كان الأمريكيون أكثر اهتماماً بالمثلين المسرحيين منهم بالمعذبين في الحياة الحقيقية، وقد وضعوا "مسراتهم الخاصة" قبل واجبهم، بخاصة واجبهم في تخفيف "عذابات الآخرين". وقارن هيراقليطوس بين العذابات الحقيقية للأسرى الأمريكيين والعذاب المتخيل "أسير المريض سيترن". فقد كان لرواية لورانس ستيرن "الرحلة العاطفية" تأثير عميق على الجدل الدائر حول العبودية. "أتخذي ما شئت من الأقنعة، فما زلت أنت العبودية ! قلت أنا - ما زلت شراباً مرا، ورغم أن الآلاف من كل جيل أجبروا على أن يتجرعوك، فهذا لا يجعلك أقل مرارة". وقد وجد ستيرن "أنه من المستحيل عليه أن يكتب، بشكل مؤثر، عن العبيد الكثيرين، فركز بدلاً من ذلك على "أسير واحد" يراه في السرداب، ويرسم صورته المحزنة "عبر ضوء باهت من باب موارب". وكما أن ستيرن لم يشعر بالتعاطف القوي مع الكثرة، على النحو الذي تعاطف به معه، فقد كان هيراقليطوس يخشى من أن يعجز الأمريكيون عن التعاطف مع الأسرى الأمريكيين الحقيقيين بمثل ما تعاطفوا مع أسير سيترن الخيالي. لقد تشتت ذهن الأمريكي بفعل الروايات والمسرحيات والمباهج المصطنعة في الحفلات والحياة اللذيذة، فنسوا الضرورة الأخلاقية الحقيقية الملزمة بمساعدة من هم أسوأ حظاً بالحياة وفق القاعدة الذهبية (٩).

وحذر هيراقليطوس من أن "الموضوع لا يسمح بالاعتدال". "فالتروى في أمر كهذا يعنى التواطؤ مع من يعذبون أبناء وطننا". كان فخوراً بتطرفه في سبيل الحرية وحث الآخرين على الانخراط في العمل الواجب لاسترجاع إخوانهم المواطنين "من درك العذاب الإنساني، إلى أقصى صورة مقابلة من صور السعادة". وما من مهمة تكون

أكثر مدعاة لرضا الخالق أو المخلوق من انتشار إخوة الوطن من مكان "يهيمن عليه الطغيان بكل فظاعاته، إلى الأرض التي تمنح (أو يجب أن تمنح) بالحرية شخصية جديدة للإنسان. لكن هيراقليطوس كان يخشى أن الحرية لم تمنح الأمريكيين شخصية جديدة، وبدلاً من ذلك، فقد جعلتهم لا مبالين بتعاسة الآخرين. ففيما تلذذ الأمريكيون بحريتهم فقد نسوا أن المشيئة الإلهية هي التي أعطتهم إياها. فتجاهل الأسرى كان غروراً، وهذه اللامبالاة بالبؤس تشير إلى أن الأمريكيين أصبحوا يعتقدون أن جهودهم هم، وليست إرادة الله، هي التي جعلتهم أحراراً وميسورين. ونسيان الأسرى يماثل الزعم بأن "أيدينا هي التي صنعت كل هذا". رياح حظنا السعيد ألفت إلينا بهذه الثروات، شمسنا نحن هي التي أنضجت هذه الثمار، وفهمنا الذي أمدنا بهذا الغنى موجود بذاته، وما لدينا من قوة وحكمة هو ما يخضع أهواء الرجال للحكومة. ويسمح لنا بالامتلاك الهادئ للثروة". لقد كان الأسرى مؤاخذه لشعب أمكن له أن ينسى توكله على الله القادر على أن ينعم عليه بنعمة الحرية. لقد أثارت عذابات الأمريكيين في الجزائر حفيظة هيراقليطوس، لكن ما أثاره أكثر هو احتمال معاناة الأمريكيين في أمريكا، لو أن هذه الاتجاهات سادت. ومثل المتحمسين في عدائهم للحرية، ممن جاؤوا بعده، فإن هيراقليطوس كان يحض إخوته المواطنين على إنهاء العبودية لكي ينقذوا أرواحهم هم.

وقد لام هيراقليطوس الأمريكيين على هذه اللامبالاة إزاء معاناة الآخرين، لكنه خص الأمريكيات بامتداح نزوعهن السامي إلى الخير. وقال إن الأمريكيات أكثر اهتماماً من الأمريكيين بالأسرى، وأقرب إلى أن يدفعهن التأثير إلى الفعل تخفيفاً لآلامهم. وبالتأكيد على دور النساء في أعمال الخير فإن هيراقليطوس أبرز فكرة أن حركة الجماهير تعتمد على الأفراد، أولاً، وعلى الحكومة، أخيراً. وبالنهاية، فلم تكن للنساء، أية أدوار رسمية في السياسة الأمريكية. لكن كان متاحاً لهن أن يلعبن دوراً كبيراً في هذا الجدل الوطني العام ودورا أساسيا في توجيه السياسة الوطنية باتجاه أهداف إنسانية. وقد كان من الضروري أن تتصرف النساء لتخليص الأسرى - فإذا انتظر الأمريكيون حتى تفعل حكومتهم شيئاً، فإن ما كان يخشاه هيراقليطوس هو أن ذلك قد يعنى موت معظم الأسرى - واصياغة شخصية الشعب الأمريكي. ويتقديم مقال

إنساني، بالتبرع بـ "بعض ما تتزين به الملابس، فى سبيل الزينة الجذابة والجميلة للفعل الإنسانى" فإن الأمريكيات يكون بوسعهن، ليس فقط تحرير الرهائن بل وإعادة الحيوية إلى الجمهورية الأمريكية. فمن شأن المثال الذى يطرحه أن يشجع الرجال الأمريكيين التخلي عن الحياة المترفة الراقية "التي تضعف قوة الدستور، بل وربما ترعى الطفيليين الفاسدين" وبدلاً من ذلك فإنهن سيظهرن، بفعل الخير، القوة المعنوية العفية للجمهورية.

ولم يكن هؤلاء الأمريكيون المحبون للخير ليقبلوا بفكرة أن إحسانهم قد يعوق سياسات الحكومة. فأقدام الأمريكيين على الفعل، بأنفسهم، من شأنه أن يجعل مهمة الحكومة أسهل. وقد تبع هيراقليطوس همفريز فى الدفع بأن الأسرى كانوا عقبة بوجه معاهدة السلام، وبأن إطلاقهم لا يجب أن يكون جزءاً من مفاوضات عامة. أما فكرة أن الاعتماد على المساهمات الخيرية الخاصة فيه مساس بهيبة الحكومة، فقد رأى أن "التهاون مع دولة الجزائرية" هو الأكثر انتقاصاً من هيبة الحكومة الأمريكية. والأهم، أن الأمريكيين يرتكبون إثماً إن انتظروا حتى تتصرف الحكومة، وإن راعوا صناعات السياسات العامة، إذا كانوا بذلك يمنعون أنفسهم من أداء واجباتهم الأخلاقية. من الكفر أن يظن أن سياسات الدولة يمكن أن تمنع الفرد من القيام بالتزاماته نحو ربه. أراد هيراقليطس أن يخترق "أسماع إخوانه المواطنين بأنات الأسرى، ويصدع قلوبهم بالعذاب" لكى يدفعهم "إلى أداء واجبهم الأول إزاء الرب، ومسؤوليتهم الأولى إزاء البشر، وإلى ممارسة أنبل ما اختصت به الطبيعة الإنسانية.

وفى ماربلهيد، ماساشوسيتس عرف "إسيكس" أيضاً التأثير القوى الذى أحدثته رواية ستيرن العاطفية لدى القراء، لكنه لم يلهمهم على ذلك. ونقل عن ستيرن "اتخذى ما شئت من الأقنعة، فما زلت أنت العبودية ! قلت أنا- ما زلت شراباً مرا، ورغم أن الآلاف من كل جيل أُجبروا على أن يتجرعوك، فهذا لا يجعلك أقل مرارة". ولكن، على الرغم من أن إسيكس توقع أن يكون معظم قرائه على معرفة بهذا المقتطف، وكانوا متأثرين به على نحو متماثل، فقد ألمه أن قليلين منهم شاركوه الحماس لقضية الأسرى

فى الجزائر. وقال إن أخبار معاناتهم "أشعلت النار فى روحى" لكنه لم يسمع أحداً آخر يتحدث عن عذابهم، ولم ير خطأً توضع من أجل تخليصهم. "يحزنتنى أن يعامل موضوع، على هذا الجانب من الأهمية، بهذا القدر من الازدراء المبطن، وأخلص إلى أنه يماثل كلامنا الكثير عن العالم الآخر، فهو كلام يمر كثيراً عبر الشفاه حتى إنه ينسى طريقه إلى القلب. وقد اغتبط لأنه أغرق وسادته بالدموع التى سفحها من أجل الأسرى، وأنه قضى ليالى الأرق مهتاجاً بسبب عذابهم، مفكراً فى أطفالهم وفى زوجاتهم اللاتى صرن أكثر من أرامل".

وهو يسأل "يا مواطنى أمريكا، يا من تجلسون تحت كرومكم وأشجار تينكم، وليس لديكم ما يجعلكم تخافون - يا من ترتاحون فى غرف النوم المزخرفة - هل يمكن لكم أن توطنوا أنفسكم على تركهم فى عبودية أبدية، أسوأ من الموت؟ هل بوسعكم أن تنسوا القضية التى من أجلها سالت دماؤكم ودماؤهم معاً؟ لقد استمتع الأمريكيون فى أرض الوطن بما أثمره النضال الثورى، كل يوم، فى حين أن هذا النضال المشترك كان ذكرى مريرة للأسرى، لأن الاستقلال الذى بذله من أجله الدم أدى إلى أسرهم، وها هو يضيف "جلدة أخرى من سوط الجزائرلى وألما آخر من القيود". لا بد أن الأسرى "يلعنون المعارك التى كسبوها" من أجل مواطنيهم الذين لا قلوب لهم ولا ذاكرة. ويسأل "يا أمريكا، هل بوسعك.. أن تنسى أولادك، وتتركهم يتسولون الخبز المر عبر الممالك التى أنقذوها بشجاعتهم؟" هل يريد الأمريكيون أن يقال يوم دينونتهم أن الأسرى: "كانوا فى الجزائر ولم تحسنوا إليهم"، وقد طلب إسيكس من رئيس تحرير "الغازيت" فى ساليم أن يبعث الحيوية فى هذا العدد، أن تحمل كل صفحة "نحيب أمريكا، أه يا أبنائى! يا أبنائى!؟. وشأن هيراقليطس، فقد تأثر إسيكس بعذابات الأسرى، لكنه كان أكثر انفعالاً بسبب فتور الأمريكيين. وراح يتساءل أى شعب ذلك الذى ينسى أبنائه وإخوانه^(١٠).

وفى فيلادلفيا تساءل "هيومانيتوس" عما جرى للجنة جيرارد، التى تشكلت فى الربيع لتحرير الأسرى الأمريكيين. واعتبر طبيبتهم "جديرة بالشخصية الأمريكية" لكن هيومانيتوس أحزنه أن كثيرين من مواطنيه غير منزعجين "اهتاجت أفئدتنا بعض الوقت،

مع قليل من الخفقان" فى حين كان الأسرى فى الجزائر "يئنون، على مدار الساعة، تحت أغلال العبودية، وسيط القسوة، ونير العبودية". وشأن إسيكس وهيراقليطس فقد كان يأمل أن يدفع أهل وطنه إلى العمل^(١١).

ولم يقبل واشنطن بأن يكون له دور فى الحركة الخيرية، لكن المنظمين استخدموه رغم معارضته. وفى أول يناير ١٧٩٥، وقد امتلأ بزهو انتصاره على ثوار الويسكى وبالسعادة لأن بلاده بقيت على الحياد فى الحرب الأوروبية، أعلنت واشنطن يوم ١٩ فبراير يوماً يشكر فيه الأمريكيون الله على "النعم الوفيرة والرحمات المبشرة التى تميز بها قدرنا كأمة" وبخاصة لمباركته الحكومات "التي باتحادها رسخت الحرية والنظام"، وعلى صيانة السلام الولايات المتحدة الداخلى والخارجى، وعلى استمرار الازدهار. وشأنه شأن هيراقليطوس، فقد أراد واشنطن أن يتذكر الأمريكيون أن هذه البركات جاءت من الرب، وأن على الأمريكيين واجباً ملزماً بأن يتذكروا مصدرها، وأن الرب يتوقع عظام الأمور من شعب أعطى كل هذا. وأراد واشنطن من الأمريكيين، كما أراد هيراقليطس، أن يحرروا أنفسهم من "خيلاء النعمة" وأن يجعلوا بلدهم "ملجأ آمناً وسمحاً للتعساء من البلدان الأخرى" وأن يستعدوا لمد البركات الأمريكية إلى "كامل أسرة النوع الإنسانى"^(١٢).

ولم يذكر واشنطن الجزائر، وهى سقطة تم تجاهلها فى نيو إنغلند، حيث رأى هيراقليطوس وإسيكس فى مصاب الأسرى إدانة للشخصية الوطنية. وقد استغل هذان الكاتبان المحبان للخير يوم عيد الشكر لجعله وقت جمع الأموال للأسرى. ورغم أن واشنطن أراد أن يكون العيد يوماً للتأمل فى الشخصية الخاصة للأمة وعلى خلاصها الأمن من المشاكل الأوروبية، فهذان النصيران للإنسانية فى نيو إنغلند اعتبرا من المستحيل استثناء الأمريكيين من متاعب العالم، أو اعتبارهم مباركين بين الأمم، طالما بقى إخوانهم فى الأغلال. وخلال أسابيع من إعلان واشنطن، كان أهل نيو إنغلند قد نظموا حملة لجعل يوم ١٩ فبراير يوم جمع التبرعات لصالح أسرى الجزائر. وكان الرئيس واشنطن قد سبق له رفض أن تؤدى التبرعات الخاصة دوراً منوطاً بالحكومة...

ولم يعط الفرصة ليلغى استيلاء الناس الذين يفعلون ما تمليه عليهم قلوبهم وإن تعارض مع سياساته، على يوم الشكر الذى هو يومه.

وأعلن كاتب فى بورتسموث، بنيوهامبشير، خطة للمساهمة الوطنية فى ١٩ فبراير. وكان هذا الكاتب، شأن واشنطن وهيراقليطس، يعلم أن الأمريكيين ينتظرون قضاء الله. كان واشنطن أكثر أعضاء هذه الجماعة ثقة، رغم أنه لم يطمئن إلى خيلاء النعمة ومن نتائج الخروج على طريق الحياد. ولم يكن الكاتب من بورتسموث شديد التفاؤل. بدأ مقالته بلعنة يسوع على الأشرار "مريض وفى السجن وأنتم لا تزوروننى (متى ٢٥: ٤٣). وقد كان حرياً بالأمريكيين أن يهتموا بإخوانهم المهانين. إذا كان للجميع أن تزدهر أحوالهم^(١٣).

ومرة أخرى، فلم يكن هناك وعى برفض واشنطن للانضمام للحركة الخيرية فتوجهت خطة بورتسموث بالنداء إلى "الرئيس العظيم للملايين الذين ولدوا أحراراً" بأن يحث "وزراء المسيح الخير" على أن يجعلوا عيد الشكر يوماً لجمع التبرعات. فبكلمة من واشنطن فإن الأمريكيين سوف "يكومون فوق مذابح الإحسان" الهبات التى تجود بها "الإرادة الحرة". وتساءل الكاتب عما إذا كان ممكناً "استعراض الكوارث التى تحل بالأمم الأخرى" (وهذه هى كلمات الرئيس) وتجاهل أعظم الكوارث، على الإطلاق، كارثة الموت فى العبودية؟ "حاشا لله ! هذا غير ممكن" ولو كان الأمريكيون "تميل طباعهم إلى أرق مشاعر الإنسانية" وهو يعتقد أنهم كذلك، فإن "أبناء الحرية" الذين أظهروا، بالفعل، استعداداً لا مثيل له "لإغاثة التعساء" بالتأكيد سوف "ينهضون لإنقاذ الأسير المعزول".

سيجعل الأمريكيون يوم ١٩ فبراير يوماً مباركاً، عندما يكرس أربعة ملايين منهم أنفسهم للخير، ليمنحوا "الحياة للموتى من جديد". فالأسرى الذين يجرى إنقاذهم سيبعثون من ميتين، ففى الجزائر "هم موتى عند أنفسهم وعند مواطنيهم". ومضى كاتب الالتماس إلى الربط بين ما تريده أمريكا وما يريده الله. إن "الوطنيين فى عام خمسة وسبعين" كانوا "أبطال الدارين" وكانوا "مشتريين يمنحون الحرية للعالم"

وخلفاؤهم مدعوون لمواصلة عمل الخير الإلهي، موقنين أن إرادة الله هي "الحرية للعالم كله".

ورغم أن الأمريكيين هم رسل الله المختارون، فلا يليق بهم أن ينتظروا من يحضهم على حمل الرسالة. ولم ينتقد كاتب الالتماس العادات الاجتماعية لدى الأمريكيين، كما فعل هيراقليطوس، لكنه كان أشد في نقده لعاداتهم الأخلاقية. وقد خاطب جماعات مختلفة - الآباء والأزواج والأشقاء. وشيوخ ونواب الشعب السعيد. وحكام الولايات العديدة. كهنة عمانويل. بنات كولومبيا. وقد قصر الأمريكيون المشار إليهم بكل هذه الإشارات.

فهل كان "إعفاء أمريكا من عذابات الحروب الأجنبية" الذي أشار إليه الرئيس واشنطن في إعلانه، أمراً يدعو للعرفان، من جانب الشعب، حقاً؟ وهل كان بوسع الأسرى أن يشاركوا بلدهم الفرحة بهذا الأمر؟ المصير الذي ألوا إليه أسوأ من الحروب الأجنبية، باعتباره "أسير الأوروبيين المتحاربين، أو القوى الأمريكية المعادية، أسيراً للأمل" ينتظر أن يبادلوه بآخر، وفقاً لمعاهدة. أما بالنسبة للأسرى "بالنسبة لنا، بالنسبة لنا وجدنا، حق العودة مستبعد. نحن أسرى في سجن اليأس".

وتدخل الكونغرس منتقداً: "أي شعب تحت السماء يترك بحارته في أسر لا أمل في الفكك منه؟ أي قوة على سطح الكوكب لم تدفع المبالغ المطلوبة للتحرير؟ هل الخزانة فارغة؟ هل نضبت مواردها بسبب الحرب ضد "القطعان المتوحشة في المناطق الحدودية"، أو بإخماد تمرد الويسكي؟ وطولب حكام الولايات بإصدار بياناتهم حتى تنظم "الجمهوريات كفرادى" إلى "رفاقية موحدة من التواصل الفيدرالي". وسوف "تتبع أرض آبائنا، وسوف نتبع نحن الأبناء الذين لم يخضعوا، حتى الآن، للعبودية علم ماساشوسيتس، إذا أشرق مرة أخرى فوق الجبال الغربية أو تنتشر مع النسر الأمريكي الباسط جناحيه إذا رفع التمرد رأسه الشرير". كانت حرية الأسرى غير قابلة للانفصال عن وحدة أمريكا. لم يستنفد قمع تمرد الويسكي موارد الخزانة لكنه كان خطوة ضرورية باتجاه دور أكبر للولايات المتحدة في استعادة النظام الدولي.

فربما كانت "الطاقة الكلية القوة للذهب" قادرة على توجيهه سياسات بقية العالم، أما الأمريكيون فيفضلون الإحسان.

ورغم أن الكاتب كان نقدياً فإنه لم ييأس. فكل الأموال التي جمعت في ١٩ فبراير يجب أن تصب في الخزانة الأمريكية، حيث سوف يسجل أصغر فارثينغ (قطعة نقد بريطانية تافهة القيمة) بإخلاص، لو أن واحداً مثل هاميلتون ما زال قائماً على خدمة البلاد". يجب أن تنهض الأمة، وأن يعيش الأسرى ليروا اليوم "الذي يخلق فيه الإحسان نو المنبت السماوي طائراً إلى قصر العجل الذهبي، ليصهر بطاقة الذهب الكلية القوة أغلال العبودية المجدولة، ويكسر قفلى البوابة المفضية إلى السرداب المخيف". وطلب كاتب هذا الالتماس من قرائه أن يتخيلوا أنفسهم مسجونين في الجزائر، ليشعروا بشعورهم، وبعد ذلك "أن ينظروا تجاه بلادهم، فيما تسيل الدموع اليائسة على خدودهم، وتمزق تنهيدة الألم الصدر المعذب، ويرفعوا إعلان الرئيس باليد اليسرى" ويمدوا اليد اليمنى باتجاه البلاد إلى "أبناء كولومبيا الذين ولدوا أحراراً" الذين يستعدون لتحريرهم.

وقد رددت أصوات حقيقية ومتخيلة في الجزائر أصداً خطة بورتسموث هذه، التي تنتقد الأمريكيين. ففي ٢٦ يناير نشرت "فيدرال أوريري في بوسطن" الالتماس من الأسرى الأمريكيين المستعبدين في الجزائر "مصدقة لفكرة استخدام ١٩ فبراير لجمع المال لإطلاق سراحهم. ورغم أن التوقيع على الالتماس كان باسم ريتشارد أوبرايان فمن الأرجح أن من كتبه كان كاهناً من نيو إنغلند^(١٤). وهذا الالتماس المنسوب إلى أوبرايان وجد صده في صوت حقيقى من الأسر. فقد كتب القبطان وليم بنروز إلى صديق في أمريكا في خريف ١٧٩٤، وقد نشر خطابه في كل أنحاء نيو إنغلند في فبراير ١٧٩٥، قبيل يوم عيد الشكر. وقد سأل القبطان بنروز "ما الذى يشغل أبناء بلدنا، بحق الله؟". وقال بنروز: إن الداء حسن يريد أن يقيم علاقة طيبة مع الولايات المتحدة، لكن الأمريكيين "يتعالون على التفاهم معه": أما تقاعس الأمريكيين عن تخليص الأسرى أو عن إمدادهم بالطعام والملابس "فسوف يبقى وصمة على الشخصية الأمريكية".

وبعكس هولندا وإسبانيا اللتين خلصتا أسراهما فإن أمريكا "أكثر البلدان حرية على وجه الأرض" قد تركت مواطنيها "الذين حاربوا وبذلوا الدماء" من أجل حريتها، في ذل القيود، يكدحون من الفجر إلى هبوط الظلام. لم يعد بوسع السجناء الأمريكيين أن يحتملوا أكثر من ذلك كثيراً. "فلا بد أن تنهار الطبيعة الإنسانية تحت ضغط كل هذه التعاسات المتراكمة"، هكذا حذر نبروز مشيراً إلى أن الأسرى بدأوا يكفرون بمبدأ الحرية. لم يكن يستطيع أن يصدق أن بلاده نسيتهم لكنه تساءل عما كان يفعله الأمريكيون^(١٥).

وقد كانت معرفة منظمي الحركة الخيرية بالطبيعة الإنسانية قوية لدرجة جعلتهم لا يعتمدون على الإدانة الأخلاقية وحدها. وحتى عندما أدانوا اللامبالاة الأمريكية، فإنهم امتدحوا الكرم الأمريكي. وقبل يوم عيد الشكر بأسابيع، فقد هلل منظمو الحملة لنجاحها، مادحين الكرم الاستثنائي للشعب الأمريكي.

وتحت عنوان "كما توقعنا" كتب "فيديرال أوريري" يوم ٢٩ يناير أن "شرارة من مذهب الإحسان أضرمت شعلة فعل الخير في كافة أنحاء القارة" وأن بوسطن ساهمت بأكثر مما كان متوقفاً، بكثير، إذ تم جمع ٢٠,٠٠٠ دولار تكفي لاستنقاذ قبطان واحد وثمانية بحارة. لم تزدحم الكنائس على هذا النحو، من قبل، هكذا قالت الصحيفة قبل أن تفتح الكنائس أبوابها بثلاثة أسابيع، والنساء اللاتي لا يملكن نقوداً تبرعن بالخواتم والمجوهرات.

وفي فيرجينيا كتبت صحيفة في بوسطن أن المزارعين "حازوا الشرف عندما تبرعوا بما يتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ دولار عن كل قطعة أرض" رغم أنه لم يكن في الجزائر سوى سفينة واحدة من فيرجينيا. وفي بوسطن قام محسن أراد أن لا يبيزه آخر "بوضع ألف دولار ورقي في صندوق التبرعات". هذه التبرعات الهائلة لم "تشهد العهود السابقة ما يفوقها. وربما لن تجد ما يماثلها، يتكرر في ذاكرة الإنسان^(١٦).

وقد استبقت إمبراشيال هيرالد في نيويورك، وهي التي لم تقبل أن يزايد عليها أحد، يوم عيد الشكر بأن أشارت، في ٢ فبراير، إلى "السخاء الخير" من سيد في هذه

المزرعة يقال إنه جاد بكل كرم "بأربعة آلاف دولار". وتضخمت المساهمات المتوقعة مع إعلان الجريدة عن أن أتباع كل كنيسة في نيو إنغلند يتأهبون للانضمام لحملة التبرعات. وقالت التقارير الواردة من ماربلهيد ومين إن الناس هناك خططوا للتبرع "بأكثر مما جرى التبرع به في أى مناسبة خيرية". وعند سماع هذه التوقعات من الولايات الأخرى خشى "أحد ساكنى بورتسموث" أن تكون نيوهامبشير "طامحة إلى أن تميز نفسها" بانعدام الإنسانية والعدالة، ودعا أهل ولايته إلى "أن يهبوا من تكاسلهم" ويتبرعوا. ومخافة أن يتقاعس من يعجزون عن التبرع بمائة دولار أو بألف فقد وعد بأن "الميتين كانا يقبلان من الأرملة في الأزمنة القديمة، وسوف يقبلان مجدداً" (١٧) (MITE عملة ضئيلة القيمة - المترجم).

لكن غياب المساندة الرسمية أضعف القضية. لم يشر واشنطن إلى التبرعات، رغم أن المروجين لها زعموا أنه حليف. ودعت ساليم إلى اجتماع خاص للمدينة للتخطيط ليوم التبرعات، لكنها أجلت الاجتماع عندما تقرر أنه لا يجوز للمدينة، قانوناً، أن توجه الكنيسة إلى أى فعل. وانتقد كاتب من كونيكتيكت وقع باسم "إكلزيا ستيكوس" خطة بورتسموث باعتبارها "لم توجه إلينا من أى سلطة قائمة" و "لم تحمل اسم فرد يقرها". وقال إن الحكومة، لا المواطنين الأفراد، هى المسؤولة عن الأسرى. ولا يجب على المواطنين الأفراد والكنائس "استباق تدابير الحكومة" التى انتخبوها. ورغم أن إكلزيا ستيكوس تعاطف مع الأسرى، كائى واحد آخر، فقد بقى ينتظر التصرف من الكونغرس ومن الرئيس، وكان واثقاً من أنه عندما يضع هؤلاء المنتخبون سياسة ما "سوف يكون الجميع جاهزين للإسراع باتباعها". والمثال القريب عن "جمعيات نشأت ذاتياً" تحاول تعويق عمل الحكومة كان جديداً على عقل إكلزيا ستيكوس لدرجة لا تجعله يسمح للتبرعات الأهلية بأن تتدخل فى السياسات العامة. وكان لدى إكلزيا ستيكوس إيمان بأن الحكومة سوف تهتم بالأسرى. ولكن حتى إن لم تفعل الحكومة شيئاً، إذا "لم يروا من المناسب أن يتخذوا إجراءاتهم" لتخليص الأسرى. فقد كان واثقاً أن لهذا التقصير أسباب مقبولة. لقد كان إكلزيا ستيكوس يثق فى الناس الذين انتخبهم، حتى إذا قال كتاب مثل هيراقليطس أن هؤلاء الرجال بحاجة إلى توجيه أخلاقى. ربما كانت الحكومة

تنتظر "حتى نصبح في ظرف يسمح بالحيولة دون زيادة الأسرى" وتوقع أن تزيد عمليات الأسر، على وجه اليقين، إذا بدأ الأمريكيون يرسلون مبالغ مالية كبيرة يفقدون بها الرجال الموجودين في الأسر، بالفعل. وهذا أمر من شأن "الإحسان الحقيقي" أن يستكره^(١٨).

وقال إكلزيا ستيكوس إنه يتعاطف مع الرجال في الجزائر مثل أي كاتب آخر، وإنه كان يشعر بقلق مماثل حول الشخصية الأخلاقية الوطنية. وعندما يسمح الأمريكيون لزعمائهم المنتخبون بالتصرف، فإنهم يثبتون أنهم لا ينصاعون وراء العواطف الشخصية لكنهم يتبعون الزعماء العقلانيين، وسوف تمثل "عقلانيتهم" نقيضاً للفرنسيين الفوضويين، الذين لا يحكمهم أي نظام، و"لقسوة أولئك الذين فتحوا البوابات، بالخبث الغادر، وأطلقوا علينا شياطين الجزائر" وهم البريطانيون. الرضا بالحال لم يكن خطيئة، طالما أن الأمريكيين انتخبوا رجالاً على خلق للمناصب العامة وتركوهم يؤبوا واجباتهم الدستورية.

ورغم أن واشنطن لم يعلق على الحركة الخيرية، فقد نجحت الإدارة، في اللحظة الأخيرة، في تخريبها. وفي ١٧ فبراير نشرت صحيفة في بليتمور قصة زعمت أن مصدرها "حكومي استبعد تماماً ضرورة تنفيذ الخطة المقترحة لتخليص إخواننا الذين يرسفون في الأغلال".

وقالت الصحف إن دافيد همفريز الذي حرك الأمريكيين بندائه من أجل الأسرى، في الخريف الماضي، وصل إلى فيلادلفيا للاجتماع بالرئيس واشنطن. وذاعت أخبار تقول إن "هناك احتمالات طيبة للغاية حول احتمال عقد سلام مع الجزائر".

ورغم أن الصحيفة التي روجت لهذا القول تراجعت عنه، بعد ذلك، وقالت إنه لم يأت من مصدر حكومي، في الأصل، فإن نشر هذا الكلام في هذا الموعد جاء مناسباً لتهدة الحماس للتبرع حتى وإن كان قد سمح لإدارة واشنطن بتأكيد دورها في السياسات العامة^(١٩).

وأيا كانت الأسباب فيوم عيد الشكر لم تجمع فيه الأموال المتوقعة. وكتب وليم بنتيلي في ساليم يقول إن "الإقبال كان ضعيفاً. والتبرع للفقراء تجاوز عشرة جنيهاً إسترلينية... لم يكن التبرع في كل الأبرشيات وعندما كان هناك تبرع فقد كان للفقراء فقط". ولم تجمع بورتسموث، في نيوهامبشير، حيث ولدت الفكرة أكثر من ٦٥٠ دولاراً، وفي ألباني جمعت أبرشية للإصلاحيين الهولنديين ١٣٠ دولاراً، وجمعت كنيسة فريبورت، في مين، ٩٠ دولاراً، وجمعت مدن مين الأخرى بين ٢٠ و ١٠٠ دولار، لكل منها. ووعدت برونزويك بالمساهمة حين يعود الكاهن من رحلته^(٢٠).

واكتشفت مدن مين أن غياب المساندة الرسمية تسبب في مشكلة أخرى: فبعد جمع المال، لم يكونوا يعرفون ماذا يمكنهم أن يفعلوا به. وعندما قال كهنة مين، في البداية، إنهم ليسوا مخولين بجمع المال، رد أحد أفراد الشعب "هل نحن بحاجة إلى إذن رسمي حتى نغزى المخزون ونواسى الذين ينتخبون؟ لدينا الإذن، ومن يد الرب الرحمن أيضاً! ولكن بعد أن أصبح لديهم تفويض إلهي اكتشف المتبرعون أنهم بحاجة إلى مراجع حسابات دنيوى. سألوا الصحف في بوسطن عن الجهة التي يبعثون إليها بالأموال التي جمعت ومن الذى سيضمن أنها ستصل إلى الأسرى. "فى الوقت الراهن نحن نتحرك فى الظلام - لكننا نتوقع أن توافينا مطبعتكم، كل أسبوع، بإفادة حول هذا الأمر"^(٢١).

ورغم فشل يوم عيد الشكر كمناسبة خيرية، فقد كان ناجحاً من نواح أخرى. فقد ذكرت "ميركورى" في بوسطن أن "الاتحاديين ومناهضيههم، واليعاقبة والجمهوريين، على تنوع مذاهبهم" ضموا صفوفهم في ذلك اليوم ليتقاسموا التبريكات وفقدت روح التحزب كثيراً من قوتها" عندما عانق بعضهم بعضاً. "خفق كل قلب بالرضا الدافئ، وأضاء كل وجه بنور المسرة، ونطق كل لسان بالعرفان لما نحن فيه من رخاء لا يضاهى" ولكن، وكما كان هيراقليطس وإسيكس يتوقعان فقد طوى النسيان الأسرى في غمرة الزهو القومى^(٢٢).

وركزت عظات يوم عيد الشكر، كما كان واشنطن يريد، على فضائل الشعب الأمريكي وليس على نقائصه الأخلاقية. وعالجت العظات، كلها تقريباً، الموضوعات التي اقترحها واشنطن: أن أمريكا نجت من اضطرابات العالم القديم وأن الشعب الأمريكي له هدفه الخاص. "من الذى يشبهكم؟" هكذا سأل أبييل هولز المصلين فى كابريدج، ماساشوسيتى، وبعد أن نظر فى أحوال الدنيا، لم يجد لهم مثيلاً. فإفريقيا التى كانت فى يوم من الأيام أرض الدول المزدهرة ها هى "ترقد مدفونة فى جهل وبربرية عميقين". وأهل آسيا، الذين يعيشون فى إقليم شاسع ومثمر قضت عليهم حكوماتهم بالحرمان الأبدى من "نور العلم، والدين الحقيقى، والحرية". وفى كل آسيا، ليس هناك أحرار حقيقيون سوى التتار والعرب، لكن هولز لم يكن يقدر كرامتهم وسعادتهم تقديراً عالياً، فقد قارن التتار بالهنود الأمريكيين وقال إن العرب "لصوص وقراصنة". وتحدث فى فيرجينيا المطران جيمس ماديسون رئيس جامعة وليم ومارى وابن عم الرجل الذى يحمل الاسم ذاته والذى سيصبح، فيما بعد، رئيساً للجمهورية، حول الكيفية التى تمكن بها "أسلافنا وسط الدمار الذى لحق بحقوق الإنسان والعواصف الجائحة التى أطلقها الطموح، فى أحوال كثيرة، لتغمر شعوب الشرق" من الحفاظ على "جزء صغير من ذلك الروح الأثيرى، ذلك الحب العميق للحرية، الذى يتوهج فى صدر الأمريكى (٢٣).

وكان الأب أيزاك ستورى فى ماربلهيد استثناء من حيث أنه ركز فى عظته يوم عيد الشكر على الأسرى. وكان ستورى قد ألقى موعظة يوم الأحد الذى سبق عيد الشكر حث فيها المصلين على أن يفتحوا قلوبهم وجيوبهم يوم الخميس التالى. واتخذ من الآية ١٠: ٢ من سفر الخروج نصاً ليوم الأحد: (ولما كبر الولد جاءت به إلى فرعون فصار لها ابناً، ودعت اسمه "موسى" وقالت: "إنى انتشلته من الماء"). ومر ستورى بهذا النص على عديد من القضايا العميقة: الأسرى (الذين كان يأمل أن يسحبهم أهل أبرشيته عبر الماء عائدين بهم إلى الوطن) وعلاقة أمريكا مع إنكلترا، وشخصية جورج واشنطن، وطبيعة المجتمع الأمريكى. وذكر ستورى المصلين بأن فرعون حاول أن يقمع الإسرائيليين، الذين كانوا يريدون التمتع "بحقوق وامتيازات الأحرار". ولم تكن هذه المرة الأولى، ولا كانت الأخيرة، التى اتخذ فيها الناس قصة

موسى رمزاً لنضالهم ضد الطغيان. وقارن ستورى بين موسى وواشنطن حيث إن الاثنين كانت لهما "روح نزيهة، وإعلاء لمصلحة الأمة على أى اعتبار آخر". وقد تولى موسى عن مركز فى بلاط فرعون ليقترن بقضية بلده، تماماً كما فعل واشنطن. لكن ستورى مضى بهذه المقارنة إلى اتجاه جديد، بنقل التركيز من واشنطن إلى آخرين يشبهون موسى "يمثلون أعظم الشخصيات على صفحات التاريخ" أولئك الذين "انتشلوا من الماء" دون أن يتميزوا بالملاد، وأصبحوا قادة الأمم بعد أن كبروا. لقد تعلم موسى العظمة، ولم يكتسبها بالمولد. ويتعليم مشابه فإن أى طفل يمكن أن يبلغ العظمة عندما يكبر، وقال ستورى للمصلين إن أبناء فقراء المدينة، أطفال الشحاذين "يمكن أن يحكموا المدينة مستقبلاً" إذا عملت المدينة على تعليمهم. وقال ستورى للمصلين أن عليهم واجبا أخلاقيا لتعليم الفقراء، لانتشال العبد المهان والمحتقر^(٢٤).

وشأن هيراقليطوس وغيره من كتاب الالتماسات، فقد كان ستورى يخشى أن لا ينهض أهل أبرشيته بواجبهم الأخلاقى. وبعد أن طلب منهم أن يعلموا الفقراء، فقد طلب منهم أن يتخيلوا أنفسهم سجناء فى الجزائر، مشدودى الوثاق إلى المجذاف وموضع تجاهل من أهل وطنهم. لا بد أن الأسرى الذى تجاهلهم الجميع يلعنون إخوانهم فى أرض الوطن الذين لا قلوب لهم، لكن الأمريكيين فاقدى الضمير يجب أن يكون خوفهم الأكبر هو من غضب الرب. فالأسرى لم يرغبوا فى أن "يبقوا عبداً دائماً عليكم، حسبكم أن تخلصوهم وسوف يعتنون هم بأمورهم، بل وربما كانوا، فيما بعد، مصدر عون لكم أو لذويكم". لقد أسدت ابنة فرعون (فى التوراة وامرأة فرعون فى القرآن الكريم - المترجم) أعظم معروف للإنسانية، بعمل أعظم من "كل عظمة البلاط" وأقيم "من كل المجوهرات والزينات التى يتحلون بها". وشأن ابنة فرعون، فإن الشعب الأمريكى بوسعه أن يفعل أشياء عظيمة. بوسعه أن يفعل أكثر من تعليم الأطفال أو تحرير الأسرى. فهذه الأفعال هى وسائل لغاية تمكن الأمريكيين من أن يقرروا أى نوع من الأمم هم. هل يختارون لآلى القلب أم لآلى البلاط ؟ كانت رسالة ستورى فى عيد الشكر هى أن "الروح العامة فى المجال الخاص هى مشهد محمود" وأمر رائع.

هذه هي الرسالة التي كان هيراقليطس وغيره من الدعاة كانوا يريدون بثها في ذلك اليوم، رغم أن ستورى كان الوحيد الذى تصرف بما تقتضيه المناسبة^(٢٥).

ومن المحتمل أن الدعاة إلى الإحسان، مثل ستورى، ممن يريدون أن يروا الروح العامة في المجال الخاص، قد أدهشهم أن يسمعوا مقارنة بين نوافعهم الخيرية وبين ثورة الويسكى واليعقوبية الفرنسية. وإن كان أدهشهم أن يهاجم حماسهم الإنسانى باعتباره خطوة نحو الفوضى، فلا بد أن صمويل سيبى من نيو لندن، كونيكتيكت قد أدهشه أن يهاجم إحسانه باعتباره خطوة باتجاه النظام الملكى. لم يعلم صمويل سيبى مطران الكنيسة الأسقفية في كونيكتيكت ورود آيلند بخطة بورتسموث إلا متأخراً. ورغم ذلك فقد أراد أن يشارك. وفي يوم عيد الشكر في ١٩ فبراير، نشر خطاباً في أكبر الصحف في مطرانيته يدعو فيها الكنائس الأسقفية في كونيكتيكت ورود آيلند للتبرع يوم الأحد الثالث في مارس. ووقع رسالته باسم صمويل أسقف كونيكتيكت ورود آيلند^(٢٦).

وسرعان ما أدين سيبى لاتخاذ "لقبا مهنيا" وجاء الهجوم من كاتب وقع باسم "كونيكتيكت ورود آيلند" عنف سيبى لأنه اتخذ "أسلوباً أميرياً" بإصداره "أمراً ثابت القداسة وثابت الملكية" من "قصره الأسقفى" في نيو لندن. وأدان هذا الناقد المجهول سيبى على "التعبير المتعاضم عن الكبرياء والإحسان الكهنوتيين" وانتقد المطران باسم "الشعب السيد" لاستخدامه لقباً لم ينله "بالإرادة الإلهية" ولا بالموافقة الشعبية. لكن لا الدولة ولا الدستور الاتحادي ولا "صوت الشعب" يكرسون المطارنة، كما أن ستيرن أظهر "تعبيراً مزعجاً عن الكبرياء الأرستقراطى وظماً إلى السيطرة" عندما أسمى نفسه مطران كونيكتيكت ورود آيلند بدلاً من "المطران المنتظر لكونيكتيكت ورود آيلند" أو مطران ست وثلاثين كنيسة اعترفت بصفته تلك^(٢٧).

وتذكر ذلك الكاتب المجهول أن صمويل سيبى، عندما كان قساً إنجلياً في نيويورك في أوائل سبعينيات ذلك القرن، الحركة الساعية للاستقلال وخاض حرب الرسائل ضد أليكساندر هاميلتون الشاب، في السنوات التي سبقت الثورة. والآن فإن سيبى،

كما يتهمه هذا الناقد، هو "مواطن مختال في بلد يعارض حريته" جاهلاً أن في الأرض الجديدة "التي قامت على الفضائل الكبرى" لا توجد حاجة حقيقية "للهرج الزائف المتمثل في قبعة الأسقف أو تاجه" فإشارة سيبرى البسيطة إلى الإحسان أثارت قضايا أكثر إلحاحاً من مصير ١٠٠ رجل في الجزائر. وتذكر هذا الكاتب المجهول الخوف الذي ظهر قبل الثورة من أن إنكلترا كانت تعد لفرض كنيسة إنجيلية راسخة، بكامل الأساقفة وعلامات الكاثوليكية على المستعمرات الأبرشانية، لم يكن التوتر بين الكنيسة والدولة قد تم حله. وكانت فيرجينيا قد أصدرت قانونها الذي يسمح بالحرية الدينية قبل عشر سنوات، فقط، وتبعها قلة من الولايات الأخرى.

وفي كونيكتيكت، حيث سيطرت الكنيسة الأبرشانية على المجتمع، تم تجاهل يوم عيد الشكر، تقريباً، لأنه حل في أثناء الصوم الكبير. واتهم كاتب أسمى نفسه "الحقيقة الخالصة" الأبرشانيين بإهانة الشعب والحكومة في الولايات المتحدة، بالتقاعس عن احترام إعلان واشنطن. ففي معرض الدفاع عن الأبرشانيين حول أحد "رجال الكنيسة" القضية إلى قضية فصل بين الكنيسة والدولة، وقضية طاعة الحكومة أم طاعة الرب. "نحن نعيش في زمن يفخر باستنارته، بخاصة فيما يتعلق بحقوق الإنسان" هكذا قال رجل الكنيسة "وفي بلد يفخر بانفتاحه وبحرية مشاعره - حيث حقوق الضمير متساوية وأمنة". وقال رجل الكنيسة إن واشنطن خصص يوماً للشكر، خلال موسم الصوم عند الكنيسة ولم يبق أمام الأبرشانيين إلا أن يختاروا بين إلتزاماتهم الدينية وواجباتهم العلمانية. وقد تجاهل الأبرشانيون قانوناً حكومياً يعاكس ثوابتهم الدينية. وكان إكلزيا سيتكوس قد حذر قراءه من أن يتركوا حماسهم الديني يتغلب على شعورهم باللياقة السياسية. وقد دفع رجل الكنيسة، هو الآخر، بالفصل بين الإلتزامات السياسية والدينية. لكن ذلك كان يعنى، بالنسبة له، أن الحكومة يجب أن تترك الدين وشأنه، لا أن يتجنب المتدينون من الرجال والنساء أمور الحكم. وهذه المجادلات - حول الكنيسة والدولة، وحول مسؤولية الحكومة، وحول حقوق الناس وواجباتهم - نبعت كلها من

عذابات الأسرى الأمريكيين فى الجزائر. ضاع الأسرى فى صخب الجدل، بعد أن بدا أن مواطنيهم نسوا عذابهم البعيد فى عاصفة الجدل حول آفاق الحاضر والمستقبل للدولة التى خلفها الأسرى وراءهم^(٢٨).

وبعد عيد الشكر بثلاثة أيام حل يوم آخر للبهجة القومية مع احتفال الأمريكيين بالعيد الثالث والستين لجورج واشنطن. وفى واشنطن، حضر ١٥٠ من السيدات والسادة، بمن فيهم مسؤولو الحكومة والسلك الدبلوماسى حفلاً راقصاً وعشاء أقيما على شرف واشنطن. وأحد الأنخاب التى رفعت تحية للرئيس، حدد موقفه من الأسرى، بدقة. "إخواننا المواطنون فى الجزائر- عسى أن تثمر جهود حكومتنا تحريرهم العاجل" وقد أثمرت هذه الجهود، وأثبتت الحكومة التى يقودها واشنطن أنها على مستوى المهمة. وفى وقت لاحق من ١٧٩٥، اتفقت الولايات المتحدة والجزائر على معاهدة، وبعد ذلك بسنتين، وقبل أن يكمل واشنطن الخامسة والستين فى ١٧٩٧، عاد ستون من الأسرى الباقين على قيد الحياة إلى الولايات المتحدة. وأدى حضورهم فى الاحتفالات المختلفة بعيد ميلاد واشنطن إلى زيادة "بهجة اليوم"، كما قالت إحدى الصحف. وفى غلوستر، بماساشوسيتس استقبل الأسير السابق صمويل كالدر أفواجاً من أهل مدينته و "عبر بكل حيوية عن عرفانه لاهتمامهم الودود" وعاد زواره إلى منازلهم "ليتفكروا فى الأحداث السارة للعهد المجيد"^(٢٩).

وأوصى جويل بارلو الذى تفاوض حول المعاهدة مع الجزائر، أن توجه التبرعات للأسرى العائدين، الذين أصبح بعضهم عاجزاً عن إعانة نفسه. لكن بارلو أقر أنه من "سوء الأدب" أن يوجه الحكومة إلى ما يجب عمله، وترك لحكومة الولايات المتحدة والشعب الأمريكى الحرية فى أن يقرروا من الذى يتعين عليه أن يساند الأسرى. وامتدحت غازيت أوف ذا يوناييتد ستيس الاتحادية النزعة بارلو الجمهورى لتواضعه وحثت غيره من الجمهوريين على أن يحذوا حذوه ويتركوا الحكومة تقرر ما تراه. وسر الغازيت أن كثيراً من الأسرى تمكنوا من العثور على وظائف وعادوا إلى العمل بسرعة^(٣٠).

وقد شعرت الحكومة الأمريكية والإدارة الفيدرالية أنها فعلت ما يكفي، بالفعل، من أجل الأسرى باتفاق ٨٠٠,٠٠٠ دولار إعادتهم لأرض الوطن. لم يتسلم الستون أسيراً الذين عادوا إلى فيلادلفيا في فبراير ١٧٧٩ شيئاً من حكومتهم. ولم يحرك وجودهم في العاصمة الرئيس واشنطن لكي يصادق على التبرعات العامة أو الخاصة. لكن أفراداً آخرين رُقُّوا لهؤلاء المعذبين. وطول شتاء ١٧٩٦ و١٧٩٧ كان رجل أعمال يسمى سانت ماري يسلي أهل فيلادلفيا بالفيل الذي يملكه. كان يخطط للرحيل إلى بالتيمور، ولكن عندما وصل الأسرى وقرأ نداء جويل بارلو الداعي إلى التبرع، بقي سانت ماري ومعه فيله في فيلادلفيا. وأعلن عرض خاص للفيل لصالح الأسرى، مشيراً إلى أنه سوف يهدى كل الإيرادات لهم. ودعا الرجال الذين تم تحريرهم إلى تشريف فيله بحضورهم عرضاً خاصاً. وجاء من بعض من افتدوا ليروا سانت ماري وفيله، وجاء غيرهم من أهل فيلادلفيا لرؤية الفيل والرجال الذين تحملوا كل هذا العذاب. ورأى الأسرى الفيل، وأعطاهم سانت ماري إيرادات ذلك اليوم، وغادر الرجال المحررون فيلادلفيا آخذين معهم كل ما أمكن لحكومتهم أن تعطيهم إياه^(٣١).

وامتدح القبطان جون فوس، الذي كان يتساءل في ١٧٩٤ عما أضرّ بلاده كل هذا التأخير قبل تخليصه، الكرم الأمريكي في مذكراته في ١٧٩٨:

هذا الكرم من الولايات المتحدة تجاهنا نحن مواطنيها المستعبدين كانت له قيمة لا تقدر. وهو أكثر قيمة لأنه لم يكن متوقعاً. فما من أمة في العالم المسيحي صنعت مثل هذا لرعاياها الذين كانوا في مثل ظروفنا. وقد أرسى الحكومة الجمهورية في الولايات المتحدة نموذجاً إنسانياً لكل حكومات العالم.

هذا السخاء الوطني علم "البرابرة الذين لا يعرفون الرحمة" أن يروا "شخصية الأمريكيين... في أرقى ضوء" فهتف الجزائريون قائلين: "لا بد أن يكون الشعب الأمريكي أفضل شعوب العالم حتى يظهر كل هذه الإنسانية وكل هذا السخاء تجاه أبناء وطنه المستعبدين"^(٣٢).

لقد أجبر الأسر في دول البربر كلا من الأمريكيين الأسرى والأمريكيين في أرض الوطن على أن يقرروا أى شعب هم. وقد كانت مهمة تقرير الهوية أسهل، بشكل ما، على الرجال المأسورين، الذين تعين عليهم، فقط، أن يبقوا على قيد الحياة لكي يبرهنوا على هويتهم. وقد بقى معظمهم حيا. كتب بعضهم عن تجاربهم، واعتبر البعض الآخر أن الأسر كان من تبعات الحياة في البحر. وبالنسبة لمواطنيهم الباقين في البلاد فقد أثار الأسر عدداً من القضايا المزعجة أى نوع من الشعوب نحن، حتى نترك إخواننا في الأغلال؟ هكذا تساءل البعض ممن كان قلقهم عميقاً بخصوص الشخصية الأخلاقية لبلادهم. وكان آخرون أكثر قلقاً حول الشخصية السياسية للبلاد. وتساءل البعض، لماذا ننتخب حكومة إذا كنا نعطي أنفسنا حق القيام بوظيفتها؟ وتساءل آخرون: أى نوع من الحكومات الجمهورية ذلك الذى لا يريد من مواطنيه أن يشاركوه ؟

ولم يبد أن أيا من الاجابات المطروحة ردا على هذه الأسئلة السياسية أو الخلقية المتعلقة بالشخصية مقنع بشكل كاف. لقد أدى تخليص وتحرير الأسرى إلى حل قضية واحدة ، لكن المشاكل الأعمق التى أخرجها وقوعهم فى الأسر إلى السطح بقيت قائمة: العبودية، وسلطة الحكومة، والقدرة الأخلاقية لدى الشعب الأمريكى على معالجة القضيتين.

الفصل السابع

القناصل الأمريكيون فى العالم المسلم

مرت السنوات بين ١٧٩٦، عندما وقعت الولايات المتحدة مع الجزائر معاهدة و١٨٠١ عندما دارت الحرب بين الولايات المتحدة وطرابلس الغرب هادئة لم يحدث فيها كثير من الأحداث المهمة. لكن إهمال هذه السنوات هو قراءة خاطئة للتاريخ. إذا تجاهلنا سنوات السلام بين الولايات المتحدة ودول البربر، فقد نستنتج أن الحرب كانت الوضع الطبيعى بين العالمين، وقد نفع فى تصور خاطئ مفاده أن الحرب بين الولايات المتحدة وطرابلس الغرب كانت استمراراً للحرب الأمريكية - الجزائرية، قد نراها تطورا حتميا وبهذا فإننا نفشل فى فهم الكيفية التى تبدأ بها الحروب، وقد نفشل فى التعامل مع المشاكل المعقدة للدبلوماسية والعلاقات التجارية بين الناس، والمجتمعات والأمم.

وعندما أصبح جون أدامز رئيساً فى ١٧٩٧ كانت الولايات المتحدة فى حالة سلام مع دول البربر، لكنها كانت توشك أن تدخل فى حرب مع فرنسا. وكانت الحرب مع فرنسا ستتحول إلى مدار اهتمام إدارته، مع تحول السفن التجارية الأمريكية إلى ضحايا لهجمات الطرادات الفرنسية، والاشتباك بين السفن الحربية الأمريكية والفرنسية فى الكاريبى وفى أماكن أخرى. وسجلت شركة تأمين من بوسطن فى ١٧٩٨ أن فرنسا استولت على ما يساوى ٢٠٠,٠٠٠ دولار، على وجه التقريب، من الشحنات البحرية الأمريكية، فى السنة السابقة، واستولت بريطانيا على ما يساوى ٤٠,٠٠٠ دولار. كانت دول البربر قد استولت على سفينة واحدة، فقط، وكانت مركبا شرايعيا من بوسطن يدعى "إليزا" قدرت قيمته بنحو ١٣,٠٠٠ فرنك فرنسى. كانت فرنسا أشد

خطراً على التجارة الأمريكية من الدول المسلمة في شمال إفريقيا. ورغم أن المتوسط بدا آمناً فلم يكن أدامز ينوى تجاهله. كان مصراً على المحافظة على السلم، وقد أخبر الكونغرس بأنه، رغم أن الولايات المتحدة ليس بمقدورها أن تتطلع إلى تجنب الاحتكاك بدول البربر، أو إلى تجنب "المشكلات التي تنشأ عن سوء التصرف من جانب سفننا التجارية أو حتى سوء الحظ" الذي يحالفها في المتوسط، فإن الولايات المتحدة بوسعها تقليص هذه المشكلات بتعيين قنصل عام في الجزائر، يمكن أن تناط به مسؤوليات واسعة سياسية وتجارية^(١).

كان اختيار أدامز قد استقر بالفعل على ريتشارد أوبرايان ليكون القنصل العام في الجزائر. وقد كان أوبرايان، الذي ظل أسيراً عشرة أعوام في الجزائر، قنصل الأمر الواقع الأمريكي في تلك البلاد، في أثناء أسره، إذ قام بدور الناطق باسم الأسرى الأمريكيين الآخرين والمستشار لسلسلة من الوكلاء والقناصل الرسميين الذين بعثت بهم الولايات المتحدة للتفاوض مع الداي. وقد راسل أدامز وجيفرسون وجون جاي والكونغرس الأمريكي وأصبحوا جميعاً أكثر اعتماداً على مشورته حول الشؤون البربرية، أكثر مما اعتمدوا على الوكلاء الذين أرسلوهم للتفاوض. وبعد إطلاقه في ١٧٩٦ افتتح أوبرايان المفاوضات مع كل من طرابلس الغرب وتونس. وفي الولايات المتحدة في ١٧٩٧ أشرف على بناء ثلاث طرادات لحساب الداي حسن. وطلبت وزارة الخارجية رأى أوبرايان في عديد من الأمور المتصلة بدول البربر في ربيع ١٧٩٧ وكتب أوبرايان تقريرين مطولين يغطيان كل الأمور العديدة والمتنوعة التي تهم وتتعلق بالمصالح والسياسات الأمريكية في المتوسط.

وأوصى أوبرايان بأن يذهب جويل بارلو، الذي كان لا يزال في الجزائر قنصلاً بعد نجاحه في التفاوض حول معاهدة ١٧٩٥، إلى إسطنبول، حيث كان يمكن له موازنة نفوذ الأمم المسيحية لدى الباب العالي. لكن بارلو لم يبد اهتماماً بهذا الدور أو بالبقاء في الجزائر، رغم أن أوبرايان اعتبره الأكثر تأهيلاً للوظيفة. كان أوبرايان يعلم أن الولايات المتحدة تحتاج إلى إرسال الشخص المناسب إلى الجزائر قنصلاً عاماً - وعلى وجه السرعة. وعندما لم يتقدم شخص أفضل، وافق أوبرايان على الذهاب.

كان أوبرايان يعلم أن الولايات المتحدة محتاجة إلى أن تتصرف وحدها، ولم يكن بوسعها أن تعتمد على صنيع تسديه إليها أوروبا المسيحية. ففرنسا كانت فى حرب مع الأمريكيين، وكان أوبرايان يتذكر أن بريطانيا هى التى حرّضت الجزائر على محاربة الولايات المتحدة فى ١٧٨٥ وفى ١٧٩٣. كان البحث عن الصداقة مع القوى الأوروبية أو توقع أى نوع من التضامن المسيحى ضد الدول المسلمة فى شمال إفريقيا خطأ جسيماً. فقد خرج أوبرايان من سنواته فى الأسر، ومن خبراته باعتباره قبطان سفينة تجارية يتفاوض فوق أرصفة الموانئ فى كل أنحاء العالم، برأى واضح وغير عاطفى فى الطبيعة البشرية والعلاقات الدولية. وقد اقتسم رؤيته لعلاقات القوة مع داي الجزائر الذى قال له إنه فى السياسة الدولية فإن الأمم الكبرى "تسن القوانين التى تخدمها" و"السماك الكبير يأكل السمك الصغير". وأدرك أوبرايان أن دول البربر تعمل خارج نطاق القانون الدولى، "لا علاقة لها ببلاكستون أو فاتيل" (السيد وليم بلاكستون فقيه القانون الإنكليزى الأكبر وإيمير فاتيل فقيه القانون الدولى الفرنسى الأكبر فى القرن الثامن عشر- المترجم) اللذين اعتبرتهما دول البربر وبرايان مجرد مقننين لعلاقات القوة فى أوروبا. ورغم إحجام هذه الدول عن اتباع تفسير أوروبى للقانون الدولى، فلم يكن أوبرايان يرى دول البربر أسوأ من بريطانيا أو فرنسا، السمك الكبير الذى ارتكب من أعمال النهب ما هو أسوأ مما ارتكبه "الشعوب الموصومة بالقرصنة فى بلاد البربر"^(٢).

وقد تأكّدت صحة هذا الرأى عندما وصل أوبرايان إلى الجزائر فى ١٧٩٨، فقد وجد ثلاث سفن تجارية أمريكية فى الميناء، مختبئة من قرصنة الحكومة الإسبانية والفرنسيين. فالسلام مع الدول البربرية ومع تركيا كان من شأنه أن يمنح الأمريكيين مزيداً من الحماية ضد دول أوروبا ويساعدهم على ضمان حرية التجارة فى المتوسط. لكن أوبرايان حذر من أنه إذا لم تتحرك الولايات المتحدة للمحافظة على سلامها مع دول البربر "فأنا أخشى أن ينهار السلام وتنهار آمالنا فى حصّة من الفروع القيمة للتجارة فى المتوسط المعرضة للخطر"^(٣).

وقد أشار أوبرايان على الولايات المتحدة، وبما يتوافق مع رؤيته لعلاقات القوة، بأن تبني سلاحها البحري. فقد أراد زيادة الأسطول البحري المكون من ست فرقاطات، الذي كان تحت الإنشاء، زيادة كبيرة، بإضافة ست بوارج وست سلويات حربية (SLOOP سفينة ذات شراع واحد - المترجم) وست بريغيات (BRIG سفينة ذات شراعين - المترجم) وست سكونات (SCHOONER سفينة ذات شراعين أو أكثر - المترجم) وسلوبين أصغر حجماً، وأسطول من الطرادات الصغيرة. وإذا كانت هذه البحرية مكلفة بأكثر مما هو مستطاع، فقد اقترح أوبرايان نسخة مبسطة - بارجتين وسلوبين وثلاث بريغيات وثلاث سكونات وأحد عشر قارباً لصيد الحيتان، يحمل كل واحد منهما مدفعاً من مدافع الأبطال الستة. ويمكن لقوارب صيد الحيتان جمع الاستخبارات ونقل الرسائل، وتكون نافعة في البحيرات والأنهار ويمكن أن تشتغل بالتجارة. ولا بد للولايات المتحدة من إقامة مدارس لتدريب البحارة. وتوقع أوبرايان أن تكون الحرب التالية، سواء مع فرنسا أو إسبانيا أو إنكلترا حرباً مع القراصنة الحكوميين (قراصنة ينهبون السفن الأجنبية بتكليف من حكوماتهم وبناء على تعاقد معها، يعطى الحكومة حصة مما ينهبون، وإن كانت حصيلة النهب البرى تعود لهم وحدهم، وقد يكون أشهرهم هنرى مورغان الذى حصل على لقب فارس وأصبح السير هنرى - المترجم) والبحرية المنتشرة فى أنحاء العالم والقناصل الأمريكيون فى الموانئ البعيدة، قد يكونون جزءاً حيويًا من الدفاع الوطنى، وعندما جاءت الحرب أوصى أوبرايان بفرض الحظر على الموانئ ويوقف التجارة الأمريكية وإجبار "أساطيل القراصنة تلك ولصوص البحر على العودة إلى أوروبا"^(٤).

وقد كان رد المعتدين الإنكليز والفرنسيين إلى أوروبا نتيجة واحدة فقط لهذا الحظر. وبقطع إمدادات الغذاء عن الهند الغربية كان ممكناً للولايات المتحدة دفع العبيد فى تلك الجزر إلى التمرد. وقال أوبرايان "تملك الولايات المتحدة كثيراً من مقدرات تلك الجزر بيديها، فى الوقت الحاضر"، وكلما كانت ثورة الزنوج أسرع وكان استقلال جزر الهند الغربية تحت حكم السود أقرب كلما كان هذا أفضل لبلدنا "فاستقلال الجزر وحرية أهلها يعنىان التوسع التجارى بالنسبة للأمريكيين. لكن أوبرايان بعد أن قضى

عشر سنوات فى الجزائر ينتظر أن تمنحه الولايات المتحدة حريته، لم يكن متفائلاً بأن الأمة ستنتهز الفرص المتاحة لها"^(٥).

وقد أراد أوبرايان أن تحترم الولايات المتحدة معاهداتها فى المتوسط، وأن تقوم بإرسال الذخائر العسكرية وغيرها من مكونات الجزية الموعودة للجزائر وتونس وطرابلس الغرب. وقد نصت المعاهدة مع الجزائر على أن ترسل الولايات المتحدة إلى الداي ما قيمته ٢٠,٠٠٠ دولار من الإمدادات البحرية، كل سنة. ولم تعد الولايات المتحدة تونس أو طرابلس الغرب بإمدادات سنوية لكنها وعدت بهدايا ضخمة. هذه الهدايا، وتلك التى يتوقع أن يقدمها القناصل عندما يصلون وعندما يغادرون، وفى مختلف المناسبات الرسمية، كانت ثمن السلام فى المتوسط. وقد أراد أوبرايان أن تحفظ الولايات المتحدة هذا السلام بالدفع الفورى لتضمن بذلك قاعدة محايدة فى شمال إفريقيا وغرب المتوسط ضد أعمال النهب الأوروبية.

وقد وصل أوبرايان إلى الجزائر فى فبراير ١٧٩٨ على ظهر الفرقاطة "الهلل" التى بنيت فى بورتسموث، هامبشير، هدية إلى الداي حسن. وعندما وصل هو و"الهلل" إلى الجزائر فإن السفينة التجارية الجزائرية "موكينى" كانت تفرغ شحنتها فى باليمور، وكانت أول سفينة تجارية من الجزائر تعبر الأطلسى. ورغم هذه العلامات على تحسن العلاقات، فقد قابلت المتاعب أوبرايان فى الجزائر. كانت الولايات المتحدة، حتى ذلك الوقت، متقاعسة عن تسليم الذخائر العسكرية الموعود بها وفقاً للمعاهدة، وما وصل منها كان يحتوى على أخشاب لبناء السفن وقذاف مدفعية أصفر مما يجب (وعلم أوبرايان أن الجزائر والولايات المتحدة استعملتا معايير قياسية متباينة) وكان قماش القلوع مهترئاً. واضطر أوبرايان إلى اقتراض المزيد من المال من ديفيد وسولومون بكري، أهم مصرفيين فى الجزائر، وكان قد أقرضا الولايات المتحدة، بالفعل، ٤٠,٠٠٠ دولار خلال مفاوضات ١٧٩٥. وإضافة إلى هذا الدين كانت الولايات المتحدة مدينة للجزائر بنحو ١٠٠,٠٠٠ دولار قيمة شحنتين من الذخائر البحرية التى لم تصل (٢٠,٠٠٠ دولار لكل منهما) وقيمة الهدايا التى كان متوقعاً أن يقدمها أوبرايان باعتباره قنصلاً جديداً،

لدى وصوله، إضافة إلى الهدايا السنوية المعتادة، التي قدم آخرها في ١٧٩٦. واقترض أوبرايان ٤٠,٠٠٠ دولار أخرى من البكرين أعطاها للدائ (٦).

ووجد أوبرايان أن مكانة الولايات المتحدة لدى الجزائريين متدنية للغاية، كنتيجة لحادثتين تظهرا مشكلات ممارسة التجارة الشريفة في المتوسط. فالمغامرات سيئة الحظ لسفینتین - "فورتشن" المملوكة للبكرين و"إليزا" وهي سكونة من بوسطن - إضافة إلى عجز الأمريكيين عن دفع الجزية بسرعة، جعلت كثيرين على الساحل البربري، من تجار وحكام، من يهود ومسلمين، من جزائريين وتونسيين، يفقدون الثقة بالأمريكيين ويعتبرونهم كذابين ولصوصاً.

وفي يناير ١٧٩٦ كانت "إليزا" في جبل طارق تنتظر توصل الولايات المتحدة إلى سلام مع "القوى المحمدية". وعندما سمع مالکها إدوارد راند من بوسطن، وكان على متنها، شائعات عن السلام، قرر الإبحار في المتوسط. وكانت الشائعات سابقة لأوانها - فلم تكن تونس وطرابلس وقعتا على معاهدات. وكان جويل، الموجود حتى ذلك الحين في الجزائر، يخشى أن يبحر الأمريكيون من أمثال راند، بكل حماقة، إلى المتوسط بمجرد سماع شائعات زائفة عن السلام، وقد كان بارلو يعلم أن القباطنة الأمريكيين يمكن أن يبحروا إلى فم الجحيم ليبيعوا ما لديهم من سمك القد إن سمعوا أن الشيطان تحول إلى الكاثوليكية (٧).

ظن راند أن المتوسط سلم من أذى القوى البربرية، وهكذا فربما خفف من حرصه. وفي ميناء أدجيه الفرنسي سلبه رجال مسلحون ٨٠٠٠ دولار، وقضت "إليزا" ثلاثة أشهر هناك تنتظر أن تقبض الحكومة الفرنسية على اللصوص أو أن تعوض راند. ولم يحدث أي من الأمرين، وكان راند بحاجة يائسة إلى تعويض خسائره. وفي يونيو أبحرت "إليزا" إلى ملقا، لكن طرادا تونسيا أوقفها واعتبرها غنيمة. وقد أسر راند و"إليزا" قبل توقيع تونسى على اتفاق بعدم أسر سفن أمريكية، بيوم واحد.

هذا التتابع لمظاهر الحظ السيئ بالنسبة إلى راند كان سبب متاعب للولايات المتحدة. وقد وافق جويل بارلو، وهو في الجزائر مشرفاً على مفاوضات الولايات المتحدة مع تونس،

على دفع ١٠,٠٠٠ دولار للتونسيين للإفراج عن "إليزا" وطاقمها. وظن أن بوسعه استخدام السفينة لنقل السجناء الأمريكيين الذين أطلق سراحهم من الجزائر إلى مارسيليا. وغادرت "إليزا" تونس محملة بشحنة قمح تخص البكرين وتاجرا يهوديا آخر هو سامبسون الذي أبحر معها.

لكن سوء حظ "إليزا" كان لا يزال مستمراً. قرر القبطان صمويل غريفز معاقبة سامبسون "على ما قاساه الأمريكيون في بلاد البربر" وأمر بجلده وتغطيسه في المحيط. وعندما وصلت "إليزا" إلى صقلية، أنزل غريفز سامبسون إلى البر وأقلع بالقمح الذي باعه في قادش، ودفع الرسوم للقنصل الأمريكي هناك، وأبحر عائداً لبلاده بأرباح قمح سامبسون.

ونجح سامبسون في العودة إلى الجزائر ليحتج لدى الداي حسن على وحشية الأمريكي. وطلب الداي، الذي كان ينتظر، في قلق، الشحنات المتأخرة من الجزية الأمريكية، تفسيراً من جويل بارلو. قال حسن لبارلو "أنت كاذب وحكومتك كاذبة" وكان بارلو يدرك أن الموضوع كله كان "ضربة مخجلة ومذلة لأقصى درجة للشخصية الأمريكية في بلاد البربر". واعتبرها التجار اليهود والمسلمون برهاناً على أنه لا يمكن الوثوق بالأمريكيين، بخاصة بعد أن علموا أن غريفز، وليس بعض اللصوص الفرنسيين المجهولين، هو من سرق ٨٠٠٠ دولار من راند في أدجيه. فالأمريكيون لا يسرقون اليهود أو المسلمين فقط، بل ويسرق بعضهم بعضاً. وكان بارلو يعلم أنه رغم أن حكومته يمكن أن تعوض سامبسون والبكرين فإن حقيقة "الخسائر، فيما يخص الشرف والشخصية، لن يكون من السهل حصرها". لكنه نجح في إقناع الداي حسن أن غريفز وسامبسون كان بينهما خلاف ما وأنه "ربما كان هناك ما يستحق اللوم، على الجانبين" وأن عاصفة أجبرت السفينة على الجنوح إلى صقلية. وتوسل إليه أن لا يعاقب سامبسون على المبالغة، ووعد بأن تعوضه الولايات المتحدة، هو والبكرين عن خسائرها. ووصل أوبرايان إلى الجزائر في ١٧٩٨ ومعه ٦٠٠٠ دولار لهما. وفي الولايات المتحدة لم يوفق إدوارد راند في التماسه من حكومته بتعويض مماثل،

زاعماً أن الولايات المتحدة كان يجب أن تحذره من التونسيين. وقد كانت الولايات المتحدة تدرك، إذا لم يكن راند يدرك، أن القراصنة التونسيين كانوا أهون مشكلاته^(٨).

ونشب بين بارلو والبكرين خلاف آخر حول السفينة "فورتشن" التي كان بارلو أجرها من البكرين في ١٧٩٧ لتأخذ السجناء الأمريكيين إلى خارج الجزائر. ولأن الجزائر كانت في حالة حرب مع جنوا وتوسكانيا فلم يكن بارلو يريد لمجموعة الأمريكيين الذين قضوا سنوات في الأسر في الجزائر، أن يعتقلوا وهم في طريقهم إلى الحرية ويستعبدهم الإيطاليون. وليحول نون ذلك، سمح للسفينة بأن تبحر تحت علم أمريكا. وأدرك البكريون أن العلم الأمريكي يمكن أن يحمي السفن الجزائرية من الأسر بأيدي الإيطاليين، وهكذا فعندما وصلت "فورتشن" إلى مارسيليا، طلبوا من القنصل الأمريكي هناك جوزيف دونالدسون الذي ساعد في التفاوض على المعاهدة الأمريكية - الجزائرية أن يصدر مجموعة أوراق أمريكية للسفينة "فورتشن" التي يملكها البكريان، وإن كان طاقمها من الأمريكيين الذين كانوا سجناء في الجزائر، قبل ذلك، القمح من شمال إفريقيا إلى مارسيليا بل وإلى جنوا، تحت حماية العلم الأمريكي. ولكن على الرغم من أن العلم الأمريكي كان يحمي السفينة "فورتشن" من إيطاليا، فإن إنكلترا لم تكن تريد أن يتاجر أى إنسان، تحت أى علم، مع فرنسا. وأسرت فرقاطة إنكليزية "فورتشن" وأرسلت بالطاقم إلى الولايات المتحدة، وأخذت قمح البكرين غنيمة حرب.

وغضب البكريان وطلبوا تعويضاً من الولايات المتحدة. وغضب بارلو أيضاً وغنف دونالدسون لأنه أعطى "فورتشن" أوراقاً أمريكية زائفة. وأظهر بارلو براعته الدبلوماسية بالخروج من هذا الموقف الصعب. كانت الولايات المتحدة، بالفعل، مثقلة بالديون للبكرين، وكان يعلم أن بلاده ما زالت تحتاج لاقتراض المزيد منها. فكتب إلى وزير الخارجية يقول: "من المعروف جيداً أن آل بكرى هم ملوك الجزائر وأن معارضة مصالح الداي أسهل من معارضة مصالحهم". لكن بارلو هدد بفضح نور آل بكرى في هذه الخدعة للداي، ووعد بتعويض البكرين عن جزء من خسائريهما. وغادر بارلو الجزائر،

سعيداً بالإفلات من هذه المشكلات، وتاركاً لأوبرايان مشكلات استعادة الثقة في أمانة الأمريكيين ومصداقيتهم وشخصيتهم^(٩).

وقد كان أوبرايان يعلم أنه لا يملك مهارات بارلو الدبلوماسية. وقد كان بوسع الأمريكيين أن يماطلوا البكرين الذين كانا لا يزالان مستعدان لإقراض الولايات المتحدة ما دامت تعد بالسداد مع الفوائد. وكان بوسع أوبرايان أن يقول للدائ حسن إن الجزية الواجبة له عطلها الشتاء القارس ووباء الحمى الصفراء. لكن أوبرايان لم يكن يستطيع أن يقول لماذا لم تمنع الحمى الصفراء والأنهار والموانئ المتجمدة السفن التجارية الأمريكية من المجيء إلى المتوسط. وأصبح يدرك أن نصائحه السديدة حول الشؤون الجزائرية، وإن جعلته يفوز بمنصب القنصل العام، فهي لم تقنع إدارة جون آدامز بأن تفعل ما يشير به. فبعد أن أرسلته الولايات المتحدة قنصلاً فقد تجاهلته، ولم تحترم الالتزامات المترتبة على المعاهدة ولم تستعد للحرب التي أصبح أوبرايان يدرك أنها محتومة. وإن كانت الولايات المتحدة اختارت ألا تحترم معاهداتها، فلم يكن لديها خيار سوى الحرب أو الانسحاب من المتوسط. وحذر أوبرايان وزير الخارجية بيكرينغ^(١٠) "تأكد يا سيدي أننا سنخوض حرباً".

قضى أوبرايان في الجزائر عشر سنوات، بالفعل، ينتظر أن تتوصل بلاده إلى السلام، والآن بعد أن توصلت إلى السلام لم يعد يبدو أنها مهتمة بالحفاظ عليه. وقد جلب السلام مع الجزائر والملكيات الأخرى مليوناً ونصف مليون دولار أرباحاً للتجار الأمريكيين، في السنة، هكذا كتب أوبرايان، والحرب ستتكلف مليوناً ونصف مليون دولار في السنة "بون أية أرباح". وقد كان واجب الولايات المتحدة أن "تتصرف في الموعد المناسب أو بقوة" لتحقيق هذه الأرباح، متجنباً "الجمهرة الكامنة في الجانب الآمن من السفينة، الكونغرس". "كان أوبرايان مستعداً لأن يفعل كل ما بوسعه في الجزائر لمصلحة أمريكا، لكن لا أستطيع أن أكون نافعاً لهذا البلد وأنا لا أملك مالاً أو انتمائاً".

وقد وجد نفسه "كأنى في سفينة في العاصفة... محاولاً... أن أبقى في إطار المسارات المحددة". وحتى تسلم الدائ حسن الجزية الموعودة والطرادات الثلاثة التي

كلف الأمريكيين ببنائها، لم يكن بوسع بارلو إلا أن يماطل، وأن يقترض من البكرين ليدفع للجزائريين ولطرابلس الغرب وتونس "عائشاً على أمل الإغاثة مثل بحار فوق حطام سفينته" (١١).

وعندما وصلت السكونة "ليلة عيشة" أولى السكونات التي أمر بها حسن، أخيراً، إلى الجزائر في يناير ١٧٩٩، كان حسن قد مات منذ عام تقريباً، وطلب خليفته مصطفى بوبا أن تعتبر هدية. لقد أعطت الولايات المتحدة حسن "الهلل" هدية. ألم يكن هو، أيضاً، جديراً بهدية؟ ورغم أن أوبرايان لم يكن أمامه سوى الموافقة، فقد حاول أن يرفض. قال إنه لا يستطيع أن يتنازل عن السفينة، وأنه لا يملك إلا انتظار سداد ثمنها من مصطفى. ورفض مصطفى ذلك وأمر بتنكيس الراية الثلاثية الحمراء الخاصة بالجزائر والمعلقة فوق "ليلة عيشة"، في أثناء وجودها في الميناء، إشارة إلى أن السفينة غير مرحب بها. فإذا لم يكن بوسعها أن ينالها هدية، فهو لا يريدتها. ورد أوبرايان بمناورة خطر له أن يقدم عليها. فأمر برفع العلم الأمريكي مكان الراية الثلاثية الجزائرية وبطلقة مدفع إعلاناً بالحرب.

الخيارات المتاحة لأوبرايان كانت محدودة. فقد كانت الجزائر، شأن الولايات المتحدة، في حرب مع فرنسا، ولا تريد حرباً، بالفعل، مع الولايات المتحدة، رغم أن الأمريكيين لم يبرهنوا بقوة على رغبة في القتال.

كان أوبرايان يعلم أن رئيس الوزراء ووزير البحرية يريدان الحفاظ على السلام مع أمريكا، لكنه كان يعلم أيضاً أنه لم يكن يستطيع أن يمنع مصطفى من أخذ "ليلة عيشة". وقد كان بوسع أوبرايان أن يماطل بأن يطلب مهلة ليشاور حكومته، وربما كان ذلك أعطاه ستة أشهر أو سنة. لكنه كان يعلم أن بلاده لن ترد سريعاً: وقد جاءت "ليلة عيشة" لأوبرايان بأول أخبار رسمية من الولايات المتحدة تصله منذ عام، تقريباً. ولم يكن محتملاً أن ترد الولايات المتحدة بسرعة على أى طلب بالتعليمات وكان مستحيلاً أن يتلقى تعليمات تخوله الاحتفاظ بالسفينة.

وكما جرى مع بارلو، فقد وجد أوبرايان نفسه في مركز الضعف. وقرر المساومة متظاهراً بالقوة. كان يعلم أن رئيس الوزراء يريد السلام، وهكذا اتخذ خطاً متشدداً، قائلاً إن بلاده لم ترسله "ليبعثر أموالها ويضحى بشخصيته التي عاش طول حياته معتزلاً بها". وحذر أوبرايان من أنه إذا أخذ الداي "ليلة عيشة" فسوف يطلب من كل السفن التجارية الأمريكية أن تتجنب المتوسط، وسوف تأتي الفرقاطات الأمريكية التي تبني لتحارب فرنسا، إلى الجزائر. الولايات المتحدة لا تريد السلام إذا كان الجزائريون لا يمكن الوثوق بهم.

في هذه اللحظة وصلت ثانية السفن التي طلبها الداي حسن، إلى الجزائر. وكتب أوبرايان أن السفينة "حسن باشا" كانت "أجمل وأكمل السفن" التي رآها في حياته وأن "نظامها الكامل" و"ترتيبها" أبهر الجزائريين وأقنعاها بأتنا "نملك القدرات والموارد في الولايات المتحدة التي تجعل منا عدوا نشيطا وعنيدا". وهدأت السفينة حمى الحرب في الجزائر وشجعت الرسائل التي حملها أوبرايان بدرجة أكبر. وقرأ أوبرايان رسالة الرئيس أدامز إلى الكونغرس بخصوص "قضية المجهولين الثلاثة" (*).

(*) قضية المجهولين الثلاثة XYZ AFFAIR هي حادثة مشهورة في تاريخ العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة وفرنسا كادت أن تشعل الحرب الشاملة بين البلدين في القرن الثامن عشر وقد حدثت بالفعل مناوشات بحرية بين الطرفين، لكن المفاوضات وصلت بالخلافات إلى نهاية متفق عليها بين الطرفين في ١٨٠٠. وقد وقعت هذه الحادثة إبان "حروب نابليون" التي دارت بين فرنسا وبريطانيا، عندما اعتبرت فرنسا أن الولايات المتحدة أصبحت دولة معادية، بخاصة بعد توقيع المعاهدة المعروفة باسم "معاهدة جاي" في ١٧٩٤ التي كانت تستهدف حل الخلافات التي وترت العلاقات بين الولايات المتحدة وبريطانيا، عقب نيل المستعمرات في أمريكا استقلالها في ١٧٨٣.

وقد عين الرئيس جون أدامز تشارلز بنكني وزيراً لدى فرنسا في ١٧٩٦ لتحسين العلاقات مع باريس، ولأن وزير خارجية فرنسا العتيد شارل تاليران رفض اعتماد بنكني، فقد عين أدامز لجنة ثلاثية بدلا من بنكني. لكن تاليران استبق المفاوضات بإرسال ثلاثة وكلاء لمقابلة أعضاء اللجنة. وكان المبعوثون الفرنسيون الثلاثة هم جان كونراد هوتنغير، وبيير بيلامي، ولوسيان هوتفال الذين يشار إليهم بالمجهولين الثلاثة.

وقد نقلوا عن تاليران طلباً موجهاً إلى الولايات المتحدة بدفع مائتين وخمسين ألف إسترليني منحة لفرنسا وعشرة ملايين دولار قرضاً لها من الولايات المتحدة، ورشوة شخصية للوزير تاليران. ونحن نورد هذه القصة بالتفصيل حتى نشير إلى القارئ إلى أن طلبات الداي حسن في الجزائر أو الباشا يوسف في =

وتأثر بتعهد الرئيس بعدم إرسال "وزير آخر إلى فرنسا إلا بضمانات باستقباله بكل احترام وتكريم باعتباره ممثلاً لأمة عظيمة وحررة وقوية ومستقلة". وبعد أن قرأ أوبرايان هذا الكلام ذهب لمقابلة مصطفى "باعتباره ممثلاً لأمة عظيمة وحررة وقوية ومستقلة". وأبلغ أوبرايان الداي بأنه "شاهد الولايات المتحدة في حرب ثم في سلام مع الجزائر" وأنه لم ير فارقاً كبيراً بين الحالين. الأمريكيون جاهزون للقتال والسفينتان "ليلة عيشة" و"حسن باشا" تثبتان أن الولايات المتحدة ستكون عدوا صعباً^(١٢).

ورغم ذلك لم يكن لدى أوبرايان الكثير ليستخدمه في التفاوض. ولكن لما علم أنه لا رئيس الوزراء ولا الداي يعلمان، على وجه الدقة، شروط المعاهدة التي نصت على الدفع بإمدادات بحرية أو بالنقد، فانتهاز الفرصة للتخلص من كل الديون الأمريكية. بالغ في قيمة الطرادات التي بنتها أمريكا، والتي لم تتجاوز تكلفتها ٧٠,٠٠٠ دولار، وقال للجزائريين إن كلفتها تجاوزت ١٠٠,٠٠٠ دولار وإن البرتغال عرضت شراء الثلاثة جميعاً مقابل ١٢٠,٠٠٠ دولار. ثم أقنع الداي بقبول السفينتين الأصغر "ليلة عيشة" و"سكجولد براند" مقابل كامل مبلغ الجزية الأمريكية، ثم قال إنه سيمنح الداي "حسن باشا". وقال إنه وافق على ذلك، فقط، لأن "الولايات المتحدة يسرها أن تزيد قوة الجزائر حتى تسحق الفرنسيين، الذين تحولوا إلى لصوص ومضطهدين للأمم المسيحية والمحايدة". تخلى أوبرايان عن ثلاث سفن، لكنه حصل في المقابل على ما هو أكثر بكثير. وقد طلب من الداي إيصالاً مكتوباً وإقراراً بأن الولايات المتحدة سددت ما عليها بالكامل. كان أوبرايان بحاراً مجرباً ومعتاداً على المساومات على أرصفة الموانئ،

= طرابلس الغرب أو مولاي محمد في مراكش لم تكن سلوكاً مستهجناً في ذلك الوقت. فهكذا كانت تسلك الدول الكبيرة والصغيرة. وإذا كانت دول البربر قد أسرت سفناً أمريكية، فإن فرنسا أسرت، في هذه الأزمة وحدها، ثلاثمائة سفينة أمريكية.

وقد استقبل الأمريكيون الطلب الفرنسي بالغضب، ورد بنكني على الوفد الفرنسي قائلاً: لا. لا. ولا ستة بنسات. وقدمت اللجنة الأمريكية تقريراً عن المقابلة إلى آدامز الذي وضع الحروف الثلاثة XYZ مكان أسماء البعثين، قبل رفع التقرير إلى الكونغرس، واهتاج الرأي العام الفرنسي، وظلت المناوشات البحرية بين البلدين مستمرة في ١٧٩٨ إلى ١٨٠٠ - المترجم.

ولم يكن يريد أن يعرف الداي أن أوبرايان هو الفائز في الصفقة. وقال للداي إنه يخشى أن يطاح برأسه عندما تصل الأخبار عن الصفقة إلى الولايات المتحدة. وربما في هذه اللحظة أدرك مصطفى أن أوبرايان خدعه. وقال مصطفى إذا فقد أوبرايان رأسه "فيجب أن يأتينا قنصل جديد، رجل لا يعرف المكان جيداً مثلك".

وفيما كان أوبرايان يبحث عن طريق للخروج من الأزمة وصل القناصل الأمريكيون الآخرون، المبعوثون لبقية دول البربر، إلى الجزائر: وليم إيتون مبعوثاً لتونس وجيمس ليندر كاثكارت لطرابلس الغرب. كان إيتون عقيداً في الجيش الأمريكي حصل على هذا المنصب عبر صداقته مع وزير الخارجية بيكرينغ. ولم يكن إيتون قد غادر الولايات المتحدة، من قبل، لكنه خدم على حدود جيورجيا. واعتبرت حكومته أن مفاوضاته مع قبائل الكريك والشيروكي (من الهنود الأمريكيين - المترجم) تؤهله للتفاوض مع تونس. وأخبره أحد المسؤولين الأمريكيين قبل أن تقلع السفينة أن القناصل المبعوثين إلى دول البربر "مجموعة من الوكلاء الملاحين المتوحشين، وكلاء هنود - نعم أنتم حفنة من الوكلاء الهنود الملاحين أيها القناصل في بلاد البربر! "وكان إيتون يميل إلى الموافقة. وعندما اعترف قنصل الجزائر لدى تونس بأنه صديق للأمريكيين، لم يكن ذلك مصدر انبهار بالنسبة لإيتون" الذي قال إن "أحد زعماء قبائل الشيروكي كان يمكن أن يفعل الأمر ذاته من أجل قنينة روم وبندقية"، وكاستعداد إضافي لمهمته قرأ إيتون كتاب فولني "أسفار عبر مصر وسوريا في السنوات ١٧٨٣ و ١٧٨٤ و ١٧٨٥"، ووجد وصف فولني للتراخي والفساد عند الأتراك ينطبق على تونس، بل وبدرجة أكبر^(١٣).

وقدم أوبرايان إيتون وكاثكارت إلى الداي مصطفى، بعد عدة ساعات من إطلاق البحارة الأمريكيين على السفينة "صوفيا" خمس عشرة طلقة تحية ليوم ميلاد جورج واشنطن. وسأل الداي عما يحتفل به الأمريكيون متوقعاً أن تقدم له ولبلاطه الهدايا، احتفالاً بالمناسبة لكن أوبرايان كان يعلم ذلك فقال له إن هذا نخب مرفوع في صحته. وأعجب إيتون بالمهارات الدبلوماسية لدى أوبرايان بخاصة "موهبتة الموفقة" في استخدام "الحجج السرية" أو الرشاوى مع نظرائه الجزائريين "الذين لا تمنعهم وطنيتهم من الإصغاء إليها"^(١٤).

وكان أوبرايان ينتظر منذ أكثر من عام ليسمع من الولايات المتحدة رداً، وأخبر إيتون بأنه لا يجب عليه أن يتوقع مساندة كبيرة من حكومته. ونصح إيتون بأن يعتمد على فطنته وأن يضع التعليمات في جيبة" وإلا فسوف يجد نفسه "في أزمة لعينة" بعيداً عن حكومته بالآلاف الأميال. يجب "أن يقبل بحكم الظروف" ورغم أن بلاده تميل إلى أن توجه تصرفاته، فهي لا تستطيع أن تحدد له المسار" وسط الرياح المتغيرة على هذا الساحل الغادر". وقارن أوبرايان القناصل بالقباطنة البحريين والحكومة بملاك السفن. وسأل: هل يكتب القبطان، في أثناء عاصفة في البحر، إلى ملك السفينة طالباً الإذن بقطع الصواري أو بالتخلص من المدافع بإلقائها في البحر؟ ووافق إيتون على أن القبطان في أزمة لا يجب أن ينتظر التعليمات، لكن الملك بوسعهم رسم خريطة بمسار عام نحو الوجهة النهائية. اتفق إيتون وأوبرايان على الوجهة النهائية، التي كانت السلام في المتوسط واتفقا أيضاً على المسار العام. يجب على الولايات المتحدة أن تنفذ الالتزامات المقررة في المعاهدة في موعدها وأن تمارس "مقاومة رجولية للمطالب غير المبررة". وقال إيتون، ببساطة: "سدد وحارب"^(١٥). ومع هذه الرؤية المشتركة للسياسات الأمريكية ومع الصراحة الصادمة في شخصيتهما، أصبح إيتون وأوبرايان صديقين، يتبادلات خطابات دافئة، ليس بوصفهما دبلوماسيين زميلين ولكن باعتبارهما روحين شقيقتين في مواقع خارجية منعزلة، وقد اتخذت مراسلاتهما لغة لا بد أن نتوقعها من قبطان بحري وجندي حدودي.

ورغم التشابهات بينهما، ورغم الصداقة في البداية. فقد انهارت العلاقة. والحقيقة أن التباعد بينهما كان بسبب العضو الثالث في المفزة الدبلوماسية جيمس ليندر كاثكارت الذي قضى عشر سنوات أسيراً في الجزائر ثم أصبح السكرتير المسيحي الرئيسي للدائ حسن. وقد قبل المنصب في طرابلس الغرب بعد تردد، غاضباً لأن أوبرايان وقع عليه هو الاختيار - وليس على كاثكارت - قنصلاً عاماً. وفي النهاية فإن خبرة كاثكارت أعطته معرفة بدخائل الشؤون الجزائرية. وهو، شخصياً، الذي أعطاه أوبرايان الدفعة الأولى في الحياة العامة، في ١١ سبتمبر ١٧٩٥ التاريخ الذي اعتبره "عيد الميلاء السياسي" لأوبرايان، عندما قدمه كاثكارت للدائ في الجزائر. وربما اعتقد

كاثكارت حقا أن الرجل الذي راسل واشنطن وجيفرسون وأدامز وجاى والكونغرس الأمريكى لم يعد ليعد كائنا سياسيا حيا إلا عندما التقى داي الجزائر^(١٦).

والآن فإن كاثكارت ساءه أن أوبرايان، وليس هو، عين قنصلا عاما وأغضبه أن أسيراً سابقاً آخر غيره عين قبطاناً للسفينة "الهلل". كان يرى نفسه أكثر من كفى، لأى من المهمتين. وفى الرحلة عبر الأطلسى، على متن السفينة "صوفيا" أغضب كاثكارت القبطان عندما عرض أن يقود هو السفينة. رفض القبطان العرض، وإشماز وشاركه الاشمتزاز معظم من كانوا على السفينة، من "السلوك المنفر" والشخصية "المرورة، المنفرة، المغرورة" وتبين أن الأكثر نفوراً من كاثكارت كانت إليزابيث روبسون، خادمة زوجة كاثكارت الحامل ذات الأعوام الخمسة عشر. وعندما وصلت السفينة الجزائر، طلبت روبسون إعادتها الفورية إلى بلدها، رافضة أن تذهب إلى طرابلس مع كاثكارت، الذى قالت إنه راودها عن نفسها. وبدلاً من إعادتها إلى بلدها، قدم لها أوبرايان المأوى فى القنصلية الأمريكية. وأغضب هذا الأمر كاثكارت ثم شعر بالمهانة عندما حضر للعشاء مع مسز كاثكارت، فوجدا إليزابيث روبسون جالسة إلى المائدة. وخرج كاثكارت تتبعه زوجته جين، قائلاً إنه لن يتساوى مع خادمتة. أن يرفض ممثل لأمريكا الجمهورية أن يأكل على مائدة واحدة مع خادمة، لم يكن فى نظر كاثكارت أغرب من فكرة أن الحياة السياسية تتبع من داي الجزائر. ورفض أن يكون بينه وبين أوبرايان أى تعامل، بعد ذلك^(١٧).

وحاول إيتون مصالحة كاثكارت، قائلاً له إنه "من غير المجدى الغضب من إهانة لا يمكن الرد عليها - اطرح المعتدى أرضاً، أو اصفعه على وجهه، أو دع الإهانة تمر دون اهتمام بها"^(١٨). ولم يهدأ كاثكارت. وبعدها بشهرين وجد إيتون ما يسره فى أن يرسل، من تونس، كلمة إلى كاثكارت فى طرابلس الغرب، قائلاً إن أوبرايان تزوج من إليزابيث روبسون. وكتب "يا للأسف، سوف يلاقى هذان الشيطانان التعيسان كثيراً من الملاحاة، بسبب هذا الأمر". وأضاف "لكن تأكد أن هذا مصدر سرور عظيم لدى - إيتون" أما كاثكارت الذى كان يسوؤه أن خادمتة صارت ندا له، فقد أذهله أنها صارت تفوقه اجتماعياً^(١٩).

وفى مارس سافر إيتون وكاثكارت إلى تونس حيث كان يتعين التفاوض حول ثلاث مواد من معاهدة ١٧٩٦، مجدداً. كان الذى تفاوض حول المعاهدة هو التاجر الفرنسى جوزيف إيتين فامين، الذى كان شديد الحرص على مصالحه الخاصة. وقد أضاف إلى المعاهدة بنداً يضع تعرفه مقدارها ثلاثة بالمائة على البضائع التونسية الواردة إلى الولايات المتحدة وعلى البضائع الأمريكية التى تشحن إلى تونس على سفن أمريكية وعشرة بالمائة رسوماً جمركية على البضائع الأوروبية التى تأتى بها إلى تونس سفن أمريكية. ولأن معظم الأمريكيين المشتغلين بالتجارة مع تونس كانوا يتجرون فى السلع الأوروبية، فإن هذه المادة كان من شأنها أن تمنع الأمريكيين من التجارة فى تونس، حيث كان يمكن أن ينافسوا فامين. كانت الولايات المتحدة قد حددت عشرة بالمائة رسوماً على معظم الواردات وضمنت للدول "الأولى بالرعاية" بأن لا تفرض على تجارهم رسوم أعلى مما يفرض على تجار أى دولة أخرى. والثلاثة بالمائة التى منحت لتونس أعطت فامين ميزة على كل التجار الآخرين فى العالم لكنها كانت، بالنهاية، قميئة بأن تدمر نظام الموارد الأمريكية بكامله، باعتبار أن كل الدول "الأولى بالرعاية" سوف تتمتع بمعدل الثلاثة بالمائة للتعرفة الجمركية. وقال بيكرينغ لإيتون إن هذه المادة من مواد المعاهدة "لا يمكن أن تكون مهمة للبائى ومملكته، وإن كانت مدمرة لنا" وإذا نجح إيتون فى أن يتحرك بحذر مع فامين فسوف يكون بوسعه أن يعيد التفاوض حولها (٢٠).

لكن فامين كان رجلاً خطيراً. كان الوكيل التجارى لبعض التجار التونسيين المهمين بمن فيهم حامل الأختام المستشار الأقرب إلى حمودة باشا البائى. وأغضب فامين أيضاً أن الولايات المتحدة أرسلت إيتون ليرعى الشؤون الأمريكية، وهو ما كان يحرمه من الاستفادة من التجارة الأمريكية. ونصح وزير الخارجية بيكرينغ إيتون بأن "يتوقع" إدعاءات فامين و "يحول دون غضبه". وكان إيتون يعلم أنه يتعين عليه التصرف بحذر، لكن أدهشه أن يجد أن التجار البريطانيين واليهود يكرهون فامين. بالنهاية، فالبريطانيون يكرهون كل فرنسى، وهذا ما كان يعلمه إيتون، واليهود رأوا فى فامين منافساً فى التجارة. ولم يكن إجراماً من فامين أن يحافظ على مركزه التجارى من

خلال النفوذ السياسى. وكتب إيتون إنه ربما "ضمن إلى جانبه عبدة الذهب غير المستقيمين" لكن لا التجارة الدولية ولا السياسة الدولية كانت تحركها الاستقامة. وكتب إيتون "وفقاً لما هو فى عالمنا فقد تصرف بحكمه"^(٢١).

ورغم نفوذ فامين، فلم يستغرق الأمر من الأمريكيين إلا أياماً قليلة، لإعادة التفاوض حول المعاهدة. بدأت إيتون وكاثكارت بأن ذكرا للباى أن الرسوم بقيمة ثلاثة بالمائة لا يمكن أن تكون لصالحه، بما أن التجار التونسيين قد لا يذهبون إلى الولايات المتحدة، أبداً. ورد حمودة باشا: "صحيح أن رعاياى لم يذهبوا إلى أمريكا قط، لكن لماذا تستنتجون من هذا أنهم لن يذهبوا أبداً؟" وبلهجة المتفضل بالتوضيح قال له الأمريكان إن التونسيين لا يعرفون الطريق إلى أمريكا. وقال الباى "لم يعرفوه حتى الآن، لكن النوع الإنسانى يتحول الآن إلى الاستنارة والمبادرة التجارية" وهو يأمل أن يرسل كثيراً من السفن إلى أمريكا. ولم يتقبل إيتون استيلاء الباء على هذين الموضوعين المفضلين لدى الأمريكيين، المبادرة التجارية والاستنارة. وقد استخدم الباى وحامل الأختام الموضوعين لصالحهما، مجدداً عندما قال إيتون إنه ليس بوسع الولايات المتحدة أن تدفع مقابل المعاهدة مثل ما دفع الإسبان، الذين عندهم من الذهب والفضة "الكتل المستخرجة من جوف الأرض: نحن نحصل نقودنا بالنصف بنس، بالكبح على سطحها". لكن حامل الأختام كان يعرف كيف يوجه الحوار مع الأمريكيين، "لكنكم شعب قوى ومبادر" هكذا قال لهم مضيفاً إنهم سوف يستولون، فى القريب العاجل، على مناجم العالم الجديد الإسبانية. ورد إيتون وكاثكارت قائلين أن بلادهم ستبعث بهدية إلى الباى عندما تتمك المناجم الإسبانية^(٢٢).

وسرعان ما وافق التونسيون على كل التعديلات التى طلبها الأمريكيون مظهرين مجرد مقاومة محدودة وعابثة. وقد تحدد طابع التفاوضات بمجرد أن اعترض الأمريكان على مادة فى المعاهدة تتطلب أن تقدم الولايات المتحدة إلى الباى برميلاً من البارود مقابل كل طلقة مدفع يحيى بها التونسيون سفينة أمريكية لدى وصولها. ومتظاهراً بنقاد الصبر قال حمودة باشا إنه لن يبدد البارود فى تحية الأغراب، وإنه سيحيى فقط السفن الأمريكية التى تطلب التعارف. وأسقطت المادة^(٢٣).

وبعد الاتفاق المرضى على كافة النقاط وزع إيتون ما يساوى ٦٠٠٠ دولار من الهدايا على الباي وأعضاء أسرته وبلاطه. وشكا رئيس الوزراء من أن هديته ليست بمستوى هدية حامل الأختام، وطلب أمير البحر عصا برأس ذهبي، وساعة ذهبية، واثنى عشرة قطعة من الملابس. وأعطى إيتون هؤلاء الرجال ما أرادوه، لعلمه أنه يجب أن يبقوهم فى صفه. ولكن عندما طلب ريس المرفأ هدية قال إيتون إنه لا يسارع إلى محاولة إرضاء هذا العطش إلى الهدايا إلا "كما يسارع إلى إرضاء القبر، والرحم العقيم، والنار المهلكة" ووعد ريس المرفأ بنسخة من المعاهدة. وكتب إيتون إلى أوبرايان : "وهكذا أنهيت الفصل الأول من الأحداث فى أرض الاغتصاب واللواط هذه". كان مقتنعاً، أكثر من أى وقت مضى، بأن الولايات المتحدة بحاجة إلى إظهار القوة فى المتوسط. وفيما كان يتفاوض ويوزع الهدايا، كان يدرس القوة العسكرية للجزائريين والتونسيين. وقال إن هذه الممالك يصعب أن تشبع فصيلة بريطانية - ولا يمكن أن تكفى لوجبة إفطار للقوة التى يمكن للولايات المتحدة أن تبعث بها. ورغم أن الحكومة قد أرسلت إيتون أن كاثكارت لتنمية السلام والتجارة. فقد كان إيتون لا يزال يتخيل العمل العسكرى. ووافقه أوبرايان، لكنه كان يعرف أن الممالك الثلاثة وجدت، بالخبرة، أنها عندما تضغط علينا نستجيب". وقد أصبح واضحاً أن حكومته، إما أنها لا تنصت إليه أو أنها لا تملك قوة تظهرها فى المتوسط^(٢٤).

وقد حافظ إيتون وأوبرايان على السلام فى تونس والجزائر، لكن كاثكارت لم يكن حتى قد نزل من السفينة فى طرابلس الغرب حين تسبب فى أزمة. صعد برايان ماكديونوغ، الوكيل البريطانى فى طرابلس الغرب إلى السفينة ليرى كاثكارت عندما كانت السفينة "صوفيا" تدخل إلى المرفأ. وربما شعر ماكديونوغ بكراهية كاثكارت لأوبرايان، ولعب على ذلك لمصلحته. وقال إن أوبرايان أخطأ فى حقه هو الآخر ولم يعترف بخدمات ماكديونوغ القيمة فى أثناء التفاوض على معاهدة ١٧٩٦ الأمريكية مع طرابلس الغرب. وأضاف أنه ما زال، رغم ذلك، حريصاً على مساعدة كاثكارت والأمريكيين. لكن يوسف قرامانلى لم يكن فى حالة مزاجية مناسبة للتعامل مع الأمريكيين لأن أوبرايان أساء معاملته، هو أيضاً. وقال ماكديونوغ إن أوبرايان وعد قرامانلى فى ١٧٩٦

بأن يعطيه طرادا، لكنه لم يفعل ذلك، قط. والباشا لن يستقبل كاثكارت حتى يعطيه الأمريكيون سفينة (وكان ماكدونوغ يعتبر أن السفينة صوفيا مناسبة) أو ١٨,٠٠٠ دولار.

وكان كاثكارت سيئ الظن بأوبرايان، فكتب إليه ليعترض على الطريقة القبيحة التي عامل بها "صديقنا الدكتور ماكدونوغ". واقترض ١٨,٠٠٠ دولار من المقرض اليهودي ليون فارفارا، وأعطاه مستندات قابلة للدفع بواسطة إيتون أو أوبرايان، وأعطى ماكدونوغ ٨٠٠ دولار لقاء مساعداته، وهنا نفسه على إصلاح حالة أخرى من حالات سوء التصرف من جانب أوبرايان. لم يكن كاثكارت يعلم أنه خدع. أوبرايان لم يعد قرامانلى بسفينة وماكدونوغ كان وكيلاً لبريطانيا^(٢٥).

وبعد دقائق من معرفة إيتون بهدية كاثكارت للباشا، كان وكيل فارفارا واقفاً على بابه في تونس يطلب المبلغ. لم يكن للولايات المتحدة أى انتمان في تونس، ولم يكن بوسع إيتون أن يفهم لماذا كتب كاثكارت، وهو يعلم ذلك، فاتورة قابلة للدفع هناك. كان إيتون قد أعطى كاثكارت، بالفعل، قرضاً شخصياً قيمته ٢,٠٠ دولار، لكن هذا خارج الموضوع. وقال كاثكارت إنه لو لم يدفع للباشا لكانوا ضربوه وألقوا به في سرداب. وكتب إيتون "كان حرياً بأمريكي أن يحتقر التهديدات المتبجحة ويحتقر الأغلال، وأن يربأ بنفسه عن الاحتماء منها على هذا النحو". لكن لسوء الحظ، كما كتب إيتون، فإن السنوات العشر التي قضها كاثكارت في خدمة داي الجزائر جعلته عاجزاً عن التصدى لمثل هذه التهديدات، وجعلته أكثر رعباً من "إيماءة رأس من تركى" عنه "من مدافع سفينة حربية - هذا هو تأثير العادة، وربما قلت التربية". أما بالنسبة لماكدونوغ فقد رأى فيه إيتون "مارقاً، وهو بالطبع أفاق". لم يكن إيتون يحب أن يوضع في المنتصف، مضطراً إلى أن يجد النقود لفارفارا أو أن يخاطر بالحرب مع طرابلس الغرب. ولو أن أوبرايان هو الذى قدم هذا التنازل، معطياً قرامانلى أو أى شخص آخر ١٨٠٠٠ دولار، لكان ضرورياً أن يلام على ذلك. ولكن، رغم خطأ كاثكارت، فلم يكن إيتون يعتبر أنه يجب فصله فرغم أن كاثكارت لم يكن لديه إلا القليل من الحنكة السياسية،

وكانت مهاراته الدبلوماسية منعدمة، وكان جباناً، ولديه الخصلة الغربية المتمثلة في قدرته على جعل الناس يكرهونه، فقط كان إيتون يعتقد أنه شريف وأنه كان، في تلك اللحظة، زوجاً وأباً لطفلة رضيعة. لم يكن إيتون يقبل بمسؤولية انتزاع اللقمة من فم طفل، وهكذا فقد اقترح أن يمنح كاثكارت مزيداً من الوقت ليتعلم فنون الدبلوماسية^(٢٦).

وبعد أن أمن إيتون السلام بين الولايات المتحدة وتونس وجد أن إقامة السلام بين كاثكارت وأوبرايان أمر أصعب. ورد كاثكارت على الهدنة التي دعا إليها إيتون بقائمة من الإهانات التي شعر بأن أوبرايان وجهها له. قال إن أوبرايان مدين له بمال منذ كان الاثنان أسيرين، وأنه شن حملة ضد تعيين كاثكارت في طرابلس الغرب، بعد الإفراج عنه، وإضافة الإهانة إلى كل هذه الجراح عندما تزوج من خادمة كاثكارت. وبعد أن قرأ إيتون هذه المطولة التي ملأت سبع صفحات مطبوعة، اعتبر أن "شكاوى كاثكارت ضد أوبرايان ليست من النوع الذي يقبل المصالحة" واعتذر عن إثارة الموضوع وأخبر وزير الخارجية بيكرينغ بأن أوبرايان وكاثكارت "لا يمكن أن يعترف أحدهما بأى خصال طيبة لدى الآخر". وقال لكاثكارت إن بيكرينغ نظر في الخصومة "كما ينظر القاضي السماوى فى أمر الروح التى توجه الاتهامات إلى المختارين" واقترح على أوبرايان أن يترك كاثكارت لحاله، بكل بساطة^(٢٧).

وقد ترك أوبرايان كاثكارت لحاله. وشكا كاثكارت من أن أوبرايان يهمله ولا يرد بالتفصيل على رسائل كاثكارت المطولة المشوشة. ولخص إيتون إحدى رسائل كاثكارت، وكانت تملأ سبع صفحات مطولة فى خمسة سطور: اليهود يسببون الاكتئاب لكاثكارت - خطر ظهور الأمريكيين فى طرابلس - وصول قنصل الدينمارك - مغادرة قنصل السويد - القراصنة يبحرون بجوازات سفر سويدية. وقد ضايق عجز كاثكارت عن تكثيف أفكاره إيتون الذى كان مضطراً لقراءة الرسائل والرد عليها وأوبرايان الذى لم يكن مضطراً لذلك. وعندما مرر إيتون إلى أوبرايان شكوى كاثكارت من أن القنصل العام لم يكن يرد، بشكل مناسب، على المراسلات من طرابلس الغرب، رد أوبرايان، كتابة،

بالقول "كل تقارير المستر كاثكارت لا تتجاوز أنه قدم بدلاً من إيصال مطبوع آخر مكتوباً و ٢٠٠ دولار أرسل إليك رداً على مجلداته العديدة" (٢٨).

والإطالة ليست، بالضرورة، عيباً في الدبلوماسية، وحتى الشفقة البالغة على الذات يمكن أن تتحول إلى ميزة. لكن رغم أن كاثكارت قدم نفسه باعتباره خبيراً في شؤون بلاد البربر، فقد أثبت عجزاً ملحوظاً عن فهم الكيفية التي تبدو عليها تصرفاته، بنظر أولئك الذين يحاولون التأثير عليهم. وعندما علم القناصل الثلاثة أن جورج واشنطن مات، تماسك كل من أوبرايان وإيتون، حيث إنهما يعلمان أن الجزائريين والتونسيين يعتبرون أن إظهار المشاعر الوطنية هو مناسبة للحصول على هدايا. فالهدايا تقدم عندما يرتقى رئيس الدولة منصبه، أو يتزوج، أو ينجب، أو يموت. وكان أوبرايان وإيتون يعلمان أن تونس والجزائر ستتوقعان تعبيراً مناسباً عن الحداد عندما يسمعان أن واشنطن مات، رغم أنه لم يكن في منصب الرئاسة عندئذ. وصادر أوبرايان كل الصحف الأمريكية التي حملت أخبار وفاة واشنطن، واكتفى إيتون بارتداء شارة سوداء على ذراعه. وعندما سأله حمودة باشا عن السبب، رد ببساطة: "أحد الأغوات في المعسكر سبق لي أن خدمت تحت رئاسته في المعسكر وقد كنت أحترمه أعظم الاحترام، وقد مات". واقتنع المسؤولون التونسيون بذلك. لكن كاثكارت أمر بتكيس العلم على القنصلية الأمريكية، وبأن تفعل كل السفن الأمريكية في المرفأ الأمر ذاته وأن تطلق واحداً وعشرين طلقة تحية. ولفتت الضجة انتباه يوسف. وانتهاز الفرصة ليعاود المطالبة بالطراد الذي حاول الحصول عليه، قبل عام. وأبلغ كاثكارت بأن ١٠,٠٠٠ دولار إضافية يمكن أن تهدى حزنه على رحيل واشنطن. وفوجئ كاثكارت بهذا الطلب، لكن أوبرايان اعتبر المبالغة في إعلان الحداد من جانب كاثكارت "منبع النيل" الذي من دونه لم يكن لطرابلس أن تتوقع أى هدايا (٢٩).

لم يسع كاثكارت للتعيين على الساحل البربري باعتباره دبلوماسياً، ولهذا فربما لم يعتبر أن عدم صلاحيته للدبلوماسية مهمة. وفي الحقيقة، فقد كان كاثكارت مثلهفاً على دور في التجارة في المتوسط، بعد أن خلقت خدمته للداي ميلاً إليها. وبمجرد وصوله إلى طرابلس الغرب بدأ يشتري ويبيع البضائع لزيادة دخله. وفي يوليو ١٧٩٩،

بعد أسابيع قليلة، لا أكثر، من بداية خدمته في طرابلس، أرسل إلى إيتون شحنة نبيذ لبيعها في تونس، وطلب بالمقابل أن يرسل إليه إيتون شحنة ملابس لبيعها في طرابلس الغرب. وكتب كاثكارت: "لو أن البضاعة وصلت سريعاً فسوف نحقق عائداً طيباً إلى حد معقول"، وأبلغ إيتون بضرورة إعداد فاتورتين للملابس، واحدة بالسعر الحقيقي والأخرى مزيدة بنسبة ٢٥ بالمائة "لحكومتى". وسحب كاثكارت إيتون إلى شراكة تجارية وراح يبحث عن الفرص في كافة أرجاء المنطقة. وكتب إلى توماس أبلتون، القنصل الأمريكى فى ليغهورن (بإقليم توسكانيا الإيطالى- المترجم) مستبقاً استئناف التجارة بين طرابلس الغرب وإيطاليا، "وعندى أمل أن تسعدنى بأن تكثر من الكتابة إلى". وطلب دليلاً تجارياً وأخبر أبلتون بالبضائع التى بوسعه أن يبيعها فى طرابلس الغرب والبضائع التى يمكن أن تأتى من طرابلس^(٢٠).

لكن بداية دخول كاثكارت للتجارة الطرابلسية كانت مخيبة للآمال. فقد أخذ ليون فارفارا، الذى قام بدور وكيله التجارى، بعض الملابس التى تخص كاثكارت إلى يوسف قرامانلى، الذى قبلها ولم يدفع ثمنها. وهاج كاثكارت على فارفارا وكل التجار اليهود، وكتب إلى إيتون يقول: "ليس فى قدرة ولا طبيعة يهودى من بلاد البربر أن يسدى خدمة إلى مسيحى" وأضاف "لكنهم غالباً ما يؤذون المسيحى" لكن غضب كاثكارت كان موجهاً، فى الغالب، إلى أوبرايان، الذى كان يعتقد أنه على علاقة وثيقة مع البكرين، المصرفيين اليهوديين اللذين أقرضا الولايات المتحدة كل هذا المال. وقد كان البكريان منافسى كاثكارت أيام كان فى الجزائر، والآن فهما، حسب اعتقاده، يخشيان قوته التجارية. وقد احتاج أوبرايان البكرين باعتبارهما مصدر ائتمان للولايات المتحدة، وبالضبط كما قال بارلو، فقد كان بارلو متردداً فى تحدى مصالح البكرين. وقد تجاهل كاثكارت الفارق الجوهرى بين معاملاته الخاصة مع فارفارا ومعاملات أوبرايان الحكومية مع البكرين. وانتقد أوبرايان، بشكل لاذع، لأنه ترك المصالح الأمريكية تعاني بسبب تورطه مع مصرفيين يهوديين. وقضى كاثكارت معظم شتاء ١٧٩٩-١٨٠٠ يحاول،

دون جدوى، أن يجعل الباشا يدفع له. وأخيراً، كذب وقال للباشا إن أسطولاً أمريكياً فى الطريق إلى طرابلس الغرب، ودفعت الكذبة يوسف قرامانلى إلى سداد حقوق كاثكارت^(٣١).

وقد راقب إيتون هذا كله، ضعف موقف أوبرايان بسبب اعتماده فى عمله الحكومى على البكرين وكاثكارت الغارق فى ارتباكات تجارية. ورأى فى هذا درساً: أن القناصل لا يجب أن يعملوا بالتجارة. فقد كان مستحيلاً، بالنسبة للقنصل، أن يكون دبلوماسياً يمثل الولايات المتحدة، ويمارس تجارة خاصة ساعياً إلى تعميق مصالحه الشخصية، فى الوقت ذاته. لا يمكن له أن يخدم سيدين. لكن إيتون أصبح، بالتدريج، متورطاً فى مشروعات كاثكارت، بعمق، وبرر أنشطته التجارية الخاصة بأنها تتوافق مع المصالح الأمريكية. وقال إيتون، إن تحوله إلى التجارة مكنه من تحويل التجارة التونسية إلى السفن الأمريكية، وهو أمر نافع للأمريكيين، كما مكنه من تعليم التونسيين المحاربين منافع التجارة السلمية^(٣٢). وقال لوزير الخارجية: "لا شىء أبعد عن أفكارى" من المضاربات. فقد كان بوسعه التعاون مع حامل أختام المملكة فى مشروعاته التجارية، ولأن هذا الأخير تاجر كبير ومستشار للباى وعشيقه، فإن العلاقة التجارية معه يمكن أن تحقق الاستقرار للعلاقات الأمريكية مع تونس. ووافق وزير الخارجية بيكرينغ، وأخبر إيتون أن الباي من شأنه أن يقع "تحت التزامات قوية وباقية إزاء القنصل والدولة اللذين يضعانه فى مركز تجارى ممتاز وبعد أن أعمتهما هذه المنافع المتوقعة، فإن بيكرينغ وإيتون نسيا، فيما يبدو، الأخطار الحقيقية التى قد تترتب على تحول القناصل الأمريكيين إلى تجار. ونسى إيتون، أيضاً، تحفظاته السابقة، عندما وجد للتجارة فوائد عظيمة قصيرة المدى. وكتب إلى كاثكارت: إنى أغتنى رغماً عنى^(٣٣).

وبدلاً من أن تؤدى التجارة إلى انتشار السلم فى العالم، فقد وسعت الحرب فى المتوسط. ضغط البكريان فى الجزائر، نظراً لعلاقاتهما التجارية القوية مع فرنسا، على الداى مصطفى بوبا ليتحول عن ولائه لتركيا التى كانت فى حرب مع فرنسا،

وأن يحارب إنكلترا، بدلاً من ذلك. وتحت تأثير البكرين وجه الداي قراصنة الجزائر ضد حلفاء بريطانيا، الدول الإيطالية والبرتغال وروسيا. كانت فرنسا وإنكلترا وحلفاؤهما يحتاجون القمح الجزائري، واستخدمت الدولتان نفوذهما للحصول عليه. وهذه التجربة التي جعلت فرنسا وإنكلترا تخطبان ود الداي كانت نتيجتها، بكلمات أوبرايان أن "الدنيا أصبحت كقطعة من الجبن الهولندي - تحت قدميه وهو يركلها. كل الأمم تنحني أمام الداي القوى". وهذا التقديس جعله يعتقد أنه "PATROON GRANDI (السيد الأعلى بالإيطالية - المترجم) للعالم كله". وبدأت الجزائر تهاجم السفن الأوروبية، لكنها تركت الأمريكيين المحايدون وحدهم، لأن فرنسا في أواخر ١٧٩٩ كانت مهتمة بالحفاظ على السلام مع الولايات المتحدة. وفي تونس، أدرك حامل الأختام قيمة السلام مع الولايات المتحدة بالنسبة لتجارته الخاصة وأصبح ووداً مع إيتون. كان حامل الأختام يأمل أن يستخدم السفن الأمريكية التي كانت، هي وحدها، المعفاة من هجمات الفرنسيين والجزائريين والإنكليز، لتحمل القمح الخاص به إلى الأسواق الإسبانية^(٢٤).

ورغم أن تونس كانت تزداد مودة تجاه الولايات المتحدة وإيتون يغتنى، رغماً عنه، فسرعان ما تذكر أن التجارة في المتوسط خطيرة. في ١٨٠٠ جاء جوليوس سيزار البيرغانتى، وكيل مؤسسة سوامى وشوارتز في ليفورنو (هى ذاتها ليفورنو الإيطالية - المترجم) إلى تونس ليشترى كل ما فى تونس من قمح، ليرتفع سعر هذه السلعة الأساسية فى إيطاليا. واستثمر التجار التونسيون ووكلاء البيوت التجارية، بكثافة، فى المشروع، الذى كان يمكن أن يدر أرباحاً هائلة على شمال إفريقيا، لو أنهم نجحوا. فى صيف ١٨٠٠ انهار سوامى وشوارتز آخذين معهم أكثر من ١٢٠,٠٠٠ دولار من استثمارات التجار التونسيين والجزائريين. وكان هذا الفشل ينطوى على تأثيرات مدمرة محتملة للولايات المتحدة. فقد ادعى البيرغانتى أنه مواطن أمريكى، كما أنه عرض على إيتون خدماته فى مبادلة فواتير الائتمان بين تونس والجزائر وليفورنو. ورفض إيتون العرض. ولو كان قبله لأصبح البيرغانتى وكيلاً معترفاً به للولايات المتحدة،

التي كانت حكومتها ستصبح مسؤولة عن ديون سوامي وشوارتز. وزار وفد من تجار الجزائر اليهود أوبرايان ليطالبوا بالتعويض. قالوا إن البيرغانتى تاجر أمريكي ولهذا فالولايات المتحدة عليها أن تعوض خسارتهم^(٣٥).

ورغم أن إيتون نجح فى تجنب الارتباط بالبيرغانتى، فقد اعتبر ما جرى أكثر من محاولة من تاجر أن يستدين على حساب غيره. وقد تغذت مشاعر العزلة عند إيتون وهو فى تونس، بعيد عن الوطن وواقع بين أوبرايان الذى كان يميل إليه ولا يثق به، وكاثكارت الذى كان يثق به ولا يميل إليه، على بارانويا أصيلة فيه وألقت به من فوق حافة الهاوية. فقد اقتنع إيتون، أخيراً، بقصص كاثكارت المبالغ فيها عن أوبرايان، ورأى فى مشروعات البيرغانتى مؤامرة دخل فيها يهود الجزائر وكاثوليك إيطاليا الذين أرادوا تدميره. وقد تسبب انهيار سوامي وشوارتز "كثيراً من الاضطراب بين شعب الميثاق القديم مع الرب". وأقنعت حادثة البيرغانتى إيتون بأن اليهود "جنس من البشر خوان وكذاب ومنافق وخطير" أصبحوا منافسيه التجاريين، كما أنهم الدائنون الرئيسيون لبلاده فى شمال إفريقيا. وبدأ إيتون يرى استدانة أوبرايان من البكرين باعتبارها خيانة. فهل كان أوبرايان غارقاً فى الديون للبكرين لدرجة تجعله يخرب مصالح بلاده لصالح المصرفيين اليهوديين؟ بقى متفقاً مع أوبرايان بخصوص السياسة الأمريكية فى شمال إفريقيا، لكن إيتون أصبح ينظر إلى أوبرايان باعتباره عدواً متورطاً فى مؤامرة هائلة ضده. وعندما حذر أوبرايان من أن حكومة الولايات المتحدة قد لا تتصرف، بدأ إيتون يشك فى أن أوبرايان لا يريد أن تتصرف الحكومة. وإذا كان اليهود قد حاولوا تدمير إيتون، فلماذا يستمر أوبرايان فى علاقته التجارية معهم؟ قرر إيتون قطع كل علاقة مع المصرفيين اليهود وطلب إلى أوبرايان أن يفعل مثله^(٣٦). لكن أوبرايان رأى الأمور بشكل مختلف. "بالنسبة لليهود الجزائرية فى تونس أو فى الجزائر" هكذا كتب أوبرايان إلى إيتون "... بوسعك التصرف معهم على النحو الذى تراه مناسباً". كان أوبرايان يعلم أن البكرين قادران على أن يستغلا أموالهما فى أمور أفضل من إقراضها للأمريكيين، الذين لم يكونوا يسدون معروفًا للبكرين بالاقتراض منهما. كانت الحرب الأوروبية قد قطعت خطوط الائتمان الهولندية والسويسرية،

وكان أوبرايان بحاجة لاقتراض المال، لأن حكومته كانت تتأخر، بشكل مزمن، في دفع الجزية. "إذا أمكن لك الاقتراض من تونس أو من أوروبا بشروط أفضل للولايات المتحدة، فهذا يجب أن يكون مفضلاً على شروط الاقتراض في الجزائر، فأنا أفضل أن أسارع إلى فعل أى شئ عن أن أشحذ وأتوسل وبعد ذلك أدفع"، وأخطأ إيتون فهم هذا الكلام فاعتبره تبريراً للارتباط مع البكرين. وعلى ظهر الرسالة التي وصلتته من أوبرايان كتب إيتون "مروج لليهود"^(٣٧).

وفي سبتمبر ١٨٠٠ وصلت إلى الجزائر الفرقاطة الأمريكية "جورج واشنطن" بالجزية التي مر وقت طويل على أوان سدادها. وفي لحظة وصولها كان مصطفى يواجه متاعب في علاقته مع السلطان العثماني، وكان بحاجة إلى أن يرسل سفيره بالجزية الواجبة عليه إلى إسطنبول. وفي السنة السابقة، عندما كان مخططاً إرسال بعثة أمريكية إلى إسطنبول حذر أوبرايان من أن وقوف فرقاطة أمريكية في الجزائر، في طريقها إلى تركيا قد يجعل الداي يصر على أن تحمل سفيره معها. وقد سمحت إسبانيا للداي بأن يستخدم واحدة من فرقاطاتها في مهمة كهذه، لكن أوبرايان اعتبر أن الولايات المتحدة لا يجب أن تسمح بذلك^(٣٨). وحدث ما كان أوبرايان يخشاه، فعندما وصلت الفرقاطة جورج واشنطن إلى الجزائر، طلب مصطفى أن تحمل جزيته إلى تركيا. ولم يكن لدى أوبرايان والقبطان وليم بينبريدج قائد السفينة ما يساومان به. فرغم أن جورج واشنطن جاء بالجزية، فقد جاءت متأخرة، ولم يكن لدى أوبرايان لا مال ولا ائتمان. كانت الولايات المتحدة غارقة في الدين للداي والبكرين. وتفاوض أوبرايان وبينبريدج بأفضل ما استطاعا، ونجحا في إعفاء سفينة تجارية أمريكية من المهمة. وقد كان أسهل على الأمريكيين أن يحتفظوا بفرقاطتهم لو أنها حملت الجزية من أن يحتفظوا بالسفينة التجارية الأصغر وغير المسلحة. ورغم أن أوبرايان بقى على اعتقاده بأن الحرب ضد الجزائر ستكون ضرورية لمنع هذا النوع من الإذلال، فقد كان يعلم أن الولايات المتحدة لم تكن مستعدة للحرب. ولأن أوبرايان وبينبريدج، وقامت جورج واشنطن بأول زيارة رسمية أمريكية لتركيا.

واعتبر أوبرايان هذا الحادث محبطاً بعمق. لقد كان فى نفس الموقف الذى وقفه عندما وصل إلى الجزائر، قنصلاً عاماً، بالضبط، ويشكل أكثر تشابهاً مع موقفه عندما وصل إلى الجزائر أسيراً فى ١٧٨٥. وجد بعض العزاء فى أن جورج واشنطن وصلت، على أية حال: جاءت بكلمة من وزير الخارجية الجديد جون مارشال بأن إدارة أدامز سوف تعطى مزيداً من الاهتمام لشؤون دول البربر. وبترفيغ جون مارشال أصبح أدامز مسيطراً على إدارته، باستبدال أعضاء الحكومة الأكثر ولاء لها ميلتون منهم للدولة. فقد حل مارشال محل تيمونى بيكرينغ الذى حاول نفس مفاوضات أدامز حول السلام مع فرنسا. لكن الاتجاه الجديد للإدارة هو، الآن، مصدر سلوى لأوبرايان. تعهد مارشال بأن "شؤون منطقة البربر سوف تكون محل اهتمام" هذا ما كتبه أوبرايان، ومع التزام الإدارة الجديدة بالسلام مع فرنسا، صار متاحاً للأسطول الفرنسى، الآن، أن يلتفت إلى الجزائر. وكتب أوبرايان : "كلما تستقر عليه إرادة الشعب صحيح" (٢٩).

ورغم أن موضوع السفينة جورج واشنطن كان مصدراً لبعض العزاء، بالنسبة لأوبرايان فلم يستطع مقاومة الاكتئاب، لأن عدم وصول شخص يحل محله على ظهر السفينة أصابه بخيبة أمل. كتب إلى إيتون "امتلاً قلبى بالملل من بلاد البربر" مشيراً إلى أنه طلب أن يعفى فى يونيو، مضيفاً "أظن أن أى وظيفة فى الولايات المتحدة ستكون أفضل من مكانتنا المتدنية فى بلاد البربر". ويوم أبحرت سفينة جورج واشنطن إلى تركيا كتب أوبرايان إلى كاتكارت، الذى كان لا يزال يلوم القنصل العام على استبعاده، بالمناورات، من المنصب المرموق فى الجزائر "أنا... سوف أعود إلى الولايات المتحدة. لقد مللت بلاد البربر" (٤٠). ولام الولايات المتحدة على إرسالها القناصل إلى الدول البربرية ثم تجاهلها لهم، وهو الآن يحدث، ليس فقط على زيادة الوجود العسكرى فى المتوسط - ست فرقاطات مثل جورج واشنطن - بل وعلى العمل العسكرى. "لا شئ يجعل الولايات المتحدة، أو أى دولة أخرى، محترمة فى الجزائر إلا بالحرب" هكذا كتب إلى كاتكارت، وتساءل "هل يمكن أن نكون أمة من الأحرار ونحتمل هذه المهانات؟" كان يعتبر الحرب أفضل، عندئذ "من المهانة ومن حالة التبعية لحتالة آسيا وإفريقيا" (٤١).

وشعر أوبرايان بالضجر فيما كانت جورج واشنطن تقلع باتجاه تركيا، أما وليم إيتون فكان مهتاجاً. وهتف إيتون "يا روح بلادي، كم أنت ذليلة !" وتساءل " أليس هناك أمريكي واحد تتمرد روحه، تنتفض أعصابه، تنفجر شرايينه، ينتفخ قلبه بالغضب " في مواجهة هذا العار ؟ وقد حدث هذا كله لروحه هو ولأعصابه ولشرايينه ولقلبه، ولم يشف من ذلك، قط. اتجه غضب إيتون الحقيقي ناحية أوبرايان الذي صار يعتقد أنه أداة البكرين الذين ظن أنهم هم الذين رتبوا لاختطاف جورج واشنطن لتنفيذ خطة من خططهم الغامضة. وإلا فإذا كان البكريون بالقوة التي كان أوبرايان يصر على وصفهم بها، فلماذا - تساءل إيتون - لم يمنعوا "الإذلال الوطني" الذي حاق "بسفينة حربية أمريكية تجبر على خدمة قرصان الجزائر ؟" كانت هذه "خطيئة أصلية" يعتبر أن "دم كل يهود بلاد البربر لا يمكن أن يمحوها" وأنها "سوف تُلحق شخصيتنا بعار أصيل"^(٤٢). واتهم إيتون أوبرايان بأنه لم يقاوم طلب الداي المتعلق بالسفينة لأنه كان شريكاً في مخطط البكرين، وأكثر من ذلك فقد اعتبر أن أوبرايان كان يتآمر مع البكرين، ويهود تونس، وكاثوليك ليفورنو، وأعداء بيركرينغ الأمريكيين لإسقاط إيتون. وقد ارتاح أوبرايان لعزل بيكرينغ لكن إيتون ضاق بذلك. كان الأمر أكثر من فقدانه لراعيه. فقد رأى إيتون في بيكرينغ رجلاً نزيهاً، مثله، يحيط به المتآمرون. وتساءل "بحق الله، ما هو سبب عزل السيد بيكرينغ ؟ إذا لم يكن هو رجلاً نزيهاً فإنني سأبدأ بالارتياب في وجود رجال بهذه الصفة".

كل هذه الأحداث المتفرقة - قضية البيرغانتي، والاستيلاء على الفرقاطة جورج واشنطن، وعزل بيكرينغ - بدت لإيتون أجزاء من مؤامرة غامضة، وكان أوبرايان، رغم أنه، أداة البكرين فيها أو أنه كان الروح الشريرة وراء كل هذا. وتحول الخلاف إلى صراع قاتل. كتب إيتون "باختصار، إما أن يسقط أوبرايان أو إيتون !" وأضاف "إذا كان هناك عدل في السماء أو عقل يفهم في الحكومة، فسوف أصعد"^(٤٣). ولسوء حظ الولايات المتحدة، فإن الصراع المرير بين قناصلها في نفس اللحظة التي وصلت فيها علاقاتها مع طرابلس الغرب إلى نقطة التآزم. كان يوسف باشا قرامانلي يتفاوض مع السويد حول معاهدة، وبمجرد إبرامها، وعد بأن ينقلب على الولايات المتحدة. وقد أجلت

أوامر تركيا لدول البربر باستئناف الحرب ضد فرنسا إعلان طرابلس الغرب الحرب على الولايات المتحدة. لكن القناصل كانوا يعلمون أن السيد الأعلى لم يكن بوسعهم أن يمنع يوسف قرامانلى من أن يفعل، بالنهاية، ما يريد. وكتب أوبرايان "إن تعقيد الموقف فى الشرق أنقذنا، حتى الآن". وكتب إيتون إلى كاثكارت أنه "يأمل أن هذا الحدث (تعليمات السيد الأعلى لطرابلس الغرب بإعلان الحرب على فرنسا) سوف يتيح لك فرصة لاستعادة الهدوء فى علاقاتنا معه". وكان القناصل يعلمون أن إصرار تركيا على جبهة موحدة لن يكن إلا فرصة: وكان متروكاً للولايات المتحدة أمر الاستفادة منها. وكما توقعوا، فلم تفعل الولايات المتحدة شيئاً. وتأخرت الحرب أكثر لأن حكومة طرابلس الغرب كانت منقسمة: وزير الخارجية محمد دغيس لم يكن يريد الحرب، لكن أمير البحر مراد ريس، وهو مارق إسكتلندى كان اسمه، سابقاً، بيتر ليزل أراد الحرب وأراد أن يلحق الأمريكيين درساً لأنهم تمردوا على إنكلترا. وقد تؤجل هذه الانقسامات الحرب، لكن لا أوبرايان ولا إيتون توقعوا أن تنقذ حكومتها أو الإمبراطورية العثمانية أو محمد دغيس أو كاثكارت السلام^(٤٤).

وفى فبراير ١٨٠١ حاول أوبرايان تأجيل الحرب الملوح بها بترويج شائعات عن ثمانى سفن حربية أمريكية وبريغيتين كانت فى طريقها إلى المتوسط ويتوقع أن تصل فى ١٠ مارس، على وجه التقريب. وأبلغ أوبرايان إيتون وكاثكارت بالشيعة أنه اختلق هذه الشائعة لكي يعطل خطط يوسف قرامانلى الحربية. وقد أطلق كاثكارت تقريراً مماثلاً فى ١٧٩٩ عندما أراد أن يدفع له الباشا يوسف ثمن شحنة ملابس. والآن، عندما أطلق أوبرايان الإشاعة للمحافظة على السلام رفض إيتون وكاثكارت مجاراته. وكتب إيتون على نسخته من الرسالة "لن أكون أداة لرؤية السيد أوبرايان"^(٤٥).

ولم يكن أمل القناصل فى تلقى المساعدة من الولايات المتحدة كبيراً، وبدا أن احتمال مجيء رئيس جديد يعد بمزيد من التأجيل وليس بتغيير فى السياسات. وكتب أوبرايان: "فيما تتشغل الولايات المتحدة فى اختيار الصارى الرئيسى والصارى المتقدم للسفينة الصالحة، فإن هذه الدول تضع الخطط لأسر الأمريكيين واستعباد مواطنى

الولايات المتحدة". لكن مجازات إيتون ربما كانت أكثر ملاءمة. "الآنسة حرية تمضى وقتاً طويلاً للغاية فى انشغالها بغطاء رأسها، حتى إنها تخاطر بتعريض أجزاء لا تقل أهمية لمؤثرات غير محدودة". واقترح كاثكارت تعديل الدستور حتى لا يتولى الرئاسة أى شخص إلا إذا كان قضى ستة أشهر قنصلاً فى شمال إفريقيا. ولم يكن لدى أحد من المرشحين: جون أدامز أو توماس جيفرسون أو تشارلز كوتسويرث بينكنى هذه الخبرة. وتوقع أوبرايان "تنافساً شديداً بين أدامز وجيفرسون وبينكنى" وكان يفضل بينكنى الذى وافق عليه الاتحاديون نائباً للرئيس، لكن هامليتون، الآن، يعزز ترشيحه رئيساً. واعتبر أوبرايان أن بينكنى لديه "من الأمريكى الحقيقى أكثر مما لدى الاثنين الآخرين" وكان إيتون يميل إلى جون أدامز، ليس لأنه لم يكن يثق بجيفرسون ولكن "لأن السيد أدامز.. قادنا خلال ليلة عاصفة - دعه ينعم براحة يومنا الهادئ". لكن إيتون رأى قليلاً من الاختلاف الحقيقى بين الاثنين. فهو "لم يفترض قط أن مصير البلاد يتوقف على هذه الانتخابات". هكذا كتب، وبين أدامز وجيفرسون كان الاختيار "سنة من أحدهما ودسته من الآخر". أما عن معتقدات جيفرسون الدينية غير الراسخة فقد تساءل إيتون "ما العلاقة بين التفاوض حول معاهدة والعشاء الربانى؟" وفى أبريل ١٨٠١ سمع أوبرايان أن جيفرسون وبير قد تم انتخابهما، لكن إيتون قرأ فى صحيفة بريطانية أن أدامز أعيد انتخابه وأن بينكنى أصبح نائب الرئيس. وكانت أخبار أوبرايان صحيحة، وكان إيتون يأمل أن يتبع جيفرسون سياسة جديدة إزاء "الملكيات الإفريقية... فمن الصعب وضع سياسة أسوأ من الحالية"^(٤٦).

فى ذلك الحين، فى أبريل ١٨٠١، بدت الحرب محتومة. رفض أوبرايان اقتراح الداي بأن تعطى الولايات المتحدة طرابلس الغرب ١٠٠,٠٠٠ دولار. لم يكن أوبرايان قد تلقى أى مراسلات من الولايات المتحدة منذ وصول الفرقاطة جورج واشنطن، وقد رفض البكرىان اللذان كانت الولايات المتحدة مدينة لهما بأكثر من ١٠٠,٠٠٠ دولار تقديم المزيد من القروض. وحاول أوبرايان إقناع الداي باستخدام تأثيره المحدود على يوسف قرامانلى لتجنب الحرب، لكن الداي لم يكن يستطيع التأثير على يوسف الذى طرد العثمانيين من طرابلس الغرب واعتبر أنه لا يتبع أحداً ولا يتبع مملكة. وينبع جزء

من عداء يوسف للولايات المتحدة، في الحقيقة، من إصرار الأمريكيين على أنه كان، بشكل ما، تابعاً للجزائر. وكان أوبرايان يعلم أن الحرب مع طرابلس الغرب تكاد تكون محتومة ونصح كاثكارت "احتسب". لا تبرم أى معاهدات جديدة. احرص على شرف بلادك وهيبتها وعلى مسؤولياتك" (٤٧).

وقد كان كاثكارت حريصاً على مسؤولياته، فأبلغ جميع القناصل فى حوض المتوسط بأن الحرب محتومة. لكن اهتم، أيضاً، بتجارته الخاصة. فكتب إلى تاجر بريطاني فى مالطا، مبلغاً إياه بأن من المحتمل أن تتحارب الولايات المتحدة وطرابلس الغرب خلال ثلاثة أسابيع، ولكن إذا تم تجنب الحرب، فهل يكون بوسع التاجر أن يجد له موظفا شابا قادرا على الكتابة بإنكليزية مقبولة، وإذا أمكن، بالفرنسية والإيطالية؟ وتساءل كاثكارت إن كان بوسع التاجر أن يصبح وكيله لتجارى فى مالطا لشراء أية أشياء بسيطة قد يحتاجها كاثكارت من هناك (٤٨).

وفى ٩ مايو اجتمع يوسف قرامانلى، الذى كان ما زال يتأرجح بين الحرب والسلام، إلى كاثكارت خمس مرات لكنهما لم ينجحا فى التوصل إلى تفاهم (٤٩). وقال يوسف إن الوقت وحده هو الموضوع، كان مستعداً لأن يمنح كاثكارت مهلة ثمانية أشهر ليعطيه الهدايا والمبالغ السنوية التى اعتبر أنها حق لطرابلس الغرب. وحاول كاثكارت تمديد فترة السماح إلى سنة، مذكراً يوسف بأنه لم يتلق أخباراً من الولايات المتحدة منذ خمسة عشر شهراً، وبأن بلاده اشتهرت بأنها بطيئة فى التجاوب مع قناصلها فى بلاد البربر. لكن يوسف عيل صبره. وقال إنه إن لم يفاوضه كاثكارت على معاهدة جديدة تسلم طرابلس الغرب بمقتضاها مبالغ سنوية، فليس سوى الحرب. وقال إن المبالغ ستكون صغيرة فى زمن السلم وكبيرة عندما تتحارب الدول. وقال كاثكارت إن بوسعه أن يقبل فترة سماح لثمانية أشهر، وليس بوسعه أن يعد بزيادة مالية. وعندما توقفت المفاوضات بين كاثكارت وقرامانلى اقترح دغيس، عبر القنصل الدينماركى نيكولاس نيسين، أن يمنح كاثكارت يوسف ٤٠,٠٠٠ دولار، ورفض كاثكارت. وأشار دغيس على كاثكارت أن يرسل زوجته، التى كانت جيلى مجدداً، وطفلته ذات العامين إلى قنصلية أخرى حتى لا تنزعجا عندما يتم إنزال العلم الأمريكى أمام المنزل، فى الصباح التالى.

وفى اليوم التالى، الاثنين، انتظر كاثكارت فى القنصلية، ولم يأت أحد. وبحلول الساعة الحادية عشرة، وعندما لم يظهر ما يشير إلى الطاقم الذى سيأتى لإنزال العلم، زار دغيس. حاول أن يحصل على وعد من وزير الخارجية بأن طرابلس سوف تحجم عن مهاجمة السفن الأمريكية لأربعين يوماً. لكنهما لم يتفقا على شىء. وأرسل يوسف مساء ذلك اليوم، يقول إنه سيأمر بتنزيل العلم يوم الخميس. ويوم الأربعاء طلب كاثكارت عشرة أو اثنى عشر يوماً أخرى، مذكراً يوسف بأنه لم يتلق أى مراسلات من أمريكا طيلة خمسة عشر شهراً، وربما قال له إن هناك رسالة فى الطريق. وحث دغيس يوسف على إمهال الأمريكيين، لكنه أخبر كاثكارت بأن يوسف يتوقع أن يكسب من الحرب مع أمريكا أكثر مما يكسب من الحرب مع السويد أو الدنمارك، وأنه إذا كان قد قر قراره على الحرب مع الولايات المتحدة فإن هدية قيمتها ٥٠,٠٠٠ دولار أو ٦٠,٠٠٠ دولار لن تثنيه عن عزمه. وكتب كاثكارت إلى إيتون يقول له إنه أت إلى تونس، وأن يتوقع مجيئة فى خلال أربعين يوماً. وكتب أوبرايان إلى كاثكارت أنه يأمل أن يساعد خطاب الداي إلى يوسف فى كسب وقت كاف لتحذير السفن التجارية الأمريكية، لكنه كان يعلم أن هذا هو كل ما يمكن الحصول عليه من خطاب الداي "والحرب سوف تكون نتيجة التباطؤ والتجاهل" (٥٠).

ويوم الخميس ١٤ مايو أبلغ يوسف كاثكارت بأن الرجال فى طريقهم لإنزال العلم الأمريكى. وقدم كاثكارت عرضاً واحداً أخيراً بدفع ١٠,٠٠٠ دولار، ورفضه يوسف. ووصل الرجال إلى القنصلية، محاولين فى البداية أن يقطعوا صارى العلم قطعتين، لكنهم وجدوه صلباً لا ينكسر بسهولة. وقضوا الساعة التالية يضربون الصارى بالبلطات، وأخيراً "حققوا الإنجاز الكبير" ورقد صارى العلم على المصطبة أمام القنصلية، علامة على أن طرابلس الغرب أعلنت الحرب على الولايات المتحدة. وقضى كاثكارت وأسرته عشرة أيام يحزمون متاعهم، ولم يعد يوسف متعجلاً فى تحركاته. أطلقت طرابلس الغرب عدة سفن حربية يومى ٢٦ و٢٧ مايو، ولكنها لم تعد إلى

تحضيرات أخرى. وترك كاثكارت الشؤون الأمريكية بين يدي ينسين، القنصل الدينماركي، وغادر طرابلس الغرب^(٥١).

بقى إيتون يتوقع وصول كاثكارت وأسرته، يوماً بعد الآخر، إلى تونس لينسقا الإستراتيجية الأمريكية. ولكن بدلاً من الذهاب إلى تونس، اتجه كاثكارت بأسرته إلى ليفورنو، حيث واصل عمله التجاري، بكل اجتهاد. وأخيراً كتب إلى إيتون في ١٣ يونيو، بعد ثلاثة أسابيع من مغادرته طرابلس الغرب، يطلب منه دفع فاتورة قيمتها ٢٠٠ دولار وائتماناً قيمته ١٠٠٠ دولار "لأنى يجب أن أكل". كان الحصار الذى ضربته بريطانيا على إيطاليا قد رفع أسعار القمح، وإذا أمكن أن يرسل إيتون شحنة قمح قبل موسم الحصار فى إيطاليا فإن ذلك، كما كتب كاثكارت، يمكن أن يدر عائداً كبيراً. وقد أرسل كاثكارت واحدة من سفنه الخاصة إلى تونس لتحمل بالقمح، لكنه طلب أن تبقى ملكيته لها سرا. وأقلعت السفينة تحت علم الإمبراطورية الرومانية المقدسة، باعتباره العلم الوحيد الذى يأمن البريطانيين. ووعد كاثكارت بأن يحيط إيتون علماً "إذا كان من المجدى إرسال شحنة من القمح إلى هنا، أم لا. وفى الأسبوع التالى حثه على السرعة. كان سعر القمح يتصاعد سريعاً، وكان يمكن لإيتون أن ينجز "صفقة كبرى" إذا نجح فى إدخال شحنة أو اثنتين قبل أن تصل المراكب الأخرى. وكان كاثكارت يريد أن يستثمر عدة ألوف من الدولارات، فقط إذا كان بوسع إيتون أن يضمن عدم وجود مخاطر، "باعتبارى فقيراً مثل النبی أيوب". ولكى يبقى قادراً على مواجهة الظروف، حتى تصل هذه السفن، طلب من إيتون قرضاً قيمته ١٠٠٠ دولار. وصادق إيتون على ائتمان لصالحه فى ليفورنو ومارسيليا^(٥٢).

وأخيراً جاء كاثكارت إلى تونس فى سبتمبر حيث ناقش مع إيتون فكرة استخدام أحمد قرامانلى، الأخ الأكبر المخلوع ليوسف، وكيلا أمريكيا فى طرابلس الغرب. كان أحمد يعيش، آنذاك، فى تونس. وكانت مهمة إيتون أن يقنع كلاً من أحمد والولايات المتحدة بأن مصالحهما متطابقة. وأصبح هذا الأمر هاجساً ملحاً عند إيتون، باعتباره طريقته فى إصلاح ما أفسده "المتآمرون" المحيطون به. وبعد أن أطلق كاثكارت الخطة

باتجاه التنفيذ رجع إلى ليفورنو لينتظر الأسطول الأمريكى. وكان يتوقع أن يرسلوه إلى الجزائر ليحل محل أوبرايان، لكنه لم يقبل. وهكذا فعندما حاربت الولايات المتحدة طرابلس الغرب، ظل كاثكارت يطوف حول المتوسط قبل أن يعين قنصلاً فى قاديش. وقبل أن يغادر ليفورنو، تشاجر كاثكارت مع المؤسسة التى ترعى مصالح إيتون هناك. وقال إن بوسع إيتون أن يفعل ما يشاء لكنه لن يتعامل مع المؤسسة، بعد ذلك. وربما لم تكن المؤسسة عديمة النزاهة، لكنهم كانوا يعرفون كيف يتلاعبون بفواتير المبيعات. كان أصحاب المؤسسة يشاركون إيتون مخاوفه المؤرقة. وكتب أحدهم "هناك لحظات، فى الحقيقية، يكون فيها التعامل مع السيد (ك) أو فهمه أمراً مستحيلاً". وغاز كاثكارت أن إيتون ظل يتعامل مع المؤسسة وأخيراً أرسل إلى رفيقه السابق كل دفاترهما المشتركة، وأغلق كل حساباته مع إيتون، وقال إنه يأمل أن يبين هذا لإيتون "الفارق بين الأصدقاء الحقيقيين والمصلحية". وكان هذا آخر ما وصل إيتون من جهة كاثكارت حتى بعد تقاعده فى مزرعته فى ماساشوسيتس، بوقت طويل. وكتب كاثكارت، بعد تعيينه قنصلاً فى مدريد، ليشجع إيتون على الاستثمار فى مشروع تجارى مشترك جديد^(٥٢). ولم يكن لدى كاثكارت وإيتون ما يقولانه عن أوبرايان إلا الكلام المقذع. لكن أوبرايان امتدح معالجة كاثكارت لأحداث الشهر الأخير الذى سبق إعلان طرابلس الغرب الحرب. ورغم أنه لم يكن يعتقد أن كاثكارت يصلح للدبلوماسية فإنه قال: "لقد مضى فى محاولاته لإنقاذ سلام الولايات المتحدة إلى أبعد مما كنت أنا سأمضى إليه أو ستأمر الحكومة بالمضى إليه" ولكن بقيت لدى أوبرايان انتقادات لحكومته ولقناصل أمريكا فى إسبانيا، الذين رفضوا نشر تحذيرات كاثكارت من أن طرابلس الغرب تحارب أمريكا. وقد كان قناصل الولايات المتحدة لدى دول البربر الوحيديين الذين يتلقون رواتب لقاء خدماتهم، وكان الآخرون تجاراً محليين يكسبون من حصتهم فى الرسوم المفروضة على السفن الأمريكية. وكان من مصلحة هؤلاء القناصل أن يستمر قدوم هذه السفن: فإبلاغ الأمريكيين بوقف التجارة كان يؤذى مصالح هؤلاء التجار، حتى وإن كان يساعد المصالح الأمريكية. وكانت أنانية هؤلاء القناصل تعنى أن "أبناء وطننا سيقعون فى المتاعب بغنائهم" هكذا كتب أوبرايان. كان أوبرايان يعلم أن هذه المصاعب آتية لكنه

كان يأمل أن لا تظهر الولايات المتحدة، بعد أن تدخل الحرب، اللامبالاة والإهمال اللذين تسببا بالحرب. وكتب يقول : "أريد رجلاً مثل الجنرال سكول" وما دام الباشا يوسف مصمماً على الحرب "فبحق الله أعطوه كفايته منها"^(٥٤).

وعندما جاءت الحرب اتبع القناصل الثلاثة مسارات مختلفة. كانوا قد وصلوا إلى شمال إفريقيا قبل أربعة أعوام، مبعوثين لتنفيذ سياسة أمريكية لم تكن محددة بوضوح. لم يكن الأمريكيون على أرض الوطن متفقين حول دور أمريكا في العالم، وكانوا يعتبرون ممالك شمال إفريقيا أدوات بأيدي القوى الأوروبية أو رموزاً للفساد واللاقانون. لقد سبق أن نشب الخلاف بين إيتون وأوبرايان وكاثكارت، ووضعت الحرب خلافاتهم في صورة أكثر وضوحاً. وسوف نناقش حل إيتون العسكري، بتفصيل أكثر، في الفصل التالي، وقد يكون أوضح جوانب السياسات الأمريكية في شمال إفريقيا. وقد اعتبر كاثكارت نفسه ذا أهمية مركزية للسياسات الأمريكية. وقد تقدم لشغل وظيفة أوبرايان قنصلاً عاماً في الجزائر، لكن الداي رفض استقباله. وبقي في منطقة المتوسط يمارس تجارته الخاصة، حتى نهاية الحرب، ثم عاد إلى الولايات المتحدة. وعندما أرسلت تونس سيدى سليمان ميلميلي سفيراً لدى الولايات المتحدة في ١٨٠٥، كلف كاثكارت بمرافقته من واشنطن إلى بوسطن. لكن ميلميلي اتهم كاثكارت بأنه كان مخموراً وغير نزيه ولا يظهر الاحترام. وأرسل كاثكارت إلى ماديرا وإلى مواقع قنصلية ثانوية أخرى، ثم أرسله الرئيس مونرو إلى فلوريدا ولويزيانا مفتشاً على الأخشاب ويبدو أن أفضل سنوات كاثكارت كانت تلك التي قضاها أسيراً في الجزائر. كان شاباً وناجحاً. والأحلام الجسورة التي اشتعلت في لحظة النجاح تلك، لم ينجح قط في أن يجعلها تثمر. واستمرت الجائزة الكبرى التي كان يسعى وراءها، هي منصب القنصل العام في الجزائر، تراوغة في حين كانت تلاحقه الديون المتزايدة التي راكمتها الأحلام الباذخة والأسرة التي يتزايد حجمها. وطوال السنوات العشرين الأخيرة من حياته كان موظفاً صغيراً في وزارة الخزانة، يقضى لحظات الفراغ في تحريك دعاوى عقيدة ضد الولايات المتحدة مطالباً بديون، اعتقد أنها مدينة بها له، لقاء خدماته في منطقة المتوسط. وكان يخطط لإنشاء مزرعة في إنديانا، لو دفعت حكومته ما يدعيه من ديون. وبخلاف الزراع الذين يبدأون بغرس البنور وبناء مخازن الغلال، قبل أن يشيدوا

مساكنهم، فإن كاثكارت كان يخطط بأن يبدأ ببناء البيت الكبير، على طراز "المقار الريفية قرب بوسطن". وكان يتوقع أن يبقى منزله خمسين عاماً، على الأقل، فى كاثكارت سيت، قرب لايوانت، فى إنديانا. لم يكن يمل من الأحلام، رغم أن الواقع كانت له طريقة غير سارة فى اقتحام أحلام يقظته. وتحت إسكتش منزل الأحلام كتب كاثكارت: "إن خسرتنا القضايا، خسرتنا المنزل!" وفى آخر خطاب من خطابات الباقية، وقد كتبه قبل موته فى ١٨٤٣ بوقت قصير، كان كاثكارت لا يزال ممروراً بسبب "خدمته المخلصة لند ناكر للجميل" (٥٥).

وبعد إعفاء أوبرايان من منصبه قنصلاً عاماً فى الجزائر، فقد بقى فى منطقة المتوسط مستشاراً للأسطول الأمريكى. وبعد الحرب انتقل إلى بنسلفانيا، حيث انتخب نائباً عن الولاية لمدة واحدة، ثم تقاعد مع زوجته إليزابيث، فى مزرعة قرب كارلايل. كان قد قضى قرابة عشرين عاماً فى الجزائر وأصبح عارفاً بمدينة لم يكن لها إلا وجود رمزى، بالنسبة لمعظم الأمريكيين. كانت الجزائر تعنى اللاقوز والقرصنة والنهب. كانت النموذج الأكثر وضوحاً للطغيان المسلم. لكن أوبرايان تعلم، وحاول أن يقنع حكومته، بما تعلمه من أن هذا العالم أعقد مما تخيلوا. كانت الولايات المتحدة تعتقد، عندما أرسلت أوبرايان قنصلاً عاماً، أن بوسعها أن تعلم الجزائريين جدوى التجارة الشريفة، وأن تقطعهم عن الحرب والقرصنة. لكن أوبرايان وصل إلى الجزائر ليجد أن المجتمع التجارى المحلى، من مسلمين ويهود، ليست لديهم ثقة فى الأمريكيين، الذين كانوا غير قادرين أو غير مستعدين لتغيير صورتهم هذه. أما كاثكارت وإيتون اللذان أرسلتا لتعزيز السلام والتجارة الشريفة فى منطقة المتوسط، فقد انصرفا، بدلا من ذلك، إلى متابعة مصالحهما التجارية الخاصة، التى خلطا بينها وبين المصالح الأمريكية. أما حكومة الولايات المتحدة، المشغولة بالسياسات الأوروبية، فقد أهملت الساحل البربرى والقناصل الذين أرسلتهم إليه. لقد كان العالم المسلم، دائماً أعقد مما ظن الأمريكيون. ونموذج التجارة الشريفة التى اقترحه الأمريكيون، والدروس فى التجارة التى أعطاهها رجال مثل القبطان غريفز والقنصل كاثكارت لم تكن مغرية لرجال التجارة فى شمال إفريقيا بأن يغيروا الطرق الخاصة بهم. وبعد أن لم ينجح الأمريكيون فى الحفاظ على

الفصل الثامن

تذكر الحرب الطرابلسية

لم يكد الأمريكيون يبدأون حربهم ضد طرابلس الغرب حتى حولوها إلى خرافة أخلاقية. أصبح انتصار أندرو ستيريت فى معركة بحرية فى أغسطس ١٨٠١ أساساً لمسرحية "الجائزة الطرابلسية أو الملاحون الأمريكيون على شاطئ إنكليزى" التى عرضت فى نيويورك فى نوفمبر ١٨٠١. ولا توجد نسخ من هذه المسرحية، رغم أن خسارتها لا تعنى شيئاً خطيراً للأدب. وما نعرفه عن المسرحية مصدره عرض نقدى جاد لها كتبه واشنطن إيرفينغ. وما زال بمقدورنا الاستمتاع بحكم إيرفينغ الساخر الخشن على هذه المسرحية المنسية. لكن الأكثر إزعاجاً هو حكم إيرفينغ القاسى على الجمهور. ويكاد يكون إيرفينغ الوحيد الذى أدان المسرحية، وقد أربكته استجابة الجمهور - كان يبتسم ساخراً، وكان بقية الجمهور يهتفون ويضربون الأرض بأقدامهم ويهللون^(١).

وقصة "الجائزة الطرابلسية" بسيطة للغاية: سفينة أمريكية أسرت سفينة طرابلسية، وطيرت عاصفة السفينتين من المتوسط إلى القنال الإنكليزى. ويقع ابن القبطان الأمريكى فى غرام صبية إنكليزية ويرغب فى التخلّى عن خدمته فى البحرية ليبقى مع محبوبته، ما ينشأ عنه صراع بين الواجب والحب. فى الوقت ذاته، كانت سفينة طرابلسية أخرى قد طاردت الأمريكيين حتى إنكلترا، وبعد معركة بحرية مطولة (يتابعها جمهور إنكليزى على المسرح) يكسب الأمريكيون، ويستسلم الطرابلسيون، ويدرك ابن القبطان أن واجبه نحو بلاده هو قبل كل شىء آخر.

حبكة بسيطة وإن كانت غير جديرة بالتقدير. وقد يكون لنا نحن وإيرفينغ أن نظهر عدم اقتناعنا، لكن جمهور نيويورك اقتصع. فمعظم أحداث الرواية كانت "تستقبل بالتهليل وصيحات الاستحسان التي خصوا بها القبطان وطاقمه ومنصة القيادة". أما القبطان الذي يصفه إيرفينغ بأنه كان ابن جنية ضخمة الجثة وشتاما، وقد احتقر ابنه لأنه خان الشرف البحري من أجل، صائحا "ماذا؟! بحار أمريكي يهرب من الواجب؟! ويرد عليه الجمهور: "مستحيل، البحار الأمريكي راسخ للأبد! الأزرق الحقيقي لا يبهت أبداً!"

ولو كان هناك نص مطبوع لهذه المسرحية، فلم يكن ليحتوى على هذا الحوار بين الممثلين والجمهور. وعرض إيرفينغ يعطينا الحبكة، وأهم منها رد فعل الجمهور. كره إيرفينغ الرواية، وأحبها الجمهور. شعر إيرفينغ بالاشمئزاز. وابتهج الجمهور. مال الجمهور، صاخبا متحمسا، إلى جانب الواجب والبحارة الأمريكيين. وجاءت الإثارة الحقيقية عند نقطة الذروة في المسرحية، عند المعركة بين الأمريكيين والطرابلسيين. كان من غير المتصور أن تقع معركة كهذه قبالة الساحل الإنكليزي، وهي حقيقة استخدمها إيرفينغ ليسخر من المسرحية. لكن هذا المستحيل الجغرافي أدى وظيفة درامية ووطنية بحق. فعلى المسرح، تجمع جمهور على الشاطئ الإنكليزي ليتابع الانتصار الأمريكي، وهكذا قدمت للجمهور مسرحية داخل المسرحية، ولذة مشاهدة البحارة الأمريكيين ينتصرون ورد الفعل الإنكليزي على هذا الانتصار. وكتب إيرفينغ أن "المعركة سارت وقائعها باللفظ والكياسة المناسبين، فاستسلم الطرابلسي بكل أدب - على اعتبار أنه من قلة الأدب أن ينتصر في حضرة جمهور أمريكي" أو حتى في حضرة جمهور إنكليزي.

ورغم أن هذه المسرحية لم يبق أثر منها، فقد بقيت هي الطريقة التي ظل الأمريكيون يتذكرون بها الحرب ضد طرابلس الغرب. ففيها كل التيمات التي تتكرر فيما تبقى من شعر وأغنيات ولوحات وكتب ومسرحيات. تحارب الأمريكيون مع الطرابلسيين، ففاز الأمريكيون، ولكن ليس بفضل تفوق القوة العسكرية أو حتى الشجاعة.

لقد هزم الأمريكيون الطرابلسيين لأن الأمريكيين كانوا الأزرق الحقيقي (TRUE BLUE) وهي عبارة ذات منشأ غامض ويرجعها البعض إلى ما كان يقال عن القماش الأزرق الذي كان يصبغه أهل كوفنتري في إنكلترا، بصبغة زرقاء لا تبهت رغم مرور الزمن، وقد أصبح رمزاً للثبات على المبدأ نظراً لمعارضة أهل كوفنتري لطغيان الملك جيمس الأول، ملك إسكتلندا، وكان هؤلاء المعارضون يعتبرون الأزرق رمزاً لهم، ولأنهم كانوا من أتباع الكنيسة المشيخية البروتستانتية، فقد جعل صمويل تبلر منهم رمزاً للمشيخة البروتستانتية في إحدى قصائده الساخرة - المترجم) وكان البحارة الأمريكيون أصحاب مبادرة تجارية (ENTERPRISE) على غرار الاسم الذي حملته أول سفينة أمريكية منتصرة وهو إنتربرايز كما أنهم كانوا شجعاناً وأذكاء بقدر ما كانوا أقوياء. ورغم أن الجنود الطرابلسيين أجبروا على الحرب بالترهيب، فإن الأمريكيين كانوا متطوعين وحاربوا بدافع حب البلاد ومثلها الجمهورية. أما الحشد الواقف على منصة في السفينة يشهد مسرحية فكان دوره يتجاوز مجرد الهتاف للفريق الوطني، كان، في الحقيقة، يشعر بالصلة مع الرجال الذين يحاربون في نصف الكرة الأرضية الآخر.

وقصيدة جوزيف هانسون في ١٨٠١ "إذلال المسلمين، أو قصيدة بطولية احتفالاً بالشجاعة التي أظهرها البحارة الأمريكيون، في الصراع مع طرابلس الغرب" تتساءل "ما الذي يمكن أن ينجزه عبيد الطغاة؟ الذين يحاربون من أجل النهب ومن أجل السادة المستبدين، الذين لا يدافعون عن قانون، إلا إذا كان قمعياً، ولا يحمون سلطة، إلا تلك التي تهينهم" في حين أن الأمريكيين، من ناحية أخرى، كانوا يستلهمون تلك الكنوز التي لا يمكن تقديرها "حقوقهم وحقوق كولومبيا" و "القوتين الهائلتين للعدل والحرية" اللتين أعطتا الأمريكيين "تلك الشجاعة التي لا تهزم، التي أرعبت وأعجزت السادة النهائيين التابعين للبasha المتجبر" (٢).

وتعطى أغنية "الإزدهار الوطني" في ١٨٠٤ هذا الاختلاف بين الأمريكيين والطرابلسيين شكلاً سياسياً صريحاً. فلم يكن كافياً أن الأمريكيين مختلفون، كما قالت هذه الأغنية "فقد كان مصدر بركات الأمريكيين هو قيادة جيفرسون" رئيس

الأمة الذى أحسن اختياره" الذى تناسى الفرقة و "التشهير الحقيقى" ولم يهتم إلا بالحكمة والنظام والقانون. وتحتفى هذه الأغنية بفرار أمريكا من الورطات الأوروبية، ومن التصعيد العسكرى فى سنوات أدامز، ومن التشكك الدينى. ذلك لأن "الأمة السعيدة المباركة" تحت قيادة جيفرسون، التى تنعم "بالسلام والوفرة" قادرة على ذلك، لأن الناس الذين يجدون فى عملهم لا يتعين عليهم أن يدفعوا ضرائب مرهقة. و "أقصى طموحات" الأمة ليس الغزو أو التسلط، ولكن "الحرية والتجارة". وقد حسنت لويزيانا "وهى حلقة جديدة فى الاتحاد" فرص الأمريكين فى تحقيق طموحاتهم فى بلادهم، ووعدت الأغنية بأن "قراصنة طرابلس الغرب" سوف يتعين عليهم فى القريب العاجل إما "أن يوفونا حقوقنا أو يتحملوا ضرباتنا"^(٣).

وقد ناقش الاتحاديون مدى مسؤولية جيفرسون عن تدبير هذا الذى جرى، وزعموا بأنه لهو ج الحرب. لكن جيفرسون اتبع سياسة مختلفة عن سياسات أسلافه، وكانت النتيجة مختلفة على نحو ذى مغزى. ويمكن أن نقارن، هنا، بين اثنتين من قصائد الأسر: "الأسير الأمريكى فى الجزائر" المكتوبة فى ١٧٩٥ وقصيدة وليم راى "أنشودة للحرية" التى كتبت عندما كان راى أسيراً فى طرابلس الغرب فى ١٨٠٥. فى قصيدة "الأسير الأمريكى فى الجزائر" المجهولة المؤلف فإن العبد المجر على العمل فى سفينة لا يجد الحرية إلا فى الموت. ويجد راى الحرية، أيضاً، ويبارك "القوة التى حققت الإفراج". لكن هذه القوة ليست إلهاً، بل هى البحرية الأمريكية. وقد يكون هنا تجريف لكنه يشير إلى تغير فى المفاهيم. فلم تعد الحرية منحة من الله. بل صارت شيئاً يتعين أن يحميه الرجال والنساء من أجل أنفسهم. ولم يجمع الأسرى الأمريكين العائدون من الجزائر على امتداح حكومتهم لسرعة مبادرتها إلى العمل. وأولئك الذين كانوا فى طرابلس ربما تعذبوا فى كل يوم من أيام الأسر، لكنهم رأوا أيضاً القصف البحرى المذهل بل وشهدوا على إغارة ديكاتور فى فبراير ١٨٠٤ على مرفأ طرابلس ليحرق السفينة "فيلادلفيا" وهو ما اعتبره أعظم الأبطال البحريين فى ذلك العصر هو راشيو، اللورد نيلسون "العمل الأجرأ والأكثر جسارة فى هذا العصر".

وكما أشرنا فى فصل سابق، فإن إغارة ديكاتور حولت الخسارة المشينة للسفينة فيلادلفيا إلى عرض للبأس الأمريكى. وحاول من انتقدوا معالجة جيفرسون لشؤون الحرب من الاتحاديين أن يستخدموا مغامرة ديكاتور لصالحهم، قائلين إنه دمر السفينة ولم يستردها، وإن بطولته عجزت عن أن تطلق سراح ولو أسير واحد، وإنه لو أن جيفرسون وجه قوة كافية إلى المتوسط، لما كانت هناك حاجة لهذا كله. واستخدم الاتحاديون أمور النسب فى نكدهم: ديكاتور كان ابناً لأحد الاتحاديين المخلصين، والبحرية كلها فكرة اتحادية، وافتتحت "إيفتنغ بوست" فى نيويورك تقاريرها الأولى عن إغارة ديكاتور "بقولها سوف نبتهج لأننا وجدنا أن الأفضل، بالنسبة لنا، أن نحرق واحدة من فرقائنا، وهى التى كلفتنا أربعمئة ألف دولار". ولم يؤثر هذا الخطاب، بأكثر مما أثر نفور واشنطن إيرفينغ من صخب الحشد الذى كان يشاهد "الجائزة الطرابلسية". وأعدت "أورورا" الموالية للإدارة، بكل سرور، سخريه "إيفتنغ بوست" قائلة إنها كريمة لدرجة تجعل التعليق عليها غير ممكن. وكاعتراف بالتحويلات التى أحدثها ديكاتور فقد رقاها جيفرسون إلى رتبة الكابتن، على الفور، ووافق الكونغرس ذو الأغلبية الجمهورية، على إعطائه سيفاً.

ولم يكد يمر أسبوع على وصول خبر إغارة ديكاتور إلى الولايات المتحدة إلا وكانت موضوعاً لمسرحية صامته PANTOMIME، بعنوان "الاستعدادات لإعادة السيطرة على الفرقاطة فيلادلفيا". وظهر فى العرض موكب يحيى انتصار ديكاتور "على القراصنة الطرابلسيين" وانتهت بالطاقم الشجاع يترنم بأغنية وطنية جديدة و "يحمل العلم الأمريكى المنتصر". وخلال أسبوعين من وصول الأخبار إلى أمريكا وضع مؤلف موسيقى من نيويورك افتتاحية تصف فقد فيلادلفيا وهجوم ديكاتور. وربما لم يستطع أن ينتهى من العمل قبل عرضه الأول فى ٧ يونيو، وهكذا انتهت الافتتاحية بالأغنية "المجد لكولومبيا". ووعد كاتب أغنيات معاصر آخر بأنه إذا تجرأ أى طاغية آخر على إهانة العلم الأمريكى "فسوف نرسل إليهم ديكاتور ليعلمهم (السلوك القويم)"^(٦).

وقد خلق ديكاتور للأمريكيين نسخة حية من "الجائزة الطرابلسية". لكنه لم يكن قد فعل كل ما عنده. ففي أثناء قصف طرابلس الغرب، في أغسطس، كان ستيفن ديكاتور وشقيقه جيمى يقود كل منهما سفينة على أحد طرفى خط المواجهة. وفي نهاية اليوم، كان ستيفن ديكاتور وجنوده المنتصرون يحرون خارجين من المرفأ، عندما علم أن أخاه جيمس قتل بيد قبطان طرابلسى أسير. وعلى الفور، أمر ستيفن بعودة سفينته إلى المرفأ، حيث عثروا على قاتل أخيه. وصعد ديكاتور ورجاله إلى السفينة، واشتبكوا بالأيدى مع الأعداء، وقتلوا القبطان، واستولوا على السفينة. وهنا ما يكفى من الشجاعة، حيث عاد أحد الأخوين إلى حيث وقعت المعركة لينتقم لأخيه. ولكن مع إعادة رواية القصة، أصبح بحار يدعى دانييل فرايزر هو البطل، وإن كان غير اسمه، بعد ذلك إلى روبين جيمس. وفي هذه الزيادة التحسينية، وفيما يشتبك القبطانان الأمريكى والطرابلس على ظهر السفينة، فإن بحارا طرابلسيا رفع سيفه فوق رأس القبطان الأمريكى. لكن فرايزر، أو روبين جيمس، يضع نفسه بين السيف وقبطانه، ليتلقى الضربة وينقذ حياة ديكاتور. وهكذا فقد كان بوسع كل فرد أن يظهر الشجاعة والتضحية بالذات. ويبقى فرايزر أو روبين جيمس بطلاً من أبطال البحرية يضاهى القبطان الذى أنقذ حياته، من حيث العظمة. أثبت فرايزر/جيمس أن الأزرق الحقيقى لا يبهت أبداً، فكسب هو وقبطانه، ليس فقط إعجاب الجمهور الإنكليزى، بل وأعجاب أعظم بطل بحرى إنكليزى، فى كل العصور.

بين ديكاتور ما يمكن أن يفعله الأمريكيون، وما غاظ الاتحاديين هو أن براهينهم عززت موقف جيفرسون. ذلك أن صحيفة "أورورا" فى فيلادلفيا أعربت عن الرجال فى أن بطولة ديكاتور سوف تقرب ذلك "اليوم المجيد" الذى يوحد الأمة شعور واحد "لا تعكره روح الانقسام، ولا يغويه تأثير دولة أجنبية، دأبت على إزعاج السلام، وإفساد مواطنيها، ونهب كل ثروة" حتى ننظر "بروح ترفض الانقسام، فضائل وبسالة أبطالنا ورجال الدولة عندنا، الذين بذلوا الجهد للحفاظ على حقوقنا، وتأكيد استقلالنا وشرفنا". وتمنت "أورورا" أن ترى "الفرحة الوطنية" و "التهانى المدنية" تحل محل الروح الحزبية وأن يحل "الحب المشترك للبلاد" محل التشرذم^(٧).

وتمسك الجمهوريون بقصة ديكاتور لا يريدون أن يفلتوها. أصبحت بطولته بؤرة احتفالاتهم بيوم ٤ يوليو، فتحول الجمهوريون الذين كانوا الأشد انتقاداً للسلاح البحرى فى عهد أدامز إلى أكثر المعجبين به حماساً. ورفعت الجمعية الديمقراطية - الجمهورية فى تشيستر كاونتى، بنسلفانيا نخباً فى صحة ديكاتور و "رفاقه البواسل" أملين أن تبقى شجاعتهم ويسالتهم "رعباً لأعداءهم، ومثالاً لأبناء وطنهم، وأخيراً أن تضمن لهم الاحترام من كل أمريكى حقيقى". أما الديمقراطيون - الجمهوريون فى فيلادلفيا فإن نخبهم كان فى صحة "البحرية والجيش فى الولايات المتحدة - عسى أن يكونوا، دائماً، مثل ديكاتور الشاب شجاعاً فى خدمة قضية عظيمة" وعبر نخب فى موريساون، نيوجيرسى، عن الأمل فى أن تكون البحرية "قادرة، دائماً، على حماية تجارتنا ضد التخريب، وأن تؤمن حرية مواطنينا، من الأوروبيين والإفريقيين البرابرة، على السواء". وعكس نخب فى إحدى سرايا الميليشيا فى فيلادلفيا ما جاء فى أول خطاب افتتاحى ألقاه جيفرسون، بامتداح "التجارة، خادمة الزراعة" وبالتطلع إلى إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين "عبر مبادرات إدارة حكيمة" ليخلص إلى امتداح ديكاتور والميليشيا والبحرية "عسى أن لا يستخدموا إلا لردع الطغاة وأساساً للحرية الغربية". واستخدمت سرية أخرى من الميليشيا فى فيلادلفيا ديكاتور لتمجيد جيفرسون: "لقد قيل إن قائدنا التنفيذى بافتقاره قوة الأعصاب لن يحترم نداء المجد من بلاده، فاسألوا قوى البربر واسمعوا ما سيقولون. هل أجبره هؤلاء القراصنة قط على أن يدفع لهم ؟ نعم، ودفع بالبارود والقذائف"^(٨).

وقدم مسرح ساوثويرك فى فيلادلفيا برنامجاً جمهورياً كاملاً فى ٤ يوليو، محتفلاً بالاستيلاء على لويزيانا وبانتصار ديكاتور على طرابلس الغرب. لقد مجدت مسرحية جديدة من خمسة فصول صُنفت باعتبارها "كوميديا وطنية" بعنوان "الحرية فى لويزيانا" استيلاء جيفرسون على الإقليم، وتبعها "معبد الحرية" وهو رسم شفاف للحرية والعدالة وكولومبيا مع صفوف من جنود البحرية "تكريماً للكابتن ديكاتور ورفاقه البواسل". فالجمهوريون الذين عارضوا إنشاء البحرية هم الآن أخلص أصدقائها. وأصبحت صور الحرية والمواطنين الجنود والفضيلة الجمهورية مرتبطة بالصورة البطولية لديكاتور.

فقد جعل جيفرسون وديكاتور البحرية أمانة للجمهورية. فقد الاتحاديون ديكاتور كبطل. ومع مغادرة الأمريكيين للساحل الشرقى للاستيطان فى المناطق الحدودية، حملوا معهم اسم هذا الضابط البحرى الأرسقراطى من فيلادلفيا. وأطلق اسم ديكاتور على مدن فى جورجيا وآلاباما وميسيسيبى وتينيسى وإنديانا وإلينوى، ومع عبور الجيل التالى من الأمريكيين المسيسيبى، فقد أطلقوا اسمه على مدن فى تكساس وأكانصو وأيوا وكانزاس ونيراسكا^(٩).

ورأى كثير من الأمريكيين الدليل على شجاعتهم فى الأعمال الباسلة التى قام بها ديكاتور ورفاقه. حدث هذا قبل نهاية الحرب بكثير. ورغم أن ديكاتور احتفل به فى صيف ١٨٠٤، فقد جاءت نهاية الحرب بعد عام كامل. كانت هناك فرص أخرى للشجاعة والبطولة ولكن مع تدفقات الحماس الوطنى فى ١٨٠٤. كان من المدهش أن لا تنتهى الحرب على الفور. وكان المنتقدون الاتحاديون محقين: إن عمل ديكاتور الشجاع لم يضع نهاية للحاجة إلى الحرب. لكن بطولة ديكاتور غيرت الطريقة التى فهم بها الأمريكيون الحرب وأنفسهم. وكما أكد جوزيف هاتس فى "إذلال المسلمين" على هذا الجانب من الأطلسى، يعيش جنس من المخلوقات! مكافئ فى الروح للأوائل بين الأمم. لقد أثبت ديكاتور أن الأمريكيين أنداد لأى كان. ولم يكن الأمريكيون وحدهم من قالوا ذلك: فمن الفاتيكان أعلن البابا بيوس السابع أن "القائد الأمريكى، ومعه قوة صغيرة، وفى زمن قصير، فعل من أجل المبدأ المسيحى أكثر مما فعلته أقوى أمم العالم المسيحى منذ عصور!" وقد كان الاعتراف بذلك من الكنيسة الكاثوليكية وكذلك من لورد نيلسون أمراً مرضياً، على نحو خاص^(١٠).

لقد أخذ ديكاتور الهزيمة وحولها إلى نصر، بتدمير السفينة فيلادلفيا وبالانتقام لموت أخيه. وكان الأمريكيون مستعدين لأن يفعلوا الأمر ذاته مع أى نازلة. ففى سبتمبر ١٨٠٤ حاول الأمريكيون أن يفعلوا بقلعة يوسف قرامانلى ما فعله ديكاتور بالسفينة فيلادلفيا. شحنوا الزورق المسلح "انتربيد" بالمتفجرات، محولين إياه إلى قنبلة عائمة، وتطوع خمسة عشر بحاراً بالإبحار به إلى المرفأ تحت جنح الليل، ليرسوه تحت القلعة ويفجروه. لكن شيئاً ما مضى فى غير المسار المقرر له. وقبل أن يبلغ "انتربيد"

القلعة انفجر، فمات كل من فيه. ولم يعرف أحد ما حدث. ربما كانت شرارة غير مقصودة أو قنصاً من رجال العدو، هو ما فجر الزورق. لكن التفسير الرسمي تجاهل هذين الاحتمالين. ووفقاً لهذا التفسير فإن البحارة الشجعان أدركوا أن العدو اكتشفهم، ففجروا قاربهم مفضلين ذلك على الوقوع فى الأسر. وفى لوحة بانورامية فى ١٨٠٦ "تفجير الزورق المسلح" يسبح أفراد الطاقم مبتعدين عن الحطام المشتعل فيما هم "يحاولون المشاركة فى صيحات صاخبة تتحدى العدو". وأشارت "أورورا" فى فيلادلفيا إلى أن التاريخ ملئ بأمثلة الشجاعة والتضحية بالنفس، لكنها كلها كانت من صنع رجال "مدربين منذ طفولتهم فى ميادين الحرب، ومعتادين على الخطر" وإنه لمصدر "شرف متفرد" للأمريكيين أن يجدوا أنهم يظهرون شجاعة مماثلة رغم أنهم "يخوضون الحرب لأول مرة". لقد أثبت الأمريكيون أنهم أفضل بحارة وكحاربين من أهل طرابلس الغرب وأفضل كشعب من الإنكليز^(١٢).

كان انتصار إنكلترا على فرنسا فى مصر ما زال طازجاً فى ذاكرة الجمهور الأمريكى. وفى ١٨٠٤ طافت لوحة بانورامية ضخمة عن معركة النيل بالمدن الأمريكية. وفى هذا الرسم كانت البحریتان البريطانیة والفرنسیة تتصارعان للسيطرة على العالم، قبالة الإسكندرية. وفى مارس ١٨٠٥ أنتج فنان أمريكى بديلاً لهذه اللوحة التاريخية "البحارة فى طرابلس الغرب" التى تصور البحرية الأمريكية وهى تقصف طرابلس الغرب. الأسطول الأمريكى فى المقدمة، وفى الخلفية قلعة الباشا يوسف ومسجد، وقد طيرت أحد الأبراج طلقة من مدافع السفينة الأمريكية "كونستيتوشن". والمغزى هو أن القوة السياسية للطاغية والقوة الدينية للإسلام دمرت هما طلقات مدافع محكمة التصويب من الفرقاطة الأمريكية. وبدا أن هذا يحقق وعداً آخر من وعود قصائد الأسر التى كتبها وليم راي، "الأمريكى الأسير فى طرابلس الغرب" التى تتحدث عن "قباب شاحبة" وعن "أعمدة تترنج" وهى شواهد على "اليد المدمرة للطاغية" والتى ستدمرها سماء عادلة، وأبناء كولومبيا و "واشنطن الخالد" الذى سيجعل "الطفة المخلصين" من "البكوات والبشوات" يركعون خاضعين، وهو ينقذ المساواة فى الحقوق و "الحرية العذبة". وقد دمرت كونستيتوشن هذه الأعمدة المترنحة، وانتصر البحارة المبادرون، على الأقل فى الأشعار واللوحات، على قوى الظلام^(١٣).

كانت لدى البحارة الأمريكيين قدرة مذهشة على أن يفعلوا ما لم يفعل من قبل، قط. ورغم ذلك فقد كانت هناك سوابق تاريخية لشجاعتهم وإقدامهم فقد نظم رسام المشاهد التاريخية جون سكدر في فيلادلفيا في ١٨٠٨ معرضاً كانت المادة الترويجية له تصور نسراً قبض على راية نقش فوقها "بنكرهيل/طرابلس الغرب". وتصور أهم لوحتين في هذا المعرض هاتين المعركتين الأمريكيتين المهمتين. وبنكرهيل في ١٧٧٥، رغم أنها كانت هزيمة للأمريكيين، فقد أثبتت أنهم قادرون على الرد على البريطانيين بالسلاح. أما القصف البحري لطرابلس فقد أثبت إنكلترا، ليس فقط أن الأمريكيين قادرون على الحرب، ولكن أيضاً أنهم لن ينزلوا إلى مستوى الرشوة والفساد اللذين يسترضى بهما الأوروبيون دول البربر. وهكذا، فهاتان المعركتان في ١٧٧٥ أو في ١٨٠٤-١٨٠٥ أثبتتا للعالم الطبيعة الاستثنائية لشخصية الشعب الأمريكي وتصميمه واستقلاليته. ولم ينفرد سكدر بهذا الربط بين بنكرهيل وطرابلس الغرب، فإن مسرحاً في نيويورك قدم برنامجاً من فقرتين في فبراير ١٨٠٦. المساة التاريخية في بنكرهيل أو موت الجنرال وارين، كانت الجزء الأول. أما الجزء الثاني فكانت مسرحية موسيقية جديدة من فصلين وهي بحارة من طرابلس الغرب، وقد انتهت بتقديم "العمود البحري المنتصر" تحية للبحارة، الذين رقص ممثلوهم بالزى على المسرح، وفي الختام الباذخ "تهبط كولومبيا تساندها الحرية والعدالة". وقد ألقّت كولومبيا خطاباً، ثم صعدت عائدة إلى السماء، تاركة بأسفل "الطرابلسيين ينحنون أمام بيانها" (١٤).

ولم يتمكن الاتحاديون من إطلاق سراح ديكاتور الذي خطفه الجمهوريون واستعادته، لكن كان بوسعهم التقدم ببطل آخر. فبينما كان ديكاتور والأبطال الآخرون يشغلون خيال الجمهور، كان وليم إيتون القنصل السابق لدى تونس منخرطاً في مغامرة عسكرية خاصة به. فقد تتبع إيتون شقيق قرامانلى سيى الحظ أحمد، الذي خلعه يوسف في تسعينيات القرن الثامن عشر وتكرر نفيه ثم إعادته للحظوة الرسمية، عدة مرات. وقد عين أحمد حاكماً لدرنة، وهي إقليم في شرق البلاد، لكنه كان قليل الكفاءة هناك، كما كان وهو باشا لطرابلس الغرب. التقى إيتون مع أحمد، لأول مرة، عندما كان الأخير منفياً في تونس وظن أن الأمير الشارد قد يكون أداة نافعة للدبلوماسية الأمريكية.

واعتقد أنه لو تمكن من الزحف بأحمد عائداً به إلى طرابلس الغرب مع مساندة عسكرية كافية، فسوف يهب الشعب ضد يوسف، ليعيدوا أحمد إلى السلطة، ويكافئ أحمد الأمريكيين بالسلام والصدّاقة. ونجح إيتون في الحصول على دعم غير مباشر من إدارة جيفرسون. وأصدر وزير الخارجية ماديسون أوامره لضباط البحرية بالتعاون مع إيتون، لكنه طلب من إيتون أن يبلغ أحمد بأن الولايات المتحدة لن تتركه في موقف أسوأ من ذلك الذي وجدته عليه. ولم يكن لإيتون أن يعد أحمد بأن تخصص الولايات المتحدة قوة عسكرية لإعادته للسلطة.

ويبحث إيتون عن أحمد حتى وجده في مصر، ووقع معه إتفاقاً، وأنشأ قوة من المرتزقة اليونانيين والألبان والعرب ومعهم حفنة من مشاة البحرية الأمريكية. ووفقاً لهذا الاتفاق أصبح إيتون جنرالاً، وقد كانت أرفع رتبة وصل إليها في الجيش الأمريكي رتبة كولونيل، لكن من تلك اللحظة صار هو الجنرال إيتون. وزحف هو وأحمد وجنودهما عبر شمال ليبيا واستولوا على مدينة درنة في يونيو ١٨٠٥. ولكن ما غاظ إيتون هو أنهم لم يفلحوا في أي شيء آخر. رفض الشعب في طرابلس الغرب أن يثور، والسفينة الحربية التي ظهرت قبالة ساحل درنة لم تأت بتعزيزات. جاءت بأخبار تقول إن الولايات المتحدة أبرمت سلاماً مع يوسف. وصدرت الأوامر لإيتون بإخلاء الأمريكيين من درنة، وبعد مداولات تمكن من إقناع القبطان بأن يأخذ أحمد أيضاً.

وشعر إيتون بأن جيفرسون وماديسون خاناه. وعاد إلى البلاد والأمريكيون يحتفلون بشجاعة ديكاتور والبحرية. وتم التقليل من شأن مساهمته. وشجب الاتحاديون إيتون. وفي ١٨٠٤ هاجمه "أمريكي" لأنه تدخل في الشؤون الداخلية لطرابلس الغرب، على صفحات "إيفنغ بوست" وفي أغسطس ١٨٠٥ نددت به "بوليتيكال ريجستر" الاتحادية باعتباره زعيماً "لحملة قطاع الطرق". ولكن عندما أدرك الاتحاديون أن إيتون يمكن استخدامه لنزع المصداقية عن جيفرسون احتضنوه^(١٥).

واقترح الاتحاديون تقديم سيف رمزي إلى إيتون، تماماً كما قدم سيف إلى ستيفن ديكاتور. وأثار هذا الاقتراح تساؤلات، لأن ديكاتور كان يقود بحارة من

الأسطول الأمريكي، أما إيتون فكان يقود عصابة من المرتزقة اليونانيين والعرب. وقد تسبب الاقتراح بتقديم سيف إلى إيتون في مشاكل للإدارة: لو أنها أقرت بأن إيتون كان يعمل بتعليمات منها، فهل كان هذا اعترافاً بأنها خانت إيتون وحليفه ؟ كانت القضية الحقيقية وراء رغبة الاتحاديين في تكريم إيتون، كما قالت "أورورا" هي "العداء للسلطة التنفيذية". وفي حين استخدم الاتحاديون إيتون لاتهام جيفرسون بالتناقض فقد كان بوسع الصحافة الجمهورية أن تشير إلى تناقض الاتحاديين أنفسهم. فقد تساءلت "أورورا" لماذا نسوا في غمرة "حماسهم الكبير" لتكريم إيتون "التحية" التي قدمتها "بوليتيكال ريجستر" باعتباره هو ورجاله "قطاع طرق" ؟ والتفسير الوحيد الذي فكرت به "أورورا" كان أن "ما عبروا عنه من إعجاب" كان "نتيجة لتدبير، وتمثيل، وقلة إخلاص" (١٦).

ولواجهة أى ضرر يمكن أن يتسبب به إيتون، عكست الصحافة الجمهورية صورتى يوسف وأحمد قرامانلى. فعندما كانت الإدارة تساند أحمد قرامانلى، فقد كان يدعى "الباشا الشرعى" وكان يوسف يدعى "المغتصب". والآن تغيرت الأدوار. "يصور أبناء بلادنا شخصية الأخوين بألوان شديدة الاختلاف" هكذا كتبت "إنكوايرر" فى خريف ١٨٠٥. فقد تبين، حقيقة، أن أحمد كانت "قدرته محدودة" للغاية، وكان "مدمناً لعادات سيئة" فى حين كانت لدى يوسف "مشاعر راقية" و "طموح سام" و "فهم قوى". أما وزير خارجية طرابلس الغرب محمد دغيس فإنه "يزين أيا من مجالس الوزراء فى أوروبا". بل إن الصحافة الموالية لجيفرسون أصبحت تصر على أنه ليس حكيماً فحسب بل وله شعبية. وقد تأكدت شرعية يوسف ونظامه عندما أتاح إيتون للشعب الطرابلسى الفرصة للتخلص من يوسف وإعادة أحمد فرفضوها. فقضية أحمد البعيدة عن كونها قضية الشعب هي قضية المغتصب (١٧).

ولم يكن بوسع الكابتن وليم بينبريدج أن يتخيل كيف أن "إجراء غير حكيم وغير طبيعى" مثل خطة إيتون لاستخدام أحمد "فرضت نفسها على حكومتنا". ودعا بينبريدج أحمد "اللاجئ المخنث التعيس" الذى لم يكن بوسع أن يساعد الولايات المتحدة أو يلحق

الضرر بيوسف. وقد قضى أحمد بالفعل عشر سنوات مشرداً "فى المنفى، بعيداً عن بلاده وزوجته وأطفاله.. دون أن يسبب لحاكم طرابلس الغرب الحالى أقل إزعاج" وعندما كانت لديه سلطة "لم تكن لديه الشجاعة" للاحتفاظ بها، ولم يتوفر له "تأثير كاف على أبناء ملته ليعيدوه لمنصبه"^(١٨).

ولكن الاتحاديين الباحثين عن أى شىء من شأنه أن يخرج جيفرسون، تشبثوا بأحمد قرامانلى وبأى وعود ربما كانت الإدارة قد بذلتها له. وكتبت إيفنغ بوست فى نيويورك "يا له من عار! عار! من ذاك الذى لا يحمر وجهه خجلاً، من أجل شرف بلاده، وهو يقرأ تاريخ هذه الصفقة الخسيصة الحقيرة السافلة الخيانية؟" وأعدت إيفنغ بوست نشر تقرير عن مسلك الإدارة الذى أعده حليف إيتون ستيفن برادلى، وهو اتحادى من فيرمونت، متسائلة كيف أن "صحفاً فى ريتشموند مثل إنكوايرر وأورورا وسيتيزن ومثل بوسطن كرونكل" أو غير ذلك من الصحف الجمهورية أمكنها تبرير مسلك جيفرسون. لقد جعل جيفرسون أحمد قرامانلى يعتقد أنه سوف يساعد على استعادة السلطة. وعندما أصبح أحمد على وشك الزحف على طرابلس الغرب، عقد جيفرسون سلاماً منفصلاً مع يوسف الخائن^(١٩). وقد شك معظم ضباط البحرية، الذين كانوا مصممين على الحفاظ على شرف سلاحهم، فى ادعاءات إيتون والاتحاديين. وقال ريتشارد أوبرايان إن مشروع إيتون كان بلا قيمة. وراقه معظم رجال البحرية الملمين بحقائق الأمور. واستغل جون كوينسى أدامز وهو اتحادى مذبذب فرصة تقرير برادلى ليدين محاولة الاتحاديين تشويه سمعة جيفرسون. وقال أدامز إن التقرير "تأسس على مجموعة مفترضة من الحقائق، هى بكاملها غير صحيحة، وعلى رؤية لكامل الموضوع، هى بكاملها خاطئة،" وكرر أدامز ما كان يعرفه بينبريدج والكومودور بيارون ويوسف قرامانلى: أن أحمد قرامانلى كان لا يملك قوة أو مساندة شعبية. ورغم اعتقاد إيتون بأن مجرد وجود أحمد فى درنة من شأنه أن يلهم الناس بالثورة، فإن ذلك المنفى أجبر على الفرار بمجرد سحب المساندة الأمريكية. وقد تساءل أدامز "ما هى الوسائل والموارد التى كانت لدى هذا الأمير ذى السيادة الذى اضطر أن يهرب من بلاده، من إقليم كان يحكمه ذات يوم، على ظهر سفينة حربية أمريكية؟ وتساءل أدامز "هل هكذا يكون الزحف للاستيلاء على عرش طرابلس الغرب"^(٢٠)؟

واهتاج وليم إيتون. وبعد أن انتهى آدامز من سحق ادعاءات أحمد "هذا الرجل باع شرف بلاده". ورغم ذلك فإن زعماء الاتحاديين لم يكفوا عن مساندة ادعاءات إيتون. أما وليم بلامر الذي بدأ يعتبر إيتون متبجحاً مختلاً فقد بدا له أن الاتحاديين الآخرين "مبالغون في إطرأئه" مما جعل الناس "يهللون" لإيتون ويخلطون بين ما أبداه من "طيش" وبين "الشجاعة".

وقد كان إيتون، شأنه شأن الشعب الأمريكي، يخلط بين الأمرين. وقد اعتقد جيفرسون أن إيتون لم يكن يريد إلا زيادة أهميته بتدمير سمعة ليروبارون. ولم يصل الأمر بالرئيس إلى أن يقول إن الاتحاديين كانوا يستخدمون إيتون لتدمير الإدارة ولزيادة أهميتهم هم، لكن الاتحاديين رأوا في إيتون أداة مناسبة. وربما لم يكن إيتون يدرك أنه يستخدم، لكنه كان مستعداً للاستمتاع بالاعجاب الذي عاش لحظته العابرة. ورأى إيتون في تقرير برادلي برهاناً على أن "شخصية الأمة لم تتشبع بجبن الإدارة، بشكل كامل"، أن "الشرف والعدل والثورة على السفالة" ما زال لها مكان، على الأقل في مجلس الشيوخ^(٢١).

ولم يكن الاتحاديون وحدهم الساعين إلى استخدام وليم إيتون. فقد اعتقد نائب الرئيس السابق آرون بير أن إيتون يمكن أن يكون نافعاً لغايات تخصه. وحتى الآن فالمؤرخون لا يستطيعون أن يتفقوا حول نوايا بير الحقيقية. هل كان يحاول فصل وادى النهرين أوهايو وميسيسيبى عن الولايات المتحدة وضمهما إلى المكسيك، وخلق إمبراطوريته الخاصة؟ أم أنه كان يخطط لعمل ما عملته الولايات المتحدة ذاتها بعد أربعين عاماً، بغزو المكسيك وضم أقاليمها الشمالية إليها؟ أيا كانت خطط بير، فقد ظن أن وليم إيتون يمكن أن يكون جزءاً منها. وامتد إيتون لاهتمام بير به واعتقد، لفترة قصيرة، أن نائب الرئيس السابق عازم على استعادة كرامة الولايات المتحدة وشرفها بانتزاع المكسيك من إسبانيا. لكن إيتون تحول إلى الحذر من بير وهدد بتدميره "بكلمة واحدة... مغتصب!" لقد أطلق الاسم ذاته على يوسف قرامانلى، ولم يدمر هذا الاسم لا قرامانلى ولا بير.

وقد كان إيتون الشاهد الوحيد لدى الحكومة فى محاكمة بير بتهمة الخيانة. ورغم أن جيران إيتون الاتحاديين فى بريمفيلد انتخبوه لمجلس ماساشوسيتس التشريعى، فإنه قضى معظم المدة فى الإدلاء بشهادته فى ريتشموند. وأطلق كبير القضاة جون مارشال الذى ترأس المحكمة دعاياته الساخرة على بطل درنة، بعد أن أرهقه إيتون بسردياته المطولة عن مغامراته فى ليبيا. ألم يكن صحيحاً أن إيتون كان يدلى بشهادته ضد بير فى نفس الوقت، تقريباً، من يناير ١٨٠٧، الذى وافقت فيه حكومة الولايات المتحدة على أن تدفع له ١٠,٠٠٠ دولار عن خدماته فى طرابلس؟ وقد وجد مارشال والمحلفون أن رواية بير أكثر مصداقية من رواية إيتون. وبرئ بير، وعاد إيتون إلى ماساشوسيتس، واتخذ مقعده فى المجلس التشريعى، فى الوقت المناسب لشن هجوم مشوش على مارشال، وهو ما نفر منه من كان يمكن أن يساندوه من الاتحاديين فى منطقته. ولم يعد انتخابه، وعاد إلى بيته ليخسر معركة خاضها طوال حياته ضد البارانونيا والكحول^(٢٢).

ومات وليم إيتون مهزوماً وممروراً. انتهى مجده إلى مناكفات حزبية وانتهت حياته إلى خبائية السكر. لكن الاتحاديين نجحوا فى أن يرفعوه فوق الأمرين معاً. فالإتحاديون فى ماساشوسيتس بنوا عاصمة جديدة للولاية كانوا يأملون أن تصمد فى وجه المد الصاعد للتيار الجمهورى الجيفرسونى، وجعلوا مقرها فوق شارع بيكون، وأسموا الشارع الذى يقع خلف المقر مباشرة ماونت فيرنون، تكريماً لواشنطن، وبموازاة ماونت فيرتون شارع درنة، الذى سمي هكذا، ليس فقط لتكريم إيتون، ولكن الأهم من ذلك أنه ملامة دائمة للرئيس الذى رفعه عالياً ثم تخلى عنه.

وبعد ثمانين عاماً من عثور إيتون على أحمد قرامانلى فى مصر كتب هنرى أدامز أنه "منذ نصف قرن، على الأقل، وكل صبى فى أمريكا يصغى للقصة بالمتعة ذاتها التى كان يقرأ بها ألف ليلة وليلة" ورغم أن إيتون، فى الحقيقة، لم ينجز شيئاً مما خطط لإنجازه، فقد كان فشله بطولياً. واحتفلت جمعية نيران الجنرال إيتون فى بوسطن بمأثر إيتون فى ١٨٠٨ بأغنية للشاعر الاتحادى روبرت تريث باين. وعلى غرار "حفظ الله الملك" جعل باين من إيتون البطل الوحيد فى الحرب الطرابلسية:

إيتون، اسم مجيد
قدمت صخور المجد
شرارة، بحرارتها السحرية
صهرت أغلالهم
عبر رمال الصحراء الليبية
قاد عصاباته المغامرة
منطلقاً نحو الإنقاذ
حيث لم ينشر المجد جناحيه قط
فوق رأس الإسكندر
حيث انحنى كاطو ونزف
في مقبرة العظمة.
ورغم أن الأرض لا تجود بماء
فالعرب يحملون خناجرهم
ويواجهون المجاعة
فيما يتحدى إيتون كل خطر
جسوراً عند احتدام المعركة
ملوحاً بعلم كولومبيا
فوق أسوار درنة المتعالية^(٢٣)

وهكذا فلم يتخذ إيتون مكانه بجوار أبطال التاريخ القديم فحسب، بل حل محلهم.
لقد نجح حيث فشل الإسكندر وكاطو. وبدلاً من أن يكون حصار درنة، امتداداً ثانوياً
لقصف طرابلس الغرب، فقد تحول إلى مفتاح للنصر الأمريكي. وكتب شاعر مجهول إن

"إيتون كان يخطو منتصراً فوق عدوه/حيث حارب هاينغل وسيبيو" ولم يكن إيتون مختلفاً عن الأبطال الكلاسيكيين من حيث إنه نجح، فحسب، بل ومن حيث طبيعة مهمته. فالأبطال الكلاسيكيون "عبروا الصحارى ليستعبدوا الأمم" فى حين أن إيتون "القائد الأمريكى" تحدى الصحراء "ليحرر أبناء وطنه الشجعان". وفى هذه التذكارت الشعرية أنجز إيتون، بالفعل، ما خطط له. لقد حطم أغلال الأسرى، وأصبح النصر حاسماً، بأثر رجعى^(٢٤).

وبعد وفاة إيتون فى ١٨١١ بستة أشهر، افتتح العرض الأول لمسرحية قامت، جزئياً، على مغامراته، فى بوسطن. وتثير مسرحية جيمس إليسون "الأمريكى الأسير، أو حसार طرابلس" سؤالين مهمين: على أى شىء تتأسس القوة المشروعة ؟ وما هو الأمريكى ؟ فى هذه المسرحية يستولى عبد المهدى على السلطة فى طرابلس، معلناً أن شقيقه الأكبر على بن مهادى أضعف من أن يحكم. وهذا يماثل الحالة الطرابلسية حيث حل يوسف محل أحمد. ويتخذ عبد المهدى من ابنة شقيقه رهينة، ويقول لها إن أباه "أضعف من أن يحكم" وإن "ضعفه قلب عليه الرأى العام" فعلى "سعى إلى السلام، والسلام الذى تحقق جعل من الضرورى فرض ضرائب باهظة !" وكان يجب على على، بدلاً من السلام أن "يطلب يد الحرب القرمزية" وترد إيمورينا المخلصة لأبيها قائلة "للمفتصب السافل" الذى هو عمها إن أباه كان رحيماً لكنه كان عادلاً. وهو "لم يسع إلى الدم" لكنه كان شجاعاً وينعم بتأييد من الشعب "إلى أن رميته أنت، أنت أيها الشيطان، بسهام الموت" وخدعت الشعب^(٢٥).

يستمتع عبد المهدى بالسلطة ويقسم أن "الرغب العريزة على النفس" سوف يتم إشباعها، وأن "النهب" سوف ينقذ عرشه ورعاياه من "تلك الهوة اللعينة، التى ألقاهم فيها أخى بضعفه وسياساته الناعمة" فلا يأتى من السلام سوى "التعاسة والفقر" والنهب وحجده "يستطيع أن يرفع مملكتنا الغرقى". ويأسف سليمان خطيب إيمورينا لانتصار "الطمع" على "الفضيلة" معزياً نفسه بأن "الجريمة قد تنتصر لبعض الوقت" لكن "الفضيلة" هى القادرة وحدها على أن تضمن "سعادة الملك وازدهار بلاده وحب رعاياه"^(٢٦).

وفيما كان الطرابلسيون يتفكرون فى أمور الفضيلة والطمع أسر أحد قراصنتهم سفينة أمريكية وحمولتها. وهذا يثير سؤالاً ثانياً. "هل نعلم ما الأمريكيون؟" هكذا تسأل الثرثرة العجوز صوفيليا إيمورينا. وتجيب الأميرة المستنيرة : "بشر، أليسوا كذلك؟ مثل بقية البشر؟" وترد صوفيليا: "هه !! ليس الأمريكيون بشراً، بل هم "هنود! فى الحقيقية هم هنود ! هم كذلك" وهؤلاء "الأمريكيون، أى الهنود" يسلخون جلد رأس أى رجل أو امرأة يقع فى أيديهم "وأنا واثقة أن هذا يثبت أنهم ليسوا بشراً" وبدلاً من أن تواصل منطقتها القائم على المساواة ليشمل حتى الهنود، تصحح إيمورينا انطباع صوفيليا الخاطئ عن الأمريكيين. فتقول إن الهنود هم سكان أميكا الأصليون لكنهم ليسوا سوى "سكان القسم الغربى من تلك البلاد الشاسعة، وهم متوحشون وبربريون مثل الأعراب المتوحشين عندنا". من ناحية أخرى "فأولئك الذين ندعوهم أمريكيين" يشبهون الأوروبيين فى "العادات والسلوك" متحضرون، متأنقون، ومبادرون، وشجعان، ومضيافون^(٢٧).

وتصف هذه الخصال الرئيسية، أندرسون، قائد السفينة الأمريكية المأسورة. ويتضح التناقض بين القبطان الأمريكى أندرسون وحاكم طرابلس عبد المهدى فى اللقاء الأول بينهما. يرتدى عبد المهدى وفقاً "لأسلوب البذخ التركى" عمامة مزدانة بهلال ماسى ضخمة، وإهابه المزدان بالماس لا يكاد يخفى الخنجر فى خاصرته، ويسأل أندرسون إن كان أبوه نبيلًا. ويرد الأمريكى: "إن كانت النبالة أن أكون ابن من خدم بلاده، فى وقت الشدة، فأنا من أنبل السلالات، أما إذا كانت النبالة تنحدر من السادة المدللين والأمراء الأشرار، فلست كذلك". ويقول أندرسون إن أباه كان يحمل "أعظم لقب يمكن أن يحمله رجل": لقد كان "رجلاً نبيلًا".

ويتناقض أندرسون، باعتباره ابن رجل نزيه، مع عبد المهدى الفاسد، ولكن الأكثر أهمية هو التناقض بين أندرسون والشخصيات الأمريكية والأوروبية الأخرى فى المسرحية. فالمسرحية تبدأ بسائق عبد يشكو عبداً أيرلندياً سليطاً لا يريد أن يعمل. فتورة الأيرلندية عنيفة وغير مؤثرة وتسحقها القوة القاهرة للدولة ويتساءل جاك بيناكل، وهو بحار يقع فى الأسر مع أندرسون، لماذا لا تقوم الولايات المتحدة، ببساطة

"بنسف الجزائر وتونس وطرابلس الغرب، وتضع نهاية لشبكات القرصنة هذه ؟ وهذا يمكن أن يحقق، على نطاق واسع، ثورة الأيرلندي الصغيرة النطاق. لكن أندرسون يقول له إن شيئاً من هذا، لو حدث، فسوف يكون بلا معنى: دمر المدن الساحلية، وسوف يتجه "المعتدون" إلى المناطق الداخلية في بلادهم. ورغم أن أندرسون يحيى روح بيناكل، ورغم أنه هو أيضاً مستعد لأن : "يحارب حتى تتمزق نياط قلبه" مفضلاً ذلك على "دفع الجزية لأية دولة" فهو يريد حلاً دائماً. وبدلاً من التمرد المندفع أو القوة العسكرية الغالبة، فأندرسون يخطط لأن يهرب، ساعياً إلى نوال المساعدة من الأميرة إيمورينا ومن إسماعيل اليهودي. وبمجرد أن يخرج أندرسون من طرابلس الغرب، فإنه سيضمن مساندة البحرية الأمريكية لعلى بن مهدي، الذي سيعود إلى السلطة وينهي عذابات العبودية في بلاد البربر، إلى الأبد. ويوافق بيناكل المندفع على أن يلزم الصمت ويترك أندرسون يتم مشروعه، وعندما يعلم أن أندرسون هرب فإنه يغنى أغنية عن صبي فلاح فاضل^(٢٩).

وتنجح خطة أندرسون، ويعود إلى طرابلس الغرب، عودة مجيدة، في صحبة على. وعند نقطة الذروة في المسرحية يحاول على وإيمورينا قتل عبد المهدي، لكنهما يفشلان. وفيما كان عبد المهدي يستعد لقتل على يعلن أندرسون أن "العبد لديه القوة على أن يسد للطاغية ضربة مميتة" ويقتل الطاغية الشرير. هذه القدرة على قتل الطاغية مصدرها التخطيط الدقيق، وليس المحاولات المندفعة للتغلب على قوى القاهرة. لقد تحالف أندرسون، بكل ذكاء، مع أولئك الذين يشاركونه الهدف - على وإيمورينا وإسماعيل. ورغم أن إيمورينا تخبر أندرسون بأنه يعد الآن "بين الأنبياء" فإن الأمريكي يظهر اهتماماً أكبر بأن يضع نفسه إلى جوار واشنطن. ويدخل أندرسون وعلى طرابلس الغرب على نغمات "مارش واشنطن" ويدعو أندرسون أن يملأ الله روحه "بتلك الشجاعة البطولية، تلك الطاقة الروحية، التي ميزت أبانا الوطني، البطل الغربي الذي لا يضاهي"^(٣٠) اتخذ أبطال طرابلس الغرب مكانهم إلى جوار واشنطن وأبطال الثورة، الذين وضعهم الأمريكيون فوق الأنبياء في بانثيون المجد.

وبقى إيتون نفسه، فى أفضل الحالات، بطلاً ملتبس البطولة، ولم يتحول إلى شخصية أسطورية إلا بعد وفاته. وعاد الآخرون إلى الوطن ليتخذوا مكانهم، على الفور، بجوار واشنطن، ذلك البطل الغربى الذى لا يضاهى. وفى ألبانى، نيويورك، تم تكريم الملازم جوناثان ثورن بأغنية كتبت على لحن "أناكرون فى السماء" (ANACREON) شاعر يونانى عاش بين القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد - المترجم) وهو لحن صعب، زاد من صعوبته استخدام المؤلف لأسماء أبطال آخرين من طرابلس الغرب: بارى، وبريل، وتراكستون، وديكاتور". اسم ثورن الذى تحمله قائمة الشرف منذ زمن/سوف يزين صفحة التاريخ العادل" هكذا أعلنت الأغنية، ووعدت اللازمة المتكررة بأن التجارة الأمريكية "سوف تنشر أشرعتها، زمناً طويلاً، فوق العباب" فيما "تبقى الحرية التى نحملها فى بلادنا".

لقد تأثر كل قلب أمريكى بالأمريكيين الذين أظهروا شجاعتهم فى طرابلس الغرب "وسوف يقرأ أطفالنا، فى المستقبل، وهم مندهشون/كيف أن أحرارنا أذلوا أمة متوحشة". وقد احتفت "أنشودة إلى ثورن" بالبحرية التى كانت تحمى التجارة الخارجية والحرية فى الداخل. وقد انتصرت البحرية بفضل التزامها بالتجارة وبالحرية، وسوف تلهم الروح التى دافعت بها عن الحرية والتجارة كل الأمريكيين^(٣١).

وقد رفعت الشهادات أبطال طرابلس الغرب إلى مصاف الآباء الثوريين، ووضعت جيل ما بعد الثورة فى ضوء بطولى جديد. هزم الثوريون البريطانيين، وهذا الجيل هزم من عذبوا العالم المسيحى. وقد جعلت "أنشودة إلى ثورن" الأجيال التالية مبهورة بأفعال الأبطال فى طرابلس الغرب، وعكست أغنية أخرى معاصرة، على اللحن ذاته، هذا الترتيب - فالآباء الثوريون سوف يقرأون، مندهشين، الأفعال البطولية التى أنجزها أبناؤهم. وهذه الأغنية التى كتبها المحامى من ماريلند فرانسيس سكوت كى، تكريماً لديكاتور فى ١٨٠٥، عبرت عن هذه الفكرة بنجاح، حتى إن كى أعاد كتابتها، بعد ذلك بتسع سنوات، وأصبحت النشيد الوطنى.

عندما يعود المحارب من المعركة البعيدة
إلى البيت والوطن اللذين دافع عنهما فى نبل
آه ! فليكن الترحيب دافئاً ليسعد بسماعه
ولتهتف الفرحة بانحسار الأخطار !
وفى عنفوان اندفاع الأغنية ، فليمض مجده إلى الأمام
ولنتزاحم على المائدة العامرة ممتنين .
حيث نضفر الغاو الزيتون
ونصنع إكليلا مضيئاً نتوج به الشجعان

ويمكن أن ينطبق هذا النظم على أى محارب، فى أى معركة. لكن النظم الثانى
يصبح أكثر تحديداً :

أيها الأمريكيون ، انظروا عصابة من إخوانكم !
يطلبون مكافأتهم بدفء عواطفهم القلبية :
فعندما كانت قضيتكم وشرفكم يحثان الجسور على التقدم ،
لم يجد غضب الصحراء - ولم يجد زئير المحيط ،
فإلى الشاطئ الشديد البعد - إلى هدير المعركة الوحشى ،
رفعوا ذكركم المجيد عالياً ، وحموا حقوقكم .
ثم نسجوا من الغار المخلوط بالزيتون
إكليلا مضيئاً لجبين الشجعان .

أما النظم الثالث فيدخل صور الصراع بين العالم المسلم والولايات المتحدة:

تحملوا كل عناء فى الصراع صابرين ،
حتى تراجع العدو وقد أحبطه عنف الحرب :
وشحب ضوء الهلال واحتجبت عظمته ،
بنور علم أمتنا المرصع بالنجوم ،
حيث توهج كل نجم مشتعل كقذيفة حربية ،
وانحنى الرأس المعمم أمام الوهج المخيف .
ثم نسجوا من الغار المخلوط بالزيتون ،
إكليلا مضيئا لجبين الشجعان .

وأخيراً ، وبخلاف "أنشودة إلى ثورن" التى تجعل أطفال الأبطال يصغون مبهورين
لحكايا عن أعمال آبائهم ، ففي النظم الأخير الذى وضعه كى يسمع الآباء ، بكل فخر ،
ما يحكى عن شجاعة أبنائهم:

آباؤنا الواقفون فوق قمة الشجاعة .
بكل بهجة سيسمعون ، من أبنائهم ، قصة الكبرياء ،
كيف توهجت فى صدورهم الشابة شعلة الوطنية .
كيف حاربوا ، كيف سقطوا ، فى ساحة مجدهم ،
كيف مضوا منتصرين ، فوق التيار المتلاطم ،
ولوثوا المياه الزرقاء بدم كافر ،
وكيف نسجوا بالغار المخلوط بالزيتون
إكليلا مضيئا لجبين الشجعان

تخيل كى، بكل قوة، بشاعات معركة بحرية حتى إنه عندما شهد، بالفعل، معركة بعد تسع سنوات، كان يعرف ما الذى يتعين عليه أن يبحث عنه. وخطوط التوازي بين هذه الأغنية وتلك التى كتبها بعد أن شاهد البريطانيين يقصفون قلعة ماكهنرى فى سبتمبر ١٨١٤ مذهلة. اللحن هو هو، وكذلك نظام القافية عند الكورس. وفى النسخة المتأخرة الأكثر شهرة، يبقى مصير "العلم المرصع بالنجوم لأمتنا" محاطاً بالشكوك طوال المعركة المدمرة. لكنه فى هذه الأغنية يحجب بضوئه الهلال المسلم، الذى تصبح فخامته الخاوية ظلاً للمجد الحقيقى للعلم الأمريكى وللجمهورية التى يرمز إليها. وتؤكد أغنيتا كى، أنشودته لأبطال طرابلس الغرب وأنشودته للعلم، التزام الأمريكيين بتراث آبائهم. وفى هذه الأنشودة الطرابلسية، سوف يتذكر الآباء الثوريون أفعال أبنائهم، الذين لا يجب أن ينسوا مبادئ الآباء. وفى الأنشودة إلى أبطال طرابلس الغرب، سوف يسمع آباؤهم "بكل بهجة" عن انتصارات الأبناء، حيث واصل ديكاتور ورفاقه العمل الثورى الذى بدأه واشنطن، مبرهنين على التزامهم بالجمهورية التى خلقها آباؤهم.

الفصل التاسع

جيمس رايلي، عودة الأسير

فازت الولايات المتحدة بالسلام في المتوسط وكانت مصممة على الحفاظ عليه. ولتحول دون المزيد من سوء التفاهم أو مظاهر الضعف التي أفضت إلى الحرب مع طرابلس الغرب، رأى جيفرسون أن حسن التصرف يقتضى الإبقاء على السفن الأمريكية في المتوسط. كانت هناك سفينتان في الشهور الأولى من ١٨٠٧، السفينة "إنتربرايز"، بطلة الاشتباك الأول في ١٨٠١، كانت تطوف بالساحل الإفريقي، والفرقاطة كونسييتوشن كانت في نابولي لنقل النصب التذكاري المصنوع من الرخام الإيطالي تخليداً لذكرى البحارة الذين ماتوا في الهجمات على طرابلس الغرب. وفي يونيو ١٨٠٧ أرسل جيفرسون الفرقاطة تشيزبيك لتحل محل "إنتربرايز"، واستودع سلام الأمة وسلامتها وشرفها قائد السفينة جيمس بارون^(١)، معتمداً على "يقظته ووطنيته ومهارته".

لكن بارون لم يصل المتوسط، قط. ففي خلال ساعات من مغادرته الميناء، أوقفت سفينته السفينة البريطانية "ليوبارد". كان القبطان البريطاني يعتقد أن بعض الجنود البريطانيين الهاربين من الخدمة ضمن طاقم "تشيزبيك"، وطلب عودتهم. ورفض بارون، ففتحت "ليوبارد" النار، وعلمت البحرية الأمريكية التي أثبتت شجاعتها أمام طرابلس الغرب، أنها ليست ندا للبريطانيين. لم يتوقع الكومودور بارون قتالاً على هذه المسافة القريبة من الساحل الأمريكي وتقاعس عن تزويد المدفعيين من طاقمه بالثقاب. وأطلق البريطانيون ثلاث دفعات لم تستطع "تشيزبيك" الرد عليها، فقتل ثلاثة أمريكيين

وأصيب ثمانية عشر بجراح خطيرة، وأصبحت "تشيزبيك" معطوبة، وليس أمام بارون سوى الاستسلام.

وكانت هذه كارثة أعظم من فقدان "فيلادلفيا". وكانت الإدارة تعلم أن البلاد ليست جاهزة للحرب مع إنكلترا. لكن لم يكن هناك من سبيل لوقف هذا النوع من المضايقات من جانب البحرية البريطانية، إلا بالحرب. ولأن الخيارات محدودة فقد اتجهت الإدارة، مرة أخرى، إلى ستيفن ديكاتور. حوكم بارون محاكمة عسكرية، وتولى ديكاتور قيادة "تشيزبيك"، مع أوامر باستعادة قدرة الفرقاطة المعطوبة على الدفاع عن واشنطن العاصمة ضد أى هجوم بريطاني. كانت قصيدة بطولية من قصائد الحرب الطرابلسية قد وعدت أى طاغية يتجرأ على إهانة العلم الأمريكى بأن يرسل إليه ديكاتور ليعلمه حسن السلوك. ولم يكن أحد يعلم أفضل من ديكاتور وجيفرسون أن تعليم هذا الدرس للبريطانيين من شأنه أن يكون أصعب كثيراً من تعليمه للطرابلسيين. وفى نوفمبر عادت كونستيتوشن إلى بوسطن بالنصب التذكارى الرخامى لأبطال طرابلس الغرب. وعندما كان النصب ينقل، بالبحر، إلى واشنطن، كان جيفرسون وإدارته يدرسون الرد على الهجمات البريطانية المستمرة. كان جيفرسون يعتقد أن الحرب ضد طرابلس الغرب أثبتت أن الولايات المتحدة ليست مقيدة بالسوابق الأوروبية. وإن كانت أوروبا كلها آمنت برشوة دول البربر فالولايات المتحدة لم تؤمن بذلك. والآن، مع خطر جرهم إلى حرب تدور بين بريطانيا وفرنسا، قرر جيفرسون أن يعلم الأوروبيين درساً آخر عن الروح الأمريكية. ومع اعتقاده بأن كلا من بريطانيا وفرنسا كانت تعتمد على المنتجات الأمريكية لمساندة حربهما المستمرة ضد بعضهما بعضاً، فقد ظن أنه إذا رفضت الولايات المتحدة أن تباع لبريطانيا وفرنسا فسوف تشل البلدين حتى يدركا غباء سياساتهما. وحين ارتفع النصب التذكارى للأبطال الذين سقطوا فى طرابلس فى ساحة البحرية بواشنطن، أغلق جيفرسون والجمهوريون كافة الموانئ الأمريكية، وفرضوا الحظر على التجارة الدولية الأمريكية، مستخدمين التجارة الأمريكية باعتبارها أقصى سلاح ضد أوروبا المحاربة^(٢).

واستمر الحظر عاماً لينتهي يوم خروج جيفرسون من منصبه. وجرب خليفته جيمس ماديسون إستراتيجيات أخرى ليحافظ على الحياد الأمريكي، ولكنه كف عن المحاولة في ١٨١٢. نشبت الحرب بين الولايات المتحدة وبريطانيا. وكانت الحرب كارثة برية على الأمريكيين. فقد استولى البريطانيون على ديترويت، وأحرقوا واشنطن العاصمة، وكابوا يأسرون جيمس ماديسون. وتعب أهل نيو إنغلند من الشلل الذي أصاب اقتصادهم بسبب الحظر، أولاً، ثم بسبب الحرب، ومن تبعيتهم لحكومة الجمهوريين من فيرجينيا، فتحدثوا صراحة عن الانسحاب من الاتحاد. لكن الأمريكيين كانوا ناجحين في البحر، وعلى طاولة المساومات. لقد أثبتت البحرية نفسها، بالفعل، ضد طرابلس الغرب، والآن، ينتصر البحارة الأمريكيون على إنكلترا في البحيرات العظمى وفي عرض المحيط. وكان السلك الدبلوماسي البريطاني مشغولاً بمفاوضات حساسة مع الأوروبيين، في محاولة للحفاظ على تحالف دولي ضد نابليون. ولم ترسل بريطانيا أفضل مفاوضاتها لمؤتمر السلام في غينت، أما الأمريكيون فأرسلوا أفضل من عندهم، جون كوينس أدامز ورئيس مجلس النواب هنري كلاي ووزير الخزانة ألبرت غالatin قادوا فريق التفاوض الأمريكي. واتفق الجانبان، ببساطة، على وقف القتال. ولم يفقد الأمريكيون أيًا من الأقاليم التي استولى عليها البريطانيون، في ماين أو في الشمال الغربي. ووقع الدبلوماسيون المعاهدة في أواخر ١٨١٤. ووصلت أخبارها إلى واشنطن العاصمة، في نفس اليوم الذي علمت فيه العاصمة المبتهجة بانتصار أندرو جاكسون المؤزر في نيو أورليانز حيث ذبح جاكسون ومعه قوة من ميليشيات كنتاكي وتينيسي، وعدد من الكريوليين (CREOLES) الزوج الناطقين بغير الإنكليزية - المترجم) المحررين، وقراصنة من البحر الكاريبي، قوة بريطانية تفوقهم بكثير. أمن جاكسون نهر المسيسيبي للولايات المتحدة، والأهم أنه أنهى هذه الحرب غير السارة بنغمة منتصرة.

انتهت الحرب مع بريطانيا. لكن مشكلات الولايات المتحدة تحددت في المتوسط. أعلن الحاج على باشا، داي الجزائر، الحرب على الولايات المتحدة في ١٨١٤، متوقعاً انتصاراً بريطانيا على الأمريكيين. وثبت أن توقعاته خاطئة، واتبع الرئيس ماديسون السياسة التي ساعد في صياغتها عندما كان وزيراً للخارجية مع جيفرسون،

التفاوض من موقع القوة. وفي خلال أسابيع من تلقى أنباء الانتصارات الأمريكية في نيو أورليانز وغينت، أرسل ماديسون فريقاً من المفاوضين لتسوية الخلافات مع الجزائر وليعيد تأكيد المعاهدات مع تونس وطرابلس الغرب. ولا بد أن جيفرسون الذي أراد، قبل عشرين عاماً، أن يرسل جون بول جونز إلى الجزائر، سره من اختارهم ماديسون من المبعوثين. كان ستيفن ديكاتور ووليم بينبريدج المفاوضين الرئيسيين، إذ أرسل أحدهما إلى موقع انتصاره الأعظم، والآخر إلى موقع شهد أعظم إذلال له، لصياغة معاهدة سلام. وأرسل ماديسون مع الاثنين وليم شالر، وهو دبلوماسي ورجل أعمال كان سيبقى بعد أن ترحل البحرية، باعتباره القنصل العام في الجزائر.

وفيما كان ماديسون يتحرك، على هذا النحو، لحماية التجارة الأمريكية حول العالم، سارع رجال الأعمال الأمريكيون أنفسهم لاستئناف المشروعات التي خربتها ثمانى سنوات من الحرب والحظر. وشيدت مجموعة من التجار من هارتفورد، كونيتيكت، بريغية تجارية جديدة أسموها كوميرس (COMMERCE تجارة - المترجم) استباقاً لدور توقعوه لها في السوق الدولية التي أعيد فتحها. أحد المستثمرين، جيمس رايلي الذي سوف يصبح قبطان "كوميرس" كان في أمس الحاجة إلى أن يوجد عليه القدر بالخط الحسن، ولو مرة. فقد أشرف رايلي على الإفلاس بعد ثمانى سنوات من الحظر والحرب. في ١٨٠٧ كان قبطاناً في الثلاثين من عمره، بعد أن شق طريق الترقى من خادم القمرة في سفينة من نيولندن، إلى قبطان تجارى ناجح لسفينة من الميناء الغنى والقادر على المنافسة في نيويورك. ولكن في ١٨٠٧ تغير حظ رايلي رغم أن قدرته على العمل الشاق لم تتغير. طارت سفينة حربية بريطانية سفينته حتى دخل ميناء إسبانيا، حيث كان بأمن من البريطانيين ولكن ليس من الفرنسيين الذين استولوا على السفينة والشحنة. وقضى رايلي سنتين في فرنسا، وهما سنتا الحظر، غير قادر على العودة إلى بلاده من أجل زوجته وأطفاله ومن أجل عمله. وعندما عاد نما إلى علمه أن القباطنة الأمريكيين يكاد يستحيل عليهم أن يكلفوا بشحن بضائع من أوروبا. ولم تكن الوطنية تكفى، مهما كانت درجتها، لإقناع الأمريكيين بالشحن على سفن أمريكية من الأرجح أنها سيتم أسرها. واشتغل رايلي بوظائف مختلفة وبالزراعة، محاولاً سد

احتياجات أسرته بالعمل الشريف والشاق، في ظروف تدعو إلى اليأس. وعندما نشبت الحرب في ١٨١٢، تقدم للخدمة ضابطاً في سلاح البحرية، فلم يقبل. وظهرت فرصة أخرى: المهربون والمتاجرون بالمواد المهربة، الذين كانوا يتعاملون حتى مع العدو في كندا وفي جزر الهند الغربية، كانوا يتلهفون على تشغيل قباطنة من ذوي الخبرة في عمل خطير وإن كان مربحاً للغاية. لم يكن رايلي يخاف المخاطرة وإن كانت الثمار مغرية، لكنه رفض العرض. ورغم أن بلاده لم تستدعه للخدمة، فهو لم يكن ليخدم العدو. بقى رايلي على ولائه، رغم أن كثيرين في نيو إنغلند لم يحرصوا على الولاء. ورغم أن آخرين تحدثوا عن الانفصال، صراحة، فقد نظم رايلي البحارة العاطلين في وحدة ميليشيا للدفاع عن الساحل.

اتبع رايلي المثال الأخلاقي الذي قدمه له والده. لقد ولد في ١٧٧٧، رابع أطفال بلغ عددهم ثلاثة عشر لأشر وريبيكا ساج رايلي. وكان أشر مزارعاً ناجحاً. لكن في السنوات التي تلت مولد جيمس رايلي، تدهورت أحوال العائلة. مرض أشر، ودمرت الثورة الاقتصاد. لكن أشر وريبيكا صمداً، فعملاً بجد، وجعلا أطفالهما يعملون بجد. انتظم جيمس أربع سنوات في الدراسة، حتى بلغ الثامنة وتعين أن توظفه الأسرة لدى الأسر المزارعة الأوفر حظاً. وكانت أسرة رايلي تعترض عندما تمنعه الأسرة التي أجروه لها من الذهاب إلى المدرسة. لكن أسياد الغلام أقنعوا أشر وريبيكا بأنه تلقى كفايته من التعليم. فقد كان بوسعه أن يقرأ، وكان يعرف عن التوراة والمحفوظات المشيخية ويرتل المزامير بأفضل من أترابه من الصبية. ووافق أشر وريبيكا كانا قد علما جيمس، بالفعل، أهم الدروس اللازمة لاستكمال تعليمه الرسمي الموجز: "أن يكون شريفاً وحازقاً وعفيفاً، أن يتحكم بأهوائه (وقد كانت عنيفة) أن يشعر بالآلام الآخرين ويسعى لتخفيفها، قدر المستطاع" وفوق كل شيء، أن السلوك المعتدل والمنشرح والفعال الطيبة كانت المقياس الحقيقي للسعادة. وقد أعد أشر وريبيكا جيمس، كما أعدا كل أطفالهما، لحياة مليئة بالصعوبات يمكن التغلب عليها بالعمل الشريف والجاد وبالذأب^(٣).

وأقلع رايلي بالسفينة "كوميرس" ومعه طاقم من عشرة بحارة، فى رحلتها الأولى إلى نيو أورليانز فى مايو ١٨١٥، فى ذات الشهر الذى أبحر فيه ديكاتور وبينبريدج وشالر إلى الجزائر. وتعاقد رايلي على شحنة إلى أوروبا. وأسر المفاوضون الأمريكيون، فى طريقهم إلى المفاوضات، سفينتين جزائريتين. أقلع رايلي بسفينته فى إتجاه جبل طارق، فيما أقلع ديكاتور وأسطوله باتجاه الجزائر. وعلم الأمريكيون وهم فى الجزائر أن الحاج على باشا خنقه الانكشاريون الذين انتخبوه، ثم خنقوا خليفته المباشر. ووافق الداي الجديد عمر أغا الذى، كان حريصاً على السلام، وربما كان، أيضاً، قد أخافه حجم الأسطول الأمريكى، قليلاً، على كل الشروط الأمريكية، فى ثمان وأربعين ساعة. وأقلع رايلي إلى أوروبا فى ظل علم أمريكى. كان، لأول مرة فى التاريخ، فى سلام مع العالم كله.

ولكن السفينة "كوميرس"، وإن كانت أبحرت إلى عالم مسالم، فإنها لم تسلم من ضربات القدر ولا من جبروت الناس الذين لا يعترفون لا بعلم ولا بقومية. فى أغسطس ١٨١٥ اصطدمت "كوميرس" بصخرة قبالة رأس بوجادور، فيما يعرف الآن بالصحراء الإسبانية (يعرفها العالم الآن باسم الصحراء المغربية أو إقليم البوليساريو - المترجم). وقد تمكن رايلي والطاقم من النجاة، فيما كانت السفينة تغرق، آخذين معهم، فى القارب الطويل، كل ما من شأنه أن يكون نافعاً لهم على الساحل الأجرد. وأخذ رايلي معه أيضاً ذهب السفينة. صحيح أنه لم يكن ليجدى فى مواجهة الجوع والعطش والشمس المحرقة، لكن تفكير رايلي كان يسبق الأحداث، لعلمه أنه إن نجا رجاله من قسوة الطبيعة وقابلوا أياً من الصحراويين الرحل، سيساعدهم الذهب ثمناً للطريق إلى الحرية، إلى مدينة ساحلية مثل موغادور، طنجة، أو حتى الجزائر أو طرابلس. وقسم رايلي الذهب بين الرجال، موضحاً لهم أنه فى حال تفرقهم فلا بد لهم من انتهاز أى فرصة للاتصال بالقنصل الأمريكى فى طنجة جيمس سيمبسون أو أى قنصل أوروبى فى موغادور.

ولم تأت أول مقابلة لهم مع أهل المنطقة بخير. رأى رايلي رجلاً لون بشرته بين سواد الزنوج وسمرة الهنود، عارياً إلا من قطعة قماش تغطيه من الصدر إلى الركبتين،

بشعر كثيف على الرأس والوجه وعينين حمراوين وفم واسع وأسنان كاملة بيضاء حادة. لمح رايلي ذلك الرجل الذى كان أقرب شبهاً بأورانغ أوتان منه بالإنسان، وهو يتفحص حطام "كوميرس" وبضاعتها الذى ساقه الموج إلى الشاطئ. وأدى رايلي الإيماءات الأكثر ودا، فى حدود ما يستطيع، لكن الرجل لم يكن معنيا بالصدقة. وبدلاً من ذلك فقد عاد ومعه عائلته: امرأتان برزت أسنانهما الأمامية كأنياب الخنازير البرية، فتاة بين الثامنة عشرة والعشرين، قال عنها رايلي "لم تكن قبيحة"، وخمسة أو ستة أطفال. وانخرط الجميع فى العمل ليفتحوا الصناديق ويأخذوا منها ما شاؤوا. ومزقت النساء حشية (مرتبة بالعامية المصرية - المترجم) رايلي، لم تكونا تريدان إلا الكيس، لكنهما استمتعتا بجعل الرياش تطير وتدور حولهما كسحابة. وكان يعلم أن بمقدوره أن يبعد أكلة الجيف هؤلاء، هو ورجاله، بسهولة، لكنه كان يعلم أيضاً أن رجاله لا يعرفون إلى أين يمضون، فيما كان هؤلاء النهابون قادرين - ربما - على الإتيان بتعزيزات والعودة إليهم ليفعلوا ما هو أسوأ من تمزيق الحشايا.

لم يكن هؤلاء الرجل الوحيدين بين من نهبوا حطام "كوميرس". فقد فتح بعض أعضاء الطاقم براميل النبيذ، وما إن حل الأصيل حتى كان السكر قد أعجزهم عن أى فعل طيب. وفى مثل هذه الحالة اليائسة، ربما لم يكن هناك فرق كبير إن واجهوا واقعهم سكارى أو صاحين. لكن رايلي وثلاثة رجال آخرين انكبوا على العمل وأصلحوا القارب الطويل. وليقينه بأنه هالك، راح رايلي يفكر بأطفاله الخمسة، الذين خلفهم وراءه، الذين سينشأون بغير أب. لكنه لم يسمح لنفسه باليأس. وفى الصباح التالى هاجمهم الرجل. وكان صفاء الذهن عند رايلي مجدداً، لأنه انسحب مع طاقمه، مستفيدين من الجزر، عائدين إلى هيكل السفينة "كوميرس" ولم ينجح المسافر الوحيد معهم وهو أنطونيو مايكل فى أن يتحرك بنفس سرعتهم. ووقف رايلي وطاقمه يرقبون، فى رعب، كيف غرس الرجل حربه فى صدره، وجروا جثته، مع بقية ما نهبوه، فوق الكتبان. وأدرك رايلي الحقيقة الكئيبة: أن مايكل مات لكن أحد عشر رجلاً آخرين كانوا أحياء، وربما كان موت مايكل تضحية ضرورية. أدرك أنه بين يدي الله، ولم يكن من حقه أن يتساءل حول مشيئة الرب، بل كان عليه أن يواصل التحرك، هو ورجاله.

وعبأ رايلى ورجاله القارب الطويل بكل ما استطاعوا من مؤن، واحتتموا للمرة الأخيرة فوق سطح "كوميرس"، هذه المرة بغرض الصلاة. قاد رايلى رجاله فى الصلاة، طالباً للجميع الرحمة من الله، والحماية للزوجات والأطفال على أرض الوطن. وكان رايلى يعلم - وكل رجاله يعلمون - أنه يكاد يستحيل أن يروا عائلاتهم، مجدداً. ولكن فى تلك اللحظة، وكأنما هو الرد على صلاتهم من أجل الخلاص، سكنت الريح وأمكن للرجال الابتعاد بالقارب الطويل عن السفينة. تركوا "كوميرس" لمصيرها، ومضوا بدرجات متفاوتة من الإيمان واليأس إلى مصيرهم. ولأنهم لا يملكون دفعة، فقد وجه رايلى القارب بقطعة من خشب مكسور. ووسط الضباب المانع للرؤية والأمواج الساحقة، قضوا تسعة أيام وليال فى القارب، الذى رشح إليه الماء كأنه سلة. وبعد تسعة أيام فى الفجر، رسوا عند كيب بلانك، على مبعدة ٣٥٠ ميلاً من المكان الذى تحطمت فيه سفينتهم. عندئذ حل بهم اليأس. تحطم قاربهم، ولم يكونوا يعرفون أين هم، وكانوا وحدهم على هذا الشاطئ الغريب. وفوق رؤوسهم كانت تشمخ صخور سوداء هائلة، لا تتيح - على ما يبدو - سبيلاً للصعود وحتى إن بلغوا القمة فلم يكن هناك ضمان، أو حتى إشارة، إلى ما سيجدونه هناك سيكون أفضل مما وجدوه على الشاطئ، من احتمال الغرق أو الجوع أو الموت عطشاً. ومثل سندباد فقد كان رايلى ورجاله ينجحون فى النجاة من كارثة ليواجهوا غيرها: تحطمت سفينتهم ونجحوا فى الوصول إلى الشاطئ، فهاجمهم النهابون من العائلات البدوية، هربوا إلى السفينة المعطوبة ليواجهوا الموت المؤكد وسط الأمواج الهائلة، قضوا تسعة أيام فى البحر على قاربهم الطويل ليصلوا إلى هذا المكان الأكثر وحشة. وأيا كان ما ينتظرهم، فلم يكن بوسع رايلى إلا أن يثق، مرة أخرى، فى أن للمشيئة الإلهية، غرضاً آخر يتجاوز فهمه.

تحرك الرجال باتجاه الشمال. مزقت الصخور أقدامهم، أحرقت الشمس لحمهم. نفذ ماؤهم، لم يتبق ما يشربوه سوى بولهم. وفكر رايلى فى إلقاء نفسه فى لجة البحر ليهرب من هذا الشقاء، لكن عشرة رجال كانوا يعتمدون على قيادته. ولجرد أنه بدا لهم أنه يعرف إلى أين يذهب، وبدا لهم أنه لا يخاف، فقد تبعه الرجال. وكان رايلى يعلم كما يعلمون بالضبط، وربما أكثر، أن موقفهم يائس. لا محالة سيموتون من العطش إن

لم يجدوا الماء، فى القريب العاجل، وحيثما يكون الماء سيكون البشر. وأى بشر يقابلونهم لن يكونوا أقل شراً، بل وقد يكونون أكثر شراً، من أسرة النهابين الذين نهبوا "كوميرس" وقتلوا مايكل. لكن رايلى تعين عليه أن يواصل التظاهر بالأمل والثقة ليواصل رجاله التحرك.

وفى ليلة التاسع من سبتمبر أنس واحد من الرجال ناراً. وكانوا جميعاً، باستثناء رايلى، شديدي البهجة. فالنار تعنى مخيماً، حيث من المؤكد أن يجدوا ماء كانوا فى حاجة يائسة إليه. سوف يركعون أمام المخيم ويتوسلون الماء. نام الرجال بعمق فى تلك الليلة، بوعد الخلاص فى الصباح. ولم يستطع رايلى أن ينام. فرغم أنه يعلم أنه لم يكن بوسعه أن يبقى حياً ليوم آخر، من غير ماء فقد كان يعلم أن الرجال سيبيعون فى سوق الرقيق من قبل العرب، على الأرجح، بمجرد وصولهم إلى المخيم. كان يعلم أنه لا يستطيع احتمال العبودية، طويلاً، لكنه عاد إلى التفكير، مجدداً، فى الرجال الآخرين. ربما احتملوا هم. ربما تمكن واحد منهم من الهرب والوصول إلى موغادور، وتمكن من الاتصال بالقنصل جيمس سيمبسون فى طنجة، أو بقنصل أمريكى فى الجزائر أو تونس أو طرابلس الغرب أو حتى جبل طارق. وأدرك رايلى أن العبودية فى نهاية ليلة مؤرقة هى الوسيلة التى اختارتها العناية الإلهية لرجالهم لبلوغ النجاة. ولم يكن بوسعهم رفضها.

وقبل أن يقود رجاله إلى مخيم العرب أبلغهم بمصيرهم المحتمل. سوف يكونون عبيداً، لكن يجب أن ينتهزوا كل فرصة لتذكر رفاقهم الأسرى وأن يخاطروا، دون تردد، بالهرب. وإن وصل أى منهم إلى موغادور، فيجب أن يتصل بأى قنصل أوروبى هناك. وذكرهم، مجدداً، بأن جيمس سيمبسون هو القنصل الأمريكى فى طنجة. يجب أن يتذكروا اسمه، وإن لاحت الفرصة، فيجب أن يقولوا له أين رأوا آخر الناجين. وإن تصادف وجودهم قرب الجزائر أو طرابلس الغرب أو تونس، فيجب أن يكتبوا للقنصل الأمريكى هناك، أو فى جبل طارق، لو أتيح لهم. تعين على رايلى ورجالهم أن يقبلوا بالعبودية باعتبارها ضرورة مؤقتة، النجاة كانت الهدف المباشر. وإن نجا أى واحد، فإن رايلى واثق أنهم

سيعودون كلهم أحراراً. وذكرهم بأن العناية تدخلت لصالحهم طوال نضالهم، في الأسبوعين الماضيين. ونبههم إلى أن الاعتدال والتسليم قد يكونان الآن السبيل لإنقاذ حياتهم، وأن التصلب قد لا يزيدهم إلا تعاسة وأقل قدرة على النجاة.

وتقدم الرجال باتجاه المخيم، حيث قابلهم قطع من الجمال، أولاً. وعندما لمح العرب أحد عشر رجلاً مهزولاً ملوحاً، اندفعوا تجاههم، ينتزعون ما تبقى من ملابسهم، يريد كل واحد منهم هذا أو ذاك لنفسه، ويتحاربون لما يزيد على ساعة مع عرب آخرين حاولوا أخذ الرجال عبيداً. وأخذ رايلي وريتشارد ديلايل، الطباخ الأسود، معاً. وسيقا عاريين إلى المخيم وبصقت عليهم النساء الفضوليات اللاتي جئن ليرين هذه المخلوقات الغريبة. وسبق رايلي وديلايل إلى بئر وأعطيا دلو ماء. وبعد أن شرب الأمريكيون من الدلو، كالجمال، أضافت النسوة بعض اللبن وشرب رايلي وديلايل، مجدداً. ذهب الظمأ، لكنهما أصيبا بتقلصات معوية حادة وإسهال.

وبعد أن حسم العرب حقوق الملكية استنفهم زعيمهم، وهو شيخ وقور، من رايلي، بالعربية والإسبانية عن الوجهة التي جاؤوا منها، وماذا يفعلون، وكيف وصلوا إلى هنا. وسأل رايلي إن كان يعرف أين مراکش. وأوماً رايلي برأسه وأشار صوب الشمال. وأخبر العربي أن السلطان صديق رالي ودولته ويمكن أن يفتدى رايلي والطاقم. وطلب رايلي أن يأخذوه إلى موغادور أقرب مدينة ميناء. ورفض العربي قائلاً إنها بعيدة للغاية، ولم يكن لديهم ما يكفي لإطعام الجمال طوال الرحلة. ولن يكون مجزياً لهم أن يأخذوا الرجال الأحد عشر هؤلاء إلى موغادور لاستلام الفدية الموعودة.

وكانت ليلة مؤرقة أخرى بالنسبة إلى رايلي. ولكن، أخيراً، لم تعد تعاسته ومخاوفه تؤرقه، فراح في سباته يحلم. رأى نفسه "عاريًا ومستعبداً"، والعرب يقودونه بحراب احمرت من السخونة عبر حريق طوله ميل كامل. وتوسل رايلي إلى الله القدير أن يخلصه من العذاب. وردا على توسلاته، رأى رايلي عينا فوق خط الأفق، وتحتها سهم يشير إلى الشمال. وفهم رايلي أنه لو اتجه شمالاً فسوف ينجو، وهكذا غير مساره من الجنوب إلى الشمال، وخبث النار، رغم أن العرب واصلوا دفعه برماحهم الحديدية.

وسرعان ما وجد رايلي نفسه فى واد أخضر حيث كانت الماشية والأغنام والثيران تأكل الكلاً وتشرب من نبع بارد، صاف. ألقى بنفسه أرضاً وشرب، شاكراً الله على هذه الرحمت. وواصل أسروه دفعه باتجاه الشمال، نحو العين العالية. عبر الجبال والممرات المليئة بالشوك مشوا، حتى لقيهم شاب فى ملابس أوروبية. وضع هذا الرجل أمام رايلي مائدة حافلة، فأغمى عليه لمراها. قال له الغريب : "تشجع أيها الصديق العزيز. قضى ربك أن تعود إلى معانقة زوجتك المحبوبة وأطفالك".

صحا رايلي. لم يكن الحلم شيئاً يعتد به، لكنه كان كل ما لديه طوال الأيام التالية، حين كان هو ورجاله يقاسون من أيام التعرض للشمس والعمل الشاق والعطش وليالى الجوع وسخرية مستعبيدهم. ورغم أن سيد رايلي بدا أنه الزعيم الدينى للجماعة، فلم يكن يظهر شفقه بالأسرى، وكانت زوجاته أقل شفقة منه. وتعين على رايلي أن يقف موقف المتفرج فيما كان بعض رجاله يضربون وبعضهم يباعون عبيداً. وضعف إيمان رايلي بالعناية الإلهية وبالخلاص، لكنه لم يخف.

وفى نهاية سبتمبر، جاء غريبان إلى المخيم العربى. وقالت النسوة لرايلي إن هذين الرجلين سيدى حامد وشقيقه سعيد، كانا تاجرين وقد يكونان قادران على شراء الأمريكيين والذهاب بهم إلى مراكش. وأدهش اهتمام النسوة رايلي. فسلوكهن تجاهه لم يجعله يتوقع أى شفقة. لم يعتقد قط أن هذين العربيين قد يخلصانه، لكنه كان باقياً على اعتقاده فى الخلاص. وقد أظهر العربيان اهتماماً. أخذ سيدى حامد الذى لم يكن يتكلم سوى العربية رايلي، وانتحى به جانباً، وبذل كل جهد لديه ليسأله عن موطنه، وأسرته، والنبي محمد. وبكى سيدى حامد عندما قال رايلي إنه ترك وراءه خمسة أطفال، فقد كان للعربى نفسه أطفال فى مراكش. وردا على سؤال سيدى حامد عن الإسلام، كان رايلي قد لاحظ من الطقوس التعبدية التى كان يؤديها سيده ما يكفى لأن يفهم أن محمداً عاش فى مكة، لكنه الآن فى الجنة. وكان هذا كافياً بالنسبة إلى سيدى حامد الذى بدأ ينادى على رايلي بكلمة "ريس" أو "قبطان"، كناية عن الاحترام. وأخذ رايلي بعيداً عن مسامع أسريه ووعد بأن يشتريه هو ومن يستطيع شراءهم من أفراد الطاقم، وأن يمضى بهم إلى موغادور. ومرة أخرى وعد رايلي بمكافأة سخية مقابل أتعابه.

ورغم اعتراضات شقيقه اشترى سيدى حامد رايلي وأربعة من بقية الطاقم. كان سعيد يريد بيع الأسرى فى صفقة مربحة أو أن يقتل غير القادرين منهم على الحركة السريعة. كانت الرحلة طويلة وخطيرة إلى موغادور، ولم يكن بيد العرب سوى وعد رايلي بمكافأة. ولم يكن سعيد قادراً أن يفهم حماس أخيه لمساعدة هؤلاء المسيحيين. لكن سيدى حامد لم يكن ليترك أخاه يؤذى الأسرى أو يبييعهم. وعندما اقتربوا من موغادور كتب رايلي رسالة إلى القنصل الإنكليزى، داعياً الله أن يكون القنصل هناك، ومضى سيدى حامد بالرسالة.

كان قنصل إنكلترا فى موغادور هو وليم ولشير. وكان فى بيته عندما وصل سيدى حامد، وعندما قرأ الرسالة أسرع بالعمل من أجل الأسرى الأمريكيين. دفع ولشير إلى سيدى حامد مقابل إحضاره الرجال من الصحراء، وبعثه ببغال لتحمل رايلي والرجال بقية الطريق إلى المدينة. ثم خرج بنفسه ليقودهم إلى الطريق. والتقى سيدى حامد ورايلي والباقيين عند قرية على مشارف المدينة. وذهل رايلي، وليم ولشير كان نفس الرجل الذى وضع أمامه مائدة عامرة فى الحلم واعدأ إياه بالخلاص. وعند تذكر ولشير الوعد وحمل رايلي والناجين إلى موغادور. ووعد بأن يسعى للعثور على بقية الناجين من بحارة "كوميرس" بعد أن تشتتوا بين قبائل الصحراء.

ولم يدرك رايلي ما لاقاه من عذاب إلا بعد أن وصل منزل القنصل. دبر ولشير أمر حلاقة الذقن وحلاقة الشعر الأشعث المغمور بالآفات لرايلي ورجاله، وقدم لهم طبيب يهودى وُلِدَ وتعلم فى موسكو دواء، وتناول الرجال، لأول مرة منذ ثلاثة أشهر، طعاماً صلباً وراحة. كان وزن رايلي، من قبل، ٤٠ رطلاً، أما الآن فقد أصبح وزنه ٩٠ رطلاً. وفجأة انهارت قدرته التى ظل يستجمعها للنجاة وللحفاظ على حياة رجاله والتركيز على نجاتهم. فبعد أن وجد نفسه آمناً فى بيت ولشير، انهار عقل رايلي وعواطفه. ظل يبكى بغير انقطاع لثلاثة أيام، وكان يرتعد خوفاً لم رأى أى إنسان آخر. وراح، فى ركن معتم فى غرفته، يصارع الذكريات والرؤى التى سيطرت عليه وعذبتة. وطوال الأيام الثلاثة كان ولشير والرجال الآخرون يخشون أن لا يخرج رايلي سالماً، مما هو فيه، وكادوا

يأسون من سلامة عقله. ولكن كما خرجت ماريا مارتن من عذاباتها، بالضبط، وبتصميم متجدد، صحا رايلي من هذيانه بفهم جديد للحكمة الإلهية. وفي اليوم الرابع، نظر في المرأة. لم يصدمه الوجه الذابل الملوح. تذكر كل ما قاساه هو ورجاله، وبدلاً من اليأس، فإن رايلي "راح يتأمل في مسرة وعرفان القوة والحكمة والمعرفة الشاملة (قال المؤلف FOREKNOWLEDGE وهي تعنى معرفة الأمر قبل حدوثه، وهي كلمة تتعلق بالكائن الزمني الذي يوجد بالنسبة له قبل وبعد، أما بالنسبة للخالق فالمعرفة كلية وشاملة - المترجم) للخالق، وكذلك رحمته وخيره غير المحدود". وأصبح الآن يدرك أن حياته لم تكن كما كان يظنها. فالأحداث التي ظنها سوء حظ كان القصد منها أن تعدّه لهذا العذاب العظيم. "رأيت بوضوح أنني لم أتعلم في مدارس المحنة، إلا لأكون مستعداً لإنجاز الهدف الذي خلقت من أجله". خلق رايلي لينقذ رجاله، وكل شيء في حياته كان يعده ليفعل ذلك.

عاد جيمس رايلي إلى الولايات المتحدة في ١٨١٧. وبعد أن خلاص من أسره وقاد بعض رجاله إلى السلامة، أصبح رايلي أشبه ببطل في أمة تبحث عن الأبطال. التقى الرئيس مونرو مع رايلي في واشنطن العاصمة، وتوجه القبطان لزيارة هنري كلاي وجون كالون وجون كوينس أدامز. وأظهر حاكم نيويورك ديوييت كلنتون اهتماماً بالغاً برايلي، وقرأ في شغف المخطوطة التي كتبها رايلي عن مغامراته. وظن رايلي أنه فرغ من حياة البحر، كانت مفاصله لا تزال تتن من أسفاره في الصحراء العربية. وحتى يرتاح، وربما ليريح ذاكرته، فقد قرر أن يرتحل عبر الداخل الأمريكي. وبلهفة الراغب في نسيان المحيط، راح رايلي يسعى من أجل وظيفة حكومية كمشرف أو كوكيل لشؤون الهنود، ظاناً أن الحكومة قد تكون بحاجة إلى رجل نزيه ورزين، لكنه لم يحصل على منصب.

وارتحل رايلي عبر كنتاكي وإنديانا وأوهايو، ثم عاد إلى نيويورك عبر البحيرات العظمى وقناة ييري. وشرب رئيس جامعة بنسلفانيا وغيره من المحترمين في الغرب نخب رايلي، ولاحظ بطل الصحراء العربية، بكل فخار، مواقع الانتصارات البحرية الأمريكية في البحيرات العظمى. لقد أمنت حرب ١٨١٢ للولايات المتحدة التجارة في

هذا "المتوسط الداخلى فى أمريكا" وتوقع رايلى مستقبلاً عظيماً لمدن مثل بافالو وكليفلاند. كان الداخل يزدهر، ولم يكن الرجال الطموحون مثل رايلى بحاجة إلى الذهاب إلى البحر. كان بوسع أمريكا أن تتحول باهتماماتها إلى الداخل. وقرر رايلى نقل أسرته إلى أوهايو، وفى مايو ١٨١٢ بدأوا حياتهم كرواد على نهر سانت مارى، بقطع الأشجار وبناء الأكواخ وطاحونة فى مستوطنة أسموها "ولشير" على اسم القنصل البريطانى المحسن.

لكن حياة الرواد ثبت أنها خطيرة كحياة البحر. اشتغل رايلى وأسرته بكل جد، وكافأه جيرانه على عمله الجاد بإرساله إلى المجلس التشريعى للولاية. لكن الأسرة كانت تمرض، كلها، بالحمى من آخر الربيع إلى مطلع الشتاء. واجتاحت أمطار الربيع أسوار الطاحونة، واعتمد الجيران المعدمون على رايلى ليساعدهم فى أوقات الضيق، ومرة أخرى رفض طلبه لوظيفة حكومية (كوكيل هندى فى فوت واين القريبة، فى إنديانا، فلم يكن من سكان إنديانا). وقضى مدة واحدة فى المجلس التشريعى فى أوهايو، محاولاً أن يحمل هذه الولاية على أن تتبنى نظام المدارس العمومية مثل كونيتيكت. وثبت أن الحياة فى المناطق الحدودية محبطة، ومفكرة، وبالنهاية فهى تكاد تكون قاتلة. وفى ١٨٢٦، بعد عشر سنوات من نجاته من رعب الصحراء العربى، انهارت صحة رايلى تماماً فى أوهايو. وحملته أسرته، مبحرة إلى المناخ الأفضل للصحة فى مدينة نيويورك. وعندما شفى، عاد إلى البحر. أبحر رايلى إلى مراكش، ليعود إلى رؤية ولشير الذى أحسن إليه، وليرى الإمبراطور، ثم أبحر إلى الجزائر. وقضى رايلى بقية حياته فى البحر، ليموت فى رحلة تجارية إلى جزر الهند الغربية ١٢ مارس ١٨٤٠. وألقى بجثمانه إلى أمواج البحر، بعدها بيومين.

لكن هذه لم تكن نهاية القبطان جيمس رايلى. لقد فشل كرائد أمريكى، وحالت سنوات الحظر والحروب وتحطم السفينة بينه وبين الثراء كقبطان بحرى تجارى. لكنه فعل شيئين عظيمين فى حياته. أولهما، أنه خرج سالماً من مشاق الصحراء العربية وخبر ذلك الرضا غير الظاهر الذى علمه إياه والداه. والثانى، أنه ألف كتاباً عاد عليه

بالشهرة والنفوذ، إن لم يكن بالمال. وقد كان كتاب رايلي "السردية الحقيقية لفقد السفينة الأمريكية كوميرس" واحداً من أكثر الكتب شعبية في القرن التاسع عشر، وقد طبع لأول مرة في ١٨١٧ في هارتفورد، نيويورك، ولندن، وفي السنة التالية ترجم إلى الفرنسية والألمانية ليقرأه الأوروبيون. وأخذ رايلي مخطوطته معه إلى الغرب. ونشر الكتاب في لكسنگتون وكنتاكي وأوهايو، وظلت النسخ تظهر بانتظام في هارتفورد حتى الحرب الأهلية. وقد طبع من الكتاب فوق مليون نسخة، وبعد أحد عشر عاماً على وفاة رايلي فإن ابنه وليم ولشير رايلي أصدر ملحقاً له. وبعد الحرب الأهلية نشرت أجزاء من "السردية" تحت عنوان "ما رأيته وفعله في إفريقيا"، فبعد ثلاثين عاماً من وفاته وستين عاماً على مغامرته كانت "سردية" رايلي لا تزال تحتفظ بقوتها كقصة.

وقد كانت "سردية" رايلي الأكثر نجاحاً بين حكايا الأسرى الأمريكيين، ورغم أن أسرى غيره عانوا ما عاناه وكتبوا عن خبراتهم، فلم يحظ أي من كتبهم بما حققه كتاب رايلي من نجاح. وقد نشر دانييل سوندرز، الذي كانت سفينته تدعى "كوميرس" أيضاً، وتلفت قبالة الساحل العربي في ١٧٩٢، تقريراً عن عذابه يشابه تقرير رايلي. لكن تقرير رايلي اختفى بعد طبعة واحدة. وقد أسر الجزائريون جون فوس في ١٧٩٣ وعاد إلى وطنه في ١٧٩٧. وظهرت من قصته طبعتان في ١٧٩٨، ولم تظهر طبعات أخرى بعدهما. وقد طبعت رواية رويول تيلر التي أخذها عن هذه القصص، وعنوانها "أسير الجزائري" مرتين في أمريكا: إحداها في ١٧٩٧ والثانية في ١٨١٦، ثم اختفت. وكانت آخر طبعة من رواية ماريا مارتن في السنة ذاتها التي شهدت أول طبعة لرواية رايلي. ورايلي نفسه شجع جوداه بادوك، الذي تلفت سفينته قبالة الساحل المراكشي في ١٨٠٠ وأرشيبالد روبنز، الذي شارك رايلي النجاة بعد تلف "كوميرس" على أن يكتب قصتيهما، وساهم رايلي في تمويل النشر. لكن هذه الكتب لم تبق كما بقي كتاب رايلي^(٥).

وقد أعجب جاريد سباركس، رئيس تحرير "نورث أميركان ريفيو" الذي سيصبح في المستقبل رئيساً لجامعة هارفارد بما اتصف به رايلي من "حسن الطوية وصراحة تليق ببهار" وامتدح بساطة الكتاب^(٦). ولا يزال كتاب رايلي، في الحقيقة، قصة مؤثرة،

وبساطة أسلوبه لها نصيب كبير من جاذبيته. لكن الأسرى الآخرين كتبوا عن عذابهم بصراحة وبساطة مماثلتين. فالأسلوب وحده لا يوضح السبب في أن كتاب رايلي بيعت منه كل هذه النسخ، ولا الاستجابة الاستثنائية له من جانب القراء. فقصة رايلي مشابهة لتلك التي رواها سوندرز، وفوس، وتيلر، ومارتن، وروينز، وبادوك. فلماذا كان كتابه أكثر نجاحاً، إلى هذا الحد؟ لقد ملك رايلي خيال قرائه وأثار عواطفهم، على نحو يثير الدهشة أو يثير الحسد لدى أى كاتب. وقد أطلق إيجا براون من ساوث كارولينا على ابنه سيدى حامد، على اسم المحسن العربى. وقال قارئ فى فلات روك، نورث كارولينا، إنه كان مستعداً، بعد قراءة "السردية" أن يحمل بندقيته على كتفه، وأن يذهب ليثأر من أولئك العرب. وعندما كتب رايلي إلى هذا القارئ الذى كان يدعى سى بارنيت، تجمعت فلات روك كلها لتسمع ما كتبه رايلي فى الخطاب، كان بعضهم يشك فى أن رايلي له وجود حقيقى. لكن رايلي كان حقيقياً وإن كانوا تماهوا مع شخصيته - القوية، المصممة، ذات الإيمان الراسخ بقوة المشيئة الإلهية - حتى إنهم لم يعد بوسعهم أن يحسبوا أنه حقيقى. وقد كان قارئ من ماساشوسيتس يدعى هنرى دافيد ثورو يفكر فى رايلي ويمشى على ساحل كيب كود البعيد، متفكراً فى تلف السفن والصراع الأزلى بين رغائب البشر والقوى الطبيعية الغالبة. ورغم أن بارنيت وثورو وجدا رسالتين مختلفتين فى كتاب رايلي، فقد وجد كل منهما أنه مؤثر ولا ينسى^(٧).

امتدح جاريد سباركس رايلي لمجرد أنه وصف رحلاته، تاركاً لكتاب أكثر تأهيلاً "القضايا الأخطر والأقل وضوحاً، المتعلقة بالحكومات والشخصية الوطنية، وأمور البحث التاريخى". لم يكن سباركس يعتبر أن لدى رايلي الكفاءة لمناقشة هذه الأمور الجسيمة، واعتبر أنه كان حكيماً فى اعترافه بمحدوديته. اعتبر أن كتاب رايلي جدير بالاهتمام ومشوق وخلص إلى أن رايلي أظهر حسن الفطن فى الاكتفاء بسرد القصة دون أن يفرض خلاصتها الأخلاقية. لكن سباركس أخطأ. لقد أصبح كتاب "السردية" شعبياً، بالضبط، لأنه شغل القارئ بمسائل أخلاقية وسياسية. وقد كانت "السردية" التى كتبها رايلي، أكثر من أى وصف أفرزته الخبرة الأمريكية بالعالم المسلم، تعليقاً على

الشخصية الأمريكية وموعظة حول الخطايا الأمريكية. فهو كتاب قوى، ليس أن رايلي يسرد حكاية معاناته الخاصة بطريقة مؤثرة، ولكن لأنه يستخدم معاناته الخاصة ليبلغ هدفاً أهم.

أدرك رايلي في موغادور، وهو يستعيد صوابه، أن مهمته لم تكتمل. لسوف يعود إلى بلد "مؤسساته السياسية والأخلاقية، هي في ذاتها أفضل ما هو قائم في الأجزاء المتحضرة من المعمورة". حيث يتمتع إخوانه المواطنون "بأوفر نصيب من الحرية الشخصية، والحماية، والسعادة". لكن، وإن كان هذا غريباً، "لكن بنى وطنى الأحرار ذوى الأرواح الأبية لا يزالون يمسكون، قرابة، المليون ونصف المليون من النوع البشرى، فى أقصى أغلال العبودية، وكثير منهم مجبرون على العمل الشاق ويتألمون تحت السياط الوحشية من سائقى العبيد المرتزفين غير الإنسانيين، وفى حالات كثيرة فإنهم يحتملون مع عذابات الجوع والعطش والحبس والبرد والعري بل والتعذيب". وقد احتل رايلي ورجاله كل هذه العذابات، وقد جعلت "السردية" التى كتبها قراءه يشعرون بها بالحدة التى قاساها. وطرح التحدى الأخلاقى ذاته، الذى طرحه فرانكلين ومؤلف "عازم" فى تسعينيات القرن الثامن عشر. وكان رايلي يقول فى أسف "ليس هذا من تصاوير الخيال" فقد رأى بعينه هذه المشاهد. لكن معاناته علمته درساً "سوف أكرس كل ما تبقى لدى من طاقات سعياً لتحرير المستعبدين". وساند جهود الجمعية الاستعمارية الأمريكية لإلغاء الرق بالتحرير التدريجى^(٨).

وقد انتقد جاريد سباركس رايلي لأنه ضمن كتابه فصلاً طويلاً، هو الخامس والعشرون، يروى فيه قصة سيدى حامد. وقلل سباركس من أهمية القصة التى رواها العربى عن رحلته التجارية إلى تمبكتو وإلى مملكة زنجية فى مكان ما فى الجنوب الغربى من تلك المدينة التى حكت حولها الأساطير. اهتم سباركس بما جاء من وصف لتمبكتو لكنه لم يثق فى سيدى حامد، باعتباره مصدراً، لقد فات سباركس إدراك التماثل الخلقى والأدبى بين قصتى رايلي وسيدى حامد. فقد كان سيدى حامد، شأنه شأن رايلي، مشتغلاً بالتجارة. وبدلاً من الإبحار عبر المحيط قاد سيدى حامد القوافل

عبر الصحراء العربية. وقد غادر مراكش، في مهمة تجارية، إلى تمبكتو بقافلة ضخمة: ١٠٠٠ رجل و٤٠٠٠ جمل. لكن القافلة واجهت كارثة تلو الأخرى، فنزل سيدى حامد إلى مستوى الاتجار فى العبيد فى "وسنه" وهى مملكة زنجية فى الجنوب الغربى من تمبكتو. ومثل رايلى، فقد أدرك سيدى حامد، تحت الجهد الهائل لمحاولة البقاء حيا فى عالم الرجال والتجارة الشرير، أن أمله الوحيد هو فى جناب الله. فمن القافلة الهائلة التى خرجت معه، لم يرجع إلا أربعة رجال. وكان سيدى حامد من المحظوظين بالنجاة، لكن عامين من الاتجار فى الذهب والمر والعبيد على امتداد النيجر لم يبق له منها إلا الفاقة. وتعهد حموه بالسفر لشراء ريش النعام، وخرج سيدى حامد وأخوه لتنفيذ هذه المهمة، وهى أدنى درجة من عمله باعتباره قائداً لقافة فى الصحراء العربية. لكن سيدى حامد وجد خلاصة فى هذه المهمة. فقد فشلت تجارياً: فلم يحقق سيدى حامد من النجاح فى شراء ريش النعام أكثر مما حقق فى التجارة فى تمبكتو. لكن سيدى حامد قال لرايلى: "قاد الرب القادر خطانا إلى خيمة سيدك، ورأيتك" نبه مرأى رايلى سيدى حامد إلى الشعور بخطاياهم وبإمكانية الخلاص. فكل رجل من الرجلين، المسلم من مراكش والمسيحى من كونيكتيكت، رأى أن الله ساقه إلى هذا المكان، وأن الله فعل ذلك لسبب مهم للغاية.

اعترف سيدى حامد بأنه عاش إنساناً سيئاً، تاجر عبيد. وقد غيرته رؤيته لرايلى وللأمريكيين المهزولين الذين أحرقتهم الشمس. "لقد كنت فى محنة وفى أرض غريبة، ووجدت الأصدقاء الذين احتملوني وردوني إلى أسرتى، ولما رأيتك عارياً مستعبداً، وبجلدك ولحمك اللذين احترقا حتى العظام بفعل الشمس وسمعتك تقول إنك كانت لك زوجة وأطفال، فكرت فى محنتى التى سلفت، وألان الله قلبى، وأصبحت صديقك". وبعد أن عمل على الوصول برايلى، سالماً، إلى منزل القنصل البريطانى أصبحت لدى سيدى حامد "المسرة العالية النابعة من معرفة أنى فعلت شيئاً من الخير فى الدنيا" وتعهدت بآتى "فى المستقبل سوف أفعل ما بوسعى لتخليص المسيحيين من العبودية". وعاد إلى الصحراء لبحث عن بقية طاقم "كوميرس". وقد مات سيدى حامد وهو يسعى لإنقاذ رفاق رايلى من البحارة^(٩).

لقد جمعت المشيئة الإلهية بين هذين التاجرين العاديين جيمس رايلي وسيدى حامد. وشاءت إرادة الله أن يفعل رجلان عاديان أموراً غير عادية. وترك سيدى حامد رايلي مكلفاً برسالة: أن يخلص المستعبدين.

واختتم رايلي "السردية" بالرسالة ذاتها. فقد دعا الواحد القهار الذى أنقذه أن يستميل قلوب أبناء بلده إلى اقتلاع "شجرة الرق الملعونة، التى تركت لتضرب جذرها عميقاً فى أرضنا التى تحظى بكثير من المن، باستثناء هذه الشجرة". وتعلم رايلي، كما تعلم سيدى حامد بعض "الدروس النبيلة" من المحن. وقد تذكر العبيد الأمريكيين الذين رأهم فى نيو أورليانز، هذه الذكرى "جمدت دمائى من الرعب". وقد تعهد رايلي "بتحرير المستعبدين، وبتحكيم عصا القمع، وجعلها شذرات" آملاً أن ينظم إلى هذا العمل النبيل كل "مواطن خير ودين وحر وعالى الهمة" وجميع "المحبين للإنسانية فى كل أنحاء العالم المتحضر"^(١٠).

وشأن الإنسانين الداعين إلى التبرع فى تسعينيات القرن الثامن عشر، فقد أراد رايلي أن يحتشد الأمريكيون لتحطيم عصا الطغيان. وفى معاناته هو على أيدي المسلمين رأى رايلي انعكاساً لما ينزله الأمريكيون بالآخرين من عذاب. ولم يكن ممكناً أن تكون رسالة رايلي المناهضة للعبودية أكثر وضوحاً. فهو يكاد يكون الوحيد بين الأمريكيين الذين كتبوا عن معاناتهم بأيدي المسلمين، الذى انفرد برؤية هذه الصلة ولم يقبل أن يقلت بنى وطنه من شرك الإدانة. العبودية خطأ، وهى خطأ بحق قبطان من كونيكتيكت بقدر ما هى خطأ فى حق إفريقي أسود^(١١).

هذه النقطة فانت سباركس، لكنها لم تفت قراء آخرين. ففي ١٨٦٠ عندما كان أبراهام لينكولن مرشحاً لرئاسة الولايات المتحدة، سئل عن أكثر الكتب تأثيراً عليه. وذكر ستة كتب: التوراة، ورحلة الحاج، وخرافات آيسوب، وحياة واشنطن التى كتبها ويمز، والسيرة الذاتية لفرانكلين، وسردية رايلي. كل هذه الكتب عززت أفكار الاعتماد على النفس والعمل الجاد التى شرعتها الإرادة الإلهية، لأنها قد تفرض على أى إنسان

عادي، فى أى لحظة، أن يفعل أشياء غير عادية. فكل حياة الإنسان يمكن أن تكون تحضيراً لتلك اللحظة التى تدعوه فيها الإرادة الإلهية إلى الفرض. وكل واحد من هذه الكتب أوصل هذه الرسالة، وفى كتاب رايلى، وحده، دعت العناية الإلهية البشر لينهوا العبودية، القضية التى استدعى سيدى حامد وجيمس رايلى وأبراهام لينكولن للعمل عليها^(١٢).

استخلص جيمس رايلى درساً قوياً من تجربته فى الأسر. ورغم أن الولايات المتحدة انتصرت على طرابلس الغرب وعلى الجزائر، فإنها لم تنتصر على خطاياها هى. فكل فقد للحرية هو عبودية، ولم يكن بوسع الأمريكيين أن يقبلوا لا "بالعبودية" لمواطنيهم فى الجزائر أو مراكش، ولا بالعبودية للإفريقيين أو للأمريكيين الأفارقة فى بلادهم. ولم يكن ممكناً للأمريكيين أن يبقوا لا مبالين فى مواجهة الظلم، لا فى بلادهم ولا فى الخارج. وقد صمد رايلى رافضاً الخضوع، معتمداً على العناية الإلهية وعلى روحه التى لا تقهر، من أجل خلاصه. ولم يكن الاحتمال كافياً. فقد كان ضرورياً بالنسبة لرايلى وللآخرين أن ينتصروا. وقد استثار رايلى قراءه لينظروا فى قلوب وفى قلب بلادهم بحثاً عن برهان على أن الانتصار ممكن، بطريقة تجعل المحاولة أمراً يستحق. وقد قدم رايلى من مراكش درساً عن الاعتماد على الذات، والتحمل، والتوكل على العناية الإلهية التى لا تمنح الخلاص لا للظالم ولا للمستنم إلى الظلم.

الهوامش

هوامش الفصل الأول

- (١) من توماس جيفرسون إلى جيمس كاري، باريس في ٢٧ سبتمبر ١٧٨٥.
Julian P. Bouad et al., eds., The papers of Thomas Jefferson (24 vols., Princeton, 1950-)
(يشار إليها فيما بعد بـ PTJ8:559).
- من توماس جيفرسون إلى بنجامين فرانكلين، باريس في ٥ أكتوبر ١٧٨٥ PTJ 8:585-586.
- (٢) New York Journal and Patriotic Register - بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٧٨٥، وقد أشار إليها سيد زين العابدين في أطروحته للدكتوراه، جامعة بنسلفانيا ١٩٧٤ التي كان عنوانها:
In Defence of Freedom: America's First Foreign War. A New Look at United States- Barbary Relations, 1776-1816" 81.
PTJ 9:75-76 من جون بانيستر إلى توماس جيفرسون، ٢ ديسمبر ١٧٨٥
PTJ 8:169 من صمويل هاوس إلى توماس جيفرسون، ٢٨ مايو ١٧٨٥
- (٣) من جيمس لومير إلى باتريك هنري، ريتشموند، ٢ ديسمبر ١٧٨٥
Calender of Virginia State Papers and other Manuscripts, William P. Palmer, editor and compiler (Richmond, Va: 1884) 4:70 (CVSP بـ فيما بعد بـ)
(يشار إليها فيما بعد بـ CVSP 4:70).
- (٥) Ray Watkins Irwin, The Diplomatic Relations of the United States with the Barbary Powers 1776-1816 (Chapel Hill, 1931), 25 - 28 ; Gray Edward Wilson, "American Prisoners in the Barbary Nations, 1784-1816" 29-32
جامعة ولاية نورث تكساس (١٩٧٩).
بناء على طلب من إسبانيا، أفرجت مراكش عن السفينة بيتسي في أوائل صيف ١٧٨٥
من وليم كارمايكل إلى توماس جيفرسون، مدريد في ٢٨ يوليو ١٧٨٥ PTJ 8:321-322
- (٦) من جون بيج إلى توماس جيفرسون، روزويل، فيرجينيا، في ٢٨ أبريل ١٧٨٥، أوراق توماس جيفرسون
PTJ8:119، ريتشارد هنري لي إلى توماس جيفرسون، نيويورك في ١٦ مايو ١٧٨٥ PTJ 8:154.
وأبلغ هنري لي جيفرسون، أيضاً، بأن واحدة من أوليات السفن الأمريكية التي تعمل بالتجارة مع الصين عادت من كانتون بعد رحلة دامت أربعة عشر شهراً.
- (٧) من جون آدمز إلى بنجامين فرانكلين وتوماس جيفرسون، أنتواي في ٢٠ مارس ١٧٨٥ PTJ 8:46-47
- (٨) من وليم كارمايكل إلى توماس جيفرسون في ٢٩ مارس ١٧٨٥ PTJ 8:64 - 66
انظر أيضاً من كارمايكل إلى فرانكلين، في ١٥ أبريل ١٧٨٥ PTJ 8:83 - 84

- PTJ 8:20 (٩) من جون جاى إلى المفوضين الأمريكيين (١١) فى مارس ١٧٨٥
- CVSP 4:71 (١٠) من وليم فوشى إلى باتريك هنرى، ريتشموند فى ٦ ديسمبر ١٧٨٥
- PTJ 9:196 (١١) من جيمس ماديسون إلى توماس جيفرسون، ريتشموند فى ٢٢ يناير ١٧٨٦
- PTJ 8:95 (١٢) وليم كارمايكل إلى توماس جيفرسون فى ١٩ أبريل ١٧٨٥
- PTJ 8:99 من فرانسيس هوبكنسون إلى توماس جيفرسون، نيويورك فى ٢٠ أبريل ١٧٨٥
- PTJ 10:169 من إليزا هاوس تريست إلى توماس جيفرسون فى ٢٤ يوليو ١٧٨٦
- (١٣) من توماس جيفرسون إلى جون آدمز فى ١١ يوليو ١٧٨٦

Lester J. Cappon , ed., The Adams-Jefferson Letters (Chapel Hill and London, 1988), 142.

(يشار إليها فيما بعد بـ Cappon)

- PTJ 8:418-419 من توماس جيفرسون إلى جون بيچ فى ٢٠ أغسطس ١٧٨٥
- PTJ8:150 من توماس جيفرسون إلى مونرو فى ١١ مايو ١٧٨٥
- PTJ 8:64-66 (١٤) من وليم كارمايكل إلى توماس جيفرسون فى ٢٩ مارس ١٧٨٥
- PTJ 8:95 من توماس جيفرسون إلى كارمايكل فى ١٧ أبريل ١٧٨٥
- PTJ 8:401 من توماس جيفرسون إلى كارمايكل فى ١٨ أغسطس ١٧٨٥
- PTJ 8:138 (١٥) من كارمايكل إلى توماس جيفرسون فى ٥ مايو ١٧٨٥
- PTJ 8:152 من توماس جيفرسون إلى فيليب مازاي فى ١٢ مايو ١٧٨٥
- PTJ 8:309 من توماس جيفرسون إلى دى بايو فى ٢١ يوليو ١٧٨٥
- PTJ 8:294 (١٦) من جون بوندفيلد إلى توماس جيفرسون بعد ١٤ يوليو ١٧٨٥
- PTJ 8:317 من توماس جيفرسون إلى جون آدمز فى ٢٨ يوليو ١٧٨٥
- PTJ 8:376 من توماس جيفرسون إلى جون جاى فى ١٤ أغسطس ١٧٨٥
- PTJ 8:399 من توماس جيفرسون إلى ناثانييل ترايس ١٧ أغسطس ١٧٨٥
- PTJ 8:334 (١٧) من جون بول جونز إلى توماس جيفرسون فى ٢١ يوليو ١٧٨٥
- (١٨) من جون آدمز إلى جون جاى فى ١٦ فبراير ١٧٨٦

The Diplomatic Correspondence of the United States of America from the Treaty of Peace to the Adoption of the Present Treaty (7 Vols., Washington, D.C: Francis Preston Blair, 1833-1834; Diplomatic.

(يشار إليها فيما بعد بـ Correspondence) ٤٨٧-٤٨٦:٤

- PTJ 9:233 من توماس جيفرسون إلى دافيد هاويل فى ٢٧ يناير ١٧٨٦
- PTJ 9:168 من توماس جيفرسون إلى ناثانييل غرين فى ١٢ يناير ١٧٨٦
- PTJ 9:186 من جون جاى إلى توماس جيفرسون فى ١٩ يناير ١٧٨٦
- PTJ 9:176 من لويس غوييوم أوتو إلى توماس جيفرسون فى ١٥ يناير ١٧٨٦
- PTJ 10:386 من إليزا ستايلز إلى توماس جيفرسون فى ١٤ سبتمبر ١٧٨٦

- Cappon, 138-139 (١٩) من جون أدامز إلى توماس جيفرسون في ٣ يوليو ١٧٨٦
فيما يتعلق بالجدل حول البحرية انظر
Marshall Smelser, *The Congress Founds the Navy, 1787 - 17998* (Notre Dame Indiana, 1959);
Craig Lee Syminds , *Navalists and Anti Navalists : The Naval Policy Debate in the United States , 1784 - 1827* (Newark, 1980)
Joseph George Henrich, "The Triumph of Ideology: The Jeffersonians and the Navy"
رسالة الدكتوراه من Duke University في ١٩٧٠-١٩٧١
Julia H. Macleod, "Jefferson and the Navy: A Defence" *Huntington Library Quarterly* 8 (February 1945).
PTJ 8:440 441 (٢٠) من ريتشارد أوبرايان إلى توماس جيفرسون في ٢٤ أغسطس ١٧٨٥
PTJ 8:567-568 من توماس جيفرسون إلى ريتشارد أوبرايان في ٢٩ سبتمبر ١٧٨٥
PTJ 8:465 من كارمايكل إلى توماس جيفرسون في ٢ سبتمبر ١٧٨٥
PTJ9:500 (٢١) من توماس جيفرسون إلى مونرو في ١٠ مايو ١٧٨٦
PTJ9:628 من بيرنيل كارنيس إلى توماس جيفرسون، نانت في ١٠ يونيو ١٧٨٦
PTJ9:472-473 من توماس جيفرسون إلى توماس بلينرانتس في ٨ مايو ١٧٨٦
PTJ9:319n (٢٢) من لافاييت إلى هنري نوكس في ٦ مارس ١٧٨٦
PTJ9:318-319 من لافاييت إلى توماس جيفرسون في ٦ مارس ١٧٨٦
Diplomatic Correspondence 4:494 (٢٣) من جون أدامز إلى جون جاي في ٢٠ فبراير ١٧٨٦
CAPPON 123 (٢٤) من جون أدامز إلى توماس جيفرسون في ٢١ فبراير ١٧٨٦
(٢٥) من جورج واشنطن إلى هنري لي في ٥ أبريل ١٧٨٦
The writings of George Washington, John C. Fitzpatrick, ed.(39 vols., Washington D.C. ,1931-1944) 28:401-403
Irwin, *United states and Barbary Powers*, 32-34- (٢٦)
TJ10:206:207 من توماس جيفرسون إلى باتريك هنري في ١٣ أغسطس ١٧٨٦
لافاييت منقولاً عنه في إيروين، ٣٤
(٢٧) من جون أدامز إلى توماس جيفرسون في ٢٩ يونيو ١٧٨٦ PTJ10:79 والمذكورة من ديل بويو إلى
توماس جيفرسون في ٤ يوليو ١٧٨٦ PTJ10:88 والمذكورة.
(٢٨) من واشنطن إلى لافاييت في ١٨ يونيو ١٧٨٨ Fitzpatrick, *Writings of Washington*, 29:523-524
Gilbert Chinard, *Volney et L'Amerique d'apres de Documents Inedites et sa Correspondence avec Jefferson* (Baltimore and Paris 1923),14.
PTJ 10:150 (٢٩) من وليم كارمايكل إلى توماس جيفرسون في ١٨ يوليو ١٧٨٦
PTJ 10:224-225 من توماس جيفرسون إلى مونرو في ١١ أغسطس ١٧٨٦
كتب جيفرسون في ديسمبر إلى سفيرى روسيا والبرتغال يقترح إنشاء تحالف ولا أثر لهذه الرسائل أو
PTJ 10:559 للردود عليها

- (٢٠) من لافاييت إلى توماس جيفرسون ٢٢ أكتوبر ١٧٨٦ PTJ 10:486
كتب لافاييت إلى واشنطن وإلى ماكهنري في ٢٦ أكتوبر ١٧٨٦ وإلى جاي في ٢٨ أكتوبر ١٧٨٦ PTJ 10:562-563 n
- (٢١) جاريد سباركس MS32 أثار ونسخ متنوعة من مخطوطات فحصت في لندن وباريس ١٨٢٨-١٨٢٩
Vol 1, 105-106, Sparks Papers, Houghton Library, Harvard University.
- (٢٢) من روبرت مونتهغري إلى توماس جيفرسون، الليكانتي في ٢٥ أغسطس ١٧٨٧ PTJ 12:57-58
- (٢٣) انظر توماس جيفرسون إلى ريتشارد هنري لي في ١٢ يوليو ١٧٨٥ PTJ 8:287
- من توماس جيفرسون إلى إيزرا ستايلز في ١٧ يوليو ١٧٨٥ PTJ 8:300
- (٢٤) Chinard, Volney et l'Amerique, 14. من توماس جيفرسون إلى جون جاي في ٢٢ سبتمبر ١٧٨٧ PTJ 12:166-167
- من جون بول جونز إلى توماس جيفرسون، سان بطرسبورغ في ٢١ يناير ١٧٨٩
Diplomatic Correspondence (1834), 7:395
- انظر أيضاً جون بول جونز إلى الوزير في سان بطرسبورغ، مذكرة سرية في ٦ يونيو ١٧٨٩، المرجع السابق ٣٩٦-٣٩٥
- (٢٥) من توماس جيفرسون إلى إدوارد كارنغتون في ٢١ ديسمبر ١٧٨٧ PTJ 12:446-447
- (٢٦) من دافيد همفريز إلى توماس جيفرسون، هارتفورد في ٥ يونيو ١٧٨٦ PTJ 9:609
- من و. س. سميث إلى توماس جيفرسون، بوردو في ١٩ مايو ١٧٨٧ PTJ 11:366
- (٢٧) من توماس جيفرسون إلى جون جاي في نوفمبر ١٧٨٧ PTJ 12:313
- (٢٨) تقرير وزير الخارجية حول السجناء الأمريكيين في الجزائر في ٢٨ ديسمبر ١٧٩٠ Naval Documents Related to the United States Wars with the Barbary Powers (7 vols., Washington D.C., 1939-1946): 18-22
- (يشار إليها فيما بعد بـ BW).
- Report of secretary of State on Mediterranean Trade, 28 Dec. 1790, BW1:22-26
- (٢٩) من واشنطن إلى مجلس الشيوخ في ٢٢ فبراير ١٧٩١ BW1 :26-27
- قرار مجلس الشيوخ بدفع فدية السجناء في ٢٢ فبراير ١٧٩١ BW1:34-35
- القانون المتعلق ببحرية الولايات المتحدة في ٣ مارس ١٧٩١ BW1 :27
- من وزير الخارجية إلى توماس باركللي في ١٢ مايو ١٧٩١ BW1:30-32
- قرار اللجنة الخاصة بالتجارة في المتوسط في ٦ يناير ١٧٩١ BW1:26
- (٤٠) من وزير الخارجية إلى جون بول جونز في أول يونيو ١٧٩٢ BW1:36-41
- (٤١) حول همفريز انظر الفصل السادس من هذا الكتاب ص ١٣١-١٣٢ و ١٤٣-١٤٤
- (٤٢) من جورج واشنطن إلى مجلس الشيوخ والنواب في ١٦ ديسمبر ١٧٩٢
- Fritzpatrick, Writings of Washington, 33:185-186.
- (٤٣) ٢٧ ديسمبر ١٧٩٢، تاريخ الكونغرس، الكونغرس الثالث، الجلسة الأولى ١٤٩-١٥٠

(٤٥) ليمن، ١٠ فبراير ١٧٩٤، تاريخ الكونغرس، الكونغرس الثالث، الجلسة الأولى، ٤٤٥ كلارك في ٦ فبراير ١٧٩٤، ٤٣٣-٤٣٤.

(٤٦) "المعاهدة الجزائرية" من جريدة تشارلستون الرسمية، أعيد نشرها في "ذا مير كيري" في بوسطن في ٦ سبتمبر ١٧٩٦، في صحيفة بوسطن "أدري" الاتحادية في ٨ سبتمبر ١٧٩٦، وفي "إمبارتشيال هيرالد" في نيويورك (ماساشوسيتس) في ١٠ سبتمبر ١٧٩٦.

(٤٧) "توميسليك انتيلجنس" بفيلا دلفيا في ٢٢ يونيو ١٧٩٦، وفي "أوراكيل أوف ذا داي" في بورتسموث (نيو هامبشير) في ٧ يوليو ١٧٩٦.

(٤٨) توماس جيفرسون، الخطاب الافتتاحي الأول، ٤ مارس ١٨٠١

James D. Richardson , ed., A compilation of the Messages and Papers of the Presidents (11 vols. , Washington , D.C.,1908) 1:322-323.

(من الآن يشار إليه بـ Richardson جيفرسون، الرسالة السنوية الأولى، ٨ ديسمبر ١٨٠١ Richardson 1:326-327).

(٤٩) برأى كولا فولايان أن قرار الحرب لم يستهدف وقف القرصنة الطرابلسية؛ لقد أسرت طرابلس الغرب سفينة أمريكية واحدة في الفترة من ١٧٩٧ إلى ١٨٠١. ويرد فولايان الحرب إلى امتناع أمريكا عن الاعتراف بسيادة طرابلس، واعتماد أمريكا المستمر على داي الجزائر لقمع باشا طرابلس. وتفسير فولايان أكثر إقناعاً، بكثير، من التفسيرات التي طرحها معظم المؤرخين الأمريكيين. فالولايات المتحدة لم تدخل الحرب لوقف القرصنة أو لوضع حد لمطالب من مجحفة من باشا طماع. ويقف سيد زين العابدين، الدارس الجدير بالثقة للعلاقات بين الولايات المتحدة وشمال إفريقيا، على أرض أقل صلابة عندما يدفع بأن قرار جيفرسون بإرسال الأسطول لم يكن أمراً استدعاه الموقف، بل كان تحركاً إستراتيجياً لإسكات المعارضين من أهل وطنه للبحرية ولتخليق أزمة خارجية. وقد تجاهل زين العابدين التزام جيفرسون، منذ وقت طويل، بمبدأ القوة العسكرية وتهديدات يوسف باشا بعمليات عسكرية إن لم تتعامل الولايات المتحدة معه باعتباره سلطة سيادية على قدم المساواة مع داي الجزائر. وتحليل زين العابدين أقدر على تفسير خليج تونكين منه على تفسير ما جرى في سيدر.

وقد اتخذ قرارن بالحرب، بالفعل، أحدهما في طرابلس الغرب والآخر في واشنطن. ولم يكن أحد الطرفين مدركاً لما يفعله الآخر. كان جيفرسون ينتوى الحرب، ووصل إلى منصبه ليقرأ تقارير كاتكارت عن تدهور العلاقات مع طرابلس الغرب، وهي تقرير يعود بعضها إلى بواكير ١٨١٠. ودون أن يعلم الباشا يوسف أن جيفرسون قرر إرسال الأسطول، فقد قرر تحطيم صارية العلم الأمريكي في مايو. وبعد ذلك، بسبعة أيام، ألق الأسطول الأمريكي، بأوامر للتحرك بطول الساحل ومنع الأعمال العدوانية. كانت هذه هي الحرب التي أرادها جيفرسون منذ ١٧٨٥.

See Kola Folayan, Tripoli During Reign of Yussuf Pasha Qaramanli (Ile-Ife,) Nigeria, 1979), 31-35; Sayyed Zainul Abedin, "In Defence of Freedom: American's First Foreign War" xxxvi).

(٥٠) من غالاتين إلى جيفرسون، هوامش على رسائل الرئيس، نوفمبر ١٨٠١ The Writings of Albert Gallatin, Hery Adams, ed., (3vols., New York, 1960, (1879)), 1:63.

رسالة جيفرسون السنوية الأولى، ٨ ديسمبر ١٨٠١ Richardson 1:326-327

(٥١) ١٥ ديسمبر ١٨٠١، موجز مناقشات الكونغرس من ١٧٨٩ إلى ١٨٥٦، المحرر توماس هارت بنتون (نيويورك ١٨٦٢) يشار إليه من الآن بـ Benton, Debates in Congress، إيفنغ بوست، نوفمبر ١٨٠٤.

(٥٢) جيفرسون، الرسالة السنوية الثانية، ١٥ ديسمبر ١٨٠٢ Richardson 1:343

(٥٣) ناشيونال إنتلجنسر، ٧ ديسمبر ١٨٠٣

من جيفرسون إلى مجلس النواب والشيوخ في ٥ ديسمبر ١٨٠٢ Richardson 1-365

(٥٤) نقل عنها هنري أدامز في كتابه

History of the United States During the Administrations of Thomas Jefferson and James Madison (4vols., New York, 1917), 2:431

(٥٥) إيفنغ بوست، نيويورك، ١٣ أبريل ١٨٠٤.

(٥٦) من غالاتين إلى جيفرسون، مسجل بتاريخ ١٦ نوفمبر ١٨٠١ Writings of Gallatin 1:7

(٥٧) تشارلستون كورير، ٧ أبريل ١٨٠٤، استشهد بها في

Wilson, "American Prisoners in the Barbary Nations, 1784-1816" 250, n.24.

نيويورك، إيفنغ بوست، ٢٨ مارس ١٨٠٤

وليم بلامر، ٢٦ مارس ١٨٠٤ مذكرة بالمداولات في مجلس الشيوخ الأمريكي ١٨٠٣-١٨٠٧، المحرر إيفرن سومر نيل براون (نيويورك ١٩٢٣) ١٨٠

(٥٨) إيفنغ بوست، نيويورك، ٢٩ سبتمبر و ٢٦ أكتوبر ١٨٠٤. انظر أوروبا، ٢٩ سبتمبر ١٨٠٤.

(٥٩) تحية بوسطن إلى رفوس كينغ في ١٧ أكتوبر ١٨٠٤، إيفنغ بوست، نيويورك، ٢٦ أكتوبر ١٨٠٤.

(٦٠) إيفنغ بوست، نيويورك، ١٢ أبريل ١٨٠٤، نقلاً عن فريدريك تاون هيرالد.

إيفنغ بوست، نيويورك، ٢٩ نوفمبر ١٨٠٤

بلامر، ٢١ ديسمبر ١٨٠٤، مذكرة ٢٢٤-٢٣٥

(٦١) وليم بنتلي، ١٦ مايو ١٨٠٤، Diary 3:86

(٦٢) وجهة نظر كولا فولان التي تقول إن انتصار الأمريكيين بهذا الحسم، أو حتى بهذا الوضوح اللذين يزعمهما المؤرخون الأمريكيون، يستند إلى الاتهامات الغاضبة التي وجهت بها المعاهدة في الصحافة وفي الكونغرس الأمريكي. فقد اتهم الاتحاديون جيفرسون بأنه يروج لأحمد قرامانلي وبالسماح لتوبياس لير بالتوصل إلى معاهدة رديئة. لكن الاتحاديين اضطروا إلى الصمت لأن لير الذي تفاوض على المعاهدة كان من المساعدين المقربين إلى جورج واشنطن، كما أن ضباط البحرية اعترضوا، كلهم تقريباً، على مشروع أحمد قرامانلي. وتوضح ملاحظات فولان، أيضاً، أن الجيش والبحرية في طرابلس الغرب نجحا في التصدي للقوات الأمريكية، بغض النظر عن شجاعة ديكاتور ورفاقه. وبإيجاز، فمعاهدة السلام كانت أفضل ما يكون للأمريكيين الحصول عليه، ولم تكن انتصاراً حاسماً.

- (٦٣) إيفنغ بوست، نيويورك، في عددي ١٥ و ٢٢ نوفمبر ١٨٠٥.
- (٦٤) أودورا، فيلادلفيا، في عددي ٤ و ١٩ أكتوبر ١٨٠٥.
- (٦٥) أودورا، فيلادلفيا ١٧ أكتوبر ١٨٠٥، من إنكوايرر، ريتشموند.
- (٦٦) بلامر، في ٢ أبريل ١٨٠٦، مذكرة، ٤٧٠. للإطلاع على تقرير نكي وكاشف عن جيفرسون وطرابلس الغرب انظر

David A. Carson, "Jefferson, Congress, and Leadership in the Tripolitan War,"
Virginia Magazine of History and Biography 94 (1986).

- (٦٧) إيفنغ بوست، نيويورك، أعداد ٤ و ٥ و ٩ و ١١ مارس و ٤ أبريل ١٨٠٥، كرونكل، نيويورك، ٥ مارس ١٨٠٥.

See also George C. Odell, Annals of the New York Stage (New York, 1927),
2:229-230.

- (٦٨) أودورا، فيلادلفيا، ١٩ أكتوبر ١٨٠٥.

هوامش الفصل الثاني

Royall Tyler, *The Algerine Captive* (New Haven, 1970 (orig. pub.1797), 216. (١)

حول المفاهيم الغربية عن الإسلام انظر، بشكل خاص

Norman Daniel, *Islam and the west: The making of an Image* (Edinburgh, 1960) and *Islam Europe and Empire* (Edinburgh, 1966); Maxime Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, Roger Veinus, trans. (Seattle and London, 1987).

The Life of Mahomet: or, the History of that Imposture which was Begun, Carried (٢) on, and Finally by Him in Arabia; and Which has Subjugated a Larger Portion of the Globe, than the Religion of Jesus has Yet Set at Liberty. To Which is Added, an Account of Egypt. (Worcester, Mass., 1802), 85, 83-84.

"Account of Egypt," *Life of Mahomet*, 153-154. (٣)

Humphrey Prideaux, *The True Nature of Imposture, Fully Displayed in the life of (٤) Mahomet* (Philadelphia, 1796), introduction, 3, 117. On Prideaux (1648-1724), see Rev. Alexander Gordon in *Dictionary of National Biography*, 46: 352-354. On Moyle (1672-1721), see William Prideaux Courtney, *DNB*, 13: 1143-1145.

Prideaux, *Imposture*, 13, 17. (٥)

Prideaux, *Imposture*, 20-21. (٦)

John Adams, "Discourses on Davila" (1790), in *The Works of John Adams*, (٧) Charles Francis Adams, ed. (Boston, 1851), 6:275; John Quincy Adams quoted in Merrill D. Peterson, *Thomas Jefferson and the New Nation: A Biography* (London, Oxford, and New York, 1970), 440.

Humphrey Prideaux, *The True Nature of Imposture, Fully Displayed in the life of (٨) Mahomet* (Fairhaven, Vermont, 1798).

باستثناء التصوير، الذي تسقطه طبعة فيرهافن، فإن النصين في فيلادلفيا وفيرهافن متماثلان.

(٩) ٢٢ فبراير ١٧٩٩، بنتون، مناقشات في الكونغرس، ٢:٢٦٧ حول ليون وقانون العصيان، انظر

James Morton Smith, *Freedom's Fetters: The Alien and Sedition Laws and American Civil Liberties.* (Ithaca, N.Y., 1956), ch. 11, 221-246.

Imposture, 76-77. Prideaux, (١٠)

Prideaux, Imposture, 17.

(١١) نبتون، مناقشات في الكونغرس، ٢:٣٦٧.

(١٢) ريبليكان ماغازين، فيرهافن، فيرمونت، ٤ أعداد (١٧٩٨) الغلاف.

(١٣) فرانسوا ماري أرو دو فولتير، التعصب أو ماهوميت النبي (باريس ١٧٤٢) حورها جيمس ميلر ووضع لها العنوان "ماهوميت"، المزيف (لندن ١٧٤٤) وفي هذه المناقشة التي تقوم على ما جاء في معالجة ميلر، حافظت على هجاء الاسم "ماهوميت" الذي كان يكتب به اسم محمد (ﷺ - المترجم) في أوروبا، في القرن الثامن عشر، لأميز بين هذا المخلوق الخرافي (ماهوميت) وبين محمد التاريخي. ويرى دافيد رينولدز أن فولتير استخدم الصور المتعلقة بالمسلمين ليطعن التشدد المسيحي. ورغم أن رينولدز لا يشير إلى ماهوميت فقد كان بوسعه أن يفعل ذلك. وفي مسرحية فولتير، فإن القادة الوثنيين في مكة كان يمكن للمؤلف أن يجعلهم الإنسانيين العلمانيين ويجعل "ماهوميت" المتعصب الديني. لكن إذا كانت لدى فولتير نوايا دينية خالصة، فمن الأرجح أن جمهوره استجاب للدلالات الأوسع للقصة، سياسية كانت أو اجتماعية أو دينية.

David S. Reynolds, Faith in Fiction: The Emergency of Religious Literature in America (Cambridge, Mass., and London, 1981), 13-14 and passim).

(١٤) ماهوميت، الفصل الخامس، ٧٥-٧٦. كتب الفصل الختامي كاتب الرسائل اللاأخلاقي جون هودلي.

(١٥) George C. Odell, Annals of the New York Stage (New York, 1927), 1:215.

حول موضوع قتل الأب في الأدب الأمريكي، انظر

Jay Fliegelman, Prodigals and Pilgrims: The American Revolution Against Patriarchal Authority, 1750-1800 (Cambridge and New York, 1982).

(١٦) (John Trenchard and Thomas Gordon), Cato's Letters (4 vols., London, 1723), 2: 194-195; Cotton Mather, The Christian Philosopher (1721) in Selections from Cotton Mather, Kenneth B. Murdock, ed., (New York, 1926), 301-302; John Foss, A Journal of the Captivity and Suffering of John Foss, Several Years a Prisoner at Algiers: Together with some account of the Treatment of Christian Slaves when Sick:-----and Observations on the Manners and Customs of the Algerines (Newburyport, Mass., 1798), 75-76.

Abbe Constantin Francois de Chasseboeuf Volney, Travels through Egypt and Syria in the years 1783, 1784, & 1785 (2 vols., New York, 1798), 1: 7; Volney, "Manners and Character of the Inhabitants of Syria," Massachusetts Magazine, vol.2 (May 1790), 367. Other extracts from Volney appeared in the ladies magazine (London), 1787, and in America in the weekly magazine, 1799, and the Philadelphia Repertory, 1811.

Volney, "Manners and character," 266-267. (١٨)

(١٩) أوروبا، فيلادلفيا، ١٧ ديسمبر ١٨٠٦. وحول فولتن انظر

George Dangerfield, Chancellor Robert R. Livingston of New York 1746-1813 (New York, 1960), 403-407.

Volney, *The Ruins, or a survey of the Revolutions of Empires* (London, 1792; (٢٠) first American edition New York, 1796; new translation, Philadelphia and Richmond, 1799; Barlow translation, Paris 1802). See also Gilbert chinard, *Volney et l'Amerique*.

أنا مدين للسيد روبرت رابيل على ما ساعدنى على فهمه فيما يخص فولنى وخرائب بعلبك.
Jean Charles Leonard Simonde de Sismondi, "Arabian Literature," John S. Smith, (٢١) trans., *American Register* (1817), 235-249.

Edward Stanley, *Observations on the City of Tunis, and the Adjacent Country: (٢٢) With a view of Cape Carthage, Tunis Bay, and the Goletta, Taken on the spot* (London, 1786), 36; (Mathew Carey?), *Short Account of Algiers, and of its several wars, etc.* (Philadelphia, 1794), 3; See Foss, 2d ed., p.45.

طبع من كتاب *The Short Account* طبعتان فى ١٧٩٤ ثم أعيد الطبع فى ١٨٠٥ من قبل إيفارت دويكنك فى نيويورك، وقد ضمه مجلد واحد إلى تاريخ أسرو ومعاملة ماريا مارتن (بوسطن ١٨٠٧). ومع إعادة طبع كتاب ماريا مارتن، لم يعد الفارق واضحاً بين سرديتها وبين التاريخ، حتى إنه فى ١٨١٥ طبع كتاب "تقرير تاريخى عن مملكة الجزائر، تأليف ماريا مارتن" وكان الناشر روتلند، فيرمونت. وهذا الـ "تقرير تاريخى" هو مجرد طبعة أخرى من *The Short Account* (التاريخ الموجز). (فيما يتعلق بماريا مارتن، انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص ٧٩-٨٢).

Henry Adams, *History of the United States during the Administration of Thomas Jefferson*, 1: 13-14.

(Penelope Aubin), *The Noble Slaves. Being an Entertaining History of Surprizino (٢٣) Adventures and Remarkable Deliverances from Algerine Slavery of several Spanish Noblemen and Ladies of Quality* (Boston, 1797), preface.

وقد نشر إيفارت دويكنك طبعتين فى نيويورك، فى ١٨٠٦ و ١٨١٤. انظر أيضاً Aubins *Strange Adventuers of the count de uinevil and his family... whilst they Resided at Constantinople* (2d ed., London, 1728).

Cato, 2: 194 - 195, 2 : 47 - 48, 1 : 192. (٢٤)

John Foss, *A Journal of the Captivity and Suffereings of John Foss, Several (٢٥) Years a Prisoner at Algiers* (2d ed., Newburyport, Mass., 1798), 66. Compare Cato 1:193.

William Eaton, Letterbook, 13 Feb. 1799, 28-29, Eaton Papers, HEH. Eaton to (٢٦) Pickering, 24 June 1800, (Charles Prentiss). *The Life of the late General William Eaton* (Brookfield, Mass., 1813). 140, Eaton to Pickering, 15 June 1799.

Prentiss, Life, 95-96, Eaton Journal, 5 Aug. 1799. Prentiss, Life 123, Eaton to Eliza Danielson Eaton, 6 Apr. 1799, Prentiss, Life, 153.

Mordecai Manuel Noah, Travels in England, France, Spain, and the Barbary (٢٧) States in the Year 1813-14 and 15 (New York, 1819), 133-134.

حول رؤية التنوير الأوروبي للساحل البربري، انظر

Ann Thomson, Barbary and Enlightenment, European Attitudes towards the Maghreb in the 18th Century (Leiden and New York, 1987).

(Carey), Short Account, 12-13, "A Concise History of the Algerines," Massachusetts (٢٨) Magazine, Vol. 1, 1-4 (Jan-Apr. 1789), 198.

نشر، على الأقل، الجزء الأول من هذا التاريخ الموجز Concise History في إمبراطورية هيرالد، نيويورك،
ماساشوسيتس، ٢ يناير ١٧٩٤. وربما استعار رويول تيلر هذا الوصف، انظر "أسير الجزائرية" ١٧١.

(٢٩) Cato 2:260-261 نقلت أن طومسون في "التنوير والبربر" إشارة غيبون إلى مؤلف مونتسكيو حول
عظمة الرومان، ٥٥، ريبكا بليكان ماغازين، المجلد ١ (أكتوبر ١٧٩٨)، ٢٧.

The papers of James Madison, vol. 17:31 march 1797-3 march 1801, David B. Mattern et al., eds. (Charlottesville, Va., and London, 1991), 165, n. 7.

Isaac Bickerstaffe, "The Sultan, or a Peep into the Seraglio" (London, 1787), (٣٠)

Watkins, "An Interesting Description of Constantinople" New York Magazine, or Literary Repository (July 1795), 6:418-419, Lady Mary Wortley Montagu to Elizabeth Hervey, Countess of Bristol, 1 Apr. 1717, The Letters and Works of Lady Mary Montagu, Lord Wharncliffe, ed. (2 vols., Philadelphia, 1837), 1; 254.

Dallard, South Carolina Convention, 22 May 1788, in The Debate on the (٣١) Constitution, Bernard Bailyn, ed. (2 vols., New York, 1993), 2: 593-594, Webster, "A Citizen of America," Debate on the Constitution, 1:150-151, Patrick Henry, Virginia Convention, 16 June 1788, Debate on the Constitution, 2:696.

Alexander Hamilton, Federalist 35, in The Federalist, Jacob E. Cooke, ed. (٣٢) (Middletown, Conn., 1961) 188.

هوامش الفصل الثالث

- (١) [Penelope Aubin], *The Noble Slaves* (1797), preface.
- (٢) Claypoole's *American Daily Advertiser*, Philadelphia, 20 Mar. 1798.
- نقلًا عما كان يُعترف بأنه مقتطف من بغداد غازيت ١٧ ديسمبر ١٧٩٦
- (٣) Susanna Rowson, *Slaves in Algiers, or A Struggle for Freedom* (Philadelphia, 1794), 60.
- (٤) Major George Henry Rooke, "Description of the City of Mocha," *The Boston Magazine* (August 1786), 3: 333; Saint-Sauveur quoted in Lucette 1790-1830, Kenneth J. Perkins, trans. (New York and London, 1977), xx.
- (٥) John Foss, *Journal of the Captivity and Sufferings*, 2d ed., (1798), 65; Volney, "Manners and Character of the Syrians," *Massachusetts Magazine* (May 1970), 265-266.
- (٦) Charles Secondat, Baron de Montesquieu, *The Spirit of the Laws*, Thomas Nugent, trans. (New York, 1949), 255-257.
- (٧) Volney, "Manners and Character of the Syrians," 265-266.
- (٨) Volney, "Manners and Character of the Syrians," 265-266; Montesquieu, *Spirit of the Laws*, 254; [O'Brien] to Eaton, 10 [Jan, 1800], EA 434; Eaton to Secretary of State, 15 June 1799, Prentiss, *Life*, 97-98.
- (٩) من ليدى ماري وورتللي مونتاغيو إلى ليدى إليزابيث ريتش، قرية بلغراد، في ١٧ يونيو (١٧١٧).
- (١٠) *The Letters and Works of Lady Mary Montagu*, Lord Wharnccliffe, ed. (2 vols., Philadelphia, 1837), 1: 291.
- انظر أيضًا، *Embassy to Constantinople: The Travels of Lady Mary Wortley Montagu*, Christopher Pick, ed., (London, 1988)
- فالكتاب يحتوى على حواش نافعة ومقدمة في شكل مقالة ممتازة عن ليدى مونتاغيو بقلم ديرفلاميرفى.
- (١١) Lady Mary Wortley Montagu to Frances Erskine, Countess of Mar, 1 Apr. 1717, *Letters and Works*, 1: 258-259; Lady Mary Wortley Montagu to Alexander Pope, 12 Feb. 1717, *Letters and Works*, 1: 244.

- Lady Mary Wortley Montagu to Lady Elizabeth Rich, 1 Apr. 1717, *Letters and Works*, 1: 247-248.

كتب القس جيمس دالوي، في مقدمته التي سطرها في القرن الثامن عشر، أنه ليس وارداً أن تكون ليدى ماري قد دعيت إلى الحمام في ١٧١٧، لأن زوجة سفير بريطاني لاحق لدى إسطنبول، رفض السماح لها بالدخول في ١٧٩٩ ولأن "عادات الشرق معروف عنها أنها لا تتغير، وتحترمها أمم الشرق أكثر مما نحترم قوانيننا" وهذه فكرة من أخص ما يتميز به الغربيون الذين يعتبرون أن الشعوب الأخرى تتقيد بالتقاليد، وأن ما ينطبق على زوجة سفير بريطاني ما ينطبق على نظيرتها، بعد ثمانين سنة. (Letters and Works, 1:71).

Lady Mary Wortley Montagu, "Specimen of Turkish Manners," *The New York Magazine* (March 1795), 6: 148-150.

هذا مقتطف من رسالة من ليدى ماري وورتللي مونتاغيو إلى إليزابيث هيرفي، كونتيسة بريستول، في مايو ١٧١٨، في "رسائل وأعمال" و "سفارة إلى القسطنطينية"

Letters and Works, 1: 308-314, and Embassy to Constantinople, 188-194.

- susanna Rowson, *Slaves in Algiers, or, A Struggle for Freedom* (Philadelphia, 1794), 13.

- The Portfolio, Series 2, 21 Mar. 1807, 3: 179- 181. In [Washington Irving, James Kirke Paulding, et al.], *Salmagundi, or the Whim-Whams and Opinions of Launcelot Langstaff* (New York, 1857), 30-33.

- Eaton Journal, 5 Aug. 1799, Prentiss, Life, 123.

- Montesquieu, *Spirit of the Laws*, 255

أنشأ بيكرستاف "السلطان" على العملين التاليين، أو على أحدهما: "سليمان الثاني" من تأليف جي. إف. مارمونتيل، أو "سليمان الثاني" من تأليف شارل سيمون فافار لعام ١٧١٦. وقد شهدت نيويورك في ٢ مايو ١٧٩٤ العرض الأول لمسرحية "الأمريكي الأسير" التي اقتبسها جون هودكنسون من بيكرستاف، ولم يأت عام ١٨٤٠ إلا وكانت قد أعيد إنتاجها عشرين مرة، على الأقل. وربما كان هودكنسون وبيكرستاف هما من قدم أنجح معالجة لمسرحية فافار، لكن المعالجة الأبقى كانت تلك التي قدمها وولفغانغ أمايوس موتزارت في عام ١٧٨٢ في الأوبرا المعروفة باسم Die enteuhung aus dem serial أو "اختطاف من السراي". عن بيكرستاف، انظر:

Peter A.Tasch, *The Dramatic Cobbler The Life and Works of Isaac Bickerstaff* (Lewisburg, Pa., 1971).

Bickerstaff, *The Sultan*, 575, 574. (١٧)

Bickerstaff, *The Sultan*, 579. (١٨)

عن الزواج في أمريكا، في ذلك الوقت، انظر:

Jan Lewis, "The Republican Wife: Virtue and Seduction in the Early Republic," *William and Mary Quarterly*, 3rd series (1987), and Linda K. Kerber, *Women of the Republic: Intellect and Ideology in Revolutionary America* (Chapel Hill, N.C., 1980).

Volney, *The Ruins* (Albany, N.Y., 1822), 278, note M. Note from p. 63.

"The Story of Solyman and Almena," *Rural Magazine, or Vermont Repository* (September 1796), 2: 435-442.

Lady Montagu to Alexander Pope, Belgrade, 12 Feb. 1717, *Embassy to Constantinople*, 83: *The Portable Arabian Nights*, Joseph Campbell, ed., John Payne, trans. (New York, 1952).

Rowson, *Slaves in Algiers*, 65 - 68, 71. (٢٢)

Rowson, *Slaves in Algiers*, 5. (٢٣)

Rowson, *Slaves in Algiers*, 9-10. (٢٤)

Rowson, *Slaves in Algiers*, 71, 72. (٢٥)

Rowson, *Slaves in Algiers*, 73. (٢٦)

"Concise History of the Algerines" *Massachusetts Magazine*, Vol. 1 (1789), 23-24, 110-112, 170-171, 196-198.

Magazine, Vol. 1 (1789), 23-24, 110-112, 170-171, 196-198.

وللإطلاع على دراسة مكثفة للتاريخ الجزائري في هذه الفترة، تضعه في سياق السياسات الأوروبية والتركبة المتوسطية، انظر جميل أبو النصر.

A History of the Maghrib (Cambridge and New York, 1971) 159-177.

والرسائل المنشورة في هذا الكتاب قد تكون حقيقية أو مخترعة. وقد ظهرت هذه الرسائل في كتاب لوجيبير دوتاسي الذي صدر في ١٧٢٧ بعنوان تاريخ مملكة الجزائر *Historie du Royaume d'Alger* الذي ترجم إلى الإنكليزية في ١٧٥٠ بعنوان *Complete History of the Piratical States of Barbary*.

وقد كتب لوجيبير دوتاسي أن قلة من الجزائريين هم الذين كانوا يعرفون قصة المقاومة العفيفة التي أبدتها الملكة زافيرا. وقد قال الإنكليزي جوزيف مورغان الذي كتب هو أيضاً في ١٧١٣ *Complete History of Algier* إن تاسي "محق، دون شك، في قوله إن قليلين للغاية" عرفوا بقصة زافيرا وبرباروسا، لكن السبب لم يكن جهلهم بالتاريخ، بل كان عدم معرفتهم بما اخترعه هذا المؤرخ الفرنسي. وأصر مورغان على أن دوتاسي قد اخترع هذه القصة. أما المؤلف المسرحي جون براون فكان أكثر اهتماماً بالتأثير الدرامي منه بالدقة التاريخية، ومن المؤكد أن رغبة برباروسا في الملكة الجميلة زافيرا يمكن أن تكون محوراً أكثر إثارة لعمل مسرحي من رغبته في السيطرة البحرية. وقد اقتبس براون قصته من دوتاسي، ولأولئك الذين أثارت المسرحية شهيتهم التاريخية كتب براون رسالة مقتبسة، بدورها، من تاسي. ويكاد يستحيل علينا أن نقرر مدى الصدقية التاريخية لهذه الحادثة. وعلى سبيل المثال فإن فرديناند بروديل، أشمل دارس معاصر للمتوسط يوصي أولئك المهتمين بحياة برباروسا ترجمة يقول عنها بروديل إنها "أضيف إليها الكثير من التوابل والخيال لكنها غالباً ما تراعى الدقة" كترجمة تهم أولئك الذين يحبون دراسة حياة برباروسا.

(Laugier de Tassy, *Historie du Royaume d'Alger* [Paris, 1727]; Joseph Morgan, *A Complete History of Algiers. To which is Prefixed, an Epitome of the General*

History of Barbary, from the Earliest times: interspersed with many Curious Passages and Remarks not Touched on by any writer Whatever [London, 1731], 239; A Compleat history of the Piratical States of Barbary [London, 1750]; John Brown, An Account of Barbarossa, the Usurper of Algiers, Being the story on which the new Tragedy is founded [London, 1755]; Donald D. Eddy, A Bibliography of John Brown [New York, 1971]; Ferdinand Braudel, The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, Sian Reynolds, trans. [London, 1973], 905n).

"Concise History of the Algerines," Massachusetts Magazine (1789), 24, 110-111. (٢٨)

[John Brown], Barbarossa, A Tragedy (Boston, 1794), 12. (٢٩)

(Brown), Barbarossa, 46-47. (٣٠)

Maria Martin, History of the Captivity and Sufferings of Mrs. Maria Martin, who (٣١) was Six Years a Slave in Algiers (Boston, 1807), 44.

لا توجد نسخة من الطبعة الأمريكية الأولى، المذكورة لدى إيفاتر باعتبار أنها نشرت في بوسطن في ١٨٠٤. وتبدو طبعة في ١٨٠٤ أمراً غير معقول، لأن ماريا مارتن تزعم أن سفينتها غرقت في ١٨٠٠، وهكذا تكون الطبعة قبل اكتمال سنوات الرق الست في الجزائر، التي يوحى بها العنوان. وقد أعيد طبع هذا العمل في بوسطن في ١٨٠٦ و ١٨٠٧ و ١٨١٠، وفي فيلادلفيا في ١٨٠٩ و ١٨١١، وفي ترنتون، نيوجيرسي في ١٨١١ وفي نيوهافن، كونيتيكت في ١٨١٢، وفي نيويورك في ١٨١٢ و ١٨١٣، وفي سانت كليرزفيل، أوهايو في ١٨١٥، وفي بروكفيلد، ماساشوسيتس في ١٨١٨. وطبعة ١٨١٢ في نيويورك تضم إلى هذا العمل، وفي المجلد ذاته، "التقرير الموجز عن الجزائر" من تأليف ماثيو كاري. وقد أدى هذا إلى إرباك ناشر في فيرمونت فنشر كتاب مارتن والتقرير معاً، باسم مارتن. وقد تغير اسمها في طبعة ١٨١٠ في بوسطن إلى ليوسندا مارتن، فيما تحولت مدينة تينيس الجزائرية إلى تونس. وطبعة بروكفيلد مبسطة بشكل كبير، إذ لم تبق إلا على الخطوط العامة للحبكة. ورغم أن مسز مارتن قالت إنها ولدت في إنكلترا، ورغم أن تاريخها، كما هو منشور في أمريكا، يفترض أنه إعادة طبع للنسخة الإنكليزية، فلم أجد أي دليل موثق على أن كتابها نشر في إنكلترا. أما هنري مارتن، الذي هو زوج ماريا في الكتاب، فقد كان قبطاناً لدى شركة الهند الشرقية. وقد تكون مصادفة أن هنري مارتن الذي مات في ١٧٢١ كتب كراسة بعنوان "تأملات حول تجارة الهند الشرقية" (١٧٠١) يدافع فيها عن تلك التجارة ضد الاتهامات بأنها أدت إلى فقدان رصيد الذهب الإنكليزي وإلى البطالة بين العمال الإنكليز.

(٣٢) حول سرديات الأسر البيوريتانية، انظر:

Roy Harvey Pearce, "The Significance of the Captivity Narrative," American Literature 19 (March 1947); Alden T. Vaughan and Edward W. Clark, "cups of Common Calamity," Puritans among the Indians; Accounts of Captivity and Redemption, 1676-1724 (Cambridge, Mass., 1981); Laurel Thatcher Ulrich, Good Wives: Image and Reality in the Lives of Women in Northern New England

1650-1750 (New York, 1982), esp chs. 9-12. Capt. Greg T. Siemnski, "The Puritan Captivity Narrative and the Politics of the American Revolution," *American Quarterly* 42 (March 1990), shows the persistent political relevance of some seventeenth-century narratives at the time of the American Revolution.

Martin, *History* (Boston, 1807), 45-46. (٢٢)

Martin, *History* (Philadelphia, 1809) 58. (٢٤)

Martin, *History* (Philadelphia, 1809) 44. (٢٥)

Martin, *History* (Boston, 1807), 69-70. (٢٦)

Martin, *History* (Boston, 1807), 69-70. (٢٧)

"The Story of Irene," *Rural Magazine, or Vermont Repository* (May 1796), 2: (٢٨) 211-214.

Rene Aubert, Abbe de Vertot (1655-1735), *The History of the هذه القصة موجودة في* knights Hospitallers of St. John of Jerusalem Styled Afterwards, The Knights of Rhodes, And at Present, The Knights of Malta (5 vols., Edinburgh, 1757), 2: 262-265.

هوامش الفصل الرابع

Jefferson, Notes on the State of Virginia (1787) in Merrill D. Peterson, ed., The (١) Portable Thomas Jefferson (New York, 1975), 214-215, John Adams to Jefferson, 22 May 1785, Lester J. Cappon, ed., The Adams- Jefferson Letters (Chapel Hill, N.C., 1959), 21; Charles Thomson to Thomas Jefferson, New York, 2 Nov. 1785. PTJ 9:9.

Martha Jefferson to Thomas Jefferson, Paris. 3 May 1787. PTJ 11:334. (٢) The American in Algiers, or the Patriot of Seventy-Six in Captivity (New York, (٢) 1797).

Curses of Slavery," Rural Magazine, or Vermont Repository (March 1795), (٤) 118-124. Cato Mungo's story was reprinted in the Salem, Massachusetts, Gazette 13 Jan. 1795; (Boston) Federal Orrery, 29 Jan. 1795; Portsmouth Oracle of the Day, 31 Jan. 1795.

(Mathew Carey), Short Account of Algiers (Philadelphia. 1794), 16; William Eaton. (٥) Letterbook, 24 Feb. 1799, EA 199, 38, Eaton Papers, HEH; Eaton to Eliza Danielson Eaton, Tunis, 6 Apr. 1799, Prentiss, Life, 154.

Tyler, Algerine Captive, 118, 224. (٦)

Tyler, Algerine Captive, 139, "Retrospective Review," The Monthly Anthology 9 (٧) (November 1810), 346.

Tyler, Algerine Captive, 142. For a reading of the Algerine Captive that places this (٨) debate with the mullah in the context of changing American ideas about religion, see David S. Reynolds, Faith in Fiction: The Emergence of Religious Literature in America (Cambridge, Mass., 1981), 16.

Humanity in Algiers or, the story of Azem. By an American, Late a Slave in (٩) Algiers (Troy, N.Y., 1801), preface.

Humanity in Algiers, 3-4, 98-99. (١٠)

Humanity in Algiers, 5-10; Robert Middlekauf, The Glorious Cause: The (١١) American Revolution 1763-1789 (New York, 1982), 140-141.

"Copy of a letter from an English slave driver at Algiers to his Friend in England," (12)
New York Magazine (October 1791), 584; Salem Gazette, 10 Feb. 1795.

"Profession vs. Practice," Boston Federal Orrery, 24 Nov. 1794; Boston Mercury, (12)
25 Nov. 1794; Newburyport, Massachusetts, Morning star, 26 Nov. 1794.

James Ellison, *The American Captive, or Siege of Triploi* (Boston, 1812), 37-38. (13)

"Slaves in Barbary," *The Columbian Orator* (Boston, 1797), 112, 115. (14)

"Slaves in Barbary," 112, 115; William S. Mcfeely, *Frederick Douglass* (New (16)
York, 1990), 18-19.

11 Feb. 1790, Benton, *Debates in Congress*, 1:208. (17)

Benjamin Franklin, "On the Slave Trade," *The Works of Benjamin Franklin*, (18)
Jared Sparks, ed. (London, 1882), 2:517-521.

هوامش الفصل الخامس

David Brion Davis, *Slavery and Human Progress* (New York and Oxford, 1984), (١)
Paul E. Lovejoy, "Slavery in the Context of انظر أيضا esp. Part One, ch. 4. Ideology," in *The Ideology of Slavery in Africa*, Lovejoy, ed. (Beverly Hills, Claif., and London, 1981), and Norman Robert Bennett, "Christian and Negro Slavery in Eighteenth-Century North Africa," *Journal of African History* 1 (1960).

Daniel Saunders, *A Journal of the Travels and Sufferings of Daniel Saunders, jun.* (٢)
(Salem, Mass., 1794); "A Reader," *Salem Guzette*, 10 Feb. 1795, reprinted Newburyport, Massachusetts, *Importial Herald*, 24 Feb. 1795.

"A Reader," *Salem Guzette*, 10 Feb. 1795. (٣)

Gary Edward Wilson, "American Prisoners in the Barbary Nations, 1784-1816," (٤)
320-322 (ph.D. diss., North Texas state University, 1979).

On the Bestey, see Irwin, *Diplomatic Relations of the United States with the* (٥)
Barbary Powers, 28; on Mercier, see Jefferson to Patrick Henry, 9 Aug. 1786, PTJ 10:206-207; Edmund Randolph to Jefferson, 28 Jan. 1787, PTJ 11:83; Jefferson to Thomas Barclay, 5 May 1787, PTJ 11:347.

See also Saunders, *Travels and sufferings*; James Riley, *An Authentic Narrative* (٦)
of the loss of the American Brig Commerce, wrecked on the western coast of Africa in the Month of August, 1815 (Hatford, Conn., 1817). Riley's Narrative is discussed in Chapter 9 of this volume.

Boston, Federal Orrery, 26 Jan. 1795, repr *Salem Gazette*, 27 Jan. 1795; (٧)
"American Captive in Algiers," *New York Weekly Museum* 8:378 (8 Aug. 1795).

William Knight to Thomas L. Bristoll, 1 Nov. 1803, BW 3:180; John Foss to his (٨)
mother, Algiers, 12 Apr. 1795, *Salem Gazette*, 11 Aug. 1795; James Taylor to his Owners in United States, 3 Nov. 1793, Newburyport, Massachusetts, *Morning star*, 22 Apr. 1794; William Ray, *Horrors of Slavery, or the American Tars in Tripoli* (Troy, N.Y., 1808).

Laurence Sterne, *A sentimental Journey Through France and Italy by Mr. Yorick* (٩) (1768), Gardner D. Stout, Jr., ed. (Berkeley, Calif., 1967), 195-202.

James Leander Cathcart, *The Captives*, J. B. Newkirk, compiler (LaPorte, Ind., (١٠) (1902), 12, 18, 24.

Eaton to William L. Smith, Tunis, 18 July 1799, EA 199, 189-190, Eaton Papers, (١١) HEH; Eaton to secretary of State, 23 June 1800, BW 1:358.

(١٢) من برييل إلى الضباط الأصاغر وصف الضباط، وخلافه. (٤ يناير ١٨٠٤) BW 3 : 312 من بينبريدج إلى برييل، ٨ يوليو ١٨٠٤ BW 4 : 258. وحول العبودية في الفكر الأمريكي، انظر:

Bernard Bailyn, *Ideology Origins of the American Revolution*.

Richard O'Brien to Cathcart, n.d.(1793), Cathcart Papers, Box 1 File 1, quoted (١٣) courtesy of Astor, Lenox, and Tilden Foundations, New York Public Library.

Portsmouth, New Hampshire, Oracle of the Day, 1 Sept. 1769, 15 Mar. 1797. (١٤) Bainbridge to Preble, 8 July 1804, BW 4:258; William Wass Langford to Preble, (١٥) 7 July 1804, BW 4:255; Midshipman James Renshaw to Vaptain John Rodgers, 6 Nov. 1804, BW 5:125-125; Officer quoted in New York Evening Post, 2 Oct. 1804.

Jonathan Cowdery, *American Captives in Tripoli, or, Dr. Cowdery's Journal* (١٦) (Boston, 1806), 12; William Ray, preface to "Elegy on the death of Hilliard" in poems on various Subjects, Religious, Moral Sentimental, Humorous (Auburn, N.Y., 1821), 73-74. The "Elegy on Hilliard" also appeared in New York evening Post, 9 Oct. 1804.

Richmond Virginia, Enquirer, 16 May 1804. See Cowdery's less gothic description (١٧) of the prison, *American Captives in Tripoli*, 9.

Bainbridge to Presble, 25 Nov. 1803, BW 3: 176; William Ray, "Sketch of Author's (١٨) Life," in *Poems*, 233.

Wilson, "American Prisoners in the Barbary Nations," 189, 178, n. 14. (١٩) O'Brien to Congress, 28 Apr. 1791, BW 1: 29; Cathcart to [?], n.d, [1794?], (٢٠) Cathcart Papers, Box 1, File 1, New York Public Library.

John Foss, *Captivity and Sufferings*, 2d ed., 40-41. This anecdote is not in the (٢١) first edition.

Mordecai Manuel Noah to James Monroe, Cadiz, 31 May 1814, in Noad, (٢٢) *Correspondence and Documents Relative to the Attempt to Negotiate for the release of the American Captives in Algiers, 1813-1814* (Washington, D.C., 1816) 66-67.

Ray quoted in Wilson, "American Prisoners in the Barbary Nations," 274. (٢٢)

Cathcart, *The Captives*, 144. (٢٤)

Saunders, *Travels and Sufferings*, 22-23. (٢٥)

Saunders, *Travels and Sufferings*, 90, 128. (٢٦)

Philadelphia *Aurora*, 18 Sept. 1807. (٢٧)

James Simpson to Secretary to State, 7 June 1800, BW 1: 352-353; Simpson (٢٨)
to Secretary of State, 28 Mar. 1803, Washington, D.C., *National Intelligencer*, 27
Mar 1803; Jefferson, Second Annual Message, 15 Dec. 1802, Richardson,
Messages and Papers of the Presidents, I, 343.

Foss, *Captivity and Sufferings*, 2d ed., 52-53. (٢٩)

James Wilson Stevens, *An Historical and Geographical Account of Algiers*: (٣٠)
Comprehending a Novel and Interesting detail of Events s relative to the American
Captives (Philadelphia, 1797), 286-287.

Riley, *Narrative*, 91-92. (٣١)

هوامش الفصل السادس

William Bentley, Diary, 1 Jan. 1794, Diary of William Bentley, D. D. (Salem, Mass., (١) 1905) 2: 79; Philadelphia meeting reported in Newburyport, Massachusetts, Impartial Herald, 4 Apr. 1794; "Benevolence" to [Randolph?], 4 Apr. 1794, State Department, Consular Records, Algiers, Vol. 1, Part 1.

George Washington to Mathew Irwin, 20 July 1789, Fitzpatrick, ed., Writings of (٢) Washington, 30: 357-358.

Newburyport, Massachusetts, Impartial Herald, 4 Apr. 1794. For other examples (٣) of Republican attacks on Britain for supporting Algiers, see Phillip S. Foner, ed., The Democratic-Republican Societies 1790- 1800: A Documentary Sourcebook of Constitutions, Declarations, Addresses, Resolutions, and Toasts (Westport, Conn., 1976), 168-169, 191, 267-268, 283, 347, 372. On the debate over British depredations, see especially Drew R. McCoy, The Elusive Republic: Political Economy in Jeffersonian America (NewYork and Oxford, 1980).

See Washington's Sixth Annual Addresses, 19 Nov. 1794, in Richardson, (٤) Messages and Papers of the Presidents, 1: 163. On the political atmosphere of the 1790's, see especially Thomas P. Slaughter, The Whiskey Rebellion: Frontier Epilogue to the American Revolution (NewYork and Oxford, 1986.)

Humphrey's Address, Lisbon, 12 July 1794, reprinted in Salem Gazette, 11 Nov. (٥) 1794; Newburyport, Massachusetts, Morning Star, 12 Nov. 1794, Boston Federal Orrery, 17 Nov. 1794; New London Connecticut Gazette, 19 Feb. 1795.

Benjamin Lincoln to Secretary of State, Boston, 19 Sept. 1794, State Department, (٦) Consular Records, Algiers, Vol. 1, Part 1.

Randolph to Humphreys, Philadelphia, 8 Nov. 1794, Frank Landon Humphreys, (٧) The Life and Times of David Humphreys (2 vols., NewYork and London, 1917), 2: 227. Robert Montgomery warned Cathcart that Heissel was a British agent. Montgomery to Cathcart, nore dated 22 Apr. 1795, on letter 16 Apr. 1795, Cathcart Papers, Box 1, File 2, NewYork Public Library.

- (٨) Heraclitus, Boston Federal Orrery, 13 Nov. 1794.
- (٩) Laurence Sterne, *A Sentimental Journey*, 195-202.
- (١٠) Essex, Salem Gazette, 25 Nov. 1794.
- (١١) Philadelphia Gazette of the United States, 12 Sept. 1794.
- (١٢) Washington, Thanksgiving Proclamation, 1 Jan. 1795, Richardson, *Message and Papers of the Presidents*, 1: 179-180.
- (١٣) "Plan of a Continental Contribution for the relief of our American Brethren in Captivity at Algiers," Newburyport Impartial Herald, 23 Jan. 1795; Boston Federal Orrery, 29 Jan. 1795; Salem Gazette, 3 Feb. 1795; New London Connecticut Gazette, 19 Feb. 1795.
- (١٤) أورى الاتحادية فى بوسطن، فى ٢٦ يناير ١٧٩٥، وأعيد نشرها فى ساليم غازيت، فى ٢٧ يناير ١٧٩٥. وقد حمل الالتماس توقيع "ريتشارد أوبرايان"، رغم أن أوبرايان كان فى الجزائر، وكان من المستحيل، واقعياً، بالنسبة له أن يكون قد علم بإعلان واشنطن. لم يكن قد مر أكثر من ثلاثة أسابيع على إصدار واشنطن للإعلان، وعادة ما احتاج الأمر ضعف هذه المدة لتصحيح الأخبار من أمريكا إلى الجزائر، وستة أسابيع أخرى لتصل الأخبار من الجزائر إلى أمريكا. والبلاغة الدينية المميزة للالتماس، وإشاراته إلى يسوع، تجعله مختلفاً عن أى شيء كتبه أوبرايان. والسطر الأخير من الالتماس "هكذا يتضرع إخوانكم المواطنين، المقيدون بأغلال سفن ماهوميت المزيف" لا يمكن أن يكون أوبرايان هو الذى كتبه، الذى كان يعلم أن الأسرى الأمريكين ليسوا مقيدين بالأغلال فوق السفن، والذى لم يكن مهتماً بحقيقة بنوة ماهوميت. والأرجح أن هذا الالتماس كتبه كاهن من نيو إنغلند استخدم اسم أوبرايان ليعطى ما كتب شيئاً من المصداقية، وقد لجأ إلى صور عبود السفينة والنبوة الزائفة ليشعر القراء بعذاب الأسرى.
- (١٥) William Penrose to a Friend, extract, Boston Independent Chronicle, 12 Feb 1795, reprinted Boston Mercury, 13 Feb.; Portsmouth, New Hampshire, Oracle of the Day, 14 Feb.; Providence, Rhode Island, Gazette, 14 Feb.; Newburyport, Massachusetts, Impartial Herald, 17 Feb. 1795.
- (١٦) Boston Federal Orrery, 29 Jan. 1795, repr. Philadelphia Gazette of the United States, 10 Feb. 1795.
- (١٧) Newburyport Impartial Herald, 3 Feb. 1795, repr. Boston Mercury, 17 Feb. 1795; Portsmouth Oracle of the Day, 11, 14, Feb. 1795.
- (١٨) William Bentley, 10 Feb. 1795, Diary, 2: 126; New London Connecticut Gazette, 26 Feb. 1795.
- (١٩) New York Minerva, 27 Feb. 1795; Boston Mercury, 10 Mar. 1795; Boston Colombian Centinel, 28 Feb. 1795.
- (٢٠) William Bentley, 19 Feb. 1795, Diary 2: 128; Portsmouth, New Hampshire, Oracle of the Day, 21 Feb. 1795; Boston Mercury, 27 Feb., 13 Mar. 1795; New York American Minerva, 28 Feb. 1795.

Boston Mercury, 27 Feb., 13 Mar. 1795. (21)

Boston Mercury, 20 Feb. 1795. (22)

Albiel Holmesm A Sermon, on the Freedom and Happiness of America; (22)
Preached at Cambridge, February 19, 1795 (Boston, 1795), 19-20; Bishop
[James] Madison, Manifestations of the Beneficence if Divine Providence
towards America (Richmond, Va., 1795), 9.

Isaac Story, A. M., A discourse, delivered February 15, 1795, at the request of (24)
the Proprietors' Committee, as preparatory to the Collection on the National
Thanksgiving, the Thursday following, for the benefit of our American Brethren in
captivity at Algiers (Salem, Mass., 1795), 1, 9, 14. For more on Washington and
Moses, see Linda K. Kerber, Federalists in Dissent: Imagery and Ideology in
Jeffersonian America (Ithaca, N.Y., and London, 1970), 5-6.

Story, A discourse, 13, 14, 8-9, 20. (25)

New London Connecticut Gazette, 19 Feb. 1795, repr. Providence, Rhode (26)
Island, Gazette, 28 Feb. 1795.

New London Connecticut Gazette, 26 Mar. 1795, repr. From Boston American (27)
Mercury. "Aletina" defended Seabury by attacking "Connecticut and Rhode Island"
for trying to stir up trouble. (New London Connecticut Gazette, 16 Apr. 1795,
from Newport Mercury).

New London Connecticut Gazette, 12, 19 Mar. 1795. (28)

Philadelphia Gazette of the United States, 25 Feb. 1795; Boston Massachusetts (29)
Mercury, 28 Feb. 1797.

Philadelphia Gazette of the United States, 10 Mar. and 23 Feb. 1797. (30)

Philadelphia Gazette of the United States, 14 Feb. 1797. (31)

Foss, Captivity and Sufferings, 1st ed., 54-55. (32)

هوامش الفصل السابع

(١) Claypoole's American Daily Advertiser, 19 Mar. 1798; Adams to Congress, 23 June 1797, Richardson, Messages and Papers of the Presidents I: 247-248.

فى ذلك الوقت، وحتى القرن العشرين، لم يكن القناصل الأمريكيون مسؤولين دبلوماسيين، فلم يكونوا يتفاوضون على معاهدات أو يشرفون على علاقات سياسية بين الولايات المتحدة والبلد الذى يقيمون فيه. وفى الغالب فقد كانوا تجارا محليين مهمتهم الرئيسية مساعدة التجارة الأمريكيين المعسرين فى الموانئ. وكان من الممكن لفرد ما، وغالباً ما حدث ذلك، أن يكون قنصلاً لعدة دول مختلفة. وهؤلاء القناصل إما أنهم لم يكونوا يحصلون على رواتب أو كانوا يحصلون على رواتب ضئيلة، لكن كان متوقعاً منهم أن يعتاشوا، بالأساس، على أرباح مصالحهم التجارية الخاصة، التى كانت تضاعفها الرسوم التى كانوا يحصلونها لقاء خدماتهم. وعندما عين أدامز قنصلاً عاماً فى الجزائر وقنصلين فى تونس وطرابلس الغرب، ليكونوا مسؤولين عن المصالح التجارية لرجال الأعمال الأمريكيين وعن المصالح السياسية للولايات المتحدة، فإن الرئيس كان يستيق الدور العصري للقناصل الذين يؤدون وظيفتى الدبلوماسية والوكيل التجارى.

(٢) من أوبرايان إلى وليم إل. سميث، الجزائر فى ١٣ سبتمبر ١٧٩٩ (٢٠-٢٨ أغسطس ١٧٩٩) EA 422, Eaton Papers, HEH.

(٣) من أوبرايان إلى ديفيد همفريز، الجزائر، فى أول مارس ١٧٩٨ BW 1:240.

من أوبرايان إلى وزير الخارجية، فيلادلفيا، ١٦ أبريل ١٧٩٧، وزارة الخارجية، المراسلات القنصلية، الجزائر، المجلد الثانى.

(٤) من أوبرايان، مذكرة حول التجارة، فى ١٨ مايو ١٧٩٧، وزارة الخارجية، المراسلات القنصلية، الجزائر، المجلد الثانى. جسد أوبرايان بهذه المذكرة، وعلى نحو استباقى، أسس السياسات الدولية فى إدارتى أدامز وجيفرسون بما أوصى به من إنشاء قوة بحرية تقاوم القراصنة الحكوميين فى البحر، كما فعل أدامز ضد فرنسا، وبناء قوارب مسلحة صغيرة لدفاعات المرافئ والأنهار، وفرض حظر تجارى لإجبار الأوروبيين على المسالمة، كما سيفعل جيفرسون.

(٥) أوبرايان، مذكرة حول التجارة، فى ١٨ مايو ١٧٩٧، المراسلات القنصلية، الجزائر، المجلد الثانى.

(٦) من أوبرايان إلى دافيد همفريز، أول مارس ١٧٨٩ BW 1:240.

(٧) Barlow to Monroe, 21 Aug. 1796, quoted in Milton Cantor, "A Connecticut Yankee in a Barbary Court: Joel Barlow's Algerian Letters to his Wife," William and Mary Quarterly, 3rd series, 19 (1962), 102-103n. I have drawn this account of the Eliza from Barlow, "Declaration on Schooner Eliza," 18 Apr. 1797, EA 29, Eaton Papers, HEH; Wilson, "American Prisoners in the Barbary Nations," 117-118; and Irwin, United States and Barbary Powers, 86.

Secretary of State to O'Brien, Philadelphia, 21 Dec. 1789, BW 1:281; Postscript to (A) Joel Barlow, Declaration on Schooner Eliza, EA 29, Eaton Papers, HEH; Rand to Barlow, Tunis, 23 June 1796, BW 1: 157-158; Barlow to Rand, Algiers, 2 Aug. 1796, BW 1: 169; Gorham Parsons and Edward Rand, Petitions to Congress and Restoration of Schooner Eliza, 9 Dec. 1797, BW 1:255-227.

Barlow to Secretary of State, Marseilles, 24 Aug. 1797, BW 1:209. On the fortune, (9) see George Clark, charge at Algiers, Statement Regarding Ship "Fortune", 19 Jan. 1798, EA 173, Eaton Papers, HEH.

O'Brien to Secretary of State, Algiers, 6 Mar. 1798, BW 1: 243; O'Brien to (10) Secretary of State, Algiers, 14 Oct. 1798, BW 1: 262.

O'Brien to Humphreys, Algiers, 27-30 Dec. 1798, BW 1: 288-289; O'Brien to (11) Humphreys, Algiers, 21 May. 1798, BW 1: 250; O'Brien to Eaton and Cathcart, Algiers, 20 May 1801, EA 468, Eaton papers, HEH.

O'Brien, Dispatch 1, 23 Jan.-Mar. 1799, BW 1: 293-295. Adam's Message to the (12) Senate and House of Representatives, 21 June 1798, Richardson, Messages and Papers of the Presidents, 1:266.

Eaton to Secretary of State [Tunis, June-July 1800], EA 201, 107; Eaton Journal, (13) 30 Oct. 1799, EA 199;258, Eaton Papers, HEH.

Eaton Journal, 22 Feb. 1799, EA 199; 37; Eaton to Pickering, Algiers, 10 Feb. (14) 1799, EA 199;68-69, Eaton papers, HEH.

Eaton Journal, 19 Feb. 16 Feb. 1799, EA 199; 36, 31; Eaton to O'Brien, Tunis, (15) 20 July 1799, EA 199; 196, Eaton Papers, HEH.

Cathcart to Eaton, 9 Nov. 1799, EA 70, Eaton Papers, HEH. (16)

Eaton to Pickering, Tunis, 8 Aug. 1799, EA 199, 205; WE to O'Brien, Tunis, 20 (17) July, EA 199, 195; Cathcart to Eaton, Tripoli, 9 Nov. 1799, EA 70, Eaton Papers, HEH. Reports of Cathcart's attempt to seduce Elizabeth Robeson appear in Abedin, "In Defense of Freedom," 168, and Louis B. Wright and Julia H. MacLoed, First Americans in North Africa (Princeton, N.j., 1945), 30. Cathcart's refusal to make an equal of his servant is omitted from the version of this letter printed in Tripoli, 91-98.

Eaton journal, 17 Feb. 1799, EA 199; 33, Eaton Papers, HEH. Though in (18) Eaton's journal this statement refers explicitly to O'Brien's hospitality to Elizabeth Robeson, Cathcart would later recall it as applying to American relations with Tunis.

- Eaton to O'Brien, 1 May 1799, EA 199, 146, Eaton Papers, HEH. (١٩)
- Pickering, Instructions to O'Brien, Eaton, and Carthcart, [18 Dec. 1798], BW 1: 268-269. (٢٠)
- Pickering to Eaton, 20 Dec. 1798, EA 296, Eaton papers, HEH; Eaton to Pickering, 15 June 1799, Prentiss, 97-98; WE Journal, 15 Mar 1799, EA 199, 91, Eaton Papers, HEH. (٢١)
- Prentiss, 75, 78-79; Eaton to Pickering, 14 April 1799, EA 199; p. 122, Eaton Papers, HEH. (٢٢)
- Prentiss, life, 72-73. (٢٣)
- Consular Present, Made at Tunis, 26 Mar. 1799, BW 1:314; Eaton to O'Brien, Tunis, 1 May 1799, EA 199; 146, Eaton Papers, HEH; [Eaton?], "Concerning Defences of Algiers and Tunis," [April 1799], BW 1: 315-316; O'Brien to Eaton, 2 Dec. 1799, EA 432, Eaton Papers, HEH. (٢٤)
- (٢٥) من كاتكارت إلى بيكرينغ، في ١٤ أبريل ١٧٩٩، طرابلس الغرب، ٢٣-٢٤، وفي ١٦ أغسطس ١٧٩٩، كاتكارت، طرابلس الغرب، ٦٦-٦٧، من كاتكارت إلى أوبرايان، في ٢٧ أبريل ١٧٩٩، طرابلس الغرب ٢٦-٢٧، من كاتكارت إلى أوبرايان، طرابلس، في ١٣ أبريل ١٧٩٩ BW1:322 وقد أنكر جيديس أنه سمع أوبرايان يعد بشيء BW1:306-312, Cathcart, Journal of Negotiations, 13 Apr. 1799, BW 1:306-312 إنكار أوبرايان للوعد، من أوبرايان إلى جوزيف إينغرام، الجزائر، في ١٢ يوليو ١٧٩٨ BW1:252 وقد نعت إيتون ماكسونوغ بأنه "مارق، وأفاق بالطبع". وبعد ذلك بعامين، أدرك كاتكارت خطأه، فقال إن ماكسونوغ "بطبعه ميال إلى خيانة الثقة المنوط به" وأنه كان "محل احتقار كل قنصل في طرابلس الغرب" إذ أنه كان قد علم، آنذاك، أن ماكسونوغ نفسه هو الذي وضع العقبات في طريق كاتكارت، وكان كاتكارت يدفع له مقابل إزاحتها.
- من إيتون إلى وليم ل. سميث EA 199, 189 من كاتكارت إلى إيتون وأوبرايان، في ٢٣ فبراير ١٨٠١، طرابلس الغرب، ٢٧٩.
- من كاتكارت إلى وزير الخارجية، ليفهورن، في ٤ يونيو ١٨٠١. Ea115, Eaton Papers, HEH. (٢٦)
- Eaton to O'Brien, Tunis, 2 June 1799, on receiving bill from Cathcart, EA 199, 148-149; Eaton to William L. Smith, Tunis, 18 July 1799, EA 199, 180-190, Eaton papers, HEH; Eaton to Secretary of State, 23 June 1800, BW 1: 358. (٢٧)
- Cathcart to Eaton, 9 Nov. 1799, EA 70; Eaton to Cathcart, 25 Nov. 1799, Box 1, File 3, Cathcart Papers, New York Public Library; Eaton to Pickering, 8 Aug. 1799, EA 199, Eaton, HEH; 205, Eaton to Cathcart, 10 Oct. 1799, EA 66, Eaton to O'Brien, 20 July 1799, EA 199, 195, Eaton papers, HEH. (٢٨)
- Cathcart to WE, 27 Aug. 1800, EA 80; O'Brien to WE, Algiers, 13 Dec. 1799, Eaton Papers, HEH, commenting on Cathcart to O'Brien, 20 Aug. and 30 Oct. 1799, in Tripoli, 68-71, 83-87.

O'Brien to Cathcart, 25 July 1800, EA 201, 167-173; O'Brien to Eaton, 30 July (٢٩) 1800, EA 445; Eaton to Cathcart, 1 Oct. 1800, EA 201, 174-175, Eaton Papers, HEH.

Cathcart to Eaton, Tripoli, 22 July 1799, EA 62; Cathcart to Eaton, Tripoli, 27 Oct. (٢٠) 1799, EA 68, Eaton Papers, HEH; Cathcart to Thomas Appleton, Tripoli, 24 Oct. 1799, Tripoli, 79.

Cathcart to Eaton, 5 Nov. 1799, EA 69, Eaton Papers, HEH. (٢١)
Cathcart to Eaton, 6 Feb. 1800, EA 73; Eaton to John Marshal, Tunis, 21 Nov. (٢٢) 1800, EA 201, 223, Eaton Papers, HEH.

Eaton to Secretary of State, Tunis, 21 July 1800, BW 1: 363-364; Eaton to (٢٣) Secretary of State, 6 Mar. 1801, EA 201, 271-273; Pickering to Eaton, 11 Jan. 1800, BW 1: 343-344; Eaton to Cathcart, Tunis, 27 Apr. 1801, eA 201; 301, Eaton Papers, HEH.

O'Brien to Eaton, 24 Sept. 1799, EA 426; Eaton to John Shaw, Tunis, 14 Dec. (٢٤) 1799, EA 201; 1, Eaton Papers, HEH.

The case of Alberganty has been drawn from Samuel Holmes, Protest filed in (٢٥) chancery office, U.S. Consulate, Tunis, 1 June 1800, EA 201, 69-75; Eaton to O'Brien, Tunis, 2 June 1800, EA 201, 78-79; WE to Thomas Appleton, Tunis, 2 June 1800, EA 201, 80; Eaton to Danish consul, 22 June 1800, EA 201, 87; Eaton to Appleton, 27 July 1800, EA 201, 115; Eaton to Appleton, 27 July 1800, EA 201, 116-117; Eaton to Pickering, 1 Aug. 1800, EA 201, 126-127; Eaton to Appleton, 6 Aug. 1800, EA 201, 136; O'Brien to Eaton, Algiers, 14 Aug. 1800, EA 449, Eaton Papers, HEH.

Eaton to O'Brien, Tunis, 26 Aug. 1800, EA 201, 140-143; Eaton to William L. (٢٦) Smith, 13 Nov. 1800, Postscript 25 Nov. 1800, EA 201, 205, Eaton Papers, HEH.

O'Brien to Eaton, Algiers, 21 Oct. 1800, EA 454, Eaton Papers, HEH. (٢٧)

O'Brien to William L. Smith, 28 Aug. [1799], EA 422, Eaton Papers, HEH. (٢٨)
Marshall to O'Brien, 29 July 1800, EA 451; O'Brien to Eaton, Algiers, 13 Aug. (٢٩) 1800, EA 448, Eaton Papers, HEH. On Pickering's fall, see Stephen G. Kurtz, *The presidency of John Adams: The Collapse of Federalism* (Philadelphia, 1957) esp. ch. 17.

O'Brien to Eaton, 7 May 1800, EA 441, Eaton Papers, HEH; O'Brien to Cathcart, (٣٠) 19 Oct. 1800, Box 1, File 4, Cathcart Papers, New York Public Library.

O'Brien to Secretary of State, 20 Sept. 1800, 22 Oct. 1800, BW 1: 317, 389; (٤١)
O'Brien to Cathcart, 21 Oct. 1800, Box 1, File 4, Cathcart Papers, New York
Public Library.

Eaton William L. Smith, 13 Nov. 1800, postscript 25 Nov. 1800, EA 201, 205, (٤٢)
Eaton Papers, HEH; also quoted in Prentiss, *Life*, 190.

Eaton to O'Brien, Tunis, 26 Aug. 1800, EA 201, 140-143; Eaton to Cathcart, 29 (٤٣)
Dec. 1800, EA 201, 245-247, Eaton Papers, HEH.

Wright and MacLeod, *First Americans*, 80-81; O'Brien to Eaton and Cathcart, 20 (٤٤)
May 1801, EA 468; Eaton to Cathcart, 17 Feb. 1801, EA 201, 267, Eaton
Papers, HEH; Cathcart to Secretary of State, Dispatch 9, 16 May 1801, BW 1:
455-460.

Cathcart, Tripoli, 17; Cathcart to Eaton, 6 Feb. 1800, EA 73; O'Brien to Eaton, (٤٥)
Algiers, 17 Feb. 1801, EA 460, Eaton Papers, HEH.

O'Brien to Eaton, Algiers, [22 Feb Feb. 1801], EA 463; Eaton to Cathcart, Tunis, (٤٦)
27 Apr. 1801, EA 201, 301; Cathcart to Eaton, 15 Mar. 1801, EA 102; O'Brien to
Eaton, 29 Sept. 1800, EA 452; WE to JLC, 25 Feb. 1801, EA 201, 267; Eaton to
William L. Smith, 21 May. 1801, EA 201, 310, Eaton Papers, HEH. On the
election of 1800, see especially Page smith, *John Adams* (2 vols., New York,
1962), 2: 1046-1048, and Merrill Peterson, *Thomas Jefferson and the New
Nation* (New York, 1970), 634-651.

Abedin, "In Defense Of Freedom," 180-181; O'Brien to Cathcart, Algiers, 13 Apr., (٤٧)
1801, EA 465, Eaton Papers, HEH.

Cathcart to W. England, Tripoli, 14 Apr. 1801, Cathcart, Tripoli, 313-314. (٤٨)
This account of the war's outbreak follows Cathcart to Secretary of State, 16 (٤٩)
May 1801, BW 1: 455-460. See also Cathcart to Eaton, 13 May 1801, EA 113,
Eaton Papers, HEH.

O'Brien to Cathcart, [Algiers], 13 May [1801], EA 466, Eaton Papers, HEH. (٥٠)

Nicolai C. Nissen to Eaton, Tripoli, 28 May 1801, EA 379, Eaton Papers, HEH. (٥١)
Cathcart to Eaton, Lazeretto of Leghorn, 13 June 1801, EA 118; Cathcart to Eaton, (٥٢)
Leghorn, 15 June 1801, EA 119, Eaton Papers, HEH. See also a somewhat
different version in Box 1, File 4, Cathcart Papers, New York Public Library;
Cathcart to Eaton, Leghorn, 19 June 1801, EA 121, Eaton Papers, HEH.

Cathcart to Eaton, Leghorn, 5 May 1802, EA 147; W.Y. Purviance for Degen and (٥٣)
Purviance to WE, Leghorn, 3 Aug. 1802, EA 196; Cathcart to Eaton, Leghorn, 10
Dec. 1804, EA 156, Eaton Papers, HEH.

O'Brien to Eaton, 1 June 1801, 2 Aug. 1801, EA 470, 473, Eaton Papers, HEH. (๑๔)
Cathcart, "Passa Tiempos," Plans for Country Seat, Box 4, Cathcart Papers, (๑๑)
Cathcart to Charles W. Cathcart, 19 Aug. 1843, Box 3, File 60, Cathcart Papers,
New York Public Library. See also Mella Menni to James Madison, 25 Aug. 1806,
U.S. Department of State, Notes from Tunisian Legation, 1805- 1806; Louis B.
Wright and Julia H. MacLeod, "Mellimelli," *Virginia Quarterly Review* (1944); and
Walter Prichard, Fred B. Kniffen, and Clair A. Brown eds., "Southern Louisiana
and Southern Alabama in 1819: The Journal of James Leander Cathcart,"
Louisiana Historical Quarterly (1945).

هوامش الفصل الثامن

Irving's "Jonathan Oldstyle" review, New York Morning Chronicle, quoted in (١)
William Dunlap, History of the American Theater (New York, 1832), 301-302.

Joseph Hanson, The Musselmen Humbled; or a Heroic Poem in Celebration (٢)
of the Bravery Displayed by the American Tars, in the Contest with Tripoli
(New York, 1806), 7-9, 3.

D.Elsworth, "National Felicity," Philadelphia Aurora, 15 May 1804. (٣)

William Ray, "Ode to Liberty," Philadelphia Aurora, 15 Oct. 1805; Nelson quoted (٤)
in Irwin, United States and the Barbary Powers, 135.

New York Evening Post, 19 May 1804; Post quoted in Philadelphia Aurora, 21 (٥)
May 1804.

New York Evening Post, 21 May, 5 June, 28 May 1804; song 15 Mar. 1806. (٦)

Philadelphia Aurora, 6 Jan. 1806. (٧)

Philadelphia Aurora, 10 July, 9 July, 7 July 1804. (٨)

Philadelphia Aurora, 4 July, 7 July 1804. (٩)

Hanson, The Musselmen Humbled, 4-5; Pius VII quoted in Eaton to Colonel (١٠)
Timothy Dwight, Malta, 20 Sept. 1804, printed in New York Evening Post, 12 Jan.
1805, also in BW 5:52.

Philadelphia Aurora, 13 Mar. 1806. Accounts of the Interpid drawn from John (١١)
Darby, journal, 3 Sept. 1804, BW 4: 506; Nathaniel Haraden, sailing master,
U.S.S. Constitution log, 4 Sept. 1804, BW 4: 506-507; Richard O'Brien to John
Gavino, Malta, 5 Sept. 1804, BW 4: 516-517.

New York Evening, 11 Jan. 1805, reprinted from the Philadelphia Aurora. (١٢)

Robert Ker Porter's "Battle of Alexandria," New York Evening Post, 22 Aug. (١٣)
1804; Philadelphia Aurora, 21 Dec. 1804; Holland's "Tars in Tripoli," Philadelphia
Aurora, 27 Mar. 1805; Ray, "The American Captive in Tripoli," The Portfolio
(Philadelphia), 6 Oct. 1804.

Philadelphia Aurora, 30 May 1808; "Tars from Triopli," New York Evening Post, (١٤)
28 Feb. 1806.

"An American," New York Evening Post, 25 Oct. 21 Nov. 1804, 12 Jan. 1805; (١٥)
see Philadelphia Aurora, 4 Oct. 1805, referring to Political Register, 2 Aug. 1805;
Eaton, Notes on a Speech or Letter, [1804-1809?], EA 261-266, Eaton Papers,
HEH.

Philadelphia Aurora, 9, 10 Jan. 1806. I am indebted to Paul V. Burke, U.S. (١٦)
Marine Corps, for information on the significance of the Mameluke's sword.

Philadelphia Aurora, 17 Oct. 1805, from Richmond Enquirer. On Yusuf Pacha's (١٧)
reign, see Folayan, Tripoli During the Reign of Yusuf Pasha Qaramanli.

William Bainbridge to George Davis, Tripoli, 22 Nov. 1804, BW 5: 155-156. (١٨)

New York Post, 24 Mar 1806. (١٩)

(٢٠) آدامز، في أول أبريل ١٨٠٦، بنتون، مناقشات في الكونغرس ٢:٢٧٤ صوت الكونغرس لصالح تقديم راتب
قدره ٢٤٠٠ دولار إلى أحمد، وكان قرار التخصيص في ٢١ أبريل ١٨٠٦ (من دايسون إلى تشارلز
وغولدزبورو، في ١١ نوفمبر ١٨٠٧ BW 6:577 من وزير البحرية إلى د. توماس في ١٦ نوفمبر ١٨٠٧
BW6:579-580.

Eaton quoted in Plumer, Memorandum, 468; Plumer, Memorandum, 496-497; (٢١)
Jefferson quoted in Plumer, Memorandum, 468; Eaton to Preble, 21 Mar. 1806,
BW 6: 398.

Louis B. Wright and Julia H. MacLeod, "William Eaton's Relations with Aaron Burr," (٢٢)
Mississippi Valley Historical Review 13 (March 1945), 523-536, quote on 526; J.
Parton, The Life and Times of Aaron Burr (New York, 1860), 491.

Robert Treat Paine, "Ode, Written and Sung for General Eaton Fire Society, (٢٣)
January 14, 1808," Works, in Verse and Prose, of the Late Robert Treat Paine,
jun., Esq. (Boston 1812), 283-285.

Quoted in E. Shippen, "A Forgotten General," The United Service, vol. 5, no. 1 (٢٤)
(July 1881). 1:Philadelphia Aurora, 19 Oct. 1805.

James Ellison, The American Captive, or Siege of Tripoli (Boston, 1812), 35. (٢٥)

Ellison, American Captive, 12, 9. (٢٦)

Ellison, American Captive, 24-25. (٢٧)

Ellison, American, 20-21. (٢٨)

Ellison, American Captive, 18-19, 37-38. (٢٩)

Ellison, American Captive, 51, 34 (٣٠)

Ode to Thorn, New York Evening Post, 15 Mar. 1806. (٣١)

New York Evening Post, 9 Jan. 1806; also in the Boston Independent Chronicle, (٣٢)
30 Dec. 1805.

هوامش الفصل التاسع

Secretary of the Navy Robert Smith to James Barron, 15 May 1807, BW 6: (١)
523-524; Smith to Barron, 30 Apr. 1807, BW 6:519.

See Philadelphia Aurora, 7, 11, 13, 18 July 1807. (٢)

James Riley, *An Authentic Narrative of the Loss of the American Brig Commerce* (٢)
(Hartford, Conn., 1833), 15-16.

Riley, *Narrative* (Hartford, Conn., 1817), 257-258, 259. (٤)

Archibald Robbins, *A Journal Comprising an Account of the Loss of the Brig Commerce* (Hartford, Conn., 1818).

[Jared Sparks], "Review of Riley's Narrative," *North American Review* 5 (1817), (٦)
390-391.

صارت سرديّة رايلي من أروج الكتب، على مستوى دولي، ففي ١٨١٧ ظهرت في هارتفورد، نيويورك، وفي لندن، وفي العام التالي ظهرت ترجمة إلى الفرنسية والألمانية، وفي طبعة باريسية باللغة الإنكليزية وفي طبعة ثانية في نيويورك. وقد ذهب رايلي إلى أوهايو في ١٩١٨ وأخذ مخطوطته معه. وقد ظهرت في تشيليكوث، أوهايو، في ١٨٢٠، وفي ليكسنغتون، كنتاكي، في ١٨٢٣. وبين ١٨٢٨ و ١٨٥١ كانت تنشر مرة كل عامين، في هارتفورد. وفي ١٨٢٩ و ١٨٥٩ أعيد نشرها في نيويورك، ونشرت مختارات منها في ١٨٧٦ تحت عنوان "مارآه وما فعله في إفريقيا". ونشر "ملحق لسردية رايلي" في كولومبوس، أوهايو، في ١٨٥١، بعد وفاة المؤلف. ونشر غوردون هـ. إيفانز الفصول الستة والعشرين الأولى من "السردية باعتبارها معاناة في إفريقيا" (نيويورك: كلاركسون ن. بوتر، ١٩٦٥).

Sequel to Riley's Narrative, 387; Henry David Thoreau, *Cape Cod* (2 vols., (٧)
Boston and New York, 1904, [1864]), II: 102.

Riley, *Narrative* (Hartford, Conn., 1833), 260-261. (٨)

Riley, *Narrative* (Hartford, Conn., 1817), 294, 454. (٩)

Riley, *Narrative* (Hartford, Conn., 1817), 447, 446. (١٠)

Sequel to Riley's Narrative, 384. (١١)

R. Gerald McMurtry, "The Influence of Riley's Narrative Upon Abraham Lincoln," (١٢)
Indiana Magazine of History 30 (June 1934), 134.

المؤلف فى سطور :

روبرت جى آيسون

- رئيس قسم التاريخ وأمين الأرشيف ومدير الدراسات الأمريكية فى
جامعة سافوك.

المترجم فى سطور :

أسامة الغزولى

- عمل مترجماً للغة الروسية بالقوات الجوية من يناير ١٩٦٩ إلى مارس ١٩٧٣.
- عمل محرراً مترجماً بجريدة الجمهورية القاهرية.
- وبمجلة الوطن العربى فى باريس.
- وبجريدة الشرق الأوسط فى لندن.
- عمل مترجماً مع المنظمة البرية الدولية ومنظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة وبرنامج الأغذية العالمى والصندوق الدولى للتنمية الزراعية.

وترجم إلى العربية :

- السينما والأيدولوجية وشباك التذاكر، وكاراجانوت، واعترافات قناع (رواية) يوكيو ميشيما.

التصحيح اللغوى: سماح حيدة
الإشراف الفنى: حسن كامل



The Crescent Obscured

*The United States and the Muslim World
the legacy of the barbary wars*

ROBERT J. ALLISON

من بدايات الحقبة الاستعمارية حتى الصراعات الراهنة فى الشرق الأوسط ساعد الاتصال العام للمسلمين الأمريكين على تحديد هوية وهدف لوطنهم، وبتركيز على الكتابات الأمريكية عن الحروب مع دول البربر فى الشمال الإفريقى من ١٧٧٦ إلى ١٨١٥، يتتبع روبرت أليسون المفاهيم والتصورات المغلوطة عن الإسلام فى العقل الأمريكى.

إن تقرير أليسون النافذ والحافل بالمعلومات عن المواجهات التى خاضتها الجمهورية الوليدة مع العالم المسلم هو كشف ملهم له مغزى خاص بالنسبة للمشهد الدولى اليوم.

ريتشارد بولييت

مجلة العلوم التاريخية

Bibliotheca Alexandrina



0942747